الاستراتيجيّة
وتاريخها في العالم

تأليف : ج . ل . ليدل هارت
ترجمة : الهيثم الأيّوبي



طبعة رابعة
دار الطليعة - بيروت

لتحميل أنواع الكتب راجع: (**مُنْتَدى إقْرَأ الثَقافِي**)

براي دانلود كتابهای مختلف مراجعه: (**منتدى اقرأ الثقافي**)

بۆدابەزاندنی جۆرەها کتێب:سەردانی: (**مُنْتَدى إقْرَأ الثَقافِي**)

www. iqra.ahlamontada.com



الاستراتيجية

وتاريخها في العالم



ب . هـ . ليدل هارت

الاستراتيجية
وتاريخها في العالم

تقديم : اكرم عزة ديري

ترجمة : الهيثم الأيوبي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

بيروت - ص.ب ١١١٨١٣

الطبعة الأولى
شباط (فبراير) ١٩٦٧
الطبعة الثانية
شباط (فبراير) ١٩٧٨
الطبعة الثالثة
نيسان (إبريل) ١٩٧٩
الطبعة الرابعة
تموز (يوليو) ٢٠٠٠

مقدمة المعرب

يحتل العالم العربي مركزا استراتيجيا ممتازا يعرفه ويشعر باهميته كل من درس التاريخ القديم والحديث . وتشكل قواه البشرية والاقتصادية قوة استراتيجية لا يستهان بها في السياسة العالمية، سواء اكان ذلك في زمن السلم ام كان في زمن الحرب بنوعيها الباردة والساخنة . وتتمثل هذه القوة وتبلغ ذروتها في وحدة العرب جميعا من الخليج الى المحيط ، لان هذه الوحدة قادرة على خلق قوة فكرية وبشرية واقتصادية عارمة متكاملة تفرض وجودها على الصعيد العالمي في سبيل السلم والتقدم ورفاهية الشعوب .

ولقد جهل بعض زعماء ورؤساء العرب هذه الحقيقة الواقعة او تجاهلوها ، فلم يروا نور الشمس الساطعة ، فتقوقعوا داخل حدودهم المصطنعة التي رسمها لهم المستعمرون ، وابتعدوا عن ركب العروبة السائر نحو الوحدة ، المتطلع للعلياء والقوة . بينما عرف القادة المخلصون في الجمهورية العربية المتحدة وعلى راسهم الرئيس جمال عبد الناصر ، كما عرف الزعماء المخلصون في العالم العربي هذه الحقيقة بكل خفاياها ، فانطلقوا وهم على مستوى المعرفة والرسالة يحاربون الاستعمار والقواعد والاحلاف العسكرية في كل مكان ، ويدعون الى الوحدة العربية الكبرى والى استخدام القوى البترولية العربية في الصرع ضد كل انواع الاستعمار . وتحققت وحدة مصر وسورية ، وظهرت الاهمية الاستراتيجية لهذه الوحدة وخطرها على الاستعمار من الهجوم المسعور الذي شنه المستعمرون واعوانهم عليها منذ ايامها الاولى ، ومن تهليلهم وفرحهم وتأييدهم للحركة الانفصالية في اي جزء من اجزاء الوطن ، سواء اكان ذلك في سورية ام كان في العراق ام السودان . ثم تحركت القوات العربية رغم نكسة الانفصال وانطلقت من

مصر بحرا وجوا لتدعم ثورة اليمن وتحمي حدود الجزائر وتؤيد نضال الشعب في الجنوب المحتل وفي كل منطقة ثائرة تطالب بحريتها الكاملة .

ولقد دللت كل هذه التحركات على الابعاد الاستراتيجية للمعركة التي يخوضها العرب اليوم ضد الاستعمار والصهيونية وعملائهما الظاهرين والمستترين. ولقد رأيت في غمرة هذه الاحداث ان أترجم لقراء العربية من عسكريين ومدنيين هذا الكتاب عن تاريخ الاستراتيجية ، لعله يكشف عن جزء من تاريخ هذا الفن الهام ، ويلقي الاضواء التي تساعد على فهم بعض أوجه السياسة العربية المعاصرة عامة ، وسياسة الرئيس جمال عبد الناصر الخارجية خاصة ، تلك السياسة التي لا يستطيع فهم مداها وإدراك نتائجها البعيدة الهامة وسبر أغوارها العميقة الا من درس بعمق ودقة أسرار الاستراتيجية والاستراتيجية العليا .

وانني لأشكر السيد اكرم عزة ديري الذي وجهني وشجعني على ترجمة هذا المرجع التاريخي الهام ، ثم تفضل بعد ذلك وراجع الترجمة ، ووضع للكتاب مقدمة تسد النقص الذي وقع فيه مؤلف الكتاب عندما لم يتعرض لشرح الامثلة الاستراتيجية الرائعة التي قدمها العرب في تاريخهم المجيد ، وعندما أسقط من كتابه أسماء أبطال العرب الخالدين فجاءت هذه المقدمة درسا بليغا استمده السيد اكرم عزة ديري من تاريخنا العريق ، ومن خبرته التكتيكية العملية التي تشبع بها في ميدان القتال عندما كان ضابطا في حرب فلسطين ، ومن معلوماته الاستراتيجية ، واطلاعاته العامة الواسعة التي اكتسبها خلال عمله كرئيس لشعبة العمليات في هيئة أركان حرب الجيش الاول اثناء عهد الوحدة ، ثم عمله كوزير لاقتصاد الاقليم الشمالي في وزارة الوحدة . ولقد جاءت مقدمته دعوة لكل المفكرين العرب كي يبحثوا في تاريخنا ويجمعوا الوقائع الهامة تكتيكيا واستراتيجيا حتى يخرجوا للعالم بصورة صادقة لوجه من أوجه حضارتنا الخالدة.

انني أقدم هذا الكتاب الى كل قائد وزعيم حر ، والى الجيل الجديد من قادة المستقبل ، علهم يجدون فيه نافذة تطل على تاريخ الاستراتيجية . والله ولي التوفيق .

الهيثم الأيوبي

تقــديم

هذا الكتاب الذي يقدمه اليوم معربا للقراء العرب السيد الهيثم الأيوبي ، وتهم معلوماته بصورة خاصة **العسكريين والسياسيين** ، وبصورة عامة **المثقفين** في البلاد العربية هو من اهم الكتب التي الفها الخبير العسكري المشهور ليدل هارت.

ويتضمن الكتاب في مجموعه تحليلا للمعارك الحاسمة في التاريخ ابتداء مــن الحروب اليونانية الى الحرب العالمية ونتائجها ، وذلك على الصعيدين العسكري والسياسي . ولا يكتفي بسرد الوقائع وشرح المعارك بل يتعدى ذلك الى استنتاج الدروس المستفادة من هذه المعارك في حقل الاستراتيجية والاستراتيجية العليا. وكتابه مكمل لعديد من المؤلفات التي كتبها سابقا واكد فيها اهمية الاستراتيجية غير المباشرة او ما يسمى باستراتيجية الهجوم غير المباشر ، وهي بالتأكيد افضل استراتيجية لانتزاع النصر الحاسم .

يبدأ هذا الكتاب بتحليل الحروب اليونانية ويشرح معارك هانيبال قائــــد قرطاجنة وكيف غزا ايطاليا (٢١٨ ق.م) عبر قمم الالب . لقد اختار هانيبال طريقا صعبا وعرا طويلا ؛ وهو يقود جيشا من الفيلة ، وكان من المنتظر ان يختار طريقا سهلا وقصيرا الا انه باتباعه المسلك الوعر ، الصعب ، المليء بالحواجز استطاع ان يحقق لجيشه ولحركته ميزات حركة برية غير مباشرة . ومــن المعروف ان العسكريين يختارون دائما المعلوم لا المجهول الا ان هانيبال كان يختار دائمــا الطرق غير المألوفة في حركاته ، وفي قتاله ، مما كان يسمح له بمفاجأة خصمه ونحقيق انتصار حاسم في معركة استراتيجية غير مباشرة . فأمن المفاجأة .

وفي ايطاليا نفسها اختار هانيبال طريقا عبر المستنقعات وابتعد عن الطــرق البرية العادية المألوفة التي يعرفها العدو معرفة جيدة ، وبهذا السلوك غير المنتظر

جرّ خصمه الى ارض انتقاها بنفسه فانتصر على خصمه القنصل الروماني فلامينوس نيبوس وقتله في موقعة ترازيمان (٢١٧ ق.م) . وتعتبر حركته ضد فلامينوس من ابرع المناورات على مؤخرات العدو . ثم ينتقل المؤلف الى سرد الصراع بين رجلين استراتيجيين ؛ هما هانيبال وفابيوس ماكسيموس ، وهو صراع بين استراتيجيتين في الهجوم غير المباشر ، اذ كان هانيبال يناور خصمه ويأتيه من حيث لا يتوقع ، وفابيوس يتمهل هانيبال ويماطله ويعرقل تقدمه دون ان يلاقيه .

ومن خلال هذا العرض الشيق والتحليل الرائع يتبين ان هناك نوعين من الهجوم الاستراتيجي غير المباشر : نوع مادي يستهدف القوات المعادية ونوع معنوي يوجه الى مركز تفكير هذه القوات وجهازها العصبي .

والطريقة الاولى هي الطريقة التي طبقها الاسكندر المقدوني في معاركه المتعددة ، اذ كان يثير التوتر النفسي في صفوف العدو دون ان يحاول إفناءه ، مما يدفع قياداته الى اتخاذ قرارات يستطيع استغلالها لصالحه . ثم يستعرض المؤلف الحروب البيزنطية ، ويركز بشكل خاص على بيليزير الذي هزم الفرس في معركة داراس ، وكانت اول هزيمة للفرس امام البيزنطيين . لقد انتصر بيليزير لانه استغل النقطة الضعيفة الواقعة بين قلب الفرس وجناحهم . وذلك عندما تقدمت الخيالة الفارسية على الجناح الايمن للبيزنطيين وبقي قلب القوات الفارسية ثابتا ، فاستغل بليزير نقطة الضعف هذه وقام بهجوم معاكس على نقطة التمفصل الضعيفة في هذا الترتيب الهجومي ويعتبر هذا العمل اليوم من أحدث تعاليم فن الحرب .

واني اذكر كيف استخدمت اسرائيل هذا التكتيك في هجومها على «ترشيحا» ضد جيش الانقاذ اثناء مهاجمة الجليل في عام ١٩٤٨ بعد هجومها على الجيش المصري وحصار الفالوجة ، وكنت آنئذ قائدا للسرية الثانية في فوج إجنادين الذي كان يدافع عن ترشيحا ومعليا وقرية ينوح ؛ فقد هوجمت سريتي من مجنبتها وفي اتجاه الحدود الفاصلة بين سريتي والسرايا المجاورة . وكان ذلك في ليلة ٢٧ ـ ١٩٤٨/١٠/٢٨ بعد قصف هائل بالمدفعية وقنابل الطائرات . وليس هذا مجال بحث هذه المعركة من الناحية العسكرية وتحليلها لان قيادة الهجوم الصهيوني ارتكبت اخطاء كثيرة مكنتنا من معرفة غرض هذه الحركة غير المباشرة ، فاتخذنا كل الاحتياطات لمجابهتها ، وتمكنّا من ايقاف الهجوم وإيقاعه في عدة كمائن ليلية ، الا ان المهم من هذه الحادثة هو اننا ادركنا في ذلك الوقت هدف هذه الحركة غير المباشرة ، واحبطناها ، ولم يستطع الجيش الاسرائيلي اختراق منطقة الجليل من ذلك القطاع . الا انه تمكن من القيام بحركة غير مباشرة ضد الفوج المدافع عن الجش والصفصاف مقابل صفد فحقق هدفه الاستراتيجي في تهديد منطقة الجليل بأكملها .

والواقع ان الهجوم على الجليل كان يشكل في حد ذاته هجوما استراتيجيا

غير مباشر محور جهده الرئيسي كان يتجه من صفد باتجاه سعسع هذه القرية التي تشكل مفترق طرق حيوي ، ونقطة استراتيجية حساسة تصب فيها كل الطرق والمحاور الآتية من الحدود اللبنانية ومن داخل الارض الفلسطينية . وباحتلال هذه القرية تصبح كل قوى الانقاذ داخل فلسطين محاصرة ومحرومة من طريق المواصلات الرئيسي الآتي من الرامة الى سحماتا ــ سعسع ــ بنت جبيل (في لبنان) .

كما ان اسرائيل بالاضافة الى تصميمها الاستراتيجي استخدمت مدرعاتها في المنطقة على محور صفد ــ ميرون ، في منطقة مليئة بالالغام ويصعب فيها استخدام المدرعات فجاءتنا من منطقة غير متوقعة .

نعود الى بيليزير الذي استمر في ابتكار مبادىء هامة في فن الحرب ، ففي احدى المعارك ضد الفرس انسحب الفرس أمامه الا انه لم يتابع الانقضاض على عدوه ولم يحطم قواته . وفي هذا العمل العسكري الرائع أبرز بيليزير مبدأ استراتيجيا هاما وهو المبدأ التالي : «لماذا نصر بعناد على متابعة عدو منسحب ؟» «ان اغلاق السبل أمام عدو منسحب قد يؤدي الى اعطائه شجاعة اليائس لانقاذ حياته » .

وفي قرطاجة قام بيليزير بهجوم إثارة و«تمثيل انسحاب» الا انه لم يفلح في جذب العدو الى مطاردته عبر النهر طبقا للخطة التي وضعها . فقرر الافادة من حذر خصمه ، فدفع الى الضفة المقابلة للنهر بقوات اكبر وقام بهجوم مشاغلة على قلب القوى المعادية ، فجذب انتباه الفاندال وقام بعد ذلك بالهجوم على طول جبهتهم . فانهارت مقاومة الفاندال فجأة وانسحبوا والتجأوا الى معسكراتهم وتفرق جيش جيليمير بعد انسحابه .

ومن خلال التحليل المستمر لهذه المعارك الحاسمة يتبين ان الهجوم غير المباشر يتمثل في الامور التالية :

١ ــ احتلال موضع يهدد مجنبة الخصم ماديا ويؤثر عليه معنويا .
٢ ــ اجتياز الحصون والالتفاف حولها وعدم الاشتباك معها .
٣ ــ الاعتماد على المعطيات النفسية اكثر من الاعتماد على العوامل الادارية .
٤ ــ عند مهاجمة العدو وخلق ثغرة في نقطة تمفصل حساسة في ترتيبه الهجومي او الدفاعي بغية تفتيته وتجزئة قواه وعزلها عن بعضها .

ويعترف ليدل هارت بأن بقاء الامبراطورية البيزنطية وصمودها عدة قرون مدين لهذه المبادىء التي طبقتها جيوشها ...

ثم ينتقل المؤلف الى حروب القرون الوسطى مبتدئا بدوغيبكلان الذي كان يقاتل وفق المبدأ التالي «لا هجوم بدون مفاجأة» . ثم يقيّم معارك هنري الخامس ويعزو سبب نجاحها الى تعلق هنري الخامس بمبادىء الاستراتيجية العليا . وفي الواقع لم تزدهر الاستراتيجية في هذه القرون في الغرب ، بعكس الشرق الذي قدم أمثلة رائعة للاستراتيجية ، ويضرب لذلك مثلا على حركات جنكيزخان وقادته التي تميزت بسمة المناورة والمفاجأة والهجوم غير المباشر الاستراتيجي والتكتيكي.

وفي القرن السابع عشر لم تكن المعارك حاسمة الا ان اهمها كانت المعركة النهائية بين غوستاف ادولف وفالنشتاين ، وقد تم الحصول فيها على النصر بصورة غير مباشرة .

وعندما ينتقل المؤلف الى كروموبل تظهر من خلال التحليل استراتيجيته في الهجوم غير المباشر وقتاله على مؤخرات العدو وقلب ميزان القوى لصالحه رغم قلة امكانياته . وقد استطاع كروموبل الانتصار على خصمه ليسلي مستغلا الظروف الجوية السيئة في ليل ممطر ، رياحه هادرة مخيفة ، مستغلا هجوما غير مباشر تكتيكي ، فدمر جيشا اكبر من جيشه . ان القتال على مؤخرات العدو ومهاجمة خطوط مواصلاته ومراكز قياداته ونقاط تموينه ببعض نتائج حاسمة للمعركة . كما ان القتال الليلي واستغلال الظروف الجوية السيئة يطبع المعركة بطابع المفاجاة .

ثم يتحدث المؤلف عن معركة تورين ، وهي معركة حاسمة فريدة في القرن السابع عشر ، تم فيها تدمير العدو تدميرا كاملا خلافا لكل معارك هذا القرن ، لانه اعتمد فيها على استراتيجية الهجوم غير المباشر وعلى الحساب الدقيق للعملية ، وكان هدف المهاجم تدمير خصمه معنويا ونفسيا وفكريا واداريا قبل ان يبدا المعركة .

ثم ينتقل المؤلف الى تحليل المعارك الحاسمة في القرن الثامن عشر ، الى معارك مارلبورو وفريدريك الثاني ، ويركز بصورة خاصة على حركة مارلبورو عند انتقاله من الموز الى الدانوب بوحدته الانكليزية لضرب البافاريين ، فحركة الانتقال واسعة بعيدة عن قاعدته الانكليزية ، كما انها كانت بعدة أرتال تهدد عدة اهداف في آن واحد في كل مرحلة من مراحلها ، مما منع العدو من اكتشاف هدفه الحقيقي .

وفي شرحه لمعارك فريدريك تبرز اهمية محافظة كل قيادة على قيمتها المعنوية واهمية هذه القيمة بالنسبة للقيم المادية . لقد كان فريدريك يعيش وسط جيشه ويحاول دائما ملاءمة وسائطه مع هدفه العسكري . وكان يتمتع بموضع متوسط بين اعدائه ، ويتمتع بجيش متفوق «تكتيكيا» الامر الذي اتاح له فرصة توجيه قواته من المركز الى محيط الدائرة وعلى مسافات قصيرة ليضرب جيش احد خصومه ؛ ثم يعود قبل ان يستطيع حلفاء العدو دعم حليفهم . وهذا ما يسمى بالحركة على الخطوط الداخلية ، هجوم غير مباشر بالنسبة لمجموع قوى الخصوم ، وهجوم مباشر على احد الجيوش الذي اختير كهدف . ومن الممكن الهجوم على هذا الجيش نفسه بحركة غير مباشرة .

ولقد اتسمت حركات فريدريك العسكرية بالمفاجاة ، الا انها كانت تنقصها الحركة ، ولم تكن تصمد لمناوراته وحركاته الا الجيوش التي كانت تعدل فجاة ترتيبها الدفاعي كي تجبره على مهاجمتها بوضع جبهي ، فيحاول هو بدوره الالتفاف على هذه الجبهة من موقع لا يتوقعه خصمه . الا انه لم يوفق بين

الحركة والمفاجأة ، وكان هجومه ينقلب في بعض الاحيان الى مناورة التفاف قصيرة مما افقده كثيرا من ميزاته .

وعند الحديث عن الخطوط الداخلية التي برع فيها فريدريك لا استطيع ان امسك نفسي عن الاشارة الى ان موقع اسرائيل في فلسطين المحتلة يشكل موضعا وسطا بالنسبة للجيوش العربية . والمسافة التي تفصل تجمعات هذا الجيش عن الحدود العربية وعن بعض المراكز الرئيسية الهامة في بعض البلدان العربية مسافة قصيرة ، وعن طريق بعض البلدان العربية يستطيع الجيش الاسرائيلي تحقيق استراتيجية الهجوم غير المباشر بالنسبة لبلد عربي آخر . وبذلك يستطيع تحاشي مواضعها الدفاعية وحصونها الثابتة . فمن طريق الاردن او لبنان تتاح لاسرائيل عمليات من هذا النوع ويتاح لجيشها الالتفاف حول الجبهات الرئيسية.

ان من واجبنا بالاضافة الى مهمة الاعداد للعودة الى فلسطين تحقيق درع يقي هذه الحدود ، ويقتضي ذلك ان نحسب بدقة امكانية ضرب اي جيش عربي قبل ان يتدخل الجيش العربي الآخر . وكذلك فان واجبنا يحتم علينا اعداد العدة لمجابهة كل مناورات الالتفاف الاستراتيجية التي يمكن ان تحدث على حدود سوريا او الاردن او على حدود سيناء . واول درس يقفز امامنا من هذه الدراسة هو ان الوحدة العربية ، علاوة على انها مطلب قومي شعبي وجماهيري ينبع من حاجات الامة العربية وتفرضه ارتباطات الماضي والحاضر والمستقبل ، فانها ضرورة استراتيجية للأمة العربية ، وكل من يعمل للانفصال وتكريسه في اي جزء من الوطن العربي يعمل ضد اماني بلده وضد أمته وآمالها ، وتوحيد الجيوش وايجاد قيادة واحدة قادرة على تحريكها في جميع الجبهات في آن واحد دون عقد او مناورات جانبية هو واجب قومي ووطني . وهنالك حقيقة اساسية وهي ان جيوش الدول العربية البعيدة عن حدود فلسطين ليس لها اية قيمة استراتيجية اذا لم تقترب من ساحات العمليات لتشكل قوة استراتيجية رادعة لها وزنها في المعركة .

واعود الى كتاب ليدل هارت فأجد ان المؤلف ينتقل بعد ذلك الى الثورة الفرنسية ونابليون بونابرت ، هذا القائد العسكري الجديد الذي استقى من جيبير الخبير العسكري المعروف المرونة والحركة كعاملين اساسيين في كل معركة ، واستقى منه ايضا فكرة تهديد مؤخرات العدو بصورة دائمة ، وفكرة تركيز نيران المدفعية في نقطة حساسة من جبهة العدو لفتح ثغرة فيها . ولا تعني فكرة نابليون بالتركيز على نقطة واحدة انتقاء الموضع الاقوى من جبهة العدو ، بل تعني اخلال التوازن الدفاعي لدى العدو والهجوم على «نقطة تمفصل» حيوية وحساسة وضعيفة في آن واحد .

ونرى من سياق المعارك التي خاضها نابليون ان اهم فكرة ادخلها على الاستراتيجية غير المباشرة هي فكرة «السد الاستراتيجي» الذي اقامه خلف الجيش النمساوي في منطقة حصينة في ايطاليا بعد ان التف على مؤخرته .

ثم ينتقل المؤلف الى حرب القرم ليشرح نتائجها . ثم الى الحرب الاهلية

الامريكية وكيف غدت الجيوش ابان هذه الحـــــرب وبعدها مرتبطة بالسكـــك الحديدية . ثم تطورت الاستراتيجية لان السكك الحديدية مهددة دائما ، وكان لا بد للقادة من ان يستقلوا عن خطوط مواصلاتهم الثابتة ويتحرروا منها كـــي يحصلوا دائما على امكانية المناورة الاستراتيجية .

ثم يشرح المؤلف معارك مولتكه في عامي ١٨٦٦ و١٨٧٠ الى ان يصل الـــى الحرب الروسية اليابانية . ويؤكد عند شرحه لهذه الحرب ان الهجوم المباشر يبقى غير حاسم مهما كانت الحجج التي تدافع عن فائدة استخدام مثل هذا الهجوم في حالات معينة . وقد برهنت كل هذه الدراسات على ان كل قائد كبير كـــان يترك الهجوم المباشر الى الهجوم غير المباشر حتى لو اضطره ذلك الى اجتيـــاز الجبال او الصحارى او المستنقعات والبعد عن قواعده او خطوط مواصلاته ، كما برهنت على ان كل قائد يستخدم الاستراتيجية غير المباشرة تكون معركته حاسمة وبشكل خاص عندما يقرر مجابهة الظروف القاسية .

وفي الحرب العالمية الاولى ثبت عقم الاستراتيجية التي تعتمد على الهجوم المباشر . ولعل اهم ما في هذه الحرب الثورة العربية التي نشبت في الجزيرة العربية لمساعدة الحلفاء بقصد التخلص من النير العثماني ، على ان يفي الحلفاء بوعودهم في تحقيق استقلال بلاد العرب . لقد كانت هذه الثورة صورة صادقة للهجوم غير المباشر ، القليل التكاليف ، ذي النتائج الحاسمة . وكـان الجيش العربي يقوم بأعمال العصابات على خطوط مواصلات الاتراك ومراكز تموينهم .

وكذلك اثبتت الحرب العالمية الاولى ان الهجوم المباشر المدعوم بتفوق ساحق بالمدفعية ضد عدو ضعيف المعنويات قد يحقق اختراق مواقع العدو الا انه غـــير قادر في غالب الاحيان على تدميره .

كما اثبتت الحرب العالمية الاولى صحة درس قديم وهـــو ان **هدف الحرب الحقيقي هو روح قادة الاعداء لا أجساد جنودهم** . فقد استسلمت المانيا وحلفاؤها في نهاية هذه الحرب عندما انهارت قيادتها . وعجزت عن صد حركة استراتيجية متوقعة بالرغم من ان قواتها لا تزال سليمة .

وفي الحرب العالمية الثانية وسع هتلر استراتيجية الهجوم غير المباشر قبـل الحرب واثناءها . واعطاها ابعادا جديدة على الصعيدين النفسي والاداري ، وفي المجالين العسكري والمدني . فقد استخدم هتلر اسلحة فكرية استهدفت تدمـــير العدو من الداخل والانتصار عليه باستخدام امكانياته . وكل العمليات التي قام بها هتلر في الفترة بين ١٩٣٣ و١٩٣٩ كانت مناورات على مستوى الاستراتيجية العليا ، ولم تسفك فيها الدماء . وقد احتل فيها وضعا افضل من وضعـــه الطبيعي عند بدء المعركة .

وعندما هاجم هتلر فرنسا تحركت مجموعة جيوش فون بروك التي تشكـل الجهد الرئيسي في اتجاه كثير التضاريس مليء بالغابات وغير متوقع من قبـل الفرنسيين . وعندما اخترقت هذه القوات سيدان غيرت اتجاهها بشكل بلبلت

فيه أفكار القيادة الفرنسية وجعلتها في شك من اتجاه هذه الجيوش . وفي كل عملياتها كانت تتجنب الانقضاض المباشر وتفتش عن النقاط الضعيفة .

واتبع هتلر في معاركه ضد الحلفاء سياسة الحرب على مؤخرات العدو، والحرب النفسية التي تستهدف شل الجهاز العصبي المعادي ، لانه أقل كلفة من تدميره وتحطيمه . ويدلل ليدل هارت في تحليله على ان هتلر كان استراتيجيا فذا ، الا انه اخطأ على مستوى الاستراتيجية العليا ويشرح اخطاءه على هذا المستوى تفصيليا .

وقد اعطت الحرب الآلية مجالا واسعا لسياسة الهجوم غير المباشر في الحرب العالمية الثانية ، فمعارك هتلر في بولونيا كانت معارك هجوم غير مباشر ، ومناورات من اتجاهات غير متوقعة . وفي الهجوم على فرنسا نجد مانشتاين يغير محور الجهد الرئيسي لهجوم الجيوش الالمانية من بلجيكا الوسطى الى منطقة الأردين التي كان اتجاهها يعتبر اتجاها غير متوقع . ومن تطور معارك هتلر في أوربا الغربية يرى القارىء كيف استسلمت هولندا وجبهتها الرئيسية ما زالت سليمة ، وكيف استخدمت القوات المحولة جوا في الاستيلاء على الجسور واحتلالها .

وتبرز اهمية الهجوم غير المباشر في حركات غودريان الذي اجتاز نهر الموز ثم وسع رقبة الجسر ، فلم تستطع التكهنات معرفة هدفه النهائي أهو باريس أم شواطىء المانش .

ويبرز من خلال التحليل ان خطة غزو غرب أوربا تمت بهجوم غير مباشر اسر فيه الالمان مليون اسير ، ومع ذلك بقي هذا النصر الاستراتيجي الحاسم في القارة الاوربية غير حاسم على مستوى الاستراتيجية العليا لانه سمح للقوات البريطانية والفرنسية بالانسحاب من دنكرك ، مما أتاح لبريطانيا فرصة تقوية دفاعاتها عن الجزيرة بواسطة القوات المنسحبة . ثم أفل نجم هتلر نظرا للاخطاء القاتلة التي ارتكبها على مستوى الاستراتيجية العليا ، عندما بدأ يهمل الهجوم غير المباشر .

وكانت الحرب في روسيا تتضمن حركات غير مباشرة لمانشتاين ، الا ان الحرب في روسيا برهنت **على ان هنالك حدودا لا يمكن تجاوزها من قبل استراتيجية هجومية تنفذ بوسائط محدودة في حقل عمليات غير محدود .**

وفي هذه الحرب قدمت معارك شمالي افريقيا نماذج لهجمات استراتيجية غير مباشرة . وقد برع الالمان في هذه الحرب بنصب الكمائن للدبابات وذلك باقامة طعم يجذبها لتتحطم قبل ان يستلوا سيوفهم لمحاربتها . وهذا النوع من القتال هو هجوم غير مباشر بارع . وقد استخدم رومل في هذه الحرب الطريقة الدفاعية ـ الهجومية فحصل على انتصارات باهرة .

ثم كان سقوط هتلر ، ونزول الحلفاء في صقلية وغزو ايطالية . وفي غزو ايطاليا لم يتم النجاح امام خط غوستاف وأمام مرتفعات كاسينو الا عند استخدام الطرق الجبلية الوعرة التي حققت المفاجاة . ثم كان غزو فرنسا وحركات الجيوش

الروسية التي كانت كلها حركات غير مباشرة في روسيا البيضاء وأوربا الشرقية.

وهكذا بعد هذا العرض الطويل المسهب المدعم بالتحليل العلمي ينتقل المؤلف الى خاتمة الكتاب ، وهي اهم ما فيه وتتعلق بأسس الاستراتيجية . وبعد ان يستعرض مختلف الآراء في تعريف الاستراتيجية ودور القائد وواجباته يخلص الى تعريف الاستراتيجية العليا وينقد آراء كلوزفيتس وبحثه عن المعركة ، ويؤكد ان من الممكن تحقيق تفتيت استراتيجي مادي وإداري نتيجة حركة دون ما حاجة للمعركة .

ويؤخذ على ليدل هارت ، هذا الخبير العسكري الذي يفترض فيه التجرد العلمي المطلق انه متعصب للغرب في دراسته واستنتاجاته . وهو لم يشر في مؤلفه الى الفتوحات العربية الاسلامية ولا الى القادة العسكريين والاستراتيجيين العرب . وهو متجاهل تاريخنا العسكري ويسدل عليه ستارا من الظلام . لذا لا بد من الاشارة الى هذا الجزء من المعارك وتحليل قسم منها وتطبيق هذه الاستنتاجات عليه . وانا انوي ان اقوم بمهمة قادة الفكر لدينا . الا اني اسمح لنفسي بأن اهيب بهم لاخراج هذه المعارك وتحليلها وابراز الاساليب الاستراتيجية المتبعة فيها على غرار ما يفعل الغربيون .

لقد برع العرب في الجاهلية فيما نسميه اليوم الاغارات فهي نوع من الهجوم غير المباشر الاستراتيجي ، كما رأينا في اغارات اوكونور ، وبرعوا في حرب العصابات ، كما وجدناهم في الحرب العالمية الاولى يقاتلون مستخدمين هذه الحرب الى جانب الحلفاء . وقد تمرس العرب بفن الاستطلاع وجمع المعلومات عن العدو قبل المعركة واثناء المعركة . وعرفوا المفاجأة بانواعها ، استراتيجية كانت ام تكتيكية . كما انهم تمرنوا على أصول الخداع والمناورة .

ويقول الاستاذ عباس محمود العقاد في كتابه عبقرية خالد «ان العرب قد عرفوا في حروبهم تسيير الجيوش بعشرات الألوف على اختلاف الاسلحة والاقسام . وقيل ان جيش الغساسنة الذي حارب المنذر بن ماء السماء لم يقل عن ٤٠ الفا بين راجل وفارس ، وكان في الجيش معا راكبو الخيل وراكبو الابل وحاملو السيوف وحاملو الرماح والضاربون بالسهام والنبال والضاربون بالحراب والحجارة » .

وموقعة ذي قار في تاريخ العرب قبل الاسلام ، تلك الموقعة التي ذارت بين العرب والفرس وانتصر فيها العرب انتصارا رائعا على الدولة الفارسية ، اكبر دليل على براعتهم . ولقد اتبع العرب في تلك المعركة تكتيك الهجوم غير المباشر وباعتراف ليدل هارت نفسه لم يكن هنالك في الماضي فرق بين التكتيك والاستراتيجية . لقد اعد العرب لهذه المعركة الجيش اعدادا نفسيا ومعنويا رائعا . فقبل بدء المعركة اتصلوا بقبائل العرب العاملة مع جيش الفرس وأثاروا حميتها ونخوتها ، واغروها بالتخلي عن الفرس عندما يحتدم القتال . واحرزوا نجاحا حاسما لدى قبيلة أياد التي برّت بوعدها وانسحبت من المعركة تاركة

الفرس وحدهم في أحلك الاوقات .

ونصبوا للفرس كمينا متبعين نصيحة يزيد بن حمار في موقع يقال له الخبيء. ولم يكتفوا بنصب هذا الكمين ، بل انهم بحساب علمي دقيق أوصوا رجال الكمين بأن يبدأوا عملهم حين يحتدم القتال ، في اللحظة التي تنسحب فيها قبيلة اياد من صفوف الفرس . واستطاع العرب في هذه المعركة وبفضل استراتيجية الهجوم المباشر التفوق على جيش اكبر منهم عدة وعددا . وقد حطمت هذه المعركة هيبة الاكاسرة في الجزيرة العربية .

وفي تاريخ العرب قائد من اعظم القواد في استراتيجية الهجوم غير المباشر وهو خالد بن الوليد (رغم تجاهل ليدل هارت لذكره في كتابه) . ففي معركة احد التي انتصر المسلمون في مراحلها الاولى ، شاهد الرماة الذين وضعهم محمد عليه الصلاة والسلام خلف جيش المسلمين هزيمة المشركين ، فخالفوا التعليمات المعطاة لهم بعدم الحركة والاشتراك في القتال الا بأمره واندفعوا الى المعركة . ولاحظ خالد بن الوليد الذي كان يحارب مع قريش هذا الخطأ ، كما لاحظ الضعف الذي انتاب ترتيب المسلمين الهجومي ، فاستغل الفرصة ، والتف على جيش المسلمين وهاجمهم من الخلف فكانت هذه الحركة التكتيكية الرائعة سببا في اختلاط المسلمين وهزيمتهم .

وفي معركة مؤتة كانت قوات المسلمين مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة زيد بن حارثة . وعندما نزل هذا الجيش في معان علم المسلمون ان هرقل قد اقام معسكره في مآب ، ومعه جيش من الروم تعداده مائة الف رجل مع مائة الف من قبائل لخم وجذام والقين وبهراء . وتقدم جيش المسلمين من معان الى مؤتة والتقى الفريقان على مزرعة قرب مؤتة وقاتل المسلمون حتى قتل زيد بن حارثة ثم قتل جعفر بن ابي طالب وتسلم خالد بن الوليد القيادة .

ودرس خالد الموقف فوجد ان احسن السبل هو الانسحاب . وتحت ستار الليل تمكن من تغيير ترتيب الجيش فنقل الميمنة الى الميسرة والميسرة الى الميمنة ووضع المؤخرة مكان المقدمة والمقدمة في مكان المؤخرة ، ووضع خلف الجيش مجموعة من الجنود يثيرون الغبار ويحدثون جلبة عند طلوع الصباح . وتمكن بذلك من خداع الروم والغساسنة وأمّن الانسحاب . وخشي الروم اللحاق به خوفا من الوقوع في كمين . وتبين هذه العملية كيف استطاع قائد محنك كخالد بن الوليد ان يخدع جيشا اكبر منه بثمانين مرة وان يثبّته وينسحب انسحابا استراتيجيا رائعا .

لقد عزا بعض المورخين سقوط الدولتين الفارسية والبيزنطية امام جحافل العرب المسلمين الى تسلح هؤلاء بعقيدة جديدة ، والى انحلال هاتين الدولتين وضعفهما . ونحن نرد عليهم بأن بعض قادة العرب العسكريين قد فشلوا ونجح بعضهم الآخر بفضل الخبرة والكفاءة . وقد رد المرحوم الاستاذ عباس محمود العقاد في كتابه عبقرية خالد على هذه الناحية ردا مفحما اذ قال : «ولكن الواقع ان الذين انتصروا بالعقيدة كانوا رجالا أولي خبرة وقدرة ... فانهزم عكرمة بن

ابي جهل وشرحبيل بن حسنة حيث انتصر خالد بن الوليد ... وسبق خالد بن سعيد خالد بن الوليد الى الشام فغرر به الروم حتى استدرجوه الى مرج الصفر ، ولولا يقظة الخليفة وتلاحق امداده في أوقاتها لقضوا عليه» .

وكانت سيرة خالد بن الوليد تسبقه الى صفوف اعدائه وتنشر اخباره رغم ضعف المواصلات في ذلك الوقت ، وبنفس الاسلوب الذي كانت تنتشر فيه سمعة رومل في صحراء ليبيا وشمال افريقيا ابان الحرب العالمية الثانية .

ليدل هارت الناقد العسكري المشهور يلخص استراتيجية الهجوم غير المباشر بأنها تهدف الى مفاجأة الخصم من ناحية غير متوقعة ، لأن الهجوم من جهة يتوقعها العدو لا يؤثر على توازنه فتستمر قدرته على المقاومة . وفي جميع الحروب الحاسمة التي يستشهد بها ليدل هارت يثبت ان الاخلال بتوازن العدو قبل محاربته ، نفسيا وماديا ، هو المقدمة التي لا غنى عنها لتدميره والقضاء عليه.

ولو اردنا اجراء مقارنة بسيطة بين ما فعله خالد بن الوليد في أحد وما فعله بيليزير الذي شرح ليدل هارت معاركه ، والذي يتسم الهجوم غير المباشر لديه بخلق ثغرة في نقطة تمفصل حساسة في تشكيلة العدو مما يؤدي الى تفتيتها وتفكيكها ... اوجدنا ان ذلك هو ما فعله خالد في معركة أحد عندما لحقت مؤخرة المسلمين بالمغتنمين فانقض عليها من الخلف ، وهو لا يزال في مقتبل حياته العسكرية ، ولم تكن مواهبه قد نضجت وتفتحت بعد ، كما انه لم يكن قد خاض حروب الردة وحروب الفتوح .

واذا قارنا حركات خالد بحركات مارلبورو ، لوجدنا ان مارلبورو قد قام بحركة واسعة بعيدة عن قاعدته بعدة ارتال كي يمنع العدو من اكتشاف هدفه الحقيقي . ولكن خالد بن الوليد كان يهاجم ايضا من عدة جهات في آن واحد اما بالكمين او بالمفاجأة . وعندما ارسله الخليفة ابوبكر لنجدة الشام من العراق، خلف على العراق المثنى بن حارثة مع نصف الجيش وسار بالنصف الثاني . لقد سار من الحيرة الى دومة ، ثم طعن في البرية الى قراقر ، واراد ان يسلك المفازة ومنها الى سوى ، لانه ان دار مع الطرق المألوفة ، وضرب حول المفازة استقبل الروم فيحبسه ذلك عن غياث المسلمين في اليرموك . فأخذ يفتش عن طريق يخرج فيه وراء جموع الروم . وقام بحركة التفاف رائعة واسعة حول جناح العدو فابتدأ من قراقر بعد اجتياز وادي السرحان عبر الصحراء مسافة مائتي ميل في ارض لا ماء فيها الى ان وصل الى سوى ، ثم تحرك منها الى تدمر والقوطة فبصرى وكان وصوله مفاجأة استراتيجية رائعة للروم .

لقد اجتاز خالد الصحراء من وسطها ، وانقطع عن منطقة اللجاة البركانية الوعرة اذ سار الى الشرق منها نحو الشمال ، ثم عاد واتجه جنوبا ملتفا حول سفوح اللجاة واتصل بجيش العرب في درعا . ولو سايرنا الجنرال جلوب في كتابه «الفتوحات العربية الكبرى» واعتبرنا تفسيره لهذه الحركة الطويلة بأنها تستهدف تهديد دمشق وارغام جيش الروم على ترك مواقعه الدفاعية في درعا، وسواء أقبل بمعركة مرج راهط ام لم يقبل ، فانه يمكننا اعتبار هذه الحركة التي

تحمل كل صفات الهجوم غير المباشر من ابرع الحركات الاستراتيجية في التاريخ.
ولو عدنا الى ما قبل حركة خالد الى الشام عندما أرسل ابو بكر اربعة قادة؛ لكل منهم هدف محدد : فلسطين لعمرو بن العاص ودمشق ليزيد وحمص لأبي عبيدة والاردن لشرحبيل ، لوجدنا ان بامكاننا اعتبار هذه الارتال من الناحيــة الاستراتيجية جيوشا تتلاقى في هدف استراتيجي واحد ، ولا يمكن فصل مهمة اي جيش من هذه الجيوش عن مهمة الآخر .
وفي معركة اليرموك وقبل المعركة الرئيسية ، كان عمرو بن العاص وحيدا في بئر السبع وعزم الروم على القضاء على جيشه منفردا الا ان قوات العـــرب المسلمين اختفت فجأة من منطقة اليرموك وراحت تغذ السير ليلا ونهارا لنجـدة عمرو بن العاص ، ولا أريد ان أتعرض للطريق التي مرت منها القوات العربية ولا لأهمية هذه الحركة الاستراتيجية البارعة فقد وصف جلوب هذا الطريق في كتاب «الفتوحات العربية الكبرى» الذي ترجمه الاستاذ خيري حماد وعلق عليه تعليقات رائعة ، وكيف تدفق المسلمون عبر المضيق ، وعبر وادي عربة ثم الى سهل بئر سبع ، ووقعت معركة إجنادين ومني فيها الروم بهزيمة ساحقة . لقد كانت هذه المعركة مقدمة نفسية ومادية لمعركة اليرموك . وقد حطمت هذه المعركة مخططات العدو الهجومية المعاكسة ، ولم يبق امام العرب الا التصدي لحصون اليرموك او «ثغرة درعا» كما يسميها العسكريون المحدثون .
واشتد القتال أمام حصون اليرموك الى ان تمكن خالد بن الوليد بحركة بارعة من فصل مشاة الروم عن خيالتهم اذ افسح الطريق للخيل كي تفر امام ضغـط المسلمين فعاد مشاة الروم الى الخندق وهم محرومون من دعم الخيالة ، فالتف عليهم العرب فولوا هاربين في وادي الرقاد او هوة الواقوصة . وهكذا تــم الهجوم غير المباشر الاستراتيجي والتكتيكي وكانت هذه المعركة معركة حاسمة في التاريخ اذ فتحت ابواب سورية امام الزحف العربي الاسلامي .
ولنترك الترتيب التاريخي للاحداث جانبا ونستعرض وقائع اخرى ، وأكرر كما قلت من قبل ، ان المجال هنا ليس شرح الوقائع التي انتصر فيها خالد بن الوليد او القادة العرب بفضل الهجوم غير المباشر فقد سبقني الى شرح هـــذه المعارك كثيرون من المؤرخين ، ولكن ما يعنيني هو ابراز الاستراتيجية التي اتبعها هؤلاء القادة . وأيام العرب كثيرة وفي كل يوم منها درس تكتيكي واستراتيجـي عظيم . ففي وقعة الولجة ظن الفرس انهم قاب قوسين او ادنى من النصر الا ان ظهور كمينين ، وفي الوقت الملائم ، كان قد أعدهما خالد بن الوليد ، قلب ميزان القوى لصالح العرب .
ثم تعال معي ايها القارىء العزيز لنستعرض أعمال خالد بن الوليد بعد ان غنم السفن الفارسية بعد وقعة اليس . لقد اركب خالد جيشه في هذه السفن الا ان الفرس عندما علموا بذلك منعوا النهر بأن اغلقوا سدود الحيرة فجف الماء. فما كان من خالد الا ان أرسل بعض قواته لاحتلال القناطر واطلاق مياههـــا وحراستها . وتبدو هذه العملية اذا قورنت باحتلال جسور الرين لتأمين عبـور

الحلفاء أثناء الحرب العالمية الثانية اقوى تصميما واروع تنفيذا . كما يمكن مقارنة هذه العملية بعملية احتلال جزيرة كريت من قبل القوات الالمانية اثناء الحرب العالمية الثانية . والفرق هنا ان قوات خالد ركبت الجمال او الخيول بينما ركبت القوات الالمانية الجو ليتحقق لكليهما مفاجأة استراتيجية . ولكن شتان بين العصرين وفرق كبير بين الوسائط .

ثم ننتقل الى قائد عظيم آخر من قواد المسلمين وهو صلاح الدين الايوبي . فالعمل الذي قام به صلاح الدين الايوبي في دمياط والاسكندرية والتحصينات التي اقامها في ذلك العصر تشبه الى حد كبير جدار الاطلسي الذي انشأه هتلر على السواحل في أوروبا الغربية لصد غزو الحلفاء ، كما ان القلاع الحصينة التي اقامها في القاهرة وفي كل مكان شبيهة بالحصون الدفاعية لخطي ماجينو وسيجفريد المشهورين . ولم يكتف صلاح الدين الايوبي فيمصر بهذه التحصينات ضد الهجوم البحري ـ البرمائي بل انشأ مراكز محصنة في شبه جزيرة سيناء ليصد غزوات الصليبيين اذ ان جميع غزواتهم بعد حصار الاسكندرية وحصار دمياط جاءت من منطقة سيناء .

ومعركة صلاح الدين الايوبي في حطين كانت معركة حاسمة في التاريخ ، لانها قررت مصير المملكة اللاتينية وفتحت الطريق الى القدس التي سقطت بعد حصار دام اسبوعا . ولكن ليدل هارت تجاهلها ولم يرد على ذكرها .

ومن الانصاف للتأريخ ان نقول ان صلاح الدين الايوبي كان رائدا من رواد الاستراتيجية العليا اذ كان يرسل رسله الى ملوك العرب يحثهم على الجهاد للدفاع عن الاراضي المقدسة حتى انه عرض على الخليفة الامام الناصر ان يتنازل له صلاح الدين عن جميع البلاد التي يحتلها مقابل حضوره لإذكاء حماسة العرب في قتال الصليبيين ، ولكن أمراء الجزيرة الزنكيين رفضوا ان يوحّد الخليفة بينهم.

وهنا لا بد من وقفة بسيطة لنقارن بين عمل صلاح الدين الايوبي من اجل الدفاع عن الاماكن المقدسة وبين موقف الرئيس جمال عبد الناصر في دعوته الى مؤتمر الذروة العربي في مطلع عام ١٩٦٤ . ان هذه الدعوة ، في ـ رأيي المتواضع ـ ودع عنك الان آثار هذه الدعوة ، على صعيد الحركة العربية الثورية من نتائج في اعطاء القوى الرجعية فرصة اعادة تنظيمها للانقضاض على القوى التقدمية ـ اقول ان هذه الدعوة حركة استراتيجية غير مباشرة لانقاذ فلسطين وخلق وضع افضل لحركة النضال من اجل تحريرها . فالوضع العربي عند ارسال هذه الدعوة كان وضعا خطيرا متناقضا من كل النواحي : القوى الثورية في الوطن العربي في نضال ضد القوى الرجعية المتحالفة مع الاستعمار في أجزاء متعددة من الوطن العربي وقتال على الحدود الجزائرية ـ المغربية ، قواعد اجنبية في داخل الوطن العربي ، القوى التقدمية الوحدوية في صراع داخل بعض الاقطار العربية ضد انظمة الحكم القائمة فيها ، القوى التقدمية والوحدوية متفككة ومنقسمة ، حتى الاحزاب التي ترفع شعارات الوحدة والحرية والاشتراكية في صراع داخلي على السلطة . وحرب اليمن التي تعتبر نقطة تحول هامة في تاريخ

الجزيرة العربية تمتص كثيرا من الطاقات الثورية والبناءة للجمهورية العربية المتحدة ، أما الحركة الناصرية الوحدوية الاشتراكية في المنطقة فقد تعرضت لابشع عملية ارهاب وملاحقة الى ان اضحت في مطلع هذا العام عاجزة عن القيام باي عمل ثوري حاسم .

وانني أختتم مقدمتي هذه بتوجيه تحية الشكر والاعجاب الى السيد الهيثم الايوبي الذي بذل جهدا واضحا في ترجمة هذا الكتاب العسكري الهام ووضعه في متناول القراء العرب .

اول ايلول (سبتمبر) ١٩٦٤ — اكرم عزة ديري

مقدمة المؤلف

لم تستطع القنبلة الهيدروجينية ايجاد الحل الاكيد الذي ينتظره الغربيـون الراغبون في ضمان أمنهم بشكل مطلق نهائي . كما انها لم تكن دواء ناجعا يقيهم من الاخطار التي تتهددهم . لقد زادت قوتهم الضاربة ، ولكنها زادت في نفس الوقت قلقهم ، وأثارت شعورهم بعدم الاطمئنان .

وفي عام ١٩٤٥ بدت القنبلة الذرية لرجال الدولة الغربيين ، وسيلة عمليـة للوصول بسهولة الى نصر سريع شامل واقامة سلم عالمي . ويقول السير ونستون تشرشل «بأنهم فكروا في انهاء الحرب ومنح السلم للعالم ، ومد يد الخـلاص للشعوب المعذبة بعرض قوة لا مثيل لها ، تتمثل في عدة انفجارات تؤدي الـى تفريج كل آلامنا والاخطار التي تعرضنا لها» .

ويدل القلق الذي تعيشه شعوب العالم الغربي على عجز حكامها عن الوصول الى حل مشكلة ايجاد سلم قائم على مثل هذا النصر . لان انظارهم لم تتجاوز الى ما وراء الهدف الاستراتيجي المباشر «كسب الحرب» . واقتصر تفكيرهم على ان النصر العسكري يضمن السلم . وهذا راي يخالف أمثلة التاريخ . وهو في حد ذاته درس من أحدث الدروس التي تحتاجها الاستراتيجية العسكرية البحتـة لتوسيع نظرتها وآفاقها ، وتصبح على مستوى «الاستراتيجيـة العليا» فـي اعلى صورها .

كان البحث عن الانتصار في الحرب العالمية الثانية يعني الانسياق نحـو المأساة بدافع الخيلاء . وقد فتح تدمير قوى المقاومة الالمانية الطريق امام السيطرة السوفييتية في معظم القارتين الاوروبية والآسيوية . كما اتـاح المجال لانتشار الحكم الشيوعي بشكل واسع في مختلف الاتجاهات . وكان من الطبيعي ان يعقب

الانفجارات الذرية التي انهت الحرب موجة تطوير للاسلحة المماثلة فـي الاتحاد السوفياتـي .

ولكن السلم الذي اعقب الحرب العالمية الثانية لم يقدم اي شعور بالطمانينة ؛ وتعرضت اعصابنا بعد ثمانية اعوام لاختبارات شاقة جدا . وزعزع انتاج الاسلحة النووية الحرارية كل شعور بالأمن لدى الشعوب «المنتصرة» وليت الامر ينتهـي عند هذا الحد .

اظهرت تجارب تفجير القنبلة الهيدروجينية اكثر من اي سلاح آخر ، كيف غدا قديما وباليا : مفهوم «الحرب الشاملة» كوسيلة ، ومفهوم «النصر» كغايـة نسعى اليها . وقد اعترف بذلك كبار المسيطرين على القصف الاستراتيجي . وقد صرح مارشال سلاح الطيران الملكي البريطاني سير جون سلبسور «ان الحـــرب الشاملة كما عرفناها في الاربعين سنة الاخيرة ، غدت جزءا من الماضي ... ان حربا عالمية تنشب في عصرنا الحاضر ، تعني الانتحار للعالم ونهاية المدنية كمـــا نعرفها» . ولقد تعرض قائد سلاح الطيران الملكي البريطاني الماريشال لورد تيدر لنفس الموضوع قبل ذلك ، وقال : ان هذا الراي عبارة عن «تأكيد واقعي وواضح لاحتمالات الموقف الراهن» وان «اية حرب ذرية ، لن تكون مبارزة بين طرفين ، بل انتحارا متبادلا» .

واضاف : «ان هذا احتمال لا يشجع على الهجوم» . وقوله هذا غير منطقي لان مهاجما هادىء الاعصاب يستطيع استغلال نفور خصمه من الانتحار اذا كان هذا الانتحار هو الرد الوحيد على خطر غير اكيد الوقوع . وهنا نتساءل ، هـل تستطيع حكومة مسئولة ، اتخاذ القرار باستخدام القنبلة الهيدروجينية للرد على هجوم غير مباشر ، او على كل هجوم محلي او محدود ؟ وهل تتحمل اية حكومة مسؤولية البدء فيما يصفه قادة الطيران بأنه «انتحار» ؟. وهنا لا يسعنـــا الا ان نقول : ان الخطر ماثل ، ولكن امكانية استخدام القنبلة الهيدروجينية بشكـــل فوري أمر غير مؤكد .

ان الثقة التي وضعها رجال الدولة في دور هذا السلاح الرادع وهم وسراب. ولن يحمل الكرملين التهديد باستخدامه محمل الجد ، بعكس الدول الواقعة خارج الستار الحديدي ، او الشعوب القريبة من روسيا وقاذفاتهـــا الاستراتيجية . والتهديد لحماية هذه الشعوب برد ذري يؤدي في النهاية الى تحطيم رغبتها في المقاومة . وخصوصا عندما تفكر في الاخطار الهائلة الناجمة عن آثار الانفجارات النووية والحرارية .

ان القنبلة الهيدروجينية تشكل عائقا لسياسة صد الخصم ؛ بـــدلا من ان تكون عاملا مساعدا لها . وهي تحد فعلا من الاتجاه نحو الحرب الشاملة ، ولكنها تزيد احتمال وقوع «الحرب المحدودة» . التي تبدأ باعتداء غير مباشر ومحلي قد يمتد ويتسع ، ويستخدم المهاجم خلاله مختلف الوسائط والاساليب الهجوميـــة الكفيلة بايصاله الى النتائج المطلوبة . بينما يبقى المدافع مترددا يتساءل : أيصد

العدوان بقنابل ذرية ام هيدروجينية .

وهكذا نجد انفسنا مقيدين بالاسلحة التقليدية «الدرء الخطر» وايقافه - وهذا لا يعني ضرورة ، استخدام الطرق التقليدية المعروفة كما هي ؛ بل يحفزنا على دفعها الى الامام ، وتطوير الحديثة منها .

لقد دخل العالم في عصر جديد من عصور الاستراتيجية، يختلف كل الاختلاف عما افترضه انصار القوة الجوية الذرية «الثوريون» من اتباع العهد الماضي . وسيطبق اعداؤنا استراتيجية مستلهمة من فكرة مزدوجة هي : تجنب الصدام مع قوة جوية متفوقة واجبارها على التجزؤ . ويلاحظ اي مراقب باستغراب ، ان ازدياد وتطور آثار التدمير الجماعية للاسلحة الحديثة ، يفسح المجال امام استراتيجية حرب العصابات .

ينبغي ان تعتمد استراتيجيتنا على وعي جريء لهذا المفهوم . وهذا يعني ان سياستنا العسكرية في حاجة الى توجيه جديد . وهنالك امكانية موجودة ، وما علينا الا تطويرها للوصول الى استراتيجية قادرة على الوقوف امام الاستراتيجية المعادية . وهنا لا بد لنا من ان نذكر ان تدمير مدن معادية بقنابل هيدروجينية يعني تدمير «طابورنا الخامس» الذي يحتمل وجوده فيها .

هنالك راي شائع يقول : ان الطاقة الذرية ختمت مصير الاستراتيجية وهذا راي خاطىء لا اساس له . لان زيادة امكانية التدمير الى حد كبير ، والوصول بها الى درجة «الانتحار» تدفع الاستراتيجية الى الطرق غير المباشرة التي نعتبرها جوهر الاستراتيجية الاصلي ، الذي يطبع الحرب بطابع من الذكاء ويرتفع بها عن ان تكون صورة من صور استخدام القوة بشكل وحشي . وفي الحرب العالمية الثانية دلائل تشير الى الاتجاه نحو «التقرب غير المباشر» . لان دور الاستراتيجية في هذه الحرب كان اكبر من دورها في الحرب العالمية الاولى ، التي كانت الاستراتيجية العليا فيها معدومة . ويتحكم اليوم السلاح النووي الرادع بكل عمل ، ويفرض على المهاجمين تطبيق الاستراتيجية بمهارة تفوق ما كان مطلوبا في الماضي . ومن الضروري الحد من تأثير تقدم العدو بفهمنا اهمية الاستراتيجية ، التي نعتبر تاريخها وصفا لسلسلة حالات واقعية من الهجوم غير المباشر ودراسة تطورها .

ولم تكن دراستي لسلسلة من المعارك العسكرية ، وتوصلي الى ادراك تفوق الهجوم غير المباشر سوى مجرد عملية تسليط الضوء على الاستراتيجية . ولقد قادني التفكير العميق ، الى ان ميدان تطبيق الهجوم غير المباشر اكثر اتساعا من غيره ، فهو مبدا صالح لكل ميادين الحياة ، لانه حقيقة فلسفية يؤدي استخدامها الى النجاح العملي في جميع المجالات التي يلعب فيها العامل الانساني دورا هاما. قد ينبعث صراع ارادتين من مجموعة مصالح متشابكة مستورة . ويثير هجوم الافكار الجديدة المباشر في مثل هذه الحالات مقاومة عنيدة ، ويزيد صعوبة امكانية تعديل مواقف الآخرين . بينما يمكن الاقناع بسهولة ، وسرعة اكبر ، ببث مستور للافكار الجديدة المعارضة مدعمها بحجج تلتف حول جوانب كل اعتراض.

والهجوم غير المباشر اكثر ضرورة في الميدان السياسي منه في الميدان الاجتماعي. كما ان ايحاء البائع للمشتري بأن صفقته التجارية رابحة خير من النـــداء المباشر للشراء . ومن المعروف في كل مجال ان اسلم الطرق للحصول على موافقة الرئيس على فكرة جديدة ، اقناعه بأن هذه الفكرة متلائمة مع مثله الاعلى . ان الهدف في الحرب هو اضعاف مقاومة العدو قبل محاولة قهره والتغلب عليه . وافضل عمل يؤدي لهذا الغرض هو جذبه خارج نطاق دفاعاته .

وترتبط فكرة الهجوم غير المباشر ، بشكل دقيق ، بجميع القضايا الناجمة عن تأثير الفكر على الفكر ، ولهذا التأثير اعمق الاثر في اتجاه التاريخ البشري . ولكن هذا التقرب لا يتلاءم مع مبادىء اخرى تبغي الوصول الى النتائج الحقيقية بالبحث عن الحقيقة مهما كانت نتائج هذا البحث صعبة وخطرة على مصالـــح الباحثين المتعددة .

لقد ابرز التاريخ دور «الانبياء» الرئيسي في مضمار التقدم الانساني ، مما يبرهن على اهمية وفاعلية التعبير عن الحقيقة دون لف او دوران ، او قيـــود وتحفظات . ولكن تقبل وانتشار أفكار هؤلاء الانبياء ، متعلق دائما بنوع آخر من الرجال هم «القادة» الذين يتمتعون بصفات الفلاسفة والاستراتيجيين معا ، ويتقنون ايجاد الحل الوسط بين الحقيقة وامكانية تقبل الناس لها . وكما تأثر نفوذهم بحدود معرفتهم للحقيقة فقد تأثر ايضا بالشكل الذي اعلنوها به .

ان استشهاد الانبياء رجما بالحجارة هو نتيجة طبيعية تثبت انهم حققـــوا مهمتهم . ولكن رجم قائد يعني بكل بساطة فشله في مهمته نتيجة زهـوه ، او خلطه بين مهمة القائد ورسالة النبي . ويحكم الزمن وحـــده اذا كانت هـــذه التضحية يمكن أن تصلح فشل القائد ، ام تشرف الانسان . ولكنها تبقى قادرة على منع القادة من الوقوع في الخطأ الشائع بينهم ، وهو التضحية بالحقيقة على مذبح تسيير الامور ، دون فائدة مجدية للمصلحة العامة . اذ ينتهي كل من اعتاد اخفاء الحقيقة ، بغية تسهيل سير العمل القائم ، الى فقدان قوة وسلامة تفكيره.

هل هنالك طريقة للتوفيق بين تطور البحث عن الحقيقة ، وتقبلها من جانب الآخرين ؟ توحي ملاحظة المبادىء الاستراتيجية ان ايجاد حل لهذه المشكلـــة امر ممكن . كما تدل على اهمية التمسك بالهدف بشدة ، ومحاولة الوصول اليـــه بالطرق الملائمة للظروف . ومجابهة الحقيقة امر حتمي ، خاصة عندما تأخذ شكل فكرة جديدة . كما ان القضاء على المقاومة امر سهل ، اذا فكرنا جيدا في الهدف وسبيل الوصول اليه . ومن الحكمة تجنب الهجوم على موقع دفاعي مضى علـــى تحصينه زمن طويل ، والبحث عن طريقة للالتفاف حوله بحركة من الجانب بحيث تتعرض الجبهة الضعيفة لصدمة الحقيقة ، اذ ليس هنالك امر يقتل التقدم المجدي مثل الخطأ في السير نحو «اللاحقيقة» .

ويبدو معنى هذه الافكار لكل قارىء بوضوح يتلاءم مع تجربته الشخصية ، ولو نظرنا الى المراحل التي تمر بها الافكار الجديدة قبل تقبلهـا والتسليم بها ، لوجدنا ان انتشارها راجع الى عدم تقديمها كشيء جديد مبتدع ، وعرضها كأنها

إحياء لمبدأ قديم ، او تطبيق عملي لشيء مألوف . وهذا لا يعني الرغبة في خداع الآخرين ، ولكنه يعني توجيه الاهتمام الى مجريات الامور «اذ لا جديـــد تحت الشمس» . وهنالك مثل يبين كيف قضى أنصار استخدام الآليات على مقاومـة معارضيهم ، باظهار العربات المدرعة والدبابات كوريثة للفارس المدرع ، وكواسطة تعطي للخيالة الامكانيات لتلعب الدور الحاسم الذي لعبته في الماضي .

«ب. هـ. ليدل هارت»

اقوال مأثورة في الحرب

«الحيلة أساس فن الحرب . لذا ينبغي التظاهر بالعجز ، عندما تتوفر القدرة على الهجوم . والتظاهر بعدم العمل ، عند الرغبة في استخدام الجيوش . واقناع العدو بأننا بعيدون ، عندما نكون على مقربة منه ، وباننا قريبون ، ونحن بعيدون عنه . استخدموا الفخ لجذب العدو ، وتظاهروا بالفوضى ثم اسحقوه .»

«ليس في التاريخ مثال يدل على استفادة الدول من الحرب الطويلة الامد .»

«ان من خاض غمار الحرب ، وعاش آلامها ، قادر وحده على فهم طريقة خوضها بشكل جيد .»

«أفضل الاعمال ، تحطيم مقاومة العدو دون قتال .»

«ارفع اسلوب في فن القائد ، هو احباط خطط العدو ، وافضل الامور توقع مكان تجمعه ومهاجمة جيشه على ارض مكشوفة . واسوا السياسات محاصرة المدن المحصنة .»

«يمكننا ان نلجأ في الحرب الى الطرق المباشرة للسير نحو المعركة . ولكن الطرق غير المباشرة ضرورية للحصول على النصر .»

«اظهروا في بعض النقاط ليسرع العدو للدفاع عنها ثم سيروا بسرعة الى نقاط لا ينتظركم فيها .»

«يمكنكم التقدم دون مقاومة تذكر ، ان سرتم نحو نقاط العدو الضعيفة . كما يمكنكم الانسحاب بمأمن من ملاحقته ان كنتم اسرع منه حركة .»

«يستطيع الجميع رؤية الخطة التكتيكية التي حققت النصر ولكنهم عاجزون عن رؤية الخطة الاستراتيجية التي تؤدي الى النصر .»

«التكتيك العسكري كالماء . ويخضع الماء لمجراه الطبيعي ، اذ يتسرب منحدرا

من الاماكن العالية نحو المنخفضات . والامر مشابه في الحـــرب ، اذ نتجنب الموقع القوي بالهجوم على الموقع الضعيف .»

«يكيف الماء مجراه حسب الارض التي ينساب عليها . ويؤمّن العسكري النصر بطرق تتلاءم مع قوة العدو الذي يواجهه .»

«ان استخدام الطريق الطويل المتعرج ، بعد اخراج العدو عن خط سيره ، وبلوغ الهدف قبله رغم الانطلاق بعده ، دليل على التمتع بحسن الحيلة ، والقدرة على المخاتلة .»

«سينتصر من اتقن فن الخداع ، لانه فن المناورة .»

«امتنعوا عن ملاقاة عدو يرفع أعلامه وراياته بكل نظام . وتجنبوا مهاجمـــة الجيش المنتشر بنظام وثقة فوق مواقعه . فهذا هو فن دراسة الظروف .»

«اتركوا لجيش العدو بعد حصاره مخرجا حرا ، ولا تشددوا الضغط علـــى عدو يائس .»

«السرعة روح الحرب . استفيدوا من عدم استعداد العدو ، واستخدمـــوا طرقا غير متوقعة ، وهاجموا المواقع التي لا تحرس .»

(سان تسي . فن الحرب)
عام ٥٠٠ قبل الميلاد

«ان اعظم وانجح انتصار هو ارغام العدو على التخلي عن مشروعاته وخططـه، دون ان يتحمل الطرف الآخر اي اذى .»

(بيليزير)

«اننا نبلغ المباشر بطريق غير مباشر .»

(شكسبير)

«فن الحرب عبارة عن دفاع مدروس وحذر جدا ، يعقبه هجوم سريـــع وجريء .»

(نابليون)

«لقوى العقل والدهاء آثارها في أي عمل عسكري .»

(كلوزفيتس)

«يحصل القائد العسكري اللامع على النصر في حالات كثيرة اذا انتقى مواضع دفاعية تتمتع استراتيجيا بطبيعة هجومية تجبر العدو على مهاجمتها .»

(مولتكه)

القسم الأول

الاستراتيجية من القرن الخامس قبل الميلاد الى القرن الثاني عشر بعد الميلاد

الفصل الأول

التاريخ تجربة عملية

«يقول الحمقى ، انهم لا يتعلمون الا من تجاربهم الخاصة ، أما أنا فأفضل الافادة من تجارب الآخرين .» قال بسمارك هذا القول المأثور الذي ينطبق تماما على المسائل العسكرية مثل انطباقه على الامور الاخرى . وهنالك نوعان من التجربة «نظرية» و«علمية» .

وتلقي حكمة بسمارك ضوءا جديدا حول هذه المسالة ، لانها تكشف نوعين من التجربة العملية ، هما التجربة المباشرة ، والتجربة غير المباشرة . وقد تكون الثانية افضل من الاولى لانها اكثر شمولا واتساعا . وينطبق هذا الامر على كافة الامور العملية ، وعلى الخدمة العسكرية بشكل خاص ، لان حقل التجربة العملية المباشرة فيها محدود جدا وخلافا لمهنة الجندية ، تفسح مهنة الطب مثلا مجالا اوسع للتجربة الدائمة ، ومع ذلك يرجع اكثر الفضل في تقدم الطب والجراحة للعلماء والباحثين في المعامل والمختبرات لا للاطباء العاملين في المهنة .

والتجربة المباشرة محدودة بطبيعتها ، ولا تتيح قاعدة متينة للعلم النظري او تطبيقاته العملية ، ولكنها تخلق الجو الملائم لتثبيت اية خطوة فكرية . وتمتاز التجربة غير المباشرة باتساع مجالها وتنوع أشكالها . «التاريخ هو التجربة الشاملة» . وليس التاريخ تجربة فرد واحد ، بل حصيلة تجارب عدد لا نهاية له

من الافراد الذين تعرضوا لظروف متنوعة . هذا هو الدافع الجوهري لاعتبار التاريخ العسكري اساسا للتدريب العسكري ، يحمل في طياته قيما عملية هامة لتنمية القادة العسكريين فكريا وفنيا . وتتعلق الفائدة من هذه التجربة وغيرها من التجارب بموضوع الدراسة ، ومقدار شمولها واحتوائها على مختلف الحوادث. والتجارب ، واسلوبها في معالجة التاريخ العسكري .

يعرف العسكريون قيمة قول نابليون المأثور : «تمتاز المعنويات في الحرب ، على القوة المادية ، بنسبة ثلاثة الى واحد» . وقد يرى البعض في هذه النسبة الحسابية مبالغة ، لان المعنويات تضعف بضعف الاسلحة ، كما ان الارادة القوية تصبح عونا ضعيفا لجسم قائد الحركة . ان المعنويات والقوة المادية في الحقيقة عاملان متلازمان ، يؤثر احدهما على الآخر . ومع ذلك يحتفظ قول نابليون بقيمته لانه يعطي الافضلية للعوامل المعنوية في كل الانتصارات العسكرية ، ولان نتائج المعركة والحرب تقوم عليها . وتشكل المعنويات في تاريخ الحروب معطيات دائمة لا تتغير قيمتها الا قليلا ، على حين تختلف العوامل المادية اختلافا جوهريا في كل معركة ومع كل وضع عسكري .

يؤثر هذا المبدأ على المسائل التي يبحثها التاريخ العسكري بغية الافادة منها عمليا . ولقد درجت الاجيال الاخيرة ، على اختيار معركة او معركتين لتحليلهما بكل عمق ، واستخلاص عناصر التدريب ، وأسس النظريات العسكرية منهما . فلو اكتفينا بهذه المنطلقات الضيقة رغم تطور الوسائط العسكرية باستمرار ، من حرب الى اخرى ، لتعرضنا لخطر الانزلاق الى الآراء المحدودة والدروس الخاطئة، خاصة وأن الوسائط والظروف المادية متبدلة على الدوام .

وعلى العكس ، تتبدل انعكاسات الطبيعة البشرية امام الخطر بدرجة قليلة . وقد يظهر بعض الرجال أقل تأثرا من غيرهم ، بفضل الوراثة او البيئة او الثقافة، ولكن يبقى هذا الاختلاف مجرد تفاوت في الدرجة لا في النوع . وكلما حددنا الوضع بدقة ، وزاد عمق بحثنا ، وجدنا هذا التفاوت في الدرجة غريبا لا يخضع لحساب . وقد يمنع هذا الامر التقدير الصحيح لمقاومة رجال معينين في وضع معين . ولكن هذا لا يمنعنا من معرفة ان مقاومتهم الدفاعية عند الهجوم المباغت أقل من مقاومتهم لهجوم منتظر ، وأن تحملهم للمكاره في حالة الجوع والتعب أقل من تحملهم في حالة الراحة والتغذية الحسنة . وكلما كانت الاختبارات النفسية واسعة النطاق كلما استطعنا اجراء الحسابات واستخلاص النتائج بدقة اكبر .

يؤدي ثبات العامل النفسي ، وتفوقه على العامل المادي، الى استنتاج نظريات للحرب تعتمد بالضرورة على نتائج تحقيقات واسعة قدر الامكان ، او معرفة عميقة بتاريخ الحروب . اما دراسة معركة واحدة بتعمق فيوقعنا في كثير من المغالطات. ولكن اذا ما ظهر لنا ارتباط أثر معين بسبب محدد وفي حالات واقعية كثيرة في عصور مختلفة وظروف متنوعة ، اعتبرنا هذا السبب عاملا خاصا محددا في كل

نظرية من نظريات الحرب .

وهذا الكتاب هو خلاصة تحقيقات وتحليلات مماثلة واسعة النطاق قمت بها . ولقد تكونت عندي خلال البحث فكرة كانت تزداد رسوخا في ذهني وهي أن الحروب الحاسمة نادرة الوقوع . وما وقع منها ناجم عن استخدام احد الطرفين المتنازعين طرقا غير مباشرة ، ادت الى الهجوم على الخصم ، والوصول اليه فجأة وقبل ان يتهيأ لمواجهة مصيره .

وكان الاسلوب غير المباشر ماديا احيانا ونفسيا دائما . وهكذا فالطريق الطويل المتعرج في الاستراتيجية هو اقصر الطرق لبلوغ الهدف .

ثم تأكد عندي هذا المبدأ باستمرار . واصبح من الواضح ان هجوما مباشرا لهدف فكري او مادي ، ومنطبقا على «الخط المحتمل (١)» للخصم لا يعطي الا نتائج سلبية . ولقد عبّر نابليون عن ذلك بطريقة اخرى عندما قال : «ان اهمية العامل المعنوي بالنسبة للعامل المادي هي ثلاثة الى واحد» . ويمكن التعبير عن ذلك بطريقة عملية بقولنا : تستند قوة البلد او قواته المسلحة على موارده وتعداده التي تتعلق بدورها على استقرار الادارة والقيادة ، على معنويات الوحدات وإمداداتها .

وهكذا يؤدي التحرك على «الخط المحتمل» للخصم ، اي اتخاذ وضع يتوقعه، الى تعزيز توازنه وزيادة قوة مقاومته . ففي الحرب كما في المصارعة ، يضعف المهاجم وتضمحل قوته ، ان حاول ايقاع خصمه مع المحافظة على توازنه وموضعه. ويزداد هذا الضعف كلما زاد الجهد المبذول للثبات في المكان بدون مبرر . ويتعذر النصر بهذه الطريقة الا اذا كان هناك تفوق كبير في احد مصادر القوة ، ومع ذلك يبقى النصر غير حاسم . لقد كان تحطيم توازن العدو النفسي والمادي في أغلب المعارك مقدمة ضرورية قبل محاولة افنائه ، وهذا مبدأ لا يجب تجاهله .

ينجم هذا التحطيم عن هجوم استراتيجي غير مباشر ، سواء اكان هذا الهجوم متعمدا أم وليد الصدفة . وللهجوم غير المباشر أشكال متعددة . ولكنه يأخذ أبعادا اوسع واشمل اذا ما تضمن «المناورات على المؤخرات» التي يصفها الجنرال **كامون** في دراسته ، بأنها كانت الهدف الثابت لنابوليون ، ومفتاح اسلوبه في قيادة العمليات . ويهتم **كامون** اهتماما خاصا بحركات الامداد والتموين ، وعوامل الزمن ، والمواصلات ، واتساع دائرة العمل . ولكن تحليل العوامل النفسية يلقي ضوءا كافيا على وجه الشبه بين كثير من العمليات الاستراتيجية التي لا تشبه المناورة على المؤخرات ، ولكنها امثلة حية نموذجية «لاستراتيجية الهجوم غير المباشر » .

---

١ — التعبير في الاصل الانجليزي هو «**Line of Natural expectation**» ويقصد به الطريق الذي يتوقع الخصم ان يتبعه عدوه لتقديره انه اكثر الطرق احتمالا ان لم يكن اكيدا . الامر الذي يؤدي الى تركيز انتباهه وقوته عليه . «المعرب»

وليس من الضروري مقارنة القوى العددية وعرض تفصيلات مشاكل النقل والتموين ، لمعرفة اصل هذا التشابه ، وتحديد طابع هذه العمليات ، لان غايتنا التوصل الى نتائج تاريخية بدراسة سلسلة من الوقائع الواضحة ، وتمحيص العمليات الادارية والمعنوية التي كانت سبب وقوعها .

ويدل ظهور آثار متماثلة من مناورات متماثلة واقعة في ظروف مختلفة في طبيعتها ، وأبعادها ، وزمن وقوعها ، على ان بين هذه المناورات تشابها وصلة. كما يدل على وجود مصدر مشترك يؤدي الى كل هذه الآثار . وكلما اختلفت الظروف وتبدلت ، زادت الثقة في صلاحية هذا الرأي .

ان الدراسة العميقة للحروب فقط لا تعني البحث عن عقيدة جديدة حقيقية ، لان وضع أسس نظرية للحرب يحتاج الى فحص واسع دقيق لأمور عديدة اخرى. وهذا الفحص ضروري لكل باحث عسكري يهتم بتنمية فكره ، وتوسيع نظرته الشخصية للامور ، وإلا غدت معرفته في مجال الحرب قلقة كهرم يرتكز على قمته.

الفصل الثاني

الحروب الاغريقية
ايبامينو نداس ، فيليب ، الاسكندر المقدوني

يمكن البدء بدراسة الصراع المسلح ابتداء من «الحرب الكبيرة» في التاريخ الاغريقي ، وهي الحرب في ميديا . على اننا لا نأمل استنباط كثير من الدروس في فترة الطفولة الاستراتيجية هذه ، برغم ان اسم ماراتون محفور جيداً في مخيلة المؤرخين ، ومرسوم في اذهان اليونانيين بدرجة تسمت بالمبالغة وهي مبالغة انتقلت من الاغريق الى الاوربيين في العصور التالية . ومع هذا فان النظرة المجردة تبين ان لماراتون معنى استراتيجيا عميقا . كان الاجتياح الفارسي في عام ٤٩٠ (ق.م) عبارة عن هجوم قليل المدى ، محدود الاتساع ، غايته تلقين ارتيري واثينا (المدينتين اليونانيتين الضعيفتين) درسا قاسيا ، وإجبارهما على الاهتمام بشؤونهما الخاصة ، بدلا من دفع الرعايا اليونانيين في آسيا الوسطى للثورة ضد الفرس . وتم تدمير اريتري وتهجير سكانها الى الخليج العربي . ثم جاء دور اثينا ، وكانت جماهيرها الشعبية تنتظر التدخل الفارسي ليدعم موقفها ضد طبقة النبلاء .

وبدلا من السير مباشرة نحو اثينا انزل الفرس جنودهم في ماراتون ، في

الشمال الشرقي من اثينا ، وعلى بعد ١٤ ميلا منها . وكانت غايتهم من هذه المناورة ، جذب الجيش الاثيني نحوهم ، ليفسحوا المجال لانصارهم للاستيلاء على السلطة من داخل المدينة بعد خروج القوات الاثينية منها ، بدلا من القيام بهجوم مباشر يقوي وحدة كل العناصر المختلفة في المدينة ، ويعيق حدوث الانقلاب فيها، ويعرض المهاجمين لصعوبات الحصار المتعددة .

ونجحت خطة الفرس . وسار جيش اثينا نحو ماراتون لمقابلتهم ، واستعد الفرس عندئذ لتنفيذ القسم الثاني من مخططهم الاستراتيجي ، فأعادوا تحميل معظم قواتهم على السفن تحت حماية مفرزة من الجند ، بغية التوجه الى فالير والقيام بانزال القوات هناك لتتجه بعد ذلك الى اثينا التي حنت من حاميتها .

ولكن ميلسياد هاجم بعنف ودون انتظار مفرزة التغطية الفارسية ، وانتصر بفضل قوة دروع اليونانيين وطول رماحهم ، وهي ميزة كانت دائما مصدر تفوق اليونانيين على الفرس . وكانت المعركة قاسية مريرة لكلا الطرفين ، بعكس ما تحاول الاساطير اليونانية اظهارها به . واستطاع القسم الاكبر من المفرزة الفارسية الانسحاب والالتحاق بالاسطول الفارسي . وعاد اليونانيون فورا نحو عاصمتهم ، وتم انقاذ العاصمة بفضل سرعتهم وتردد الجماهير التي فقدت الامل فلم تقدم على مساعدة الفرس . ولما وصل الخبر الى الفرس وجدوا انفسهم مضطرين لحصار المدينة ان ارادوا احتلالها فنشروا قلوعهم عائدين الى آسيا ، خاصة وان داريوس (١) لم يجد هذه الحملة التأديبية أهلا لتضحيات باهظة .

ولم يقم الفرس بجهد جديد ضخم الا بعد عشر سنوات . وكان اليونانيون بطيئين في استغلال الدرس الذي لقنه لهم الفرس ، فلم يقرروا تقوية الاسطول الا في عام ٤٨٧ (ق.م) . ولقد اثبت هذا الاسطول فيما بعد انه عامل حاسم ، قادر على تحقيق توازن القوى بتفوق بحري يعادل التفوق البري الفارسي . وتؤكد الحقائق التاريخية ان سبب انقاذ اثينا واوربا من خطر غزو جديد سريع ، يعود الى انشغال الفرس من عام ٤٨٦ الى عام ٤٨٤ (ق.م) بثورة في مصر ، ووفاة داريوس اعظم ملك فارسي في عصره .

وفي عام ٤٨١ (ق.م) ظهر الخطر من جديد ولكن على مستوى اكبر . وكان مشروع الغزو كبيرا لدرجة جعلت كسيركسيس (٢) ملك الفرس يثق كثيرا في قوته ويستخدم الهجوم المباشر ، كما اجبرت جميع المدن اليونانية على الاتحاد لصده . وكان الجيش الفارسي اكبر من ان ينقل بحرا ، فقرر كسيركسيس

---

١ ــ داريوس الاول : ملك الفرس من ٥٢١ الى ٤٨٦ (ق.م) .

٢ ــ كسيركسيس الاول : ملك الفرس من ٤٨٥ الى ٤٦٥ (ق.م) ابن داريوس الاول وهو الذي أستطاع اخماد الثورة في مصر ثم حاول تطبيق مخطط ابيه ضد الاغريق وتتابعت انتصاراته حتى معركة سالامين . «المعرب»

سلوك الطريق البري ، كما قرر استخدام الاسطول في التموين ، لان تموين جيش كبير بوسائطه المباشرة من البلاد التي يمر بها ، أمر متعذر . وهكذا ارتبط الجيش بالشاطىء وارتبط الاسطول بالجيش ، وغدا كل منهما خاضعا للآخر فعرف اليونانيون بذلك اتجاه الهجوم الذي سيسلكه عدوهم بصورة أكيدة .

وقد اتاحت طبيعة البلاد لليونانيين سلسلة من المواقع تمكنهم من الدفاع عنها بصلابة وإيقاف كل تقدم على محور الهجوم . ويقول **غروندي** : لو تمكن اليونانيون من انهاء سوء التفاهم والاختلافات فيما بينهم لما استطاع المهاجمون الوصول الى تيرموبيل . وعلى كل حال سجل التاريخ قصة خالدة عندما استطاع الاسطول اليوناني تفتيت قوى الغزو نهائيا بضرب الاسطول الفارسي في سالامين، بينما وقف كسيركسيس وجيشه على البر ينظرون مكتوفي الايدي الى عملية تحطيم أسطولهم الحربي ووسيلتهم الاساسية للتموين .

ويعود نجاح هذه المعركة البحرية الحاسمة الى حيلة هي في حد ذاتها أسلوب من اساليب الهجوم غير المباشر . اذ وجه تيمستوكل (٣) الى كسيركسيس خطابا يبلغه فيه استعداد الاسطول اليوناني للانضمام اليه. وخدعت الحيلة كسيركسيس وصدق الامر ودفع بالاسطول الفارسي في ممرات ضيقة فأفقده قيمة تفوقه العددي . ولقد أوحى الى تيمستوكل بفكرة الخطاب خوفه من انسحاب حلفائه اهالي البيلوبونيز من سالامين كما جاء في اقتراحهم خلال المؤتمر الحربي الكبير الذي سبق المعركة ، وتركه وحيدا امام قوة الفرس القادرة على سحقه في عرض البحر بفضل تفوقها العددي .

وارتفع في معسكر الفرس صوت واحد يعارض رغبة كسيركسيس الداعية للدخول في المعركة وهو صوت الملكة اختيميز ملكة اليكارناس التي اصرت على استخدام مخطط آخر يتضمن الغاء الهجوم المباشر والاعتماد على مناورة الاسطول بالتعاون مع القوات البرية في حركة تتجه نحو البيلوبونيز لان تهديدا كهذا يجبر أسطول البيلوبونيز على الاتجاه بسرعة نحو الجنوب مما يؤدي الى تفريق قوى أسطول المدن اليونانية المتحدة .

وكانت هذه الفكرة سليمة ، كما ان شكوك تيمستوكل في حلفائه كانت قوية ، واستعدت سفن البيلوبونيز للانسحاب في صبيحة اليوم التالي ، الا ان سفن

---

٣ ـ تيمستوكل: قائد وسياسي أثيني ولد في اثينا حوالي عام ٥٢٥ (ق.م) ومات عام ٤٦٠ (ق.م) وهو رئيس الحزب الديموقراطي . ولقد نصح الاثينيين بأن يوجهوا كل اهتمامهم الى البحر . وعارضه رئيس حزب النبلاء فنفاه وبنى ميناء بيريه وأسس اسطولا كبيرا كان له الفضل الاول في انتصار سالامين البحري ثم قام خصومه السياسيون بمناورات ضده واتهموه بعدة اتهامات نفي على اثرها من البلاد . ولكنه فر من المنفى وعرض عليه ملك الفرس أرتاكسيركيس راتبا كبيرا فرفض خيانة وطنه وانتحر بالسم ٤٦٠ (ق.م) . «المعرب»

الفرس سدت في وجهها جميع المنافذ الى عرض البحر ، واخذت وضع الانطلاق للهجوم .

وسار الهجوم منذ بدايته فيغير صالح الهاجمين ، اذ انسحبت مفرزة يونانية فجذبت خلفها الاسطول الفارسي الثقيل مما افقده ترتيبه فدخل المعركة في وضع غير ملائم . ولما توغل المهاجمون في الممرات المائية الضيقة انسحبت المراكب اليونانية ، واسرعت المراكب الفارسية للحاق بها ، فتكدست في كتل متراصة ، وتعرضت بذلك الى الهجوم اليوناني المضاد على مجنبتها .

ولعل امتناع الفرس عن التدخل في شؤون اليونان بعد هذه المعركة ، مدة سبعين عاما ، راجع الى قدرة اليونانيين على القيام بهجوم غير مباشر على شكل تهديد مواصلات خصومهم . ويؤكد هذه الفكرة ، ظهور وضع مشابه بعد تدمير اسطول اثينا امام سيراكوز في صقلية .

واذا حللنا التاريخ وجدنا ان استخدام الحركة الاستراتيجية في البحر بغية اجراء هجوم غير مباشر اقدم من استخدمها في الحروب البرية . ويمكن تفسير ذلك ، بأن الجيوش البرية لم تستقل عن «خطوط مواصلاتها» للامداد والتموين الا بعد فترة طويلة . اما الاساطيل فمن طبيعة عملها القيام بعمليات على خطوط المواصلات البحرية وطرق تموين البلاد المعادية .

وقد ادى انتصار سالامين الى زوال الخطر الفارسي ، وسيطرت اثينا على كل المدن اليونانية ولم تنته هذه السيطرة الا في حرب البيلوبونيز (٤٣١ — ٤٠٤ ق.م) التي كانت حربا ساحقة ، لم تلحق الدمار بالخصم فحسب ، بل الحقته بحلفائه والمحايدين . ويرجع طول مدتها البالغة ٢٧ سنة الى عدم استقرار الاستراتيجية الناجم عن عدم فعالية الخصمين ، وانعدام الاهداف المحددة بدقة.

حاولت اسبارطة وحليفاتها في المرحلة الاولى اجتياح بلاد الاتيك بصورة مباشرة ، ولكن بريكليس (٤) منع ذلك ، مستخدما سياسة حربية تتلخص في تجنب الاشتباك البري بغية استخدام التفوق البحري اليوناني بشكل أفضل ، وقتل رغبة العدو الهجومية بسلسلة من الاغارات التخريبية . ورغم شهرة «استراتيجية بريكليس» مثل «استراتيجية فابيوس» (٥) التي جاءت بعدها ، فانها لا تعطي سوى فكرة تقريبية عن شكل هذه الحرب . وللدقة في اختيار

---

٤ — بيريكليس : رجل دولة في اثينا اصبح في ٤٥٩ (ق.م) منافسا لسيمون ورئيسا للحزب الديموقراطي . وكان له على مواطنيه تأثير كبير لمصلحتهم . وبعد موت سيمون وضع على أسس متينة القوة البحرية والاستعمارية الاثينية . ودخل في حروب عدة وأحرز انتصارات مختلفة وكان عصره من أزهر عصور اليونان . «المعرب»

٥ — فابيوس : عين حاكما مطلقا في ٢١٧ (ق.م) واستطاع بتكتيكه الحذر وقف تقدم هانيبال. ولكنه لم يستطع منع معركة (كان) التي انهزم فيها الرومان بسبب مقاومة حزب الشعب له .

الالفاظ تقول : ان كلمة «استراتيجية» تعني أصلا استخدام القوات المسلحة او الوسائط العسكرية البحتة ، بينما تعني «سياسة الحرب» تحديد اتجاه الوسائط العسكرية وتامين توافقها مع الوسائط الاخرى، الاقتصادية والسياسية والمعنوية. وليست سياسة الحرب سوى «استراتيجية عليا» على مستويات كبيرة . ومن هنا نستنتج انه لا يمكن اعتبار مخطط بيريكليس «هجوما غير مباشر» يهدف الى تحطيم توازن الخصم للوصول الى نصر حاسم ، بل على العكس يمكن اعتباره نابعا من استراتيجية عليا هدفها تفتيت قوة العدو باستمرار حتى يصل الى الاعتقاد بأنه عاجز عن القيام بعمل يفيده .

وشاء سوء حظ اثينا ان ينتشر وباء الطاعون في المدينة ، مما ادى الى انهيار المخطط الذي يعتمد على التخريب المعنوي والاقتصادي للعدو . وفي ٤٢٦ (ق.م) اعطت استراتيجية بيريكليس مكانها لاستراتيجية الهجوم المباشر ، التي نادى بها كليون وديموستين وهي سياسة اكثر كلفة واقل نتيجة ، رغم الانتصارات التكتيكية الباهرة التي تتخللها . وفي بداية شتاء ٤٢٤ (ق.م) انتزع برازيداس الاسبارطي (٦) ، دفعة واحدة ، كل الميزات التي حصلت عليها اثينا حتى ذلك الوقت بشق الانفس ، عندما قام بحركة استراتيجية تهدف الى اجتثاث «جذور» قوة اثينا لا مجرد قطع «جذعها» .

تجاوز برازيداس المدينة المعادية دون ان يبدي نحوها اي اهتمام ، وسار بسرعة نحو الشمال مخترقا بلاد اليونان كلها . وانقض على كالسيديك احدى مستعمرات اثينا ، التي كانت تدعى بحق «عقب أشيل» (٧) امبراطورية اثينا . وجمع برازيداس الضغط العسكري الى الوعد بالحرية والحماية لجميع المدن الراغبة في التخلص من وصاية اثينا . فهز بذلك قوة اثينا في كالسيديك لدرجة كبيرة . واصيب جيش اثينا في امفيبوليس بهزيمة نكراء . ولكن برازيداس مات لحظة انتصاره ، فحصلت اثينا على فترة من السلم المؤقت مع إسبارطة .

وفي سنوات السلم الكاذب التالية وجهت اثينا عدة حملات لاسترداد كالسيديك دون جدوى . ثم قامت بعملية ضد سيراكوز مفتاح صقلية التي كانت مصدر الموارد التموينية للاسبارطيين وبلاد البيلوبونيز . واظهرت هذه العملية ، التي تعتبر من الاستراتيجية العليا للهجوم غير المباشر ، خطأ الهجوم على شريك العدو الاقتصادي بدلا من مهاجمة حليفه الحقيقي . اذ ادى هذا الهجوم الى

---

٦ ــ برازيداس : قائد اسبارطي انتصر على اليونان في امفيبوليس ثم قتل يوم انتصاره في ٤٢٢ (ق.م) . «المعرب»

٧ ــ عقب اشيل : تعبير يقصد به نقطة الضعف في قوة ما . وأصل التعبير راجع الى الياذة هوميروس التي تذكر : ان أم اشيل امسكته من عقبه وغمرته بماء النهر المقدس فغدا جسمه محصنا من الاصابة الا عقبه الذي لم يغمر . وفي معركة حصار طروادة اصابه سهم مسموم في عقبه فمات. «المعرب»

انضمام قوى وحلفاء جدد الى معسكر اسبارطة ، بدلا من اجبارها على توزيع قواتها كما كان متوقعا .

ومع ذلك ، فان نجاحا اقتصاديا ومعنويا كهذا كان قادرا على قلب ميزان القوى في الصراع ، ولو لم يرتكب الاثينيون اخطاء فاحشة عند التنفيذ ، ومن اهمها عزل السيبياد (٨) واضع الخطة الاصلية من القيادة نتيجة مناورات خصومه السياسيين ، وبدلا من العودة الى اثينا والمثول امام المحكمة بتهمة دينية جزاؤها الاعدام ، هرب السيبياد الى اسبارطة حيث قدم النصح لاعدائه السابقين ، ودلهم على التدابير الضرورية لاحباط مخططه . ولم ينته الامر عند هذا الخطأ ، بل كلفت اثينا نيسياس اشد المعارضين اصلا لهذا المخطط ، للقيام بتنفيذه ، وكان رجلا عنيدا أحمق ففشل .

وهكذا فقدت اثينا جيشها قرب سيراكوز ، ولكنها بقيت قادرة على تفادي الهزيمة على ارضها بفضل استخدام اسطولها بشكل جيد . فدخلت في حرب بحرية دامت تسع سنوات وبدات تنتزع السلم لمصلحتها وتسترد امبراطوريتها السابقة ، حتى جاء الاميرال الاسبارطي ليزاندر (٩) فدمر الآمال الجديدة لأثينا في ٤٠٥ (ق.م) .

والدراسات التاريخية القديمة في جامعة كمبردج تذكر عنه بهذا الصدد ما يلي : «كانت خطته في الحرب تقوم على تحاشي القتال ، والانسحاب امام الاثينيين ، ثم ازعاجهم وبلبلتهم باستمرار بضربهم في النقاط الحساسة لامبراطوريتهم » .

ويبدو القسم الاول من هذا القول بعيدا عن الصحة ، اذ لم يحاول ليزاندر في خطته تحاشي المعركة ، ولكنه حاول التقرب منها بشكل غير مباشر ، فما ان وجد الوقت ملائما والظروف مساعدة حتى اندفع الى القتال ، وفي يده كل امكانيات النجاح . لقد قام الاميرال الاسبارطي بتبديل اتجاه حركته بشكل مستمر ؛ حتى خدع خصومه ووصل الى مدخل الدردنيل فكمن هناك منتظرا مرور القافلة البحرية التي تحمل حبوب شواطىء البحر الاسود الى اثينا . وكان التموين بالحبوب بالنسبة لأثينا مسألة حياة او موت . وهنا أسرع قادة الاسطول الاثيني بارسال ١٨٠ مركبا لحماية القافلة، وحاولوا خلال اربعة ايام ارغام ليزاندر على الاشتباك في القتال ولكن دون جدوى . وبذل ليزاندر قصارى جهده

---

٨ ـ السيبياد : قائد أثيني ماهر طموح وبدون مثل عليا (٤٥٠ ـ ٤٠٤ ق.م) كان تلميذ سقراط المفضل ثم غدا رئيسا للحزب الديموقراطي فقام بمغامرة ضد صقلية ٤١٥ ق.م ثم عزل لانه أهان تمثال هيرميس المقدس ، ثم سافر الى اسبارطة وبعدها صالح أثينا ثم طرد منها ثانية ومات مقتولا في المنفى . «المعرب»

٩ ـ ليزاندر : قائد أسبارطي هزم الاثينيين واحتل اثينا في ٤٠٥ ق.م ثم قتل في ٣٩٥ ق.م وكان ماهرا قويا بارعا حتى لقد كان يقال عنه انه كان قويا كالاسد ماكرا كالثعلب . «المعرب»

ليقنعهم بأنه واقع في الفخ لا محالة ، واقتنعوا بذلك فلم يلجأوا الى مرفـــأ سيستوس للقيام بالتموين ، بل وقفوا في مقابله في مضيق ايغوس بوتاموس . وفي اليوم الخامس نزلت اكثر العناصر الى البر لجمع المؤونة ، فاندفع ليزاندر مهاجما بمراكبه واسر معظم اسطول اثينا . وكانت ساعة واحدة كافية لوضع حد لأطول الحروب .

وهكذا يمكننا ان نرى الفشل الذريع ، والخسارة الفادحة ، لكل محاولات الهجوم المباشر خلال هذه الحرب التي دامت ٢٧ عاما ، والتي تقرر خلالها مصير اثينا نهائيا بفضل مناورة برازيداس ضد جذور القوة في كالسيديك . اما امل اثينا الوحيد لقلب الموقف فكان ماثلا فـي التقرب غير المباشر الذي حاولـــه السيبياد، على مستوى الاستراتيجية العليا ، ضد «جذور» اسبارطة الاقتصادية في صقلية ثم تبدد هذا الامل وفر السيبياد . وجاءت الضربة النهائية على البحر بعد ١٠ سنوات من الصراع ، بفضل هجوم غير مباشر تكتيكي ناجم عن هجــوم غير مباشر استراتيجي ، على مستوى الاستراتيجية العليا ، لان الفرصة التكتيكية نفسها جاءت من جراء تهديد خط المواصلات «الوطنية» لأثينا . لقد اختار ليزاندر هدفا اقتصاديا مكنه من تدمير قوة عدوه ، ثم استغل الخوف والتوتر اللذيـــن اجتاحا اثينا بعد هذه الموقعة ، وخلق منهما ظروفا ملائمة للمفاجأة ، والحصول على نصر عسكري سريع .

كان سقوط امبراطورية اثينا بداية مرحلة جديدة في تاريخ اليونان ، تمتاز باحتلال اسبارطة سدة الرئاسة بين بقية المدن اليونانية . فما هي العوامل التي اثرت بعد ذلك على مصير اسبارطة وانهت تفوقها ؟؟ ان العامل الاساسي ولا شك كان ظهور القائد ايبامينونداس (١٠) وتفوقه في فن الحرب . وفي السنــــوات التي سبقت ظهوره تخلصت طيبة من وصاية اسبارطة باستخدام الطريقة المسماة «استراتيجية فابيوس» التي تعتمد على تجنب الاشتباك في معركة . وهي في حد ذاتها استراتيجية عليا للهجوم غير المباشر ، وفي الوقت نفسه ، استراتيجيـــة بسيطة لتحاشي الاصطدام . وفي هذا الوقت كانت جيوش اسبارطة تطوي بلاد بيوسيا دون ان تلاقي مقاومة جدية . مما اعطى طيبة الوقت الكافي لتحضــــير مجموعة من العناصر الممتازة المختارة ، عرفت فيما بعد باسم الكتيبة المقدسة ، وغدت بمثابة رأس الحربة في جيشها .

ولقد ادت هذه الطريقة الى زيادة رغبة المدن الواقعة تحت وصاية اسبارطة في التخلي عن سيادتها . كما استطاعت اثينا آنذاك استخدام كل امكانياتها لبنـــاء

---

١٠ ـ ايبامينونداس : قائد وسياسي طيبي ولد عام ٤١٨ (ق.م) وهو احد زعماء الديموقراطية في طيبة انتصر في لوكتر ومانتينيه ضد اسبارطة ثم مات من جرح في المعركة الاخيرة في ٣٦٢(ق.م) وبوفاته زالت عظمة طيبة . «المعرب»

الاسطول بعد ان تخلصت قواتها البرية من الضغط الواقع عليها . حتى ان الاتحاد الاثيني الذي دخلت فيه طيبة وجد في ٣٧٤ (ق.م) ان اسبارطة مضطرة لقبول صلح لا يؤمن مصلحتها .

ولقد خرقت إثينا هذا الصلح بعد قليل وقامت بعملية بحرية ، ولما تعبت من الحرب بعد ٣ سنوات ، وعادت لتحضر مؤتمر صلح جديد ، وهنا ربحت اسبارطة على مائدة المفاوضات ما خسرته في حقل المعركة ، واستطاعت عزل طيبة عن حليفاتها . ثم استعدت لمهاجمتها بشكل محموم . وفي ٣٧١ (ق.م) دخل جيش اسبارطة بلاد طيبة وكان آنذاك متفوقا بالخبرة والعدد (١٠ آلاف رجل مقابل ٦ آلاف) ، ولكنه أندحر في لوكتر بشكل حاسم عندما قابله جيش طيبي جديد التشكيل بقيادة ابامينونداس ، الذي اهمل نهائيا جميع الطرق التكتيكية القديمة ، ووضع اسسا جديدة للتكتيك والاستراتيجية ، والاستراتيجية العليا ، بنى عليها القادة بعده فنا حربيا حديثا . كما عاشت التشكيلة القتالية التي وضع اسسها مدة طويلة بعده . ولقد تبنى فريدريك الثاني بعد ذلك بعدة قرون طريقة ابامينونداس واستخدم تكتيك «الترتيب المائل» فحصل على النصر . وضع ابامينونداس في معركة لوكتر معظم قواته واكثرها استعدادا على جناحه الايسر، مخالفا بذلك القواعد التقليدية ، وترك قلبه وجناحه الايمن ضعيفين نسبيا ، فحصل بذلك على تفوق ساحق مقابل احد اجنحة العدو الذي يقف فيه قادتهم وتستند اليه تشكيلاتهم .

وفي السنة التالية تبوأ ابامينونداس قيادة قوات جامعة بلاد اركاديا المشكلة حديثا ، وسار نحو اسبارطة التي لم يدخلها احد حتى ذلك الحين ، مجتازا بذلك بلاد البيلوبونيز التي كانت منطقة تابعة لاسبارطة منذ امد طويل . ويمتاز هذا التقدم باستخدام الهجوم غير المباشر بشكل متنوع ، اذ تم تنفيذه شتاءً على ثلاثة أرتال متفرقة ومتجهة لهدف واحد ، مما خدع العدو وبلبل افكاره فلم يعرف اتجاه وأهمية الخطر . وهذه حالة لا مثيل لها تقريبا في الحروب القديمة والحديثة حتى ظهور نابليون .

اما حسه الاستراتيجي السليم فبدا بكل وضوح عندما جمع قواته في كارغ على بعد ٢٠ ميلا من اسبارطة ، والتف حول العاصمة واتجه اليها من مؤخرتها، مما أعطاه مزايا كبيرة منها امكانية ضم أعداد كبيرة من شعب الايلوت والشعوب الاخرى الى صفه . فأسرع الاسبارطيون لايقاف هذه العملية الخطرة التي ترمي الى تفتيت الوحدة الداخلية ، ووعدوا بالحرية جميع الشعوب الراغبة فيها . ووصلت النجدات من حلفاء اسبارطة في بلاد البيلوبونيز في الوقت المناسب ، فانقذها ذلك من الانهيار واصبح احتلالها بحاجة الى حصار كامل .

ادرك ابامينونداس بسرعة انه لن ينجح في جذب جيش اسبارطة الى الارض المكشوفة ، وان تطويق المدينة مدة طويلة يؤدي الى اضعاف قوته غير المتماسكة تماما ، فترك السلاح الاستراتيجي البالي ليستخدم سلاحا اشد مضاءً ، وهو

استراتيجية الهجوم غير المباشر . فأسس في مون ايتوم (حصن مسينا الطبيعي) مدينة اصبحت فيما بعد عاصمة دولة جديدة ، ووضع فيها جميع العناصر الناقمة على اسبارطة والموالية له ، وجمع الغنائم والمؤن المستولى عليها خلال الغزو وزوّد بها الدولة الحديثة ، كي يستطيع في المستقبل معادلة قدرة اسبارطة في جنوب اليونان . فأفقد اسبارطة بهذا العمل نصف أرضها وأكثر من نصف رعاياها ، ثم ضربها ضربة جديدة وحاصرها سياسيا وعسكريا بشبكة من الحصون ، وأفقدها المنابع الاقتصادية لقوتها العسكرية عندما أسس مدينة ميغالوبوليس في اركاديا . وبعد صراع دام عدة اشهر ترك ابامينونداس بلاد البيلوبونيز دون الحصول على نصر في معركة على ارض مكشوفة ، على حين حطمت استراتيجيته العليا نهائيا قواعد قوة اسبارطة .

عندها أصيب سياسيو طيبة الراغبون في نصر عسكري ساحق بخيبة أمل . كما ان اتباع سياسة قصيرة النظر ، وديبلوماسية فاشلة ، خلال غياب ابامينونداس أفقد ديموقراطية طيبة ما جمعته في الماضي من ميزات . وأبدى حلفاؤها الاركاديون تذمرهم وجحودهم وجادلوها على حقها في السيطرة عليهم . وفي ٣٦٢ ق.م وصلت طيبة الى موقف حرج ، فاما ان تفرض سلطتها بالقوة او تفقد هيبتها نهائيا . فقامت بعمليات ضد أركاديا قسمت اليونان من جديد الى كتلتين متنازعتين . ومن حسن حظ طيبة ان ابامينونداس كان في خدمتها ، فجنت ثمار خدمته واستراتيجيته العليا عندما دعمت المدن التي بناها في مسينا وميغالوبوليس موقف طيبة ، واجبرت طيبة على احترام خط الحدود .

توغل ابامينونداس في بلاد البلوبونيز فضم قواته الى قوات حلفائه في تيجة . ووقف بين اسبارطة وقوى البلاد الاخرى المعادية لطيبة المتجمعة في مانتينيه ، وهنا حاول الاسبارطيون استخدام طريق منعطف للوصول الى حلفائهم، فانقض ابامينونداس برتل متحرك سريع في اتجاه اسبارطة نفسها ، ولكن احد عساكره هرب والتحق بالاسبارطيين ، وانذرهم بالخطر في الوقت المناسب ، فعادوا الى مدينتهم بسرعة ، وفشلت هذه الإغارة . عندها وجد القائد الطيبي نفسه مضطرا للبحث عن النصر في معركة نظامية فتقدم من تيجة نحو مانتينيه التي تبعد حوالي ١٢ ميلا تقريبا ، ماراً في مضيق ضيّق تحصن الاعداء في موضع منيع فيه لا يزيد عرضه عن ميل واحد .

هنا بدات عملية استراتيجية وتكتيكية في آن واحد ادت الى اظهار خطأ كل الاحكام النظرية الجامدة . ويرجع النصر الذي احرز في مانتينيه قبل كل شيء الى الهجوم غير المباشر اذ سار إيبامينونداس في بادىء الامر مباشرة نحو معسكر الاسبارطيين ، فأجبرهم بذلك على اخذ تشكيلات القتال تجاه الخطر المتوقع . فلما وصل الى بعد عدة اميال من معسكرهم استدار بسرعة نحو اليسار مخفيا حركته الدائرية خلف المرتفعات الصخرية في الوادي ، ومهددا بهذه الحركة المفاجئة جناح العدو الايمن من الجانب ثم عمل على بلبلة تشكيلات العدو بأن أعطى الاوامر لجيشه بالتوقف ، ووضع السلاح والعتاد على الارض ، كما لو

كان الغرض من توقفه نصب الخيام والاقامة . ونجحت الحيلة ، واعتقد العدو ان المعركة غدت بعيدة الوقوع ، فترك مواقعه ، وحل تشكيلاته ، وسرّح خيوله ، واخذ وضع الراحة .

عندها وضع ايبامينونداس وحداته في أماكنها بتشكيلة تشبه تشكيلة معركة لوكتر ، مغطيا عمله بستارة من الوحدات الخفيفة ، وباشارة واحدة حمل الطيبيون سلاحهم وانقضوا على الاسبارطيين ، وحصلوا على نصر سبقه ومهد له تحطيم توازن العدو قبل المعركة . وسقط ايبامينونداس صريعا لحظة انتصاره ، فأعطى للاجيال القادمة بموته درسا ثمينا يبين كيف يؤدي شلل مخ الدولة او الجيش الى الانهيار والتفتت .

بعد ٢٠ سنة وفي ٣٣٨ (ق.م) ، جرت معركة حاسمة اعطت مقدونيا التفوق على جميع المدن اليونانية . ولهذه المعركة معنى كبير اذا نظرنا اليها من خلال نتائجها المباشرة ، كما انها تعطي المثل الحي لنتائج تعاون السياسة والاستراتيجية وكيف تستفيد الاستراتيجية من الحواجز والصعوبات الجغرافية التي قد تبدو معوقة لها .

كان المهاجم دخيلا رغم كونه يونانيا . وكان الاتفاق قد تم بين طيبة واثينا على انشاء رابطة يونانية توقف قدرة مقدونيا على التوسع . ووجدت هذه الفكرة تأييدا خارجيا عند ملك الفرس ، الامر الذي يثير التعليق حول طبيعة التاريخ ، وطبيعة النفس البشرية .

وهنا عرف المهاجم كل اهمية الهجوم غير المباشر . حتى ان سبب الاعتداء الذي شنه فيليب المقدوني (١١) لتأمين التفوق ، كان غير مباشر . كان فيليب مدعوا من لجنة المندوبين (امفيكيتون) للمشاركة في عقاب مدينة امفيسا ، في غرب بيوسيا لارتكابها خطيئة دينية . ولعله ابتدع بنفسه هذه الدعوة وبثها امام الراي العام مما اثار ضدها طيبة واثينا وضمن حياد المدن الاخرى لمصلحته .

توجه فيليب نحو الجنوب ، ثم غيَّر اتجاهه فجأة ، وفي مدينة سيتينوم ترك طريق امفيسا الذي كان اتجاه التقدم الذي يتوقعه العدو ، ثم احتل مدينة ايلاته وحصنها . ولقد اثبتت الحوادث فيما بعد ، ان التصرف بهذا الشكل منذ بداية المعركة ، والتبديل السريع للاتجاه دليل على وجود اهداف سياسية جريئة ، وغايات استراتيجية هامة . كان الطيبيون والبيوسيون قد اغلقوا الطريق الى بيوسيا وهذا يعني الطريق الغربي من سيتينيوم الى امفيسا والطريق الشرقي من بارابوتاميوا الى ايلاته وكورونة . ويمكن تشبيه هذه الطرق بحرف «U»

---

١١ ـ فيليب الثاني (٣٨٢ ـ ٣٣٦) ق.م منظم المالية والجيش في مقدونيا سمى نفسه بعد انتصاراته سيد البلاد اليونانية . وبعد ان سيطر على بلاد اليونان اراد التوجه الى بلاد الفرس حيث اغتاله احد النبلاء . «المعرب»

على اعتبار ان الطريق الاول هو الضلع الطويل العمودي ، والطريق الثاني يمثل الضلع القصير الافقي وممر كيرونة مطابق بامتداده الى الاضافة الصغيرة الواقعة في نهاية الحرف .

ولقد فضل فيليب التريث قبل القيام بحركة جديدة . وقرر اتخاذ تدابير تكفل إضعاف خصومه سياسيا بتشجيع عملية استرداد مدن فوسيدا التي اجتاحها الطيبيون ، وتحطيمهم معنويا بتقمّص شخصية بطل إله مدينة دلف .

في ربيع ٣٣٨ (ق.م) تقدم فاتحا طريقه بالخدعة . حيث ان احتلاله إيلاته لفت الانتباه الاستراتيجي المعادي الى الطريق الشرقي ، الذي أصبح منذ ذلك الوقت «الخط المحتمل» لخصومه . ثم قام بخدعة تكتيكية ضد القوى المعادية التي تسد الطريق الغربي ، بأن دبر وقوع رسالة في يدها تدل على رغبته في الانسحاب نحو تراقيا .

عندئذ ترك فيليب سيتينيوم بسرعة ، وعبر الممر ليلا فوصل الى امفيسا غرب بارناس ، ثم اندفع نحو نوباكت فأمن لنفسه خط مواصلات بحري ، وهدد من بعيد مؤخرة المدافعين عن الممر الشرقي الامر الذي اضطر العدو الى ترك بارابوتاميوا نظرا لان بقاءه فيها غير مجدٍ ، علاوة على تعرض خط مواصلاته للانقطاع .

وهنا ترك فيليب «الخط المحتمل» وقام بهجوم غير مباشر جديد ، فبدلا من التوجه الى امفيسا الى الشرق عبر ارض وعرة تلائم العدو المدافع ، نجده وقد سار بسرعة نحو سيتينيوم وإيلاته ، ثم انحرف نحو الجنوب عبر ممر بارابوتاميوا الذي لم يعد محروسا ، فسقط بذلك فوق الجيش المعادي في كيرونة . ولقد مهدت هذه المناورة الاستراتيجية للنصر في المعركة التي جاءت بعدها ، وزاد من تأثيرها تكتيك جيد طبقه فيليب الذي خدع الاثينيين بالتراجع امامهم ، فجذبهم خارج مواضعهم ، واجبرهم على الاندفاع لاحتلال الارض التي تركها . وما ان تم خروجهم حتى قام بهجوم معاكس شتت شملهم . وبانتصار فيليب في كيرونة سيطرت مقدونيا على اليونان .

انتهت حياة فيليب قبل ان يمد فتوحاته الى آسيا . وكان على ابنه تنفيذ المعركة التي قام بتحضيرها . وورث الاسكندر (١٢) المخطط وأداة تنفيذه النموذجية وهي الجيش الذي دعمه فيليب وعززه (١٣) ، علاوة على فكرة

---

١٢ ـ الاسكندر المقدوني «ذو القرنين» (٣٥٦ ـ ٣٢٣) ق.م تلميذ اريسطو . سيطر على بلاد اليونان ثم هزم الفرس واحتل سورية ومصر وحررهما من الفرس ثم اجتاز دجلة والفرات واحتل بلاد بابل ووصل الى الهند ثم عاد الى بابل ، وشكل حضارة مختلطة من البلاد الغالبة والمغلوبة ، وخلق امبراطورية كبيرة لم تدم بعد وفاته وتقاسمها قواده وبدأت بينهم حروب طويلة منهكة. «المعرب»

١٣ ـ امضى فيليب ٣ سنوات من شبابه في طيبة كرهينة . وكان ابامينونداس آنذاك في ذروة عظمته . ويمكن ملاحظة تأثير هذه الفترة عليه اذا نظرنا إلى تكتيك جيشه المقدوني فيما بعد.

استراتيجية عليا ، كما ورث مداخل الدردنيل الهامة جداً والتي احتلها أبوه في عام ٣٣٦ (ق.م) .

اذا فحصنا خريطة حملة الاسكندر ، وطريق تقدمه في آسيا ، لاحظنا تعرّج الخط الذي يرسمه تقدمه . ويكشف التحليل التاريخي ان معظم اسباب هذا التقدم غير المباشر سياسية وليست استراتيجية، وسياسية هنا تعني استراتيجية عليا . ولقد كانت استراتيجيته الادارية والتموينية في معاركه الاولى مباشرة وبدون عمق . ويمكن تفسير ذلك ، بأن الاسكندر الشاب المؤهل للملك والمعد لكل انتصار ، كأن يملك صفات البطل الاسطوري اكثر من اي قائد مشهور في التاريخ (١٤) . فضلا عن ثقته الكبيرة بتفوق جهازه الحربي وامتياز قيادته . ولم يترك له كل هذا مجالا للتفكير بضرورة تحطيم التوازن الاستراتيجي المعادي قبل المعركة . لذا تفيد معاركه في دراسة الاستراتيجية العليا والتكتيك فقط .

وفي ربيع ٣٣٤ (ق.م) تقدم الاسكندر على ضفة الدردنيل الغربية متجها نحو الجنوب ، وهزم مفرزة التغطية الفارسية على ضفاف الغرانيك وفي هذه المعركة أخذ الفرس بكثافة واندفاع الخيالة المقدونية المسلحة برمح قصير ، وقدروا ان تركيز الجهد على الاسكندر نفسه وقتله يعني قتل مشروع الغزو في مهده ، فهاجموا موضعه وكاد مشروعهم أن ينجح . ثم توجه الاسكندر نحو الجنوب ميمما شطر سارد مركز ليديا السياسي والاقتصادي ومنها توجه الى الغرب نحو ايفيز . ولقد اعطى كل هذه المدن اليونانية الحقوق المختلفة ، وشكل بها حكومات ديموقراطية ، معتبرا ذلك خير وسيلة لتأمين حماية مؤخرته . وتابع سيره مع بحر ايجة نحو الجنوب ، ثم توجه الى الشرق عبر بلاد **كاري وليسيه وبامفيليه** وكان يرمي من وراء هذا التقرب احتلال الموانىء التي تزود الفرس بالبحارة المتطوعين ، وانتزاع السيطرة البحرية منهم بحرمان أسطولهم من حرية المناورة على الشاطىء .

وعلى العكس ، كان شاطىء آسيا الصغرى مقابل بامفيليه من جهة الشرق محروما من المرافىء الحقيقية . وتوجه الاسكندر نحو الشمال ضد فريجة ، ثم تقدم نحو الشرق حتى أنسير «أنقرة حاليا» فدعم بذلك انتصاراته السابقة وعزز موقف مؤخرته في قلب آسيا الصغرى . وفي ٣٣٣ (ق.م) تابع سيره نحو سورية

---

١٤ ــ عندما بدا الاسكندر غزو آسيا ، تقمّص في شكل عاطفي شخصية هوميروس الاسطورية في حملته ضد طروادة . فترك جيشه على ضفة الدردنيل وقاد بنفسه مفرزة وعبر بها المضيق ونزل على الشاطىء المقابل في نفس النقطة التي كان الاعتقاد السائد حينئذ ان الاغريقيين نزلوا فيها اثناء حروبهم القديمة ضد طروادة . ثم تقدم نحو مدينة ايليون وقدم ضحية في معبد الآلهة اثينا، وقام بتمثيل معركة . ثم القى محاضرة تحدث فيها عن المكان الذي يظن ان سلفه الاسطوري اشيل قد أحرق فيه بعد موته ثم عاد الى جيشه بعد كل هذه المراسيم الرمزية ليقود عمليات حربية حقيقية.

حيث جمع داريوس الثالث قواته . وكان استطلاع الاسكندر ضعيفـــا فظن ان الفرس ينتظرونه في السهل ، فاتبع معهم خطة هجوم مباشر في الوقت الذي قام فيه داريوس الثالث بمناورته بصورة غير مباشرة ، عندما سار نحو هضاب المجرى العلوي للفرات ، ووصل الى مؤخرة المقدونيين. ورأى الاسكندر نفسه منعزلا عن قواعده التي اهتم كثيرا بتعزيز دفاعها وشعر بفشل فكرته الاستراتيجية ، فقام بمسير مضاد وتخلص من ورطته بفضل معركة إيسوس ، التي يرجع النصر فيها الى تفوق تكتيكه وجهازه الحربي . ويمكننا هنا ان نقول انه ليس في كبار القادة من استطاع ان يستفيد من الهجوم غير المباشر التكتيكي مثله .

ثم سار بعد ذلك في طريق غير مباشر على طول الساحل السوري بدلا مـــن التوجه مباشرة الى بابل قلب القوة الفارسية . ولقد فرضت عوامل الاستراتيجية العليا هذا الطريق عليه ، واجبرته على السير فيه ، وتفسير ذلك انه انتـــزع السيطرة البحرية من الفرس ، ولكنه لم يحطم كل وسائطهم البحرية ، ووجود هذه الوسائط تهديد خطير لمؤخرته ، بالاضافة الى ان المدن اليونانية وخاصـــة اثينا كانت تشكل خطرا كامنا ، وتنتظر الفرصة الملائمة للانقضاض عليه مـــن الخلف . وقد ادى احتلال الاسكندر لبلاد الفينيقيين واستسلام سفنهم له الـى حرمان الاسطول الفارسي من معظم قوته التي كانت تعتمد عليها . ثم استسلمت مراكب صور بعد سقوط المدينة نفسها . وسار المقدونيون بعد هذا النصر باتجاه الجنوب ودخلوا مصر . وهذه عملية صعبة تعددت الآراء في تفسير اهدافهـــا ويعتبر البعض انه كانت له غايات بحرية ، بينما يظن الآخرون انها كانت مجـــرد حيطة لم يشأ الاسكندر تجاهلها . ويمكن تفسير اسباب هذه الحركة اذا اخذنـــا بعين الاعتبار الاسباب السياسية وخاصة مخطط الاسكندر الرامي الى احتلال مجموع الامبراطورية الفارسية وفرض سيطرته عليها ، ومصر في مخطط كهذا عامل اقتصادي كبير الاهمية .

في عام ٣٣١ (ق.م) توجه الاسكندر الى الشمال في اتجاه حلب ثم ســـار نحو الشرق واجتاز نهر الفرات حاثا السير للوصول الى الحوض العلوي للنهـر قرب نينوى «الموصل حاليا» حيث جمع داريوس الثالث جيشا جديـدا كبيرا . وكان الاسكندر متشوقا لخوض المعركة ، ومع هذا كان هجومـــه غير مباشر ، فاجتاز الفرات وسار مع ضفته الشرقية ، فأجبر داريوس الثالث بذلك على تغيير مواضعه . وفي «غوغامل» جرت معركة تعرف باسم اربيل (مدينة تبعد ٦ أميال عن مكان المعركة) واظهر الاسكندر وجيشه تفوقا مطلقا على العدو . وبذلـك زال المانع الاخير الفعلي من طريق الاسكندر المؤدي الى هدف استراتيجيته العليا وهو احتلال بابل الذي تم فعلا بعد هذا النصر .

ثم توالت المعارك حتى وصوله الى تخوم الهند ، ولم تكن هذه المعارك سوى عمليات تصفية لتطهير الامبراطورية الفارسية وتقوية الامبراطوريـــة المقدونية . والتحم الاسكندر ممر أوكسيان والابواب الفارسية بتقرب غير مباشر . وعندمـــا

قابل بوروس (١٥) قرب نهر إيداسب قام بهجوم غير مباشر نموذجي يثبت بشكل جازم تفوق عبقريته الاستراتيجية . وقد جمع الاسكندر في هذه المعركة كميات كبيرة من المواد التموينية ، ونشر جيشه على طول الضفة الغربية للنهر ، فخدع خصمه واخفى رغبته الحقيقية . ووقف بوروس حائرا امام تحركات الخيالة المقدونية الصاخبة جيئة وذهابا . وتكررت هذه الحركات بشكل مستمر ، فبدا بوروس كانه مخدر بعد ان فقد المبادأة وثبت في وضع جامد ومحدد بدقة ، فترك الاسكندر امامه قلب قواته وقاد مفرزة اجتاز بها نهر ايداسب ليلا على بعد ٨ اميال باتجاه الشمال وادت هذه المفاجأة الى بلبلة افكار بوروس وزعزعة معنوياته ، كما اثرت على تماسك جيشه المادي والمعنوي . واستطاع الاسكندر في المعركة التي تلت ذلك تدمير غالبية الجيش المعادي بجزء فقط من قواته . ولولا هذا التأثير النفسي المسبق ، لما أمكن اعطاء اي تفسير نظري او عملي لمناورة الاسكندر التي عرضت جزءا منعزلا من جيشه لاحتمالات الهزيمة لابتعاده عن قلب الجيش وانفصاله عنه بشكل خطر .

وتثبت الحروب الطويلة التي قام بها ورثة الاسكندر بعد وفاته ، والتي أدت الى نهاية امبراطوريته ، اهمية الهجوم غير المباشر ، وتقدم الامثلة العديدة على ذلك . لقد كان لقادة الاسكندر ولا شك ميزات تفوق ما كان عند مارشالات نابليون ، وكانت الخبرة الطويلة قد علمتهم المعنى العميق لمبدأ الاقتصاد في القوى ، لذا تستحق اكثر عملياتهم الدراسة بعناية لاستنباط الدروس منها . ولكننا لن نذكرها جميعا لان هذا الكتاب مقتصر على دراسة المعارك الحاسمة في التاريخ القديم ، وليس في حروب هؤلاء الورثة معركة حاسمة الا المعركة الاخيرة التي جرت في عام ٣٠١ (ق.م) . ويؤكد هذا ما جاء في وثائق التاريخ القديم لجامعة كامبردج الذي يقول : ان نتيجتها وضعت نهاية للصراع بين السلطة المركزية والراغبين في الوصول الى الحكم . ومنذ ذلك الوقت اصبح تفكك العالم اليوناني المقدوني امرا محتوما .

في عام ٣٠٢ (ق.م) كاد أنتيغون (١٦) ان يصل الى السلطة التي ادعى ان له الحق فيها بعد الاسكندر فخرج من إيجي وسيطر على آسيا الصغرى من بحر ايجة حتى الفرات ، بينما تشبث منافسه سيلوكوس (١٧) ببابل بكل صعوبة ، وكان

---

١٥ ــ بوروس : ملك البنجاب في الهند ومن أهم خصوم الاسكندر في سنة ٣٢٧ ق.م. اسر في معركة على ضفاف نهر ايداسب . «المعرب»

١٦ ــ أنتيغون : احد قواد الاسكندر حاول تأسيس امبراطورية في آسيا فحاربه بقية القواد المنافسين وقتل في ايبسوس في فريجة (٣٠١) ق.م.

١٧ ــ سيلوكوس الاول : احد قادة الاسكندر (٣٢٥ ــ ٢٨١) ق.م.

بطليموس (١٨) مبعدا حينئذ في مصر ، وليزيماك (١٩) متحصنا في تراقيا ، اما كاساندر (٢٠) اكثر خصوم أنتيغون عنادا وخطرا فكان خارج اليونان بعد ان أجلاه ديمتريوس (٢١) عنها ودعاه الى الاستسلام مع جيشه دون قيد او شرط . وهنا تصرف كاساندر بعبقرية استراتيجية ، اذ وضع مخططه الدقيق بالتعاون مع ليزيماك ، وطلب مساعدة بطليموس الذي كان عليه الاشتراك جبهيا وأمن الاتصال مع سيلوكوس بمراسلين يجتازون الصحراء العربية على الجمال .

احتفظ كاساندر ب ٣١ الف رجل للوقوف في وجه ديمتريوس وجيشه المؤلف من ٥٧ الف رجل الذي كان يرابط آنذاك في تيساليا ووضع بقية رجاله تحت تصرف ليزيماك الذي اجتاز الدردنيل متوجها نحو الشرق ، بينما سار سيلوكوس من بابل نحو الغرب وآسيا الصغرى بجيش يضم ٥٠٠ فيل حربي جلبت من الهند ، وسار بطليموس من مصر نحو الشمال ودخل سورية ، ولكن تقريرا كاذبا أبلغه اندحار حليفه ليزيماك فعاد ادراجه الى مصر . امام هذه التحركات المتجهة الى نقطة واحدة ، والمهددة لقلب امبراطورية أنتيغون من جهتين ، استدعى انتيغون على عجل ديمتريوس الموجود في تيساليا حتى ذلك الوقت (لأن كاساندر ثبته هناك) الى ان قام كاساندر بحركة غير مباشرة ضد مؤخرته الاستراتيجية في آسيا الصغرى اجبرته على اجتياز المضيق والعودة الى آسيا الصغرى .

توّجت استراتيجية كاساندر بانتصار حلفائه التكتيكي في معركة ايبسوس في فريجة ، ذلك الانتصار الذي انتهى بموت أنتيغون وفرار ديمتريوس . وكانت الفيلة في هذه المعركة سلاحا حاسما ، وكان تكتيك المنتصرين غالبا غير مباشر. وما ان اختفت الخيالة مطاردة ديمتريوس حتى جاءت الفيلة ومنعت عودته . وبدلا من الانقضاض على مشاة أنتيغون جبهيا ، رماهم ليزيماك برشقات كثيفة من السهام حتى أفقدهم معنوياتهم وانقض بقواته على موضع وقوف أنتيغون نفسه .

كانت الكفة في بداية المعركة راجحة لمصلحة انتيغون . ولكن القدر غيّر اتجاهه بسرعة مذهلة وغير طبيعية ، وانتقل التفوق الى الخصم على شكل مأساة دامية . ومن الواضح ان خطة كاساندر وهجومه غير المباشر كانا سبب اضطراب انتيغون ، وتحطيم وحداته ورعاياه ، وتفتيت تشكيلاته القتالية .

---

١٨ ـ بطليموس الاول : احد قادة الاسكندر ، حكم مصر وسورية بعد الانتصار على انتيغون في معركة ايبسوس وجمّل الاسكندرية وأسس مكتبتها .

١٩ ـ ليزيماك : أحد قادة الاسكندر ، غدا بعد معركة ايبسوس ملك تراقيا ومقدونيا ثم قتل في ٢٨١ (ق.م) .

٢٠ ـ كاساندر : احد قادة الاسكندر (٣٥٤ ـ ٢٩٧) ق.م. احتفظ بمقدونيا واليونان بعد معركة ايبسوس .

٢١ ـ ديمتريوس الاول ويلقب (قاهر البلاد) ملك مقدونيا من ٣٠٦ الى ٢٨٢ ق.م. انتصر على كاساندر في معركة تيرموبيل ثم هزمه هذا الاخير في ايبسوس . «المعرب»

الفصل الثالث

الحروب الرومانية
هانيبال ، سيبيون ، يوليوس قيصر

لعبت الحرب الطاحنة بين روما وقرطاجنة (١) ، وخاصة معارك هانيبال (٢) ، دورا حاسما في تاريخ أوربا سواء أكان ذلك بنتائجها المباشرة ام البعيدة ، وتبين الدراسة التالية معارك ومراحل حاسمة اثرت على تاريخ الحرب تأثيرا كبيرا .

بدات المرحلة الاولى للصراع عندما غزا هانيبال ايطاليا ٢١٨ (ق.م) بعد أن اجتاز اسبانيا وعبر جبال الالب ، وانتهت هذه المرحلة بانتصاره الساحق في

---

١ ـ قرطاجنة مدينة قرب تونس ، اسستها ديدون الفينيقية وكانت عاصمة امبراطورية جبارة قاومت روما مدة طويلة ونازعتها السيطرة على حوض البحر الابيض المتوسط .

٢ ـ هانيبال : قائد قرطاجني (٢٤٧ ـ ١٨٣) ق.م فينيقي الاصل ، سار نحو بلاد الرومان من طريق اسبانيا واقتحم قمم جبال الالب وانتصر في عدة معارك ، ولما انقطعت عنه النجدات عاد الى افريقيا للدفاع عن وطنه ضد الرومان الذين هزموه في معركة زاما فشرب السم حتى لا يسقط في ايدي اعدائه حيا . «المعرب»

معركة بحيرة ترازيمين . ولم يبق لروما ما يحميها ، بعد هذه الهزيمة ، سوى أسوارها وحاميتها الخاصة . وغدت المدينة مفتوحة تقريبا ، امام اي هجـــوم مباشر يقوم به هانيبال ، لو فكر في القيام بذلك .

وقد يتساءل البعض لماذا اختار هانيبال هذا الطريق البحري المباشر ، وقد يتبادر الى الاذهان ان السبب كامن في سيطرة روما البحرية . ولكن من الخطأ استخدام تعبير السيطرة البحرية في ذلك العصر ، لان السفن كانت بدائية وغير قادرة على قطع الطريق على أسطول معادٍ ، علاوة على ان تفوق روما البحري كان امرا مشكوكا فيه . ويذكر المؤرخ اليوناني بوليب الذي وصف حوادث معركـــة بحيرة ترازيمين كيف كان مجلس الشيوخ الروماني يتساءل قلقا «هل يستطيـــع القرطاجيون السيطرة على البحر ؟» وفي المرحلة الاخـــيرة للصراع ، انتصرت البحرية الرومانية انتصارات عديدة افقدت القرطاجيين جميع قواعدهم في اسبانيا وأمنت نزول الجيش الروماني في افريقيا . ولكنهـــا كانت عاجزة عن منـــع ماغون (٣) .. من انزال حملته على نهر جنوا او قطع طريق العودة على هانيبال .

لذا يغلب على الظن ان استخدام هانيبال لطريق بري غير مباشر يرجع الـــى رغبته في اثارة شعب السلت في شمال ايطاليا ضد روما ، والاستفادة من ميزات هذه الحركة البرية غير المباشرة .

كلف الرومانيون القنصل بوبليوس سيبيون (٤) بمهمة منع هانيبال من اجتياز نهر الرون . ولكــن القرطاجيون اجتازوا النهر فجأة من ناحية منبعه . وتوغلوا في اتجاه الشمال سائرين في وادي نهر الليزير الطويل الوعر بدلا من اجتيـــاز الريفييرا السهلة التي يستطيع الرومانيون اغلاقها . ويذكر بوليب ان الدهشـــة اصابت بوبليوس سيبيون عندما وصل الى نقطة عبور هانيبال على نهر الرون بعد انتهاء العبور بثلاثة ايام «فتعجب من اختفاء العدو لاعتقاده بأنه لن يجازف ابدا باستخدام هذا السبيل الشمالي للدخول الى ايطاليا» .

اتخذ سيبيون قراره ، بسرعة ، فترك خلفه جزءا من جيشه وتراجع بسرعة الى ايطاليا عن طريق البحر فاستطاع ملاقاة هانيبال عند سهول لومبارديا ، وهنا كانت الارض في صف القرطاجيين لانها تؤمن استخدام خيالتهم المتفوقة علـــى خيالة الرومان . ونجم عن ذلك انتصار القرطاجيين وكان لهذا الانتصار تأثـــير معنوي كبير ، وأكسب هانيبال سيلا من المتطوعين المحليين مع امكانيات تموينية كبيرة .

هكذا غدا هانيبال سيد ايطاليا الشمالية ، فعسكر لقضاء فصل الشتاء ، وفي الربيع التالي اعتقد قناصل روما الجدد بأنه قد يتابع سيره الى الامام فوضعـــوا

---

٣ ــ اسم عدد كبير من القادة القرطاجيين اهمهم اخو هانيبال . «المعرب»

٤ ــ بوبليوس سيبيون : هو والد سيبيون الافريقي . ويلقب ايضا سيبيون القديم .

جيشهم الاول في آريمينيوم «ريميني حاليا» على البحر الادرياتيكي ، وجيشهم الثاني في آريتيوم «آريزو حاليا» في منطقة اترووري ، فسيطروا بذلك على الطريقين الشرقي والغربي المؤديين الى روما . واختار هانيبال اتجاه اترووري ولكنه لم يستخدم الطريق العادي ، بل استكشف الارض ودرسها ، فوجد حسب قول بوليب «ان اكثر الطرق المؤدية الى اترووري طويلة ، ويعرفها العدو جيدا ، اما الطريق التي تجتاز المستنقعات فقصيرة وتسمح بالوصول فجأة الى فلامينوس بشكل يتفق مع اسلوبه الخاص في العمل . لذا قرر استخدام هذا السبيل ، ولما علم رجاله برغبته في اجتياز المستنقعات أحسوا بالقلق ...» .

يفضل العسكري دائما مواجهة المعروف بدلا من مواجهه المجهول .. ولكن هانيبال قائد حربي فذ غير عادي ، لذا نجده اختار ، كأقرانه من القادة العظام اجتياز المخاطر في ظروف مجهولة ، بدلا من ملاقاة العدو على الارض ، التي اختارها .

وسار جيش قرطاجنة ٤ ايام و٣ ليال «على طريق مغمورة بالماء» . فانهكه التعب والنعاس ، وفقد كثيرا من الرجال والخيول . وعندما خرج من هذا المأزق كان الجيش الروماني لا يزال في آريتيوم . ولم يقم هانيبال بأي هجوم مباشر «وفكر في أن تجاوز الموضع الذي يحتله الرومان ، والسير بعيدا في مناطق يعتبرونها تحت حمايتهم ، ستزعج فلامينوس (٥) .. شخصيا وتثير انتقاد مواطنيه فلا يستطيع الوقوف مكتوف الايدي امام غزو يخرب المنطقة ، ويضطر للانطلاق كمجنون وراء هانيبال الذي ينتظر هذه الفرصة الملائمة للهجوم» .

ويعتبر هذا التفكير تطبيقا حاذقا للمناورة على مؤخرات العدو ، تلك المناورة ، المبنية على المعلومات المعروفة او المكتشفة حول طبيعة العدو النفسية والمنفذة بشكل جيد . ولقد نظم هانيبال اثناء انطلاقه على طريق روما اكبر كمين ناجح في التاريخ ، وفي ضباب الصباح سقط في الفخ الجيش الروماني الذي كان يلاحق هانيبال على طول الهضاب التي تكسوها والمحاذية لبحيرة ترازيملين ، وهاجمه هانيبال من الجبهة والمؤخرة في آن واحد ، فتمت ابادته .

ويمكن لهواة التاريخ الذين يتذكرون هذه الموقعة ونتائجها ، تكوين صورة عن العمل الفكري الذي هيأ هذا النصر . ويستنتج بوليب الدرس الاساسي قائلا «اذا ما خدع الجيش واحبطت مناورته ، سقط الجيش كله في يد عدوه كما تسقط الباخرة مع كل بحارتها بعد فقدان قبطانها» .

ومن أسرار التاريخ ، ان هانيبال لم يتوجه بعد ترازيملين الى روما مباشرة . وكل ما قيل في هذا الصدد وليد التخيلات والتكهنات . والمحقق ان هانيبال فشل في السنوات التالية خلال مساوماته السياسية التي كانت تهدف الى ازالة سيطرة روما على حلفائها الايطاليين ، وادخالهم في الحلف المشكل ضدها . ولم

---

٥ ـ فلامينوس : قنصل روماني هزمه هانيبال في ترازيملين وقتله في عام ٢١٧ (ق.م) . «المعرب»

تكن انتصاراته سوى وسيلة ضغط معنوية للوصول الى هذه الغاية . ولعله فكر في امكان استمرار الانتصارات التكتيكية اذا استطاع ملاقاة الرومان دائما في ظروف ملائمة لاستخدام خيالته المتفوقة .

بدأت المرحلة الثانية بهجوم روماني غير مباشر ، يلائم في الحقيقة النفسية الاغريقية اكثر من النفسية الرومانية . ولقد عرف هذا الهجوم في التاريخ بعد ذلك باسم «استراتيجية فابيوس» (٦) التي حاول الكثيرون فيما بعد تقليدها ، دون نجاح كبير . ولم تعتمد استراتيجية فابيوس على تجنب المعركة لكسب الوقت فحسب ، بل استخدمت التأثير التخريبي على معنويات العدو وحلفائه المتوقعين والمحتملين وكانت على مستوى سياسة الحرب والاستراتيجية العليا .

كان فابيوس يعترف بتفوق هانيبال العسكري ، فلم يجازف بمنازلته عسكريا. وكان يتحاشى الاشتباك معه في معركة حاسمة ، ويحاول الاستفادة من الوقت لقتل حيوية واندفاع القوات الغازية ، مستعينا على ذلك بهجمات صغيرة محلية كوخزات الابر . وكان يمنع العدو من تطويع الوحدات الجديدة في المدن الايطالية ويعرقل وصول النجدات من قواعد العدو في قرطاجنة . وكان على الجيش الروماني اذا اراد النجاح لاستراتيجيته العليا ، ان يناور في ارض صعبة تفقد خيالة قرطاجنة اهمية تفوقها الذي قد يكون حاسما، ويمكن التعبير عن هذه المرحلة بأنها صراع بين هجومين غير مباشرين : هجوم هانيبال وهجوم فابيوس .

اكتفى فابيوس بالتقرب من العدو دون القيام بالتحام مباشر معه باستثناء الهجمات المتفرقة على قواعد تموينه ، ومفارزه المنعزلة بغية منعه من الاستقرار والتمركز في موضع دائم ، وكان كالشبح الذي يختفي دائما وراء الافق ، دون ان يكون هنالك سبيل للامساك به . واثرت هذه العمليات على هالة النصر التي احاطت بتقدم هانيبال حتى ذلك الوقت . وهكذا تحصن فابيوس ضد الهزيمة ، وسد السبل امام تأثير انتصارات هانيبال القديمة وخاصة عند الايطاليين حلفاء روما الذين فكروا من قبل في الانضمام الى القرطاجيين . ورفعت هذه المعركة المشابهة لمعارك العصابات معنويات الرومان بينما خفضت معنويات القرطاجيين الذين دفعهم بعدهم عن بلادهم الى البحث عن نصر سريع .

ولكن حرب الانهاك سلاح ذو حدين ، وتنتهي غالبا باتعاب القائمين بها ، حتى في حالة استخدامها بكل مهارة . وهي قاسية على الجماهير التي ترغب دائما في انتهائها بسرعة . لذا فان استمرار النضال على طريقة فابيوس جعل الشعب الروماني يتلقى الصدمة تلو الصدمة ، فلا يبرأ جرحه حتى يصاب بجرح جديد ،

---

٦ – فابيوس ويدعى بالماطل (٢٧٥ – ٢٠٣) ق.م روماني تولى الامر بعد هزيمة الرومان في ترازيملين واشتهر بالماطلة في قتال هانيبال مستخدما استراتيجية خاصة . «المعرب»

فبدأ يشك في صلاحية هذه الطريقة ، التي كانت في الحقيقة سبيله الوحيد للخلاص ، وازدادت الشكوك والاشاعات وانتشر السخط في كل مكان وازداد الوضع سوء بتصرفات الطامحين والمتحمسين من قادة الجيش الذين بدأوا في انتقاد فابيوس علنا بسبب جبنه وانعدام مبادهته ، مما أدى الى سيطرة مينوسيوس مساعد فابيوس ، وخصمه اللدود ، الذي ينتقده بشدة اكثر من غيره . وما ان استلم مينوسيوس زمام الامور حتى جذبه هانيبال الى كمين رهيب لم ينقذه منه سوى تدخل فابيوس في آخر لحظة .

اخرست هذه المغامرة الدامية مؤقتا النقد الموجه لفابيوس ، ولكن بعد انتهاء الاشهر الستة التي تمتع فيها بكل السلطات لم يعد يحظى بثقة الشعب فلم تجدد رئاسته . وفي الانتخابات القنصلية نجح قنصلان آخران احدهما قارون الاحمق الذي ساهم من قبل في تعيين مينوسيوس ، وزاد الطين بلة قرار مجلس الشيوخ القاضي بضرورة اجراء المعركة ضد هانيبال دون تأخير ، وكانت حجته في ذلك ايقاف الغزو الذي يدمر ايطاليا . ولوضع القرار موضع التنفيذ تم في ٢١٦ (ق.م) تشكيل الجيش الاكبر المؤلف من ٨ ليجيونات (٧) وهذا رقم لم تشهده روما من قبل في اية معركة . ولقد دفع الرومان فيما بعد ثمنا غاليا لاختيارهم قائدا يتمتع بتفكير هجومي غير متسم بالحكمة .

وكان القنصل الثاني بول اميل ميالا الى المناورة وانتهاز الفرصة المناسبة معارضا بذلك فكرة قارون الذي كان يقول : لقد تكلمنا كثيرا عن القائد العسكري الذي يدخل المعركة ليقوم بدور الحارس بدلا من ان يقوم بدور المهاجم . وأعلن قارون على الشعب خطته التي ترمي الى مهاجمة العدو بكل القوى ، وفي اي مكان يظهر فيه . وما ان سنحت الفرصة امامه حتى اشتبك مع هانيبال في سهل كان. واقترح بول اميل جذب هانيبال الى ارض أصلح لاستخدام المشاة ، ولكن قارون استغل يوم قيادته (٨) فقام بالاشتباك مع هانيبال . وفي اليوم التالي جاء دور بول اميل فاحتفظ بالوحدات في معسكراتها الخلفية ، معتمدا على أن مصاعب التموين سترغم هانيبال على الانسحاب بعد فترة قليلة . وهنا «اشتعلت رغبة القتال في نفس قارون اكثر من اي وقت مضى» واحتج الجيش الراغب في المعركة على هذا التأخير «فلا شيء يرهق الانسان كالانتظار بقلق ، واذا ما قرر الرجال شيئا فضلوا تحمل الالم على انتظار وقوعه» . وفي اليوم التالي اخرج قارون الجيش من مواضعه ونزل الى المعركة ، وكانت هذه العملية هي أمنية هانيبال . ووضع الجيشان المشاة في القلب والخيالة على الاجنحة . وكانت تشكيلة هانيبال غريبة بتفصيلاتها ، اذ وضع المشاة الغاليين والاسبانيين في

---

٧ ــ الليجيون : وحدة عسكرية رومانية بلغ عددها في وقت يوليوس قيصر حوالي ٦٠٠٠ رجل. «المعرب»

٨ ــ كان القنصلان الرومانيان يتناوبان قيادة الجيش يوما بعد يوم .

الامام ووضع خلفهم وعلى المجنبتين نخبة عساكره الافريقيين ، فاصبح الغاليون والاسبانيون بمثابة مغناطيس يجذب مشاة الرومان التي اندفعت الى الامام كما كان متوقعا دافعة امامها مشاة العدو ، وغدا خط جبهة القرطاجيين المحـــدب مقعرا . وتشجعت المشاة المهاجمة بهذا النصر الظاهري فاندفعت الى الثغـــرة متزاحمة بالمناكب حتى صار الجنود يحركون سلاحهم بكل صعوبة ، وكانوا يزجون بانفسهم داخل الكتلة القرطاجية معتقدين ان جبهة هانيبال قد تحطمت . في هذه اللحظة التفتّ العناصر المختارة من المجنبات فأكملت محاصرة الرومان المكدسين فوق بعضهم .

ادت المناورة الى وضع يشبه الفخ الذي رأيناه في معركة سلامين البحريـة ولكنه فخ مدروس بشكل افضل .

في هذه الاثناء قامت خيالة هانيبال الثقيلة بالهجوم على الخيالة المعادية على الجناح الايسر ، ثم اكتسحت المؤخرة وخرقت خيالة الجناح الآخر التـــي كانت مجمدة حتى ذلك الوقت بالخيالة النوميديين الخفيفة الماهرة في عمليات المناوشة، ثم كلفت هذه الخيالة الخفيفة بالمطاردة بينما قامت الخيالة الثقيلة بضربة مـــن الخلف ، ساعدت على سحق مشاة الرومان وحصرتهم من ثلاث جهات ، فأسقط في يدهم ، وانقلبت المعركة الى مجزرة . ويقول بوليب بأن الرومان تركوا علـى ارض المعركة ما لا يقل عن ٧٠ الف رجل من جيشهم المؤلف من ٧٦ الف رجل . وسقط بول اميل صريعا بينما استطاع فارون النجاة بجلده من الكارثة التي يحمّله التاريخ مسئولياتها .

ادت هذه المعركة الى تفكك الاتحاد الايطالي ، وكادت ان تذهب بروما نفسها، وهنا قام فابيوس بدور جديد لرفع معنويات الشعب ودفعه الى المقاومة . ويعود انقاذ المدينة الى اصراره على تطبيق استراتيجية كسب الوقت . ولم يستطـــع هانيبال استثمار النصر لنقص وسائط الحصار والنجدات اللازمة ، كما لم تكن البلاد التي اجتاحها متقدمة اقتصاديا لتعطيه ما يريد . ويختلف الموقف هنا عن موقف سيبيون عندما غزا افريقيا فيما بعد ، ووجد فيها بلاد الحضارة القرطاجية الامر الذي عزز مركزه واعطاه ميزات كثيرة .

انتهت المرحلة الثانية لهذه الحرب في عام ٢٠٧ (ق.م) بهجـــوم غير مباشر جديد في شكله ، عندما انسحب القنصل الجديد نيرون (٩) من مواضعه مقابل هانيبال وسار بسرعة مع معظم قواته لمقابلة شقيق هانيبال (١٠) ، الذي وصل الى ايطاليا الشمالية مع قوات جديدة . فقابله على نهر ميتور ودمّر جيشه ، فحرم هانيبال بذلك من آماله المعقودة على النجدة اللازمة للحصول على النصر النهائي.

---

٩ ــ القنصل نيرونهو غير الامبراطور نيرون الذي احرق روما ليبنيلنفسه قصرا فخما. «المعرب»

١٠ ــ شقيق هانيبال : هاسد روبال باركا الذي قتل في معركة نهر ميتور . «المعرب»

ثم عاد نيرون الى مواضعه السابقة دون ان ينتبه هانيبال الى غيابه طوال هذه المدة.

وفي المرحلة الثالثة توقفت العمليات ، وتمسك هانيبال بجنوب ايطاليا خمس سنوات ، وعندما غامر بعض القادة الرومان واقتربوا من عرينه عادوا فاشلين يحملون بعض الجروح .

وفي ٢١٠ (ق.م) ارسلت روما سيبيون الافريقي «١١» الى اسبانيا ، وكانت مناورة يائسة غايتها اصلاح الكوارث التي سببها ابوه وعمه ، والانتقام لمصرعهما ، وتثبيت مركز المقاومة الضعيف الذي تملكه روما في زاوية اسبانيا الشمالية الشرقية ، والمهدد بقوات قرطاجيّة جديدة قادمة من قواعدها في اسبانيا . واستطاع سيبيون الافريقي بفضل سرعة حركته وروعة تكتيكه ونجاح سياسته ، ان يقلب الخطة الدفاعية الى خطة هجومية تهدد قرطاجنة وهانيبال بصورة غير مباشرة .

كانت اسبانيا في الحقيقة قاعدة قرطاجة الاستراتيجية الحقيقية . ففيها يتم تطويع وتدريب الوحدات ، ومنها تؤخذ النجدات اللازمة لمتابعة القتال . ولكن سيبيون استطاع احتلال قرطاجة بضربة حاذقة واحدة ، جمعت بين المفاجأة وحسن اختيار الوقت ، فحرم بذلك خصومه من قاعدتهم الاساسية في اسبانيا. فتخلى عنهم حلفاؤهم وانهارت جيوشهم .

وفي عام ٢٠٥ ق.م تم انتخاب سيبيون قنصلا بعد عودته الى ايطاليا ، فأصبح قادرا على تطبيق سياسة هجوم غير مباشر حاسم آخر على مؤخرة هانيبال. وكان فابيوس قد تقدم في العمر حينئذ وخبت شعلة ذكائه وتفكيره ، وعاد الى الافكار التقليدية . لذا نراه يصر على ان اهم واجبات سيبيون هو مهاجمة هانيبال في ايطاليا وكان يقول : «لماذا لا تطبقون في هذه الحرب الطرق المستنبطة من التجربة ؟ ولماذا لا تقودون عملياتكم في المكان الذي يوجد به هانيبال بدلا من استخدام سبل ملتوية ام انكم تتوقعون ان يلحقكم هانيبال الى افريقيا ، اذا ما ذهبتم اليها » .

حصل سيبيون من مجلس الشيوخ على اذن بالذهاب الى افريقيا ، على شرط ان يجمع وحدات جديدة . وفي عام ٢٠٤ (ق.م) ركب البحر مع ٦٠٠٠ متطوع وليجيونيين مُبعَدين تأديبيا في صقلية منذ كارثة «كان» . وعندما نزل على الشاطىء الافريقي لاقى مفرزة الخيالة التي جمعتها قرطاجة بسرعة ، فقام بمناورة تراجعية دقيقة وجذب الخيالة الى فخ محكم ودمرها ، فكسب بذلك وقتا كافيا لتثبيت وتحسين وضعه ، اثر هذا النصر تأثيرا كبيرا على مجلس الشيوخ الروماني الذي غدا اكثر كرما ، وزوّده بالوسائط اللازمة ، كما اثر تأثيرا سيئا على حلفاء

---

١١ ـ سيبيون الافريقي : او سيبيون الشاب ٢٣٥ ـ ١٨٣ (ق.م) انتصر على هانيبال في زاما ثم دبرت له مؤامرة من قبل اعدائه فنفي ومات في المنفى بعد ان حقق لبلاده اعظم الانتصارات. «المعرب»

قرطاجة الافريقيين باستثناء سيفاكس (١٢) .. أصلبهم عودا وأشدهم قوة .

حاول سيبيون بعد ذلك احتلال مرفأ اوتيك لاستخدامه كقاعدة بحرية ولم ينجح في مفاجأة المرفأ واحتلاله كما فعل في اسبانيا عندما احتل قرطاجة على حين غرة ، فاضطر لرفع الحصار بعد ستة اسابيع عندما جاء سيفاكس على رأس قوة مؤلفة من ٦٠ الف رجل لنجدة حامية قرطاجة التي كان يقودها هاسدروبال جيسكو . وتراجع سيبيون امام قوات عدوه المتفوقة عددا ان لم يكن نوعيا ، وتوجه الى شبه جزيرة صغيرة حيث تحصن بشكل يمكن اعتباره نموذجا فيما بعد لخطوط ويلنفتون وتحصيناته في توروس فيدراس . وما ان استقر وراء حصونه حتى بدأ يفكر في حيلة تفقد الاعداء ثقتهم بأنفسهم ، وتشتت انتباههم ، فتظاهر باعداد غارة بحرية على ميناء اوتيك ، ثم قام بدلا من ذلك باغارة ليلية على معسكرات العدو . وكان للمفاجأة أثرها الفعال في بث الفوضى وتحطيم معنويات العدو لصالح سيبيون الذي هاجم في باديء الامر معسكر سيفاكس وهو اقل المعسكرات نظاما ، وتقع معظم اكواخه المصنوعة من القصب والاغصان خارج الاطار المحصن المحيط بالمعسكر . وما ان اشتعلت النيران في الاكواخ حتى سادت الفوضى والبلبلة ودخل الرومان المعسكر ، ورأى جنود هاسدروبال الحرائق فظنوها حرائق عادية ، ولم يخطر ببالهم هجوم الرومان لان معسكرهم الواقع على بعد ٦ أميال كان غارقا في الهدوء والظلام ولم يفطنوا الى ما حدث ، ففتحوا ابوابهم واندفعوا لمساعدة حلفائهم ، فما ان رأى سيبيون ابواب المعسكر القرطاجي مفتوحة حتى قام بهجومه الثاني ووصل الى ساحة المعسكر دون حاجة لفتح اية ثغرة في الدفاعات المحيطة به . وكانت النتيجة ان تبعثر الجيشان الحليفان بعد ان فقدا نصف تعدادهما .

لقد دفعتنا دراسة هذه العمليات الى اجتياز الحدود بين الاستراتيجية والتكتيك ، وما الاستراتيجية في هذه الحالة سوى طريق النصر في المعركة وسببه المباشر . وكان النصر نفسه الفصل النهائي لتقرب استراتيجي حكيم ، لان المجزرة التي وقعت دون مقاومة جدية لا تستحق ان تسمى معركة .

لماذا لم ينطلق سيبيون نحو قرطاجة بعد انتصار لم يكلفه الكثير من دماء رجاله ؟ لم يقدم التاريخ أجوبة اكيدة لهذا التساؤل ، ولكنه بيّن اسبابا هي اقرب الى المنطق من الحجج التي يعطيها لنا هانيبال لتفسير عدم غزو روما بعد معركتي «ترازيملين» و«كان» . ويجيب البعض على هذا السؤال بأن الحصار عملية عسكرية باهظة التكاليف يلجأ اليها المهاجم اذا لم يجد فرصة ملائمة لانقضاض مفاجيء ويصبح الحصار عملية بالغة الخطورة على المهاجم اذا احتفظ المدافع وخارج الاسوار بجيش ميداني قادر على التدخل في كل لحظة . كما ان قوى المحاصرين تتناقص كل يوم بسرعة تفوق سرعة تناقص قوى المدافعين .

---

١٢ ـ سيفاكس : ملك نوميديا الغربية هزمه مازينيسا حليف الرومان في ٢٠٣ (ق.م). «المعرب»

وكان على سيبيون ان يدخل في حسابه تحصينات قرطاجة من جهة وعودة هانيبال التي كان يتوقعها ويرغب في وقوعها من جهة اخرى . فاذا ما استطاع اجبار المدينة على الاستسلام قبل عودة هانيبال حصل على ميزات هامة ، بشرط ان يتم ذلك عن طريق تحطيم المقاومة المعنوية للمدينة بأرخص ثمن ، ودون تبديد قوته المادية ، لان بذل الجهد والقوى لاحتلال المدينة عنوة يعني تثبيته امـــام الجدران واعطاء هانيبال الفرصة لضربه من الخلف عند عودته .

لهذا لم يتقدم سيبيون نحو قرطاجة ، واكتفى بعزل المدينة عن حلفائها ومناطق تموينها ، وعين مفرزة لمطاردة سيفاكس وتدميره بلا هوادة . وجاء بحليفـــه مازينيسا وسلمه عرش بلاد نوميديا فضمن بذلك مساعدة خيالته القادرة علـــى منازلة خيالة هانيبال بشكل جيد .

ولزيادة تأثير هذا النوع من الضغط المعنوي على المدينة سار نحـــو تونس بحركة تراها قرطاجة بوضوح فكان ذلك «وسيلة فعالة جداً لادخال الرعب في قلوب القرطاجيين» . ورافقت هذه الحركة أشكال اخرى من الضغط غير المباشر، مما حطم الروح المعنوية عند القرطاجيين ، وجعلهم يطلبون السلم فوافق مبدئيا، ومكث ينتظر موافقة روما على شروط الصلح . وفي خلال ذلك علمت قرطاجـة بعودة هانيبال وانزال جيشه في عام ٢٠٢ (ق.م) ، فمزقت المعاهدة ، ووجـــد سيبيون نفسه في وضع حرج وخطير . وزاد من خطورة الموقف غياب مازينيسا في بلاد نوميديا التي ذهب اليها لتثبيت أوضاعه هناك . لما رأى عـــدم ضرورة وجوده نظرا لدخول قرطاجة في مفاوضات الصلح .

وكان أمام سيبيون في هذه الحالة حلان تقليديان ، أولهما الهجوم لمنع هانيبال من الوصول الى قرطاجة ، وثانيهما التحصن دفاعيا وانتظار النجدات ، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك ، بل اتبع سبيلا آخر يدعو الى الاستغراب ، فلو اعتبرنا طريق هانيبال من ليبيتس الى قرطاجة الضلع الايمن لرقم ٨ لكانت قرطاجة نحـــو الجنوب هو الضلع الايسر لهذا الرقم . وهذا تقرب غير مباشر لا يمكن توقعه . وقادته هذه الطريق عبر وادي باغراده «حاليا» الى داخل البلاد في قلب منطقة تموين قرطاجة ، كما جعلته يقترب كل يوم من النجدات التي ارسلها له مازينيسا عندما طلب منه الدعم بسرعة .

واصابت هذه الحركة هدفها الاستراتيجي ، وجن مجلس الشيوخ القرطاجي عندما علم باجتياح هذه المن[illegible] الحيوية وتخريبها ، فأرسل الى هانيبال يطلب منه الاسراع في التدخل واجب سيبيون على الدخول في معركة ، واجاب هانيبال على ذلك «بأن هذه أمور تخصه وحده» ، ولكنه اندفع مع ذلك تحت تأثير الظروف التي خلفها سيبيون ، وسار بسرعة نحو الغرب يبحث عن عدوه ، بدلا من التوجه شمالا نحو قرطاجة وهكذا جذبه الرومان الى الارض التي اختاروها في مكان لا يملك فيه هانيبال اي سند متين للمناورة او ملجأ يركن اليه عنـد الفشل . وهذا وضع صعب [illegible]ان في مقدوره ان يتلافاه لو قام بالمعركة قرب قرطاجة .

وهكذا دفع سيبيون خصمه للبحث عن المعركة ، ثم استغل هذه الميزة المعنوية ووصلته النجدات بقيادة حليفه مازينيسا مع وصول هانيبال ، ومع ذلك فضل التراجع على التقدم ، فجذب بذلك هانيبال وجعله يعسكر في منطقة شحيحة المياه ، ويقاتل على ارض منبسطة تسمح باستغلال التفوق الذي حصلت عليه الخيالة الرومانية حديثا . وهكذا ربح سيبيون عنصرين كبيرين من المعركة قبل بدئها . ثم ربح العنصر الثالث على ارض المعركة في زاما «ناراغا حاليا» ، بتكتيك حرم هانيبال من استخدام تفوق خيالته ، ولما فاجأ الفشل التكتيكي هانيبال لاول مرة وقف ليتحمل نتائج فشله الاستراتيجي السابق ، ولم يكن عنده حصن يلتجيء اليه ويحمي به جيشه المهزوم بدلا من ان يعرضه للابادة خلال المطاردة ، وسقطت قرطاجة بعد هذه المعركة دون مقاومة .

حققت معركة زاما السيطرة الرومانية على حوض البحر الابيض المتوسط ، ثم امتدت هذه السيطرة بعد ذلك وتطورت حتى غدت تبعية بحتة دون مقاومات جدية ، وان لم يخل الامر من بعض الصعوبات . وهكذا توجت سنة ٢٠٢ (ق.م) حوادث العالم القديم الحاسمة والمواقف العسكرية المؤيدة لها ، ثم اخذ التوسع الروماني يصادف العقبات ، وبدأت الامبراطورية التي كانت تشمل الجزء الاكبر من العالم القديم في التقهقر لتسقط في النهاية محطمة بسبب انحلالها الداخلي وتوالي هجمات شعوب أوربا الهمجية عليها باستمرار .

يمكننا عند تحليل التاريخ العسكري وطرق القيادة المستخدمة في طور «الضعف والانهيار» استنتاج كثير من الدروس المفيدة . كانت أوربا تمر عندئذ في مرحلة تطور تنقلها من قارة ذات بناء بسيط الى بناء مركب . ودول مختلفة تمتزج فيها دماء متنوعة ، وتعود أهمية هذا التحليل الى ما يستحقه بيليزير والقادة البيزنطيون في أواخر عهد الامبراطورية ، من اهتمام وتقدير ، ولكن معظم نقاط هذه المرحلة غير واضحة ، ومن الصعب تحديد الصفات المميزة للحوادث الحاسمة فيها ، كما ان الوثائق التاريخية ومذكرات المؤرخين عن هذه الفترة غير مؤكدة ولا يمكن اعتبارها قاعدة لاستنتاجات علمية .

بعد ان وصلت قوة روما الى ذروتها وقعت حرب اهلية تستحق الدراسة . ففيها ظهرت عبقرية قائد كبير آخر ، فأثرت بذلك على مجرى التاريخ ، فاذا كانت نتيجة حروب هانيبال اعطاء روما السيطرة على العالم ، فان الحرب الاهلية من عام ٥٠ الى ٤٥ (ق.م) ، قدمت العالم الروماني هدية لقيصر (١٣) .. والقياصرة . عندما كان يوليوس قيصر يجتاز نهر روبيكون في ديسمبر ٥٠ (ق.م)

---

١٣ ـ قيصر : يوليوس قيصر (١٠١ ـ ٤٤ ق.م) قائد ماهر وسياسي ناجح . اصبح قنصلا وحقق انتصارات باهرة ، انتصر على بومبي ومساعده ، ولما حكم ايطاليا كان يحكم لمصلحة الشعب ثم دبرت له مؤامرة وقتله ابنه بالتبني بروتوس وعندها قال جملته الشهيرة «حتى انت يا بروتوس».

كانت قوته تعتمد على الغاليين والايليريين ، وكان بومبي (١٤) .. يحكم ايطاليا وبقية ممتلكات روما بينما كان يوليوس قيصر يملك ٩ (ليجيونات) . وكان واحد منها معه في آرافين ، و(الليجيونات) الباقية في بلاد الغول . اما بومبي فكان يملك ١٠ (ليجيونات) في ايطاليا و٧ في اسبانيا وقوات اخرى متعددة موزعة في مختلف مناطق الامبراطورية . غير ان (الليجيونات) الموجودة في ايطاليا كانت غير مكتملة او متأهبة للقتال ، ومن المعروف ان ليجيونا واحدا مستعدا للحرب يعادل اكثر من ليجيونين في وضع السلم .

ووجهت بعد ذلك كثير من الانتقادات لقيصر لتسرعه وتهوره في المسير نحو الجنوب بقوات قليلة، ولكن الناقدين تجاهلوا ان الزمن والمفاجأة عاملان اساسيان في الحرب . وكان قيصر يعرف ذلك جيدا ويبني استراتيجيته قبل كل شيء على معرفته لطبيعة خصمه بومبي .

كان بين رافين وروما طريقان ، فاستخدم قيصر اطولهما ، واقلهما مباشرة على طول الشاطىء الادرياتيكي ، وأتم تنفيذ حركته بسرعة فائقة مجتازا منطقة كثيفة السكان ، وجامعا حوله مفارز كثيرة من المتطوعين الذين كان بومبي يرغب في جمعهم لصالحه ، تماما كما حدث مع نابليون في عام ١٨١٥ ، وتأثر بعض انصار بومبي بهذه الحركة فانسحبوا الى كابو وتوغل قيصر بين مفارز العدو المتقدمة الى كورفينيوم بينما كانت القوة الرئيسية الموجودة في لوسيريا تحت قيادة بومبي محققا بذلك تفوقا دون ان يخسر نقطة دم واحدة ، ثم تابع تقدمه نحو لوسيريا ، وكانت قوته تزداد بازدياد تقدمه ، وأمام هذا التقدم المباشر وجد بومبي نفسه مضطرا للتراجع نحو المرافىء المحصنة في براندوزيوم «برانديزي حاليا» الواقعة في عقب شبه الجزيرة الايطالية ، واستمرت المطاردة بسهولة تامة ، مما سبب اضطراب بومبي لدرجة دفعته الى اتخاذ قرار باجتياز الادرياتيكي والالتجاء الى اليونان ، ولكن التقدم بشكل مباشر بحت ، وعدم المهارة في المناورة حرم قيصر فرصة ذهبية للتخلص من بومبي في معركة واحدة ، واجبره على القيام بحرب ضارية لمدة ٤ سنوات على طول حوض البحر الابيض المتوسط .

وبدأت المعركة الثانية ، وبدلا من ان يطارد قيصر خصمه الى بلاد اليونان عاد ادراجه لملاقاة انصار بومبي في اسبانيا . ولقد ادى هذا التركيز ضد «الشريك الحديث» لعدوه ، الى انتقادات كثيرة . ولكن سلبية بومبي المتوقعة اظهرت صدق حسابه . وفي هذه المرة بدأ قيصر المعركة قبل الاوان . وادى تهديده المباشر لقوات الخصم الرئيسية المتجمعة في ليردا «ليريدا حاليا» ، عند مخرج جبال البيرنيه الى انسحاب هذه القوات متجنبة المعركة . وفشل انقضاضه المباشر

---

١٤ ــ بومبي الكبير (١٠٧ ــ ٤٨ ق٠م) قائد عسكري . غدا قنصلا واشترك مع يوليوس قيصر عام ٦٠ ق٠م في عقد اول تحالف ثلاثي ولكنه منذ عام ٥٤ ق٠م بدأ ينافس قيصر وفي ٥٢ ق٠م عين قنصلا وحيدا ثم هزمه قيصر في معركة فارزال . «المعرب»

وكاد ان يؤدي الى كارثة لولا تدخله شخصيا في المعركة . وبدأت معنويات رجاله بعد ذلك في الهبوط الى ان غيَّر طريقته في التقرب ، ولكن في آخر لحظة .

فبدلا من القيام بمحاولة جديدة لتقوية الحصار واحتلال ليردا ، خصص كل وسائطه لخلق مرفأ اصطناعي يسمح له بالسيطرة على ضفتي نهر سيكوريس الذي يجتاز المدينة ، مهددا بذلك خطوط تموينها ، الامر الذي اجبر مساعدي بومبي على القتال التراجعي قبل فوات الاوان ، وتركهم قيصر ينسحبون دون ان يشدد الخناق عليهم ، ولكنه كلف خيالته الغاليين بمهمة مهاجمة مؤخرتهم لازعاجهم وتأخير سيرهم ، وبدلا من محاولة احتلال الجسر الذي تدافع عنه مفارز المؤخرة المعادية ، فانه قام بعبور خطير من مخاضة عميقة لا تصلح الا لعبور الخيالة ، ثم عمل حركة التفاف واسعة ليلية ووقف على خط تراجع العدو . ولم يكن حتى ذلك الوقت يبحث عن المعركة ، واكتفى بسد الطريق امام كل محاولة للانسحاب. وقامت خيالته بمتابعة ازعاج وتأخير العدو من الخلف ، بينما تابعت مشاته سيرها متجنبة القتال . وكان قيصر يبذل قصارى جهده لكبح رغبة القتال لدى جيشه، فلم يدفع جنود العدو الى نقطة اللاعودة ، بل اثار لديهم الشعور بالأخوة . وزاد الجوع والتعب وفقدان الامل هذا الشعور قوة ، ولما دفعهم في نهاية المطاف كقطيع من الاغنام نحو ليردا وأجبرهم على التمركز في موضع خال من المياه اضطروا للاستسلام وحقق قيصر بذلك نصر استراتيجي لم تسفك فيه دماء المنتصر او المغلوب ، وكان قيصر يزداد قوة كلما خسر العدو رجاله ، ورغم انه استبدل الهجوم المباشر بالمناورة فانه لم يخصص لهذه المناورة سوى ٦ اسابيع ثم عدل استراتيجيته في المعركة التالية ، واضاع ٨ اشهر لانتزاع نصر غير كامل ؛ فبدلا من دخول اليونان بطريق برية غير مباشرة عبر منطقة ايليريا ، استخدم قيصر طريقا بحرية مباشرة فكسب في باديء الامر بعض الوقت ، ثم فقد فيما بعد الشيء الكثير . وكان بومبي يملك منذ البداية اسطولا هاما ، وكان قيصر محروما من ذلك . ورغم أوامره ببناء مختلف انواع السفن ، فان اكثر اسطوله لم يكن جاهزا وابحر قيصر من برانديزي مع حوالي نصف معداته بدلا من الانتظار لاتمام استعداده ، ونزل في بالا إيست ، وسار مع الشاطيء متجها نحو المرفأ الهام ديراكيوم «دورازو حاليا» وكان بومبي قد سبقه اليه منذ وقت قريب . ولكن بومبي كان بطيئا كعادته ، ولم يحسن استخدام تفوقه العددي على انطوان الذي كان يقود النصف الثاني لجيش قيصر . واستطاع انطوان تحاشي الصدام مع اسطول بومبي ، وحاول الاتصال بقيصر فلم يفلح ، ونزل في الطرف الثاني من ديراكيوم ، وهنا غدا بومبي في موضع مركزي ، ولكنه لم يستطع رغم ذلك منع التقاء انطوان والقيصر في تيرانا ، فقاتل قتالا تراجعيا ، وتبعه اعداؤه محاولين الاشتباك معه دون جدوى . بعد ذلك تقابل الجيشان على الضفة الجنوبية لنهر جينوسوس الذي يسير جنوبي ديراكيوم .

وصل الهجوم غير المباشر المعضلة ، اذ قام قيصر بالتفاف طويل وشاق ،

مسافة ٤٥ ميلا في منطقة صعبة . وكان من نتيجته وصوله الى موضع وسط بين ديراكيوم وبومبي ، ولم يكن امام بومبي سوى ٢٥ ميلا عندما أحس بالخطر فانسحب نحو قاعدة عملياته ولكن قيصر لم يستثمر تفوقه ، كما ان بومبي تجمد حسب طبيعته وخاصة بعد ان حافظ على حرية التموين من البحر ، عندها قام قيصر بعملية تتسم بشيء من الجدية ولكنها بقيت عقيمة ، لقد حاول القيام بحركة كبيرة كثيرة التكاليف للاحاطة بجيش العدو الذي كان أكبر من جيشه وأقدر على التمون من البحر بحرية .

ولم يستطع بومبي ، رغم تخاذله ، ان يتجاهل هذه الفرصة فقام بضربات قوية ضد النقاط الضعيفة في خط التطويق المتهافت . وادى نجاح هذه الضربات الى اجبار قيصر على الرد بهجوم معاكس فشل فشلا ذريعا . ولم ينقذ وحداته من التدمير الكامل بعد انهيار معنوياتها سوى سلبية بومبي .

واعلنت الوحدات عن رغبتها في القتال من جديد ، ولكن قيصر كان قد فهم الدرس جيدا ، فأمن خط تراجعه وعاد الى استراتيجية الهجوم غير المباشر ، وكانت فرصة جيدة لبومبي ليطبق نفس الاستراتيجية ويعبر الادرياتيكي ليسيطر على ايطاليا ، وساعده في عودته الاثر السيء الذي احدثه الفشل على نفوس الرومان . وفهم قيصر اهمية خطر عودة بومبي الى الغرب ، فقام بهجوم نحو الشرق ضد مساعد خصمه : سيبيون نازيكا الذي كان في مقدونيا ، فاضطر بومبي الى مجاراة قيصر الذي كان اكثر بداهة وذكاء ، وذهب بطريق آخر لنجدة مساعده . ووصل قيصر قبل عدوه ، فتريث وانتظر قدومه بدلا من القيام بهجوم على معسكر سيبيون قبل وصول بومبي ، فأضاع بذلك فرصة ملائمة . ويمكن تفسير ذلك بأنه فهم بعد معركة ديراكيوم ان بومبي لا يقاتل في ارض مكشوفة الا اذا كانت لديه اسباب وجيهة جدا . وهذا تفكير سليم وحساب صحيح فلقد كان لدى بومبي ضعف قوات قيصر ، ولكنه لم يشتبك في القتال الا تحت الحاح مساعديه ، وقام قيصر بسلسلة من المناورات لايجاد الفرصة الملائمة ، فسار بومبي لملاقاته واشتبك معه في فارزال ، وكانت المعركة سابقة لأوانها ، بدلالة نتائجها غير المرضية . ومع ذلك ادى تقرب قيصر غير المباشر هذا الى تأمين التوازن الاستراتيجي ، وكان من الضروري القيام بتقرب آخر لتدمير بومبي نهائيا .

وبعد الانتظار في فارزال ، طارده قيصر وعبر الدردنيل خلفه واجتاز آسيا الصغرى دافعا اياه على طول شواطىء البحر الابيض المتوسط ، حتى وصل الى الاسكندرية حيث قتله بطليموس (١٥) مجنبا قيصر كثيرا من المتاعب . ولكن المنتصر أضاع مكاسبه الكبيرة عندما تدخل في الصراع الذي كان قائما

---

١٥ ـ بطليموس الرابع عشر ملك مصر من عام ٥٢ الى ٤٧ ق.م.

بين بطليموس واخته كليوباترة (١٦) على عرش مصر ، فخسر بذلك ٨ اشهر وبعثر قواه . ويبدو ان خطيئة قيصر الاساسية كانت كامنة في عناده في متابعة الاهداف التي تظهر امامه ، وتثبيت انتباهه عليها لدرجة تبعده عن مخططاته الكبيرة الاصلية .

سمحت هذه الفرصة لقوات بومبي من ان تتجمع وتكسب الوقت اللازم لتحضير الوحدات في افريقيا واسبانيا . وازدادت صعوبات قيصر في افريقيا بسبب العمل المباشر الذي كان يستخدمه مساعده كوريون الذي حصل على نجاح أولي بعد نزوله على الشاطىء ، ثم أوقع نفسه في فخ نصبه الملك جوبا حليف بومبي ، فأبيد جيشه . هنا افتتح قيصر معركة افريقيا في عام ٤٦ (ق.م) ، مستخدما ــ كما فعل في اليونان ــ عملا مباشرا كان له أسوأ النتائج ، وساعدت قلة امكانياته على زيادة الوضع تأزما ، وسقط في الشبكة مرة اخرى . ولكنه تخلص بفضل حظه وشجاعته التكتيكية . ثم تمركز بعد ذلك في معسكر محصن قرب روسبينا ، وانتظر قدوم نجدات جديدة ، ولم يطاوع نفسه التواقة الى الدخول في معركة .

وهنا عاد للمناورة من جديد مجنبا وحداته سفك الدماء ، فطبق بنجاح خلال عدة شهور استراتيجية الهجوم غير المباشر ، ولكن على مستوى صغير ، واستمر على ذلك حتى بعد وصول الامدادات . وناور بدون توقف معطيا خصمه مجموعة من وخزات الابر فضعفت معنويات رجال المعسكر المعادي واخذوا يفرون بأعداد كبيرة . وفي النهاية ، هدد قاعدة العدو الكبيرة في تابسوس بهجوم غير مباشر أدى الى خلق الظروف الملائمة للمعركة ، فانطلقت وحداته بالانقضاض يدفعها حماس شديد دون ان يقوم قادتها بدور كبير .

ثم جاءت معركة اسبانيا في عام ٤٥ ق.م وهي المعركة التي وضعت نهاية للحرب ، ولقد حاول قيصر خلالها الاقتصاد في الرجال ، فناور ضمن حدود ضيقة نسبيا ، ليدفع العدو الى ارض تؤمن له القيام بمعركة رابحة ، ووصل الى موندا وحقق هنالك انتصارا غالي الثمن . وكانت المعركة ضارية وغير حاسمة لفترة طويلة ، وخسائر الطرفين فادحة بشكل يدعونا الى الانتباه لضرورة التفريق بين الاقتصاد بالقوى وتقدير القوى اللازمة بشكل صحيح جدا .

استخدم قيصر طريقة الهجوم غير المباشر ، ولكن على مستوى صغير وبدون مفاجأة . لقد كان يثير في كل معركة توترا نفسيا لدى العدو ، ولكن دون ان يتمكن من افنائه . ولعل سبب ذلك اهتمامه الخاص بتدمير معنويات الوحدات المعادية بدل تحطيم معنويات قياداتها . ويعطينا تاريخ معاركه فكرة واضحة عن

---

١٦ ــ كليوباتره السابعة ولدت في عام ٦٩ ق.م ــ وحكمت مصر من عام ٥١ الى ٣٠ ق.م. أسرت بجمالها يوليوس قيصر ثم مارك انطونيو ، ثم انتحرت بالافعى بعد هزيمة انطونيو .

الفرق بين نوعين من الهجوم غير المباشر احدهما مادي موجه للقوات المعادية وثانيهما معنوي موجه لقيادتها ، كما يؤكد الفرق بين الهجوم المباشر وغير المباشر . لقد فشل قيصر في كل مرة قام فيها بهجوم مباشر ، ولكنه كان يصلح فشله كل مرة بالعودة الى الهجوم غير المباشر .

الفصل الرابع

الحروب البيزنطية
بيليزير ، نارسيس

بعد انتصار قيصر في موقعة موندا ٤٥ (ق.م) ، نودي به «دكتاتورا مدى الحياة» لروما والعالم الروماني ، وكان لهذا المنصب الجديد اثر كبير لانه تجاهل الدستور وفتح الطريق من الجمهورية الى الامبراطورية . وهذا عمل يطوي في ثناياه بذور دمار الامبراطورية واضمحلالها . ولقد تم هذا الاضمحلال بشكل متدرج ومتزايد ، استمر خمسة قرون منذ انتصار قيصر الى سقوط روما ، ومع ذلك فقد تابعت الامبراطورية الرومانية بقاءها تحت شكل آخر نحو ١٠٠٠ عام .

ويعود طول حياة الامبراطورية البيزنطية الجديدة الى قسطنطين الاكبر (١) . الذي نقل العاصمة من روما الى بيزنطة «القسطنطينية» في سنة ٣٣٠ ، كما يعود

---

١ ـ قسطنطين الاكبر : (٢٧١ ـ ٣٣٧) امبراطور روما في عام ٣٠٦ . انتصر على خصمه ماكسانس في معركة ظهر فيها رسم الصليب في السماء مع هذه الآية «بهذه العلامة لك النصر» . «المعرب»

الى تحول العالم الروماني نهائيا في عام ٣٦٤ الى امبراطورية الشرق وامبراطورية الغرب . وعاشت امبراطورية الشرق في حالة افضل من امبراطورية الغرب التي كان يفتت قواها باستمرار هجمات الشعوب الهمجية الاوربية ، حتى جاءت نهاية القرن الخامس وظهرت مملكة ايطاليا المستقلة المشابهة لممالك الغول واسبانيا وافريقيا آنذاك ، فسقطت بذلك امبراطورية الغرب التي لم تكن تحكم الا اسما.

ولكن في أواسط القرن السادس انبعثت سيطرة روما من جديد في الغرب نتيجة عمل جاء من الشرق . إذ قام قادة بيزنطة ايام جوستينيان (٢) بالاستيلاء على افريقيا وايطاليا واسبانيا الجنوبية . ويمكن اعتبار هذه الانتصارات عائدة للقائد بيليزير (٣) . كما يمكن اعطاؤها صفتين ظاهرتين ، اولاهما ضعف القوى التي حصل بها بيليزير على نتائج جيدة في معارك بعيدة ، وثانيهما استخدام الدفاع التكتيكي بشكل دائم ونموذجي . ولا يقدم التاريخ مثالا مشابها لهذه السلسلة من الانتصارات القائمة على تجنب الهجوم ، والمنفذة بجيش يمتاز بسرعة الحركة ، لان معظمه من الخيالة ، ولم تكن الشجاعة لتنقص بيليزير ولكن تكتيكه كان مبنيا على اعطاء الفرصة للعدو للقيام بالهجوم . ويعود اختياره هذا التكتيك الى ضعف امكانياته من جهة وحساباته الحكيمة المبنية على معطيات تكتيكية ونفسية من جهة اخرى .

لم يكن جيش بيليزير منظما حسب تنظيم (الليجيونات) التقليدي ، وكان له شكل جيوش القرون الوسطى ، مع مستوى تنظيمي اعلى . ولم يكن العسكري الروماني ليجد فيه جيشا رومانياً نظاميا . ولكن لو ان عسكريا ممن خدموا مع سيبيون في افريقيا نظر اليه لفهم اصل وأسباب تطوره . والحقيقة ان الجيش قد تطور منذ ايام سيبيون ، وقيصر ، والدولة نفسها انتقلت من مرحلة دولة المدينة الى مرحلة الامبراطورية . ولم يعد الجيش قوة محترفة تخدم مدة طويلة ، بل غدا جيشا من المواطنين الذين يقومون بالاعمال العسكرية لمدة قصيرة.

ولم تعد الخيالة في التنظيمات الجديدة تشغل المركز الاول الذي كانت تشغله في معركة زاما ، بل غدت المشاة هي اساس الجيش الامبراطوري الروماني ، وأصبحت الخيالة فرعا ثانويا . ولكن فيما بعد اصبحت الحاجة ماسة لوحدات سريعة الحركة قادرة على الدفاع عن الجبهة ، فاضطر الرومان (كما اضطروا في الماضي اثناء صراعهم ضد هانيبال) الى زيادة نسبة الخيالة باستمرار . وفي

---

٢ - جوستينيان الاول : امبراطور الشرق من ٥٢٧ الى ٥٦٥ كان لديه قادة افذاذ مثل بيليزير ونارسيس ، انتصر على الفرس والفاندال والقوط الشرقيين واحتل افريقيا وايطاليا وقام بأعمال جليلة بناءة .

٣ - بيليزير (٤٩٤ - ٥٦٥) قائد بيزنطي انتصر على الفرس والفاندال والقوط الشرقيين . «المعرب»

عام ٣٧٨ وقعت معركة أندرينوبل ، وسيطرت خيالة القوطيين على (ليجيونات) الرومان . واضطرت الجيوش الرومانية بعدها الى اعادة تنظيم وحداتها ، وزيادة خيالتها ، مستفيدة من دروس هذه المعركة .

وتعاقبت الاجيال بعد ذلك ، وتم التطور في اتجاه مخالف للماضي ، وفي اثناء حكم تيؤدوز تم تطوير العسكري الخيال الذي يرتدي الدرع مما أدى الى تجنيد عدد كبير من خيالة الشعوب الاوربية الهمجية ، ثم تم بعد ذلك تعديل هذا الاتجاه بشكل معقول واعيد تنظيم الوحدات العسكرية . وكان السلاح الرئيسي في عهد جوستينيان وبيليزير ، الخيالة الثقيلة المدججة بالدروع والمسلحة بالقوس والرمح الطويل . وكانت الغاية الاساسية من ذلك جمع قوة الرمي المتحركة من الخيالة رماة النبال في جيوش الهون والفرس ، كما اخذوا فكرة الصدمة من الخيالة القوطيين حاملي الرماح ، ويعطي توافق هذين النوعين من الخيالة صورة تكتيكية مشابهة لتعاون الدبابات الخفيفة والمتوسطة والثقيلة في القرن العشرين . وكانت المشاة على نوعين خفيفة وثقيلة مسلحة برمح ثقيل ومنظمة في تشكيلات متراصة . وكانت المشاة الثقيلة نقطة ارتكاز تناور حولها الخيالة خلال المعركة .

وفي بداية القرن السادس اصبحت الامبراطورية الرومانية الشرقية في مركز حرج ، وتعرضت جيوشها لكثير من الهزائم الساحقة على الحدود الفارسية ، وغدت مواقعها في آسيا الصغرى مهددة بشكل جدي . ثم خف ضغط الفرس نسبيا عندما هاجم الهون حدود بلادهم الشمالية . ولكن الحرب اشتعلت معهم من جديد حوالي عام ٥٢٥ وبدات بداية صالحة بالنسبة للرومان ، وظهر بيليزير فيها اثناء قيادته هجمات الخيالة في أرمينيا الفارسية ، وخلال هجوم مضاد جيد قام به ضد الفرس الذين كانوا قد احتلوا حصنا عند الحدود . وبدت انتصاراته باهرة امام النتائج التافهة التي حصل عليها القادة الآخرون مما دفع جوستينيان الى تعيينه قائدا عاما لجيوش الشرق ، رغم انه كان لا يزال ، شابا في حوالي الثلاثين من عمره .

وفي عام ٥٣٠ تحرك جيش فارسي قوامه ٤٠ الف رجل نحو حصن داراس . وكان مع بيليزير ٢٠ الف رجل فقط أغلبهم من المتطوعين غير المدربين الذين ارسلوا مؤخرا له . وبدلا من الاحتماء والمحاصرة خلف الاسوار قرر الاشتباك في معركة في موضع اعده بكل عناية ليطبق فيه تكتيكه «الهجومي ـ الدفاعي» بشكل عملي ، وكان يعتمد في الحقيقة، على ان تعالي الفرس على البيزنطيين ، وتفوقهم العددي عليهم سيدفعانهم الى المبادرة بالهجوم . وتم حفر خندق عريض وعميق أمام حصن داراس ، وكان قريبا من أسوار الحصن لدرجة تؤمن دعم المدافعين عن الخندق بواسطة الرماة المحتمين خلف الاسوار والمشكلين من مشاة بيليزير المتوسطة النوعية . كما حفر على طرفي الخندق الجبهي خندقين طوليين يشكلان مع الجبهة زاوية . وكانت أطراف الخنادق الطولية متجهة نحو المرتفعات المسيطرة

على الوادي من طرفيه . وانشئت على مسافة متفاوتة من هذه التحصينات المغطية للمجنبات ممرات عريضة تتمركز الخيالة الثقيلة خلفها وتكون جاهزة للانطلاق منها للقيام بهجوم مضاد ، وكانت خيالة الهون الخفيفة متمركزة في الزوايا بغية القيام بهجمات ازعاج على المغيرين ، اذا اضطرت الخيالة الثقيلة الى الانسحاب امامهم .

وعندما وصل الفرس الى مكان المعركة ، نظروا الى هذه الاعمال الدفاعية باستغراب وخصصوا اليوم الاول لاستطلاعها ، وفي صبيحة اليوم التالي ارسل بيليزير الى القائد الفارسي كتابا يعرض عليه تسوية المنازعات بمباحثات سلمية بدلا من القتال . ويسجل بركوب قول بيليزير «السلم افضل الاعمال ، هكذا يفكر الرجال الذين يملكون ذرة من العقل .... وافضل القواد هو من يستطيع استبدال الحرب بالسلم» . وتظهر عظمة هذا القول اذا تذكرنا ان قائله قائد شاب ذكره قبيل يوم نصره الكبير الاول . ولكن القائد الفارسي اجاب بأنه لا يمكن الثقة بعهود البيزنطيين ، ولعله فكر في ان الخوف هو الذي دفع بيليزير لكتابة هذه الرسالة وارغمه على اتخاذ هذا الوضع الدفاعي ، لذا قرر الهجوم . وحاول الفرس تحاشي السقوط في الفخ فلم يهاجموا القلب ، وكان هذا هو هدف بيليزير الذي لم يكن ينتظر هجومهم جبهيا بل كان يود اجراء المعركة على الاجنحة ليستخدم خيالته التي يعتمد عليها لانها لم تكن أضعف من خيالة الفرس بكثير ، وكانت مشاته قادرة على الاشتراك في مثل هذه المعركة برمي النبال ، وكان القوس البيزنطي آنذاك افضل وابعد مدى من القوس الفارسي ، كما ان تأثر الدروع الفارسية بسهام البيزنطيين كان اكبر من تأثر دروع البيزنطيين بسهام الفرس .

تقدمت الخيالة الفارسية في بادىء الامر نحو جناح بيليزير الايسر ولكن مفرزة صغيرة من خيالته كانت مختبئة على المجنبة خلف هضبة ، وقامت بمهاجمة الخيالة الفارسية بقوة من الخلف ، ومع هذه الصدمة المفاجئة ظهرت خيالة الهون الخفيفة من الطرف الآخر فاجبرت الفرس على الانسحاب وفي نفس الوقت تقدمت الخيالة الفارسية على الجناح الايمن وتوغلت في مواضع البيزنطيين بعمق مما أدى الى فتح ثغرة بين جناحهم المتقدم وقلبهم الذي بقي ثابتا . عندها دفع بيليزير في هذه الثغرة بكل الخيالة الموجودة تحت تصرفه . وقام بهجوم معاكس على نقطة التمفصل الضعيفة في تشكيلات العدو الامر الذي ادى الى اخراج خيالة الجناح الايسر الفارسي من المعركة وتفريقها . ثم عاد بيليزير الى مجنبة المشاة المعادية المجمدة في المركز ، وانتهت معركة داراس بهزيمة ساحقة للفرس ، وكانت اول هزيمة لهم امام البيزنطيين منذ اجيال عديدة .

وبعد عدة ضربات وهزائم قرر الفرس مفاوضة جوستينيان لعقد الصلح ، وخلال فترة المباحثات قدم ملك ساراسان الى حلفائه الفرس خطة حربية تعتمد على العمل غير المباشر ضد القوى البيزنطيه ، واقترح مهاجمة الحدود في المكان الضعيف الذي لم يهتم العدو بتقويته بدلا من التعرض الى المكان المحصن

والمحروس جيدا ، لان في ذلك فائدة كبرى ، واقتنع الفرس بفكرته فأرسلوا جيشا يضم معظم الوحدات المتحركة، وعبر الجيش نهر الفرات ثم اجتاز الصحراء التي كانت تعتبر منذ زمن طويل حاجزا لا يمكن عبوره ، واقتربت الوحدات فجأة من انطاكية اغنى بلاد الامبراطورية الشرقية . ولقد اثبتت هذه الخطة بعد تنفيذها امكان اجتياز الصحراء بجيش أعد بحيث يتلاءم مع ظروف الطبيعة .

ولكن قوات بيليزير المتحركة كانت كبيرة جدا ، وجهاز الدفاع على حدوده قويا بشكل استطاع معه الحركة بسرعة من الشمال والوصول قبل عدوه لاحباط خططه وتهديداته ، ثم اكتفى برده حتى قواعد انطلاقه فقط . ولم ترض قواته عن هذا العمل ، لانها كانت ترغب في نصر أكبر ، فحاول بيليزير افهامها بأن النصر الحقيقي هو في اجبار العدو على التخلي عن مخططاته بأقل تكاليف ممكنة. وبما انه نجح في ذلك ، فان القتال اصبح عديم الجدوى . وقال : «لماذا نصر بعناد على متابعة عدو منسحب» كما قال : «لماذا نعرض انفسنا لخطر الهزيمة في القتال اذا كانت نتائج هذه الهزيمة ستؤدي الى فتح الطريق الى قلب الامبراطورية امام غزو جديد خطير ، كما ان اغلاق السبل في وجه عدو منسحب قد يؤدي الى اعطائه شجاعة اليائس لانقاذ حياته» .

ولم يستطع الجنود المتعطشون للدماء فهم هذه الفكرة الحكيمة فاستمروا يطالبون بما يمليه عليهم شعورهم الغريزي البدائي . وحاول بيليزير مسايرتهم للاحتفاظ بهم تحت رايته فاشتبك في القتال ، وأصيب بالهزيمة الوحيدة التي مني بها في حياته ، مما اثبت رجاحة أفكاره وحججه ، ولقد أصيب الفرس للحصول على هذا النصر بخسائر فادحة ، فاضطروا رغم انتصارهم الى متابعة القتال التراجعي .

كلف بيليزير بعد دفاعه عن الجبهة الشرقية بتنفيذ مهمة هجومية في الغرب. في القرن السابق كان الفاندال (وهم شعب جرماني) قد انهوا هجرتهم الى الجنوب باحتلال افريقيا الرومانية واتخاذ قرطاجة عاصمة لهم . وكانوا ينطلقون من هذه القاعدة للقيام بأعمال القرصنة على نطاق واسع ، ويقومون بالغارات سلب ونهب على مدن شواطىء البحر الابيض المتوسط . ولقد نهبوا روما في عام ٤٥٥ ثم هزموا الحملة التأديبية التي ارسلتها القسطنطينية ضدهم . الا ان الشمس الافريقية وحياة الترف هدمت عادات أجيالهم التالية وأثرت على طباعهم واندفاعهم وقوتهم . وفي ٥٣١م عزل ملك الفاندال هيلديريك صديق جوستينيان في ايام صباه ، وسجن على يد جيليمير احد ابناء اخوته المتهورين . وكتب جوستينيان الى جيليمير يطلب منه اخلاء سبيل عمه ، وجاء الجواب بالرفض فقرر في عام ٥٣٣م تعيين بيليزير قائدا لحملة تتوجه الى افريقيا وتتألف من ٥ آلاف فارس و١٠ آلاف من المشاة . وكانت الوحدات مختارة وممتازة ، ولكنها قليلة بالنسبة لقوة الفاندال البالغة حوالي ١٠٠ الف رجل .

عندما وصل بيليزير الى صقلية جاءته انباء مشجعة تقول ان اكثر قوات الفاندال موجودة في جزيرة سردينيا لاخماد فتنة اشتعلت ضدهم ، وكان جيليمير

نفسه بعيدا عن قرطاجة ، ولم يضع بيليزير وقتا ، وابحر الى افريقيا حيث نزل على البحر بدون قتال في نقطة تبعد مسيرة ٩ ايام عن قرطاجة . وتحاشى بذلك خطر التعرض لاسطول الفاندال المتفوق على اسطوله . وعندما عرف جيليمير ذلك ، أصدر اوامره العاجلة الى مختلف المفارز بالتوجه نحو ممر يبعد ١٠ أميال عن قرطاجة ، وكانت خطته تهدف الى تطويق المهاجمين .

ولكن تقدم بيليزير كان متوافقا في الزمن مع تهديد قرطاجة بالاسطول الرومائي مما أدى الى عرقلة خطط عدوه ففاجأ قواته اثناء تجمعها ، وجرت عدة مناوشات سببت اضطراب الفاندال لدرجة انهم فقدوا ميزة التفوق العددي على بيليزير ، وتفرقوا في مختلف الاتجاهات تاركين الطريق الى قرطاجة مفتوحة امام بيليزير ، وفي هذا الوقت جمع جيليمير قواته واستدعى وحداته من سردينيا ، واستعد خارج قرطاجة للقيام بهجوم جديد . فما كان من بيليزير الا ان احتل المدينة التي أخلاها اعداؤه .

انتظر بيليزير في قرطاجة عدة اشهر منتظرا محاولة اعدائه لطرده ، ولما لم يقوموا بذلك استنتج من جمودهم أن حالتهم المعنوية سيئة ، فقرر القيام بهجوم يستند الى مكان حصين يمكن الالتجاء اليه عند الفشل . فدفع خيالته الى الامام، ووصل الى معسكر الفاندال عند تريكاميرون الرابضة خلف نهر سريع الجريان ، واشتبك في المعركة قبل وصول مشاته . وكان العدو يملك التفوق العددي ، الامر الذي دعاه الى التفكير في اجبار العدو على مهاجمته على ان يصد هجومه بهجوم مضاد عندما يعبر العدو النهر ، فقام بهجوم استفزازي و«تمثيل انسحاب» ولكنه لم يفلح في جذب العدو الى المطاردة عبر النهر كما كان ينبغي . عندها قرر الاستفادة من حذر خصومه ، فدفع الى الضفة المقابلة للنهر بقوات اكبر وقام بهجوم مشاغلة على قلبهم ، فجذب انتباههم وقام بعد ذلك بالهجوم على الجبهة .

وانهارت مقاومة الفاندال فجأة ، فانسحبوا والتجأوا الى معسكراتهم ، وهرب جيليمير خلال الليل وتفرق جيشه بعد انسحابه ، واعقب هذا النصر مطاردة أسر خلالها جيليمير وانتهت الحرب بذلك . وعندئذ اصبح مشروع استرداد افريقيا الرومانية ممكنا بعد ان كان في الماضي مغامرة خطرة .

شجع هذا النصر السهل جوستينيان على القيام بمحاولة في عام ٥٣٥ لطرد القوط الشرقيين ، واعادة احتلال ايطاليا وصقلية بأقل ثمن ، فأرسل جيشا صغيرا الى شاطىء دالماسيا ووعد الفرنج بالمال فساعدوه بمهاجمة العدو من الشمال ، واستغل جوستينيان عمليات المشاغلة هذه وأرسل بيليزير الى صقلية على راس حملة تعدادها ١٢ الف رجل . وامره بالوصول الى الجزيرة ونشر دعاية تقول ان هدف جيشه هو السير الى قرطاجة ، ثم محاولة احتلال الجزيرة اذا تيسر له ذلك ، فاذا ما تعذر ذلك ركب البحر ثانية وعاد الى قواعده . ولم يجد بيليزير اية صعوبة ، واستقبلته صقلية كمنقذ وحام رغم المعاملة الحسنة

التي عاملها بها المحتلون سابقا . ولم تقم حاميات الغوط الشرقيين بأية مقاومة باستثناء حامية باليرمو التي اضطر لاحتلالها مستخدما الحيلة والخديعة . وفي نفس الوقت كانت محاولات البيزنطيين في دالماسيا تصادف عقبات جمة ، مما اضطر جوستينيان لارسال جيش جديد ليتابع عملية المشاغلة ، ولما نجحت هذه العملية في لفت انتباه العدو اجتاز بيليزير مضيق مسينا ، وبدأ غزو ايطاليا .

أدت خلافات الغوط الشرقيين الداخلية واهمال ملوكهم الى فتح الطريق امام بيليزير في ايطاليا الجنوبية ، فتقدم حتى نابولي التي كانت محصنة جيدا وتدافع عنها حامية قوية تعادل تعداد جيشه كله . ومني بالفشل في بداية الامر . ثم وجد صدفة السبيل المأمون لدخول المدينة عبر قناة ماء مهجورة ، فدفع مفرزة مختارة من أحسن جنوده عبر المجرى المائي ، وقامت هذه المفرزة بهجوم من المؤخرة ، في الوقت الذي قام فيه الجيش بهجوم جبهي مع تسلق على الجدران ليلا ، ونجح في احتلال المدينة .

أدت هذه الكارثة الى اضطراب الغوط الشرقيين حتى انهم ثاروا على ملكهم وخلعوه وعينوا بدلا منه قائدا حازما هو فيتيجيس (٤) الذي طبق الافكار العسكرية التقليدية ، وحاول تدمير الفرنج قبل البدء في جمع قواته ضد البيزنطيين ، فترك روما في حراسة حامية كافية ، وسار نحو الشمال يقود حملة ضد الفرنج . ولم يكن الشعب الروماني راضيا عن الموقف ، ووجدت الحامية نفسها معزولة عن المواطنين وعاجزة عن الدفاع بدون مساعدتهم فانسحبت عند اقتراب بيليزير الذي احتل المدينة دون اية صعوبة ، وندم فيتيجيس على قراره ولكن بعد فوات الاوان ، فاشترى صداقة الفرنج بالذهب والاراضي ، ثم جمع جيشا قوامه ١٥٠ الف رجل لاعادة احتلال روما . ولم يكن مع بيليزير سوى ١٠ آلاف رجل ، فقام بتقوية حصون المدينة الدفاعية خلال ثلاثة اشهر وجمع كمية كبيرة من المؤونة ، ولما وصل فيتيجيس وبدأ الحصار استخدم بيليزير طريقة الدفاع الايجابي ، ونظم طلعات وإغارات عديدة منتظمة خارج أسواره ، استخدم خلالها ميزات خيالته المجهزة بالقوس بشكل يؤثر على خيالة العدو مع البقاء بعيدا عن متناول اسلحتها ، واستخدم الدقة الشديدة في صرف المؤن ، ولكن قوى العدو كانت تتناقص باستمرار وسرعة ، خاصة بعد انتشار الاوبئة بينهم . ولزيادة سرعة الانهيار خاطر بيليزير وأرسل مفرزتين احتلتا بالمفاجأة مدينتي تيفولي وتيراسين المسيطرتين على طريق تموين العدو الذي يحاصر روما، ولما وصلت الامدادات البيزنطية زاد مدى إغاراته على الشاطىء الادرياتيكي ووجهها الى مدينة رافين قاعدة عدوه الاساسية . وبعد سنة تخلى الغوط الشرقيين عن الحصار وانسحبوا نحو الشمال . ولما علموا بقدوم قوات بيزنطية جديدة واحتلال ريميني الواقعة على خط المواصلات مع رافين زادوا سرعة انسحابهم .

---

٤ ــ فيتيجيس : ملك الغوط الشرقيين من ٥١٦ ــ ٥٤٠ . «المعرب»

ولكن بيليزير هاجم مؤخراتهم وكبدها خسائر فادحة .

عندما كان فيتيجيس يقاتل متراجعا نحو الشمال الشرقي في اتجاه رافين وضع بيليزير على الشاطىء الغربي مفرزة من قواته واسطوله مهمتها احتلال مدينتي بافي وميلانو ، ثم توجه مع ٣٠ الف رجل في اتجاه الشاطىء الغربي حيث لحقت به نجدات نزلت حديثا على البر تعدادها ٧ آلاف جندي بقيادة نارسيس(٥) الذي كان ملحقا بخدمة البلاط . ثم توجه بسرعة لنجدة مفرزة ريميني التي كانت قريبة من فيتيجيس .

تحاشى بيليزير حصن أوزيمو وحاميته المؤلفة من ٢٥ الف رجل وتسلل خلفه ثم اتجه جيشه بثلاثة أرتال ، تقدم اثنان منها نحو ريميني وتقدم الثالث نحو البحر وكانت غايته من التقدم على ثلاثة ارتال اعطاء عدوه فكرة مضخمة عن قوته ، ولتأكيد هذه الفكرة لديه كان يشعل خطا طويلا من نيران المعسكرات في الليل ، ونجحت الحيلة ، وزاد من نجاحها الرهبة التي يحملها اسم بيليزير واصيبت عناصر جيش القوطيين بالهلع من جراء تقدمه .

ولم يكف بيليزير عن مراقبة فيتيجيس في اتجاه رافين علاوة على محاولة تأمين مواصلاته مع روما ، باحتلال مختلف الحصون التي كان قد تجاهلها خلال تقدمه السريع السابق . ولم يكن الامر سهلا بوسائطه القليلة ، وكانت طريقته تعتمد على عزل الحصن ثم تركيز امكانياته عليه في الوقت الذي تنتشر فيه مفارز سريعة الحركة على شكل ستارة على مسافة كافية لتثبيت قوى العدو التي قد تأتي لنجدة المحاصرين . ومع ذلك كانت المهمة في حاجة الى وقت طويل ، خاصة وان عددا من قواده كانوا يبحثون عن مهمات أسهل واهداف ذات مظاهر اكبر ، وكانوا يعتمدون في مخالفتهم للنظام وعصيانهم للاوامر على تأييد اصدقائهم في البلاط . وكان فيتيجيس خلال ذلك لا ينفك يرسل الرسل الى الفرنج والفرس لحثهم على القتال ما دامت الفرصة ملائمة لوضع حد للتوسع البيزنطي ، الذي يمكن ايقافه وسحقه بهجومين من جهتين يدمران القوات البيزنطية المبعثرة بشكل كبير . وأجاب ملوك الفرنج على هذه الطلبات بأن اجتازوا جبال الالب بجيوش كبيرة .

ولكن الفرنج الحقوا الضرر بمن قدموا لنجدتهم . اذ انهم قابلوا بعد عبور نهر البو مفرزتين تتناوشان احداهما بيزنطية والثانية من القوطيين فهاجموا المفرزتين دون تمييز وأجبروهما على الفرار ، ثم بدأوا في نهب البلاد وتخريبها ، وكان جيشهم مؤلفا من المشاة فقط . لذا بقي نطاق عملهم محدودا ، ثم تعرضوا للموت جوعا بالآلاف ، بسبب التخريب والقحط الذي سببوه بأنفسهم . ففقدوا معنوياتهم

---

٥ ــ نارسيس : قائد من قواد جوستينيان (٤٩٢ ــ ٥٦٨) كان حاكم ايطاليا وقام باحباط ثورتها الشعبية . «المعرب»

واصبحوا غير قادرين على مواجهة خصم متحرك . وهنا استطاع بيليزير اقناعهم بكل سهولة بضرورة العودة الى ما وراء جبال الالب واصبحت الظروف ملائمة له ليضغط بشدة على رافين ويجبر فيتيجيس على الاستسلام .

وفي عام ٥٤٠ استدعاه جوستينيان الى القسطنطينية لصد الخطر الفارسي الجديد . ولكن سبب الاستدعاء الحقيقي كان غيرة البعض ودسائسهم ، اذ قيل لجوستينيان ان القوط يعرضون الصلح على بيليزير بشرط الاعتراف به امبراطورا على الغرب . وعندما كان بيليزير في طريق عودته قام ملك فارسي جديد يدعى كوزورئيس باجتياز الصحراء ، وهي العملية التي لم تنجح في المرة السابقة ، واحتل انطاكية ومدن سورية أخرى وقام بنهبها ، ثم قبل العرض الذي قدمه جوستينيان والذي وعده فيه بتقديم جزية في كل عام مقابل عقد معاهدة صلح جديدة . ولكن ما ان عاد كوزورئيس الى بلاده، ووصل بيليزير الى القسطنطينية حتى مزق جوستينيان المعاهدة موفرا اموال خزائنه .

اجتاح كوزورئيس في المعركة التالية كولشيد على شاطىء البحر الاسود واحتل الحصن البيزنطي بيترا في الوقت الذي وصل فيه بيليزير الى الجبهة الشرقية ، وعندما علم بيليزير بقيام الفرس بمغامرة بعيدة لا يعرف اتجاهها ، قرر الاستفادة من الفرصة والعمل مستعينا بالمفاجأة ، فدخل ارض العدو . ولزيادة تاثير توغله دفع حلفاءه العرب للقيام بإغارات على طول نهر دجلة حتى حدود آشور . واقد طبق هاتين المناورتين في وقت اختاره بدقة ، فأظهر بذلك قيمة الهجوم غير المباشر الناجم عن تهديد قواعد الجيوش الفارسية المشتبكة في كولشيد ، ولما علم كوزورئيس بذلك عاد أدراجه بسرعة ليحمي خطوط مواصلاته.

ثم استدعي بيليزير بعد ذلك الى القسطنطينية بسبب اضطرابات داخلية ، وقام ملك الفرس خلال غيابه عن الجبهة الشرقية بمحاولة لغزو فلسطين ، وكان هدفه من ذلك احتلال أورشليم اغنى مدن الشرق بعد تدمير انطاكية ، ولما علم جوستينيان بالامر ارسل بيليزير لمعالجة الموقف، ولكن ضخامة جيش كوزورئيس المؤلف من ٢٠٠ الف رجل منعه من اجتياز الصحراء القاحلة واجبره على السير بمحاذاة نهر الفرات ودخول سوريا من الشمال ثم التوجه نحو الجنوب باتجاه فلسطين ، لذا عرف بيليزير الطريق الذي سيتبعه عدوه بدقة ، فجمع قواته القليلة السريعة الحركة في مدينة كارشميش الواقعة على المجرى العلوي لنهر الفرات ، بحيث يمكنه تهديد مجنبة الفرس واضعف النقاط في طريق تقدمهم . ولما علم كوزورئيس بذلك أرسل مبعوثا الى بيليزير للاستعلام عن حالة الجيش البيزنطي متسترا تحت ستار مفاوضات الصلح . ولم يكن هذا الجيش ليعادل اكثر من ١/١٠ او ١/٢٠ من القوات الفارسية .

عرف بيليزير هدف هذا المبعوث فقام بخدعة عسكرية ، اذ اختار خيرة عناصره من القوطيين والفاندال والعرب الذين انضووا تحت لوائه بعد اجتياح بلادهم ، ووضعهم على طريق مرور مبعوث كوزورئيس بشكل يعتقد معه هذا الجاسوس ان ما يشاهده من قوات هي مقدمة لجيش كبير . وتلقى العساكر أمرا بالتفرق في

السهل واجراء التحركات باستمرار كي يبدو عددهم مضاعفا ، ولقد حققت هذه المظاهر تأثيرها المطلوب الذي زادته قوة ثقة بيليزير بنفسه اثناء اللقاء ، واكدته مظاهر عدم الاهتمام التي ابدتها الوحدات وكأنها لا تتوقع اي هجوم .

اقنع تقرير المبعوث بعد عودته كوزورئيس بأن في متابعة التقدم مخاطرة غير محمودة ، خاصة وان قوة معادية كهذه تقع على جناح خط مواصلاته ، ثم قام فرسان بيليزير بعدة مناورات على طول نهر الفرات زادت الفرس وقوعا في خطئهم ، وتمت خديعة الفرس وتحقق الانسحاب السريع والعودة الى قواعد الانطلاق وراء النهر ، وليس في التاريخ مثال كهذا تم فيه صد غزو كبير لا يقاوم باقل التكاليف والجهود . ويرجع ذلك الى المعجزة التي ترتبت على الهجوم غير المباشر المتمثل في احتلال موضع يهدد مجنبة الخصم ماديا ويؤثر عليه معنويا .

ثم استدعي بيليزير ثانية الى القسطنطينية بسبب شكوك جوستينيان التي كانت الغيرة تبعثها وتزكيها ، والانتصارات المتتالية تزيدها باستمرار . ثم ساءت امور البيزنطيين في ايطاليا بعد قليل وغدت سلطة جوستينيان مهددة بالخطر ، فاضطر لارسال بيليزير لاصلاح الاوضاع ، ولكنه لم يعطه سوى اضعف الامكانيات بسبب شحه وغيرته وشكوكه . وزاد ظهور ضعف الامكانيات عندما اتسعت المهمة الاساسية اتساعا كبيرا . ووصل بيليزير الى رافين وكان القوط الشرقيون قد استعادوا قوتهم تحت قيادة ملكهم الجديد توتيلا (٦) واعادوا احتلال جميع اجزاء ايطاليا الشمالية الغربية ، واتجهوا نحو الجنوب ؛ فسقطت نابولي في ايديهم ، وغدت روما نفسها مهددة . وقام بيليزير بمحاولة جريئة لانقاذ روما ، اذ ابحر مع مفرزة على طول الشاطىء ، فهدم توتيلا سور المدينة ، وترك مفرزة مؤلفة من ١٥ الف رجل لتثبيت مفرزة بيليزير المؤلفة من ٧ آلاف جندي فقط على الشاطىء . وسار بسرعة نحو الشمال لاحتلال رافين اثناء غياب البيزنطيين . ولكن بيليزير أحبط عمل خصمه وتسلل الى روما التي غدت طعما لا يمكن تجاهله ، بعد ثلاثة اسابيع عاد توتيلا وجيشه ، وكان بيليزير قد اعاد خلال هذه الفترة بناء التحصينات وارجعها الى وضعها السابق فيما عدا الابواب ؛ فاستطاع بذلك صد هجومين كبيرين متتاليين . ومني الغوطيون بخسائر كبيرة وفقدوا الثقة في انفسهم . ولما حاولوا اقتحام المدينة للمرة الثالثة قام بيليزير بهجوم معاكس شتت شملهم. وفي اليوم التالي تخلوا عن الحصار وانسحبوا الى تيفولي؛ وارسل بيليزير الرسل الى جوستينيان يطلب منه المدد ؛ فلم يحصل الا على اعداد ضئيلة من القوات لم يستطع بها استعادة ايطاليا كلها بسرعة ، واكتفى بإضاعة عدة سنوات في عمليات ثانوية محلية ، ذاهبا من حصن الى حصن ومن ميناء

---

٦ ـ توتيلا : ملك القوط الشرقيين في ايطاليا من ٥٤١ الى ٥٥٢ . هزمه وقتله نارسيس . «المعرب»

الى ميناء . ولما فقد الامل في اكتساب ثقة جوستينيان والحصول على نجدات منه ، طلب في عام ٥٤٨ السماح له بالاستقالة والعودة الى القسطنطينية فاجيب الى طلبه .

بعد ذلك بأربعة اعوام ، ندم جوستينيان على ترك ايطاليا وقرر القيام بحمله جديدة ، ولكنه لم يشأ تسليم القيادة الى بيليزير كيلا يكون حاكما منافسا له ، واعطى القيادة الى نارسيس ، الذي كان منذ زمن طويل قائدا بارعا في فن الحرب ، واثبت في اول معارك بيليزير في ايطاليا امكانيات تكتيكية جيدة ، واستغل نارسيس الفرصة التي بدت له ، ولم يقبل عرض جوستينيان في بادىء الامر الا اذا حصل على جيش قوي مجهز جيدا ، ولما حصل على مبتغاه انطلق نحو الشمال على طول الشاطىء الادرياتيكي ، ونجحت حركته التي فوجىء الغوطيون بها ، لانهم كانوا يعتقدون ان الطريق الذي سيسير فيه نارسيس ميكون طريق البحر ، لان الطرق الساحلية صعبة وتعترضها مصبات انهار كثيرة الامر الذي يعرقل التقدم السريع . ولكن نارسبس جمع عددا كبيرا من السفن وجعلها تسير على طول الشاطىء مع الرتل ، واستخدمها كجسر عائم متحرك عند كل مصب نهر ، مما أدى الى تقدمه بسرعة بعكس ما كان متوقعا ، فوصل الى رافين دون مقاومة ، ولم يضع وقته فيها بل توجه بسرعة نحو الجنوب ، واجتاز الحصون التي تعترض طريقه بالالتفاف حولها دون مهاجمتها ، ليجبر توتيلا على الاشتباك معه في معركة قبل ان يجمع قواته . وكان توتيلا يسيطر على الممر الرئيسي لجبال الآبنين ، ولكن نارسيس تسرب من مسلك جبلي جانبي ، وهاجم عدوه فجأة في تاجينو .

وكان نارسيس اقوى من الغوطيين ، وهذه ميزة لم يتمتع بها بيليزير الذي كان موقفه دائما خلال معاركه السابقة ، هو الموقف الاضعف . ومع ذلك فضل الاستفادة من مكاسب هجومه الاستراتيجي والقيام بدفاع تكتيكي تجاه توتيلا . وقدّر ان طبيعة الغوطيين الهجومية ستدفعهم الى البدء بالهجوم فنصب لهم فخا يشبه تكتيك الانكليز في معركة كريسي بعد ذلك بثمانية قرون امام الخيالة الفرنسية ، واعتمد في فخه على استهانة الغوطيين الطبيعي بالمشاة البيزنطية اضعفها امام صدمة الخيالة ، فوضع في قلب تشكيلته مجموعة من الخيالة الراجلة المجهزة بالرماح ليظن العدو انها من المشاة . كما وضع على المجنبتين وحدات من رماة النبال من المشاة ، ودفعها الى الامام قليلا بحيث ترسم هلالا يمكن الرمي من طرفيه رميا جانبيا على طول جبهة العدو المهاجم في القلب . وكانت خيالته موجودة خلف رماة النبال مباشرة ، باستثناء مفرزة مختارة وضعها بعيدا الى اليسار خلف هضبة لتقوم بهجوم مفاجىء على مؤخرة الغوطيين اذا ما توغلوا في العمق .

وحقق هذا الفخ غرضه ، فقامت خيالة العدو بمهاجمة قلب جيش نارسيس ، وهي تظن انه مؤلف من مشاة ضعيفة ، ولكنها تعرضت خلال هذا الهجوم الى رشقات نبال مركزة قادمة من المجنبتين ، وأوقفتها صلابة دفاع جنود الخيالة

المترجلين من حاملي الرماح . وترددت مشاة الغوطيين في مساعدة الخيالة المشتبكة في القلب ، خوفا من التعرض لهجوم مفاجيء على مؤخرتها تقوم به مفارز الخيالة رامية النبال المتمركزة قرب المرتفعات على طرفي خط القتال . واستمر ضغط خيالة الغوطيين فترة من الزمن ، ثم بدأت حدته تخف ، وهنا قام نارسيس بهجوم مضاد حاسم بخيالته التي احتفظ بها حتى ذلك الوقت كاحتياطي . واصيب الغوطيون بهزيمة نكراء ، ولم يصادف نارسيس عندما قام باعادة احتلال ايطاليا بعد ذلك الا مقاومة ضعيفة .

وتمت السيطرة النهائية على الغوطيين في الوقت الملائم ، لتتيح لنارسيس الفرصة لمواجهة غزو جديد قام به الفرنج لنجدة حلفائهم الغوطيين ، واندفع الفرنج في هذه المرة اكثر من المرة السابقة ، حتى وصلوا الى كامبانيا . واستفاد نارسيس من الدروس التي عرفها من غزوهم الاول فقرر ان «يعطيهم الحبل ليشنقوا انفسهم به» فتحاشى المعركة معهم وسمح لهم بالتوغل بعمق في البلاد، وبالفعل بدأ عددهم الكبير يتناقص بسبب صعوبة الطريق-وانتشار مرض الزحار في صفوفهم حتى اصبح عددهم ٩٠ الف رجل عندما اشتبك نارسيس معهم في كازيلنيوم . في هذه المعركة نظم فخه معتمدا على التكتيك المناسب لجيش عدوه المؤلف من مشاة مزودة بسلاح قتال قصير (رمح قصير ، فأس ، سيف قصير عريض) تهاجم بقوات كثيفة متماسكة معتمدة على تأثير الصدمة .

وضع نارسيس في معركة كازيلنيوم المشاة المسلحة بالرماح القصيرة والنبالة الراجلة في القلب ، فاخترقهم هجوم الفرنج ، عندها دفع بخيالته من الجناحين بهجوم مزدوج متلاقي في اتجاه جناحي العدو ، فتوقف الهجوم واضطر المهاجمون الى الاتجاه نحو الصدمتين الجانبيتين بغية صدهما ، ولكن نارسيس لم يتابع الضغط لعلمه بأن تشكيلتهم متماسكة قوية لا تحطمها الصدمة وحدها ، وسحب خيالته بعيدا عن مدى الاصابة بالفأس المقذوف الذي يستخدمه الفرنج ، وامرها باستخدام القوس واطلاق السهام بكثافة ترغم الفرنج على بعثرة تشكيلاتهم لكي يتحاشوا الاصابة بها ، ولما قام العدو فعلا ببعثرة تشكيلاته وإبعاد صفوفه المتراصة ليقيها شر رشقات النبال٠، قام نارسيس بهجوم عنيف جديد دمر الفرنج وشتتهم ولم ينج منهم احد .

وتبدو اهمية معارك بيليزير ونارسيس للوهلة الاولى تكتيكية اكثر منها استراتيجية لان اغلب حركاتهما كانت تقود مباشرة الى المعركة ، ولان مناوراتهما ضد مواصلات العدو اقل من مناورات القادة الكبار الآخرين . ولكن التحليل الدقيق لا يلبث حتى يغير هذه الفكرة الاولية ويدلنا على ان بيليزير ابتكر جهازا تكتيكيا جديدا يعتمد عليه للتغلب على قوات اكبر من قواته ، بأن يرغم خصمه على مهاجمته في ظروف ملائمة لتكتيكه ، وكان يستفيد من قلة عدده ويجعلها ميزة يستفيد منها في هجومه الاستراتيجي المباشر الذي يعتمد على المعطيات النفسية اكثر مما يعتمد على العوامل الادارية . لقد كان يعرف السبيل لإثارة

الرغبة الهجومية الطبيعية لدى شعوب الغرب الهمجية . كما كان يستفيد من شعور العظمة لدى الفرس الماهرين . ولما بداوا يخافونه استغل خوفهم وحذرهم لاحباط مناوراتهم بطريقة سيكولوجية .

لقد كان ماهرا في استنباط القوة من ضعفه ، وقلب قوة الخصم الى ضعف. وكان في تكتيكه سمات الهجوم غير المباشر . وكان عند مهاجمة تشكيلات العدو يسعى الى خلق ثغرة في نقطة تمفصل حساسة في هذه التشكيلات مما يؤدي الى تفتيتها تفتيتا كليا .

وعندما سأله اصدقاؤه خلال معركته الاولى في ايطاليا عن اسباب ثقته التي تدفعه الى مهاجمة قوى اكبر من قوته ، اجاب بانه كشف في اول اشتباك له مع القوطيين سر ضعفهم الكامن في عجزهم عن استخدام عددهم الكبير بشكل كامل وبطريقة سليمة . وكانت كتلتهم الكبيرة مدعاة لفوضى كبيرة ، كما ان خبرتهم في استخدام الخيالة كانت معدومة ؛ على حين كانت خيالة بيليزير مشكلة من العناصر المختارة . وكانت خيالة القوطيين مسلحة بالرمح والسيف القصير العريض . وكانت وحدات قاذفي النبال الراجلة عندهم معتادة على الحركة خلف الخيالة وتحت حمايتها ، ولكن الخيالة نفسها كانت غير فعالة الا في معركة قريبة ، ولم يكن لديها اية امكانيات للدفاع ضد عدو راكب يعمل بعيدا عن مدى اسلحتها القصيرة ، ويغمرها برشقات النبال الكثيفة . وكانت قواتهم من قاذفي النبال الراجلة والخيالة عاجزة عن العمل في ارض مكشوفة خشية الوقوع في الاسر ، لذا كانت خيالة القوطيين تأخذ دائما شكل مربعات كثيفة متينة ولكنها سهلة التطويق ، كما كان لدى مشاتهم ميل دائم للنظر الى الخلف عند ابتعاد حماية الخيالة عنها ، بشكل تتفكك معه التشكيلات المؤلفة من الخيالة والمشاة ، وتنشأ بين العنصرين فرجة يمكن للبيزنطيين القيام منها بهجوم معاكس يتجه نحو المجنبات المضطربة .

وصنع بيليزير طريقة تكتيكه واستراتيجيته «هجومية ــ دفاعية» كانت السبب المباشر في اطالة حياة الامبراطورية البيزنطية ، والتقاليد الرومانية التي استمرت عدة قرون كانت أوربا تعيش خلالها في الظلام . ولقد اثبتت تشكيلات الجيش الجديدة قوتها وقدرتها على الصمود امام هجمات مختلف الشعوب الاوربية الهمجية، وموجات الفتح الاسلامي التي اجتاحت الامبراطورية الفارسية، وبقيت قاعدة الامبراطورية البيزنطية سليمة رغم ضياع المناطق البعيدة ثم بدات عمليات استرجاع الاراضي المفقودة باستمرار منذ عهد بازيل الاول (٧) في القرن التاسع ، وفي عهد بازيل الثاني (٨) في بداية القرن الحادي عشر وصلت

---

٧ ــ بازيل الاول (المقدوني) : امبراطور بيزنطة من ٨٦٧ الى ٨٨٦ .

٨ ــ بازيل الثاني (٩٥٧ ــ ١٠٢٥) امبراطور بيزنطة من ٩٦٣ الى ١٠٢٥ احتل بلغاريا وحارب العرب وسيطر على الطبقة الارستقراطية ووصل بالامبراطورية البيزنطية الى أوج مجدها. «المعرب»

الامبراطورية الى اعلى قوة عرفتها منذ ايام جوستينيان قبل ٥٠٠ سنة . حتى أن البعض يقول بأنها كانت اقوى من امبراطورية جوستينيان .

ثم زال هذا الشعور بالطمأنينة بعد ٥٠ سنة ، وضاعت الآمال العظيمة كلها في ساعات قليلة ، ذلك لان الشعور بالقوة والامن من كل خطر قاد البيزنطيين الى تخفيض كبير في الميزانية الحربية ، وكان الانهيار نتيجة مباشرة لضعف الجيش . وفي عام ١٠٦٣ بدأت قوة الاتراك السلجوقيين بالازدياد تحت قيادة الب ارسلان مما أثار الشكوك والشعور بالخطر بعد فوات الاوان. وفي عام ١٠٦٨ اصبح القائد رومان الرابع ديوجين امبراطورا ، فقام بمعركة هجومية مبكرة بدلا من اعادة تنظيم وتدريب الجيش للوصول الى مستوى فاعليته المعروفة من قبل. وشجعه نجاحه الاول على نهر الفرات فاندفع بعمق في أرمينيا ، وقابل الجيش التركي الرئيسي في مالازغيرت ، وأمام ضخامة الجيش البيزنطي الجرار عرض آلب أرسلان فتح باب المفاوضات . ولكن الرومان اجابوا بأن على السلطان التركي ان يترك معسكره وينسحب قبل كل مناقشة ، وكان في ذلك اهانة لا يمكن للسلطان قبولها . ولما رفض الاتراك هذا الشرط قام رومان الرابع ديوجين بالهجوم ولكنه لم يستخدم الطريقة البيزنطية التقليدية ، وبدأ يبحث عن عدو أخذ يجذبه ويختفي منه كالماء والهواء دون ان يستطيع الاشتباك معه في معركة . ولم يكن يرى من العدو سوى سحب كثيفة من السهام تطلقها عليه الخيالة الراكبة ثم تختفي ، حتى ضعفت وحداته وتناقصت وتفككت تشكيلاتها مما اضطره في النهاية الى اصدار الامر بالانسحاب .

عندئذ قام الاتراك بهجوم على مجنباته واحاطوا بجيشه الذي انهزم وتفرق في طول البلاد وعرضها .

كانت هذه الهزيمة كاملة وشاملة لدرجة استطاع الاتراك بعدها احتلال معظم اجزاء آسيا الصغرى . وهكذا تلقت الامبراطورية البيزنطية صدمة قوية لم تقم بعدها بسبب جنون قائد عادي متحمس لا يسند رغباته الهجومية عقل راجح او فكر سليم . ومع ذلك بقيت لهذه الامبراطورية قوة كافية لتحيا حياة أقل عظمة خلال اكثر من اربعة قرون .

الفصل الخامس

حروب القرون الوسطى

يستطيع القارىء اعتبار هذا الباب عنصرا مكمــــلا بين دورتين من دورات التاريخ القديم والحديث . ومهما تكن الفائدة المتمثلة في دراسة بعض معـــارك القرون الوسطى فان المصادر التاريخية أقل عددا ودقة من مصادر العصر الذي سبق هذا العصر او الذي أعقبه . ولهذا فان أفضل السبل للوصول الى الحقيقة العلمية ومعرفة الاسباب والمسببات والنتائج ، هو دراسة وتحليــــل حوادث تاريخية اكيدة غير قابلةللنقض وتجاهل بعض المراحل (حتى ولو استغنينا عن الادلة الهامة التي تقدمها بعضها) عندما يكون علينا اختيار نص مــــن مجموعة نصوص مختلفة او القيام بالنقد التاريخي للحوادث . والحقيقة ان التناقض في التفاصيل التكتيكية لتاريخ القرون الوسطى الحربي اكبر من التناقـــض في المعطيــــات الاستراتيجية . ولكن هذه التناقضات قد تؤثر على قيمة هذه المعطيات نفسها في عين الدارس العادي لفن الحرب ، فيبدأ عنده الشك في الاستنتاجات القائمـة على دراسة هذه الحقبة التاريخية . لذا سنرسم بعض هذه المراحـــل دون ان ندخلها في تحليلنا الدقيق لعل في دراستها بعضا من الفائدة .

كانت روح الفروسية الاقطاعية في الغرب خلال القرون الوسطى قليلة التأثر بكل فنون الحرب ، لذا كانت معاركهم عبارة عن مظاهرات فاشلة ، يلمع من خلالها بين آن وآخر ضوء رائع ، ولم تكن هذه الاحداث الهامة قليلة اذا قورنت بغيرها من الاحداث في عصور التاريخ .

بدأ النورمانديون في القيام ببعض الاعمال الباهرة ، وحذت أجيالهم المتعاقبة حذوهم واظهرت براعة عظيمة في فن الحرب خلال القرون الوسطى ، واعطت للدم النورماندي اهمية دفعتهم الى اثبات تفوق هذا الدم بالذكاء والمهارة وليس بالاعمال الجوفاء .

ويعرف طلاب التاريخ الانكليز كلهم اهمية سنة ١٠٦٦ التي جرت فيها حوادث تكتيكية واستراتيجية ممتازة كان لها نتائج حاسمة بالنسبة لذلك العصر ولكل التاريخ الذي اتى بعده . اجتاح غليوم الفاتح (١) انكلترة مستخدما المناورة الاستراتيجية ، وحقق لنفسه منذ البداية كل ميزات ومكاسب الهجوم غير المباشر . وبدأ الاشتباك عندما نزل توستيغ الاخ الثائر للملك هارولد (٢) على شاطىء يوركشير ، وكان هذا الثائر آنذاك حليفا لملك النرويج هارولد هاردرادا . وكان نزول الجنود يبدو في باديء الامر اقل خطرا من غزو غليوم . ولكنه اتسع بعد ذلك ثم أصيب بالفشل . ولكنه أدى بصورة غير مباشرة الى زيادة فاعلية خطة النورمانديين . وبعد هزيمة الغزاة النرويجيين في ستامفورد بريدج نزل غليوم على شاطىء سوسكس .

وبدلا من السير مباشرة الى الشمال خدع غليوم خصمه هارولد بتخريب مقاطعتي كنت وسوسكس فأجبره بذلك على التوجه بسرعة نحو الجنوب مع جزء من قوته . وكان توغل هارولد نحو الجنوب واشتباكه المبكر في المعركة يبعده في الزمان والمكان عن امداداته . فاذا كانت هذه هي خطة غليوم فان الحوادث قد انبتت صحتها ودقتها ، لانها دفعت هارولد الى الاشتباك في المعركة قرب هيستينغ ، وحسم غليوم نتيجة المعركة بفضل تقرب غير مباشر تكتيكي عندما اعطى لجانب من قواته الامر بالتظاهر بالفرار مما أجبر هارولد على تحطيم تشكيلاته بنفسه بغية المطاردة ، وفي المرحلة النهائية للمعركة قذف النبالة النورمانديون بسهامهم بزوايا رمي كبيرة ، وقتل هارولد في المعركة . ويمكن اعتبار هذه الحادثة تقربا بالرمي غير المباشر .

ثم طبق غليوم بعد انتصاره استراتيجية ذات اهمية ، فلم يسر مباشرة الى لندن بل احتل دوفر لتأمين خط مواصلاته . ولما وصل الى لندن لم يندفع

---

١ ـ غليوم الفاتح : (١٠٢٧ ـ ١٠٨٧) .

٢ ـ هارولد الثاني . ولد في ١٠٢٢ . اصبح ملكا للانكليز في عام ١٠٦٦ وفي نفس العام هزمه غليوم الفاتح في هيستينغ . «المعرب»

بانقضاض مباشر بل قام بحركة التفاف واسعة دمر خلالها المناطق الواقعة شمالي وغرب العاصمة . ووجدت لندن نفسها مهددة بالمجاعة فاستسلمت .

وقدم القرن التالي دليلا جديدا على عبقرية النورمانديين العسكرية ، وذلك خلال معركة من اغرب معارك التاريخ ، وهي المعركة التي ادت الى احتلال معظم ايرلندة ، وصد غزو نرويجي كبير ، وطرد الغزاة من مقاطعة الفال على يد الكونت سترونغ بو بواسطة مئات قليلة من الخيالة . وهذا نجاح باهر اذا وضع في الاعتبار ضعف امكانيات النورمانديين الذين عرفوا كيف يتلاءمون مع الظروف عندما الغوا استخدام الطرق التقليدية للفن العسكري الاقطاعي نظرا لوجودهم في منطقة كثيرة المستنقعات والاشجار ، وقد اظهروا مهارة ودقة في خططهم عندما كانوا يخدعون العدو ويجذبونه الى ارض مكشوفة تصلح لعمل خيالتهم . وعندما كانوا يلجأون الى التظاهر بالانسحاب ، والخدعة والمناورة والهجوم على المؤخرات الذي كان يؤدي الى تفتيت تشكيلات العدو بمفاجأة استراتيجية ، وهجوم ليلي ، ورمي النبالة الذي يحطم مقاومة العدو عندما يتعذر جذبه خارج تحصيناته .

والقرن الثالث عشر غني بأمثلة تدل على المهارة الاستراتيجية . ففي سنة ١٢١٦ انقذ الملك جان (٣) مملكته بعد ان فقد معظم اجزائها . وتم الانقاذ بفضل الاستراتيجية التي يستخدمها دون حاجة الى الدخول في معركة ، وكان يعتمد على سرعة الحركة ، وقوة تحصينات ذلك العصر على المقاومة ، والحقد الذي اصبح يكنه سكان المدن ضد البارونات وحليفهم الاجنبي لويس الثامن (٤) الفرنسي الذي نزل في مقاطعة كنت واحتل لندن ووينشيستر . وكان جان في بادىء الامر اضعف من ان يشتبك معه في معركة ، وكان البارونات يسيطرون على معظم البلاد . فاحتفظ بالنقاط الحصينة في وندسور ، وريدينغ ، ووليلينغفورد ، واوكسفورد التي تسيطر على نهر التايمز ، وتفصل البارونات في الشمال عن حليفهم في الجنوب . علاوة على ذلك بقيت مدينة دوفر سليمة تهدد مؤخرة لويس الثامن .

انسحب جان الى دورسيت ، ولكن عندما اتضح الموقف في يوليو (تموز) سار في اتجاه الشمال نحو ووسيستر وأمن بذلك خط نهر سيفر وجعل منه حاجزا يمنع قوات الثورة من الامتداد نحو الغرب والجنوب الغربي . ثم اتجه نحو الشرق على طول نهر التايمز وتظاهر بأنه ذاهب لنجدة مدينة وندسور .

---

٣ – جان بلا ارض (١١٦٧ – ١٢١٦) ملك انكلترة من ١١٩٩ – ١٢١٦ ثار على ابيه في شبابه بمساعدة ملك فرنسا فيليب أوغوست . وبعد موت اخيه ريتشارد قلب الاسد قتل ابن اخيه الوريث الشرعي للعرش واستعاد جزءا من مملكته بعد صراع مع البارونات .

٤ – لويس الثامن : الاسد ، ولد في عام ١١٨٧ وحكم فرنسا من ١٢٢٣ – ١٢٢٦ وساعد البارونات الانكليز في صراعهم ضد جان واستعاد بعض الاراضي الفرنسية التي كانوا يحتلونها . «المعرب»

وليؤكد للقوات المعادية التي تحاصر المدينة هذه الفكرة أرسل مفرزة من النبالة لتناوشهم في معسكراتهم في هجمات ليلية . بينما غيَّر هو اتجاهه نحو الشمال الشرقي بحركة امنت له الوصول الى كامبردج قبل اعدائه . وهنا اصبح قادرا على عمل حاجز ثان يمنع طرق الشمال عن خصومه ، بينما بقي قلب القوات الفرنسية مثبتا في حصار دوفر . ولقد ادى نجاح هذه الحركة الى تضييق رقعة الارض التي تحتلها قوات الثورة التي بدات تفقد شعبيتها ، مما زاد التوتر بين البارونات وحليفهم . وفي شهر اكتوبر (تشرين الاول) مات الملك جان كما ماتت آمال خصومه على اسوار حصونه الاستراتيجية الكثيرة .

وفي سنة ١٢٦٥ اندلعت ثورة بارونات جديدة ، وحصلت في بادىء الامر على بعض النجاح ، تم اخمادها بفضل استراتيجية الامير ادوارد (٥) الحكيمة . ولقد ادى فشل هنري الثالث (٦) الى سيطرة أنصار البارونات على معظم أجزاء انكلترة عدا بلاد الغال . هنا تقدم سيمون دومون فور واجتاز نهر سيفرن وتابع مسيره منتصرا حتى وصل الى نيوبورت . ولكن الامير ادوارد الذي كان قد ترك جيش البارونات والتحق بجماعته في مقاطعات الحدود ، أوقع الاضطراب في مخططات دومون فور بسبب احتلاله جسور نهر سيفرن خلفه ومهاجمته من الوراء . ولم يطرده ادوارد الى الطرف الثاني من نهر اسكس فحسب ، بل غامر بالهجوم بثلاث سفن ضد اسطول خصمه وحطم مخططه الجديد الذي كان يعتمد فيه على جلب الجيش الى انكلترا عن طريق البحر ، واضطره الى القيام بزحف طويل منهك نحو الشمال عبر مناطق قاحلة من بلاد الغال . وانسحب ادوارد الى وورسيستر للسيطرة على نهر سيفرن ومنعه من عبوره . وعندما اندفع ابن دومون فور لنجدة ابيه بجيش جمعه في شرق انكلترا استفاد ادوارد من موقعه المتوسط ليسحق خصميه بالتتالي وعلى انفراد . ولقد خدعهما بالزحف ثم بالانسحاب . واستفاد من امكانيات الحركة ، وقام بهجومين مفاجئين فعالين الاول في كنيل‌وورث والثاني في ايفرشام .

عندما اصبح ادوارد ملكا قدم للعلم العسكري دروسا جديدة في حروبه ببلاد الغال . فأحسن استخدام القوس وتوافق هجوم الخيالة مع رمي النبالة . وبدأ شيئا جديدا عندما طبّق طريقته الاستراتيجية الجديدة في الاحتلال . وكانت مهمته السيطرة على شعب جبلي صلب شجاع وقادر على تحاشي المعركة بالالتجاء الى الجبال والعودة الى احتلال الوديان خلف المهاجم عندما يركن هذا الاخير الى الراحة في المعسكرات الشتوية . وكانت امكانيات ادوارد محدودة نسبيا ، ولكنه

---

٥ ــ الامير ادوارد : (١٢٣٩ ــ ١٣٠٧) اصبح فيما بعد الملك ادوارد الاول . اخضع الغاليين وحارب بشدة ضد الايقوسيين واحترم الحرية البرلمانية فلقب عن جدارة جوستينيان البريطاني .

٦ ــ ملك انكلترا من ١٢١٦ ــ ١٢٧٢ . «المعرب»

تغلب على ذلك النقص بتضييق نطاق ميدان العمليات ، والجمع بين مرونة الحركة واحتلال النقاط الاستراتيجية ، وبنى في هذه النقاط حصونا وصل بينها بشبكة طرق فأرغم خصمه بذلك على ان يكون في حالة استنفار مستمر الامر الذي يمنعه من تقوية نفسه ماديا او معنويا ، او القيام شتاء بعمليات يستعيد بها ما فقده من اراض في الفصول الاخرى . وأدت هذه الطريقة في النهاية الى انهاك مقاومة خصومه .

لم تعش مواهب ادوارد بعده ، ولهذا فانه لا يمكن استنتاج اي درس استراتيجي من حرب المائة عام . ولم يطبق حفيده وابن حفيده استراتيجيته بل طبقا استراتيجية لا تستنبط منها سوى الدروس السلبية فقط . ولم تتمخض حملاتهما التظاهرية عبر فرنسا عن اية نتائج . واذا كان قد تمخض عنها شيء فكان ذلك بسبب خطأ غير مقصود . وخلال معركة بواتييه اوقع أدوارد الثالث (٧) والامير الاسود نفسيهما في مواقف شديدة الخطورة . ولكن ذلك ادى بصورة لا ارادية الى تقرب غير مباشر ونتائج لم يكونا يتوقعانها او يريدانها . وأدت مواقف الانكليز الحرجة الى اندفاع خصومهم ، الذين يرغبون دائما في الهجوم المباشر ، الى الدخول في المعركة دون ان يهتموا بعدم توافر الظروف اللائمة فأتاحوا بذلك للانكليز فرصة ذهبية للتخلص من مآزقهم . كما أدى استخدام الانكليز للاقواس في المعارك الدفاعية على ارض مختارة الى الحصول على التفوق التكتيكي ضد وسائط قتال الفرسان الفرنسيين العقيمة .

ثم تحولت هزائم الفرنسيين لمصلحتهم ، اذ استخدم القائد دوغيكلان (٨) في المرحلة التالية للحرب «سياسة فابيوس» ، واعتمد على استراتيجية تهدف الى تجنب المعركة مع الجيش الانكليزي الرئيسي ، والحد من حرية عمل الغزاة ومنطقة نشاطهم . ولم يكن تجنب المعركة سلبيا بل ضمن استراتيجية تعتمد على عناصر المرونة والمفاجأة ، التي قلما نجح في استخدامها قائد مثله ، والتعرض للقوافل وسحق المفارز واسر الحاميات المنعزلة . وكانت الهجمات مفاجئة دائما وفي الاتجاه غير المتوقع وكانت ليلية في أغلب الاحيان . وزاد من فعاليتها وسائط الانقضاض السريعة الحديثة ، ودقة اختيار الاهداف ودراسة حالة العدو النفسية . وكان دوغيكلان يهاجم غالبا الحاميات المتذمرة او المدن المستعدة لتغيير اتجاهها ، مع اثارة الاضطرابات المحلية واستغلالها لتحويل انظار الخصم وابعاده عن اهدافه الحقيقية . وأدت هذه الطريقة في النهاية الى اجبار العدو

---

٧ ـ ادوارد الثالث : ملك انكلترا من ١٣٢٧ الى ١٣٧٧ اخضع الايقوسيين واشتبك مع الفرنسيين بحرب المائة عام وانتصر عليهم واحتل كاليه . «المعرب»

٨ ـ دوغيكلان (١٣٢٠ ـ ١٣٨٠) احد أبطال القادة الفرنسيين الذين حرروا بلادهم من الغزو الانكليزي . وكان يتمتع بحماسة استراتيجية واقعية وسليمة دفعته الى استخدام الهجمات الحذرة مع انهاك العدو بالاغارات المستمرة . «المعرب»

على ترك الاراضي التي احتلها حتى ذلك الحين .

وفي أقل من خمس سنوات ، استطاع دوغيكلان تحديد الممتلكات الانكليزية في فرنسا بشريط ارضي ضيق محصور بين بوردو وبايون . وتم له ذلك دون الاشتباك في معركة تقليدية مع تحاشي مهاجمة الجيوش الانكليزية الصغيرة التي سمح لها الوقت باتخاذ مواضع دفاعية . ولم يكن عمله مبنيا على المبدأ القائل «لا عمل بدون ضمان» بل على مبدأ «لا هجوم بدون مفاجأة» .

وقد بذلت فيما بعد محاولة انكليزية جديدة لاحتلال ارض اجنبية ، وكان الاعداد جيدا مع حساب لنسبة القوى الموجودة والهدف المطلوب . ثم أعقب التحضيرات البدء في التنفيذ بسرعة . ولكن اول واهم معارك هنري الخامس (٩) كانت اكثرها حماقة . وخلال المناورة التي قام بها على طريقة ادوارد ووصلت الى اقصى مداها في آزانكور سنة ١٤١٥ وجد الفرنسيون الفرصة الملائمة لقطع طريق المواصلات الانكليزية ، وتحقيق الانتصار على هنري الخامس بالجوع . ولكن يبدو ان قوادهم نسوا درس كريسي ودروس دوغيكلان ، وكانوا يتمتعون بتفوق عددي بمعدل ٤ ضد ١ . ففكروا في ان الشرف يدعوهم الى استخدام هذا التفوق في هجوم مباشر بحت . وكانت النتيجة تكرارا لمعركة كريسي وبواتييه ولكن بشكل مزرٍ . ونجا هنري الخامس من الكارثة بفضل الحظ . وبدأ في تطبيق استراتيجية «بقعة الزيت» التي تعني تدعيم مركزه وتعزيز نجاحه بزيادة المنطقة المحتلة باستمرار ، وجمع الاهالي الذين يكنون له الولاء . ومن هنا يمكننا القول بأن قيمة معارك هنري الخامس الاخيرة ترجع الى الاستراتيجية العليا لا الى الاستراتيجية العادية .

ويمكن الانتهاء من هذه النظرة السريعة على الاستراتيجية في القرون الوسطى بدراسة ادوارد الرابع (١٠) الذي حصل على عرشه في عام ١٤٦١ ، ثم اضاعه وعاد فاسترجعه في عام ١٤٧١ بفضل استخدام الحركة بشكل ناجح . وترجع نتيجة معركته الاولى الى دقة حكمه ومرونة مناورته . كان ادوارد الرابع في بلاد الغال يقاتل الانصار المحليين لعائلة لانكستر عندما علم ان جيش خصومه الرئيسي يتحرك من الشمال في اتجاه لندن ؛ فانسحب من مواقعه ووصل الى غلوسيستر في ٢٠ فبراير (شباط) ١٤٦١ . عندها علم بانتصار عائلة لانكستر في ١٧ فبراير (شباط) في سانت أولبانس على القوات التي كان قد سلمها الى وريك (١١) وكان بين سانت أولبانس ولندن مسافة ٢٠ ميل ، وبين غلوسيستر

---

٩ ــ هنري الخامس : ملك انكلترا من ١٤١٣ ــ ١٤٢٢ .

١٠ ــ ادوارد الرابع : ملك انكلترة من ١٤٦١ الى ١٤٨٣ وكان خصما لعائلة لانكستر . «المعرب»

١١ ــ الكونت وريك : لقب صانع الملوك (١٤٢٨ ــ ١٤٧١) وهو قائد ناجح ساعد عدة ملوك بريطانيين في الجلوس على العرش حتى سمي حارس المملكة . «المعرب»

ولندن ١٠٠ ميل بالاضافة الى تأخره ثلاثة ايام عن جيش عائلة لانكستر . ولكن في ٢٢ فبراير لحق به وريك في باتفورد وعلم منه ان مجلس لندن لا يزال يناقش شروط التسليم وابواب المدينة مغلقة . فترك باتفورد في اليوم التالي ، ودخل لندن في ٢٦ واعلن نفسه ملكا وانسحبت عائلة لانكستر وانصارها نحو الشمال . ولما اراد القيام بالمطاردة تعرض لمخاطر جسيمة بسبب مهاجمته جيشا يفوق جيشه ويتمركز على مواقعه في تاوتن ، ولكنه حصل على التفوق بفضل عاصفة ثلجية استغلها مساعده فوكون بيرج الذي أرسل رشقات من السهام على الاعداء الذين أعماهم الثلج فلم يجدوا وسيلة يدافعون بها عن انفسهم الا القيام بهجوم عشوائي ادى الى هزيمتهم .

وفي سنة ١٤٧١ بدت استراتيجية ادوارد الرابع احذق من الماضي واكثر حركة . وكان قد اضاع عرشه في الفترة الواقعة بين ١٤٦١ ـ ١٤٧١ . ولكن صهره أقرضه ٥٠ الف كورون ، وجهزه بـ ١٢٠٠ رجل ، وجاءته الوعود بالمساعدة من أصدقائه في انكلترا فقرر القيام بمحاولة جديدة لاستعادة عرشه . وكانت الشواطىء الانكليزية محرمة عليه ومحروسة جيدا . ولكنه استخدم «الخط الابعد عن الاصابة» ووصل الى همبر ، وفكر في أن منطقة موالية لعائلة لانكستر لا يعقل ان تكون مراقبة بشكل جدي ، فقام بحركة سريعة أوصلته الى يورك قبل ان تنتشر أخبار نزوله ويجتمع خصومه . ثم توجه بسرعة نحو لندن والتف حول مفرزة معادية تسد عليه الطريق في تاد كاستر . وجدّ في سيره مبتعدا عن هذا العدو الراغب في اللحاق به . ولكن خوفه من مفرزة اخرى تنتظره في نيوآرك أجبرته على الانسحاب نحو الشرق ، ثم استدار نحو الجنوب الغربي في اتجاه ليسيستر حيث عزز قواته بأنصار جدد . وعندها توجه نحو كوفنتري حيث يقوم وريك ، الذي اصبح الد اعدائه ، بجمع وحداته فاستطاع بذلك جذب ملاحقيه وزيادة قواته على حساب عدوه . واستدار نحو الجنوب الشرقي وهاجم لندن التي فتحت له أبوابها . عندئذ وجد نفسه قويا لدرجة كافية لقبول المعركة فسار لملاقاة ملاحقيه الذين خدعهم جيدا . وفي بارنت اشتبك معهم في معركة سادتها الفوضى وانتهت لمصلحته .

وفي نفس اليوم نزلت ملكة لانكستر مارغريت دانجو (١٢) في ويماث مع جنود مرتزقة فرنسيين ، فجمعت انصارها في الغرب وتقدمت لدرجة اجبرت كونت بيمبروك على جمع القوات لمصلحتها في بلاد الغال. واستخدم ادوارد الرابع مرونته من جديد وانتقل الى منطقة كوتس وولدز . على حين سار جيشه المتجه نحو الشمال في الوادي على طريق بريستول ـ غلوسيستر . وبعد مسير طويل دام يوما كاملا بجيشين احدهما يسير في الوادي والآخر على المرتفعات توصل الى

---

١٢ ـ مارغريت دانجو (١٤٢٩ ـ ١٤٨٢) ابنة الملك رينيه الطيب ملك صقلية وزوجة هنري السادس ملك انكلترا . اشتهرت بشجاعتها خلال حرب الوردتين . «المعرب»

ملاقاة الملكة مساءً في تكسبوري بعد ان منعها من عبور نهر السيفرن في غلوسيستر بفضل الاوامر التي اعطاها لحاكم المدينة باغلاق ابوابها . وهكذا سار حوالي ٤٠ ميلا في يوم واحد وعسكر قريبا من معسكر اللانكستر بغية منعهم من الانسحاب . وكانت مواقع الخصوم الدفاعية قوية ، ولكنه استخدم مدفعيته ونبالته ليجبرهم على مهاجمته . وحصل ادوارد الرابع على التفوق الحاسم في المعركة التي دارت خلال الصباح .

لقد كانت استراتيجيته تمتاز بالحركة ، ولكنها كانت نموذجا لاستراتيجية عصره المتسمة بانعدام الدقة والمهارة ، حيث كان هدف استراتيجية القرون الوسطى بسيطا ومباشرا ، ويتضمن البحث عن المعركة الفورية . وكانت النتائج غالبا غير اكيدة وبدون نتائج حاسمة ، سواء اكان ذلك بالنسبة للمهاجم ، ام للمدافع ان حاول القيام بهجوم .

ولم يتم الحصول على استراتيجية عظيمة في القرون الوسطى نتيجة لاعمال شعوب الغرب بعكس شعوب الشرق التي قدمت مثالا رائعا في هذا المجال . لقد فقد الغرب اعتباره الاستراتيجي في القرن الثالث عشر بعد الدرس الذي اعطاه المغول للفرسان الاوروبيين . وكانت معارك هؤلاء الآسيويين تساوي او تفوق كل ما سبقها من المعارك في التاريخ ، وذلك بفضل اتساع نطاق فن المناورة ، واستخدام المفاجأة والحركة والهجوم غير المباشر الاستراتيجي والتكتيكي . ويمكننا ان نعجب بفن جنكيزخان (١٣) اثناء غزو الصين عندما استخدم مدينة تيتونغ فو كطعم لنصب سلسلة من الافخاخ لخصومه . كما استخدم نابليون فيما بعد لموقع مانتو الحصين .

ولقد حطم جنكيزخان الوحدة العسكرية والنفسية لامبراطورية اسرة كين في عام ١٢٢٠ ، عندما قام باغارات متوغلة العمق بثلاثة جيوش تعمل بالتعاون مع بعضها البعض . واجتاح امبراطورية خاريسميان ، التي كانت تقع حينئذ مكان جمهورية تركستان حاليا . وقام احد جيوشه بجذب انتباه العدو عندما اقترب من مدينة كشغر من الجنوب بينما جاء قلب قواته الرئيسية من الشمال وغطى نفسه بهذه المناورة ليوسع حقل عمله ، ويندفع بعمق اكثر داخل البلاد بجيوش احتياطية ، ثم اختفى بعض الوقت في صحراء كيزل ـ كوم ليظهر فجأة على مؤخرة الخطوط الدفاعية والجيوش المعادية في بخارى .

وفي عام ١٢٤١ اعطى احد قواده ويدعى سوبوتاي درسا قاسيا للاوربيين اذ تقدم بجيش يشكل مجنبة استراتيجية واجتاح غاليسيا جاذبا انتباه البولونيين

---

١٣ ـ جنكيزخان : (١١٥٥ ـ ١٢٢٧) سلطان التتار ومنشيء امبراطورية المغول العالمية . ويقال انه ولد وعلى يده بقعة متجمدة من الدم كرمز لسفك الدماء . هز بفتوحاته اركان جميع الدول من الصين الى البحر الاحمر . وكان استراتيجيا عبقريا الا ان فتوحاته كانت فتوحات غزو وسلب وسفك دماء دون هدف انساني او رغبة في بناء حضارة جديدة . «المعرب»

والهنغاريين والالمان واوقع بهم سلسلة من الهزائم ، بينما قام جيشه الرئيسي باستغلال هذه المشاغلة واجتاح هنغاريا بثلاثة أرتال منتشرة على شكل عريض حتى الدانوب . وكان الجيشان الجانبيان يغطيان خلال التقدم الجيش المركزي ويخفيان حركاته ، واجتمعت الجيوش الثلاثة على الدانوب قرب مدينة غران حيث اوقفتها قوات هنغارية كبيرة مستندة على النهر . فقامت بانسحاب متسلسل مدروس خدع الهنغاريين وجذبهم بعيدا عن ضفاف النهر وعن النجدات والاحتياطات المحتملة ، ثم قام سوبوتاي بمناورة جريئة سريعة ومفاجئة في الليل قرب نهر ساجو وأباد الجيش الهنغاري ، واصبح بذلك سيد سهول أوربا الوسطى ، ثم انسحب بعد سنة بمحض ارادته . وانقذ انسحابه أوربا التي كانت عاجزة عن طرده .

الفصل السادس

القرن السابع عشر
غوستاف ادولف، كروموبل، تورين

وقعت في هذا القرن اول حرب كبرى في التاريخ الحديث وهي حـــرب الثلاثين عاما ١٦١٨ ـ ١٦٤٨ التي لم تكن اية معركة من معاركها حاسمة . وأكثر المعارك اهمية كانت المعركة النهائية بين غوستاف أدولـف (١) ملك السويـــد وفالنشتاين الالماني في لوتزن ، والتي قتل فيها الاول وانتهى كل امل في الوصول الى تأسيس اتحاد بروتستانتي واسع تحت السيطرة السويدية . ولولا تدخـــل الفرنسيين ومصرع فالنشتاين لكانت هذه المعركة حاسمة ، ولساعدت على تحقيق الوحدة الالمانية قبل وقوعها بثلاثة قرون . ولقد تم الحصول على هذه النتائـــج

---

١ ـ غوستاف الثاني ادولف الكبير (١٥٩٤ ـ ١٦٣٢) ملك السويد من ١٦١١ ـ ١٦٣٢ ، كـان عبقريا اشترك مع ريشيليو في مساعدة البروتستانت في المانيا ، قتل في معركة لوتزن . «المعرب»

العملية بصورة غير مباشرة وانتهت المعركة الهامة الوحيدة خلال هذا الصراع بهزيمة من كان ميزان الحرب في صالحهم . وتعود هذه الهزيمة الى ان جيش فالنشتاين كان اضعف من جيش السويديين ، كما تعود الى خطأ فالنشتاين نفسه عندما لم يستغل على المستوى الاستراتيجي الفرصة التي حققتها له استراتيجيته . لقد حصل قبل المعركة على مزايا كبيرة بفضل ثلاثة تطبيقات متتالية لانواع مختلفة من العمل غير المباشر ، وهذه التطبيقات الثلاثة غيرت بشكل جذري شكل الحرب .

في عام ١٦٣٢ استدعي فالنشتاين (٢) لمقابلة ملك كان قد اساء في الماضي معاملته ، وطلب منه الملك قيادة جيش لم يشكل بعد ، فجمع خلال مدة تقل عن ثلاثة اشهر حوالي ٤٠ الف رجل اندفعوا الى التطوع بتأثير سمعته ونفوذه . وجاءه طلب النجدة العاجلة من بافاريا التي كان جيش غوستاف أدولف يجتاحها منتصرا في كل مكان ، فتجاهل هذا الطلب وتوجه نحو الساكسون حلفاء السويديين الضعفاء ، وطردهم من هنغاريا وسار في اتجاه بلاد الساكس بعد ان ضم قوات حاكم بافاريا اليه ، فبدا كأنه ترك بافاريا بدون دفاع . ولكن الحقيقة كانت غير ذلك ، وكانت وجهة نظر فالنشتاين في محلها ، اذ ان خوف غوستاف أدولف من فقدان حلفائه الجدد (الساكسون) دفعه الى اخلاء بافاريا والتوجه للدفاع عنهم .

ولكن قبل ان يصل اليهم اجتمعت قوة حاكم بافاريا مع قوة فالنشتاين ، ففضل غوستاف امام هذه القوة الكبيرة المجتمعة الانسحاب الى نورمبورغ فتبعه خصمه ، ولكنه وجد السويديين متحصنين بشكل قوي في موقع متين ، وأعلن فالنشتاين «انه اشتبك في عدد كاف من المعارك ، وأن الوقت قد حان لاستخدام طريقة جديدة» . فبدلا من الهجوم بمتطوعيه الجدد ضد السويديين الذين اشتهروا بأنهم لا يغلبون ، احتل موقعا محصنا كان يستطيع منه ازعاج خطوط المواصلات السويدية بخيالته الخفيفة . على حين يستريح معظم جيشه في أمان ويكتسب كل يوم ثقة جديدة بنفسه . ولم يكن هنالك ما يستطيع ابعاده عن هذه الطريقة ، ولم يتأثر بكل محاولات اعدائه الرامية الى دفعه للاشتباك معهم في معركة . الى ان اضطر ملك السويد المهدد بالمجاعة ، الى القيام بهجوم فاشل . ولم يكن هذا الفشل ، من الناحية العسكرية ، سوى حادث مؤسف . ولكن صداه السياسي انتشر في أوربا كلها مؤثرا على مكانة غوستاف أدولف الادبية المكتسبة خلال انتصارات كثيرة . ولم تتحطم هذه المكانة نهائيا ، ولكن وصاية ملك السويد على الدويلات الالمانية اصبحت اضعف اثرا .

وهكذا استطاع فالنشتاين ان يجمع الذكاء العملي الى الحذر الذي تفرضه قلة الامكانيات ، مع تفكير جيد أريب وبعد نظر فيما يتعلق بأهداف الاستراتيجية

---

٢ ــ فالنشتاين : من اشهر القواد الالمان في حرب الثلاثين عاما . حارب غوستاف ادولف بكل مهارة . ولكن طموحه دفعه الى التفكير بامارة مستقلة ضمن الامبراطورية فلما كشف أمره اعتبره الامبراطور خائنا واعدمه بيد ثلاثة من ضباطه . «المعرب»

العليا . سار غوستاف أدولف مرة ثانية من نورمبورغ نحو الجنوب في اتجـــاه بافاريا ، ولم يلحقه فالنشتاين بل اتجه الى الشمال نحـــو بلاد الساكس . واضطرت هذه الحركة الممتازة الملك السويدي الى اللحاق بهوتطبيق مناورة ممتازة اوصلته اليه قبل ان يسيطر على الساكسون ويرغمهم على توقيع معاهدة صلح منفصلة . وجرت معركة يائسة في لوتزن استطاع الجيش السويدي فيها تعديل اخطائه الاستراتيجية بنجاح تكتيكي . ولكنه دفع ثمن حياة قائده ، الذي تحطمت باختفائه كل مخططاته التي كانت ترمي الى خلق اتحاد بروتستانتي تحت السيطرة السويدية .

ثم استمرت الحرب بعد ذلك ١٦ سنة . وأدت الى تخريب المانيـــا وسمحت لفرنسا بأن تلعب الدور الاول في السياسة الاوربية .

وهناك فرق واضح بين الحرب الاهلية التي مزقت انكلترة من عام ١٦٤٢ حتى عام ١٦٥٢ والحروب التي كانت دائرة في نفس الوقت على القارة الاوربية. ويعود الفرق الى ان هذه الحرب الاهلية كانت تهدف باستمرار الى الوصـــول لنهاية حاسمة . وتبدو هذه الحقيقة واضحة في كتاب «مذكرات فارس» الذي كتبه ديفو وجاء فيه «لم ننصب المخيمات او نحفر الخنادق .... ولم نختف ابدا وراء الانهار او عبر الطرق . وكانت الفكرة العامة للحرب دائما : اين العدو ؟ الى الامام للقائه» .

ولقد دامت الحرب الاهلية ، رغم هذه الفكرة الهجومية ، اربع سنوات دون وقوع معركة حاسمة فعلا الا على المستوى التكتيكي . وعندما انتهت اخيرا في عام ١٦٤٦ كانت هناك جمرات ملكية ملتهبة كثيرة تحت الرمـــاد فما ان اضعفت الاختلافات المنتصرين حتى اندلع اللهيب بعد سنتين بصورة اكثر ضراوة .

ويعود السبب الرئيسي لامتداد هذه الحرب بدون نتائج حاسمة جذرية الى ان المعارك العسكرية اتخذت شكل سلسلة من الهجمات المباشرة المطبقة من كـــلا الخصمين ويتخللها «عمليات تطهير» كان لها آثار محلية وتأثير مؤقت فقط ، رغم انها كانت تنهك الجيوش المتحاربة .

كانت القوى الملكية في بادىء الامر تعتمد على مقاطعات الغرب الوسط بينما كانت قوى البرلمان تستند الى لندن . واول محاولة ملكية للسيطرة على لنـــدن انتهت بهزيمة مخجلة في تورنهام جرين . ذلك ان الاشتباك انتهى بدون ان تسيل نقطة من الدماء ، وكان ذلك نتيجة للوضع النفسي الناجم عن معركة إيدج هيل التي كانت دامية جدا وسفكت فيها دماء غزيرة عندما اشتبك الجيشان الرئيسيان في معركة تلاقي (٣) ، ولكن دون نتيجة حاسمة . ومنذ هذه اللحظة غـــدت

---

٣ – معركة تلاقي : هي التعبير الجديد للمعركة التي يحصل فيهـــا الاشتباك بين جيشين او وحدتين عسكريتين متحركتين بصورة متقابلة . «المعرب»

اوكسفورد والمدن المجاورة لها نقطة ارتكاز حصينة لمناورات الملكيين . وتقابل الجيشان الرئيسيان حول هذه المنطقة مدة طويلة دون جدوى بينما تابعت بعض المفارز والقوى المحلية القيام بالمناوشات في الشمال والغرب . وفي سبتمبر (ايلول) من عام ١٦٤٣ غدا الموقف في غلوسستر حرجا بعد محاصرتها ، فانطلق جيش البرلمان الرئيسي بقيادة اللورد ايسيكس لنجدتها ملتفا حول مجنبة منطقة اكسفورد ، وقاطعا الطريق على الملكيين . ولكن تقابلا جبهيا وقع في نيوبيري دون ان يؤدي الى اية نتيجة حاسمة .

وبدأ الملل يخيم على كلا الطرفين بشكل يمكن ان يدفعهما الى عقد الصلح . وهنا ارتكب شارل الاول (٤) غلطة سياسية فادحة عندما وقع هدنة مؤقتة مع الثوار الايرلنديين فبدا وكأنه قبل سيطرة الايرلنديين الكاثوليك على الانكليز البروتستانت . الامر الذي دفع سكوتلاندة البروتستانتية الى وضع امكانياتها الهامة في صف القوى المتحدة المضادة للملك . وارتفعت معنويات البرلمان عندما وجد جيشا سكوتلانديا جديدا يهدد القوى الملكية في الشمال ، فجمع قواته للسير مباشرة نحو منطقة اوكسفورد . ولم تؤد هذه العملية الا الى احتلال بعض الحصون المنعزلة . وكان الملك قادرا آنذاك على ارسال روبيرت لمحاربة السكوتلانديين وتأمين انضمام مفرزته الى القوى الملكية في الشمال . ولكن هزيمته التكتيكية في مارستون مور افقدته كل المكاسب المحتملة لهذه الفرصة الاستراتيجية ، كما لم يكسب المنتصرون انفسهم شيئا . ووجه البرلمان مناورته الرئيسية مرة اخرى نحو اوكسفورد فلم تعط اية نتيجة الامر الذي افقد وحدات البرلمان شجاعتها فبدأت تترك ميدان القتال بجماعات كبيرة . الا ان عناد بعض الرجال مثل كرومويل (٥) منع عقد الصلح الذي كان مطلب الجميع لشعورهم بالارهاق والملل . كما ان الجناح الملكي بدأ يضعف نتيجة الخلافات الداخلية ، ووجد فيرفاكس (٦) وكرومويل الفرصة ملائمة لضرب عدو ضعيف ماديا ومعنويا ، ويعتمد في بقائه على خطأ جناح البرلمان الاستراتيجي ، فقاما بدفع جيوشهما الجديدة نحوه ، وفي عام ١٦٤٥ وقعت اول معركة حاسمة تكتيكيا ، ولكن نتائجها كانت غير كافية لمنع استمرار الحرب سنة اخرى .

ويختلف المخطط كليا عند دراسة الحرب الاهلية الثانية التي كان دماغها

---

٤ ــ شارل الاول ملك انكلترة وايقوسيا من (١٦٢٥ الى ١٦٤٩) .

٥ ــ كرومويل : (١٥٩٩ ــ ١٦٥٨) حامي الجمهورية البريطانية . جهز ثورة وهزم القوات الملكية واعدم شارل الاول . اخضع ايرلندة وايقوسيا ثم تسلط على الحكم كدكتاتور باسم حامي حمى الدولة (Lord Protector) . «المعرب»

٦ ــ فيرفاكس (١٦١٢ ــ ١٦٧١) قائد من قواد الثورة البريطانية التي قادها كرومويل .

المفكر كروموبل ويساعده جون لامبيرت (٧) اللامع الذي كان عمره حينئذ ١٨ عاما. عندما انتشرت الانباء في نهاية ابريل (نيسان) من عام ١٦٤٨ بأن السكوتلانديين يقومون بحشد جيش لاحتلال انكلترا بالتعاون مع القوى الملكية الاخرى استعد فيرفاكس للسير في اتجاههم نحو الشمال ، في الوقت الذي سار فيه كروموبل نحو الغرب ضد الملكيين في بلاد الغال الجنوبية ، ولكن ثورة في مقاطعة «كنت» اجبرت فيرفاكس على تجاهل تجمع العدو في الشمال ، وهو التجمع الذي ازداد خطره . واخذ لامبيرت مهمة ايقاف هؤلاء المهاجمين بقواته الصغيرة ، فقام بسلسلة من العمليات النموذجية غير المباشرة ضد مجنبة العدو اثناء تقدمه على الطريق الغربية ، ونجح في شل كل محاولاته للاتصال مع حلفائه في يوركشير .

وبعد سقوط بيمبروك في ١١ يوليو (تموز) عام ١٦٤٨ استطاع كروموبل التوجه الى الشمال ، ولكنه لم يتقدم نحو السكوتلانديين مباشرة بل قام بحركة التفاف سريعة من نوتينغهام مؤمنا بذلك خطوط تموينه ، ثم اتجه الى الشمال الغربي لتأمين الاتصال مع لامبيرت . وتم اللقاء في أوتلي على مجنبة الجيش السكوتلاندي الممتد بين ويغان وبريستون بمفرزة مؤلفة من ٣٥٠٠ رجل بقيادة لانغدال لتغطية الجناح الايسر . وكان مع كروموبل ٨٦٠٠ رجل بما فيهم خيالة لامبيرت والحرس الوطني في يوركشير بينما بلغ عدد جيش العدو ٢٠ الف رجل. ولكن ظهور كروموبل في بريستون على مؤخرة الرتل السكوتلاندي حطم توازن هذا الرتل واجبره على العودة الى الوراء والاشتباك بقوى مبعثرة صغيرة تدخلت بشكل متفرق وعلى التوالي . وفي بريستون مور تم سحق مفرزة لانغدال وأسرع كروموبل بالمطاردة ضاغطا الجيش السكوتلاندي على نفسه مع دفعه من ويغان الى أوتوكسيتر حيث هاجمه الحرس الوطني لمدينة ميدلاند جبهيا وانقضت خيالة كروموبل على مؤخرته فاستسلم في ٢٥ اغسطس (آب) . ولم يؤد هذا النصر الحاسم الى تحطيم اعداء البرلمان ، ولكنه سمح للجيش بتطهير البرلمان نفسه ومحاكمة الملك واعدامه .

ويشكل اجتياح سكوتلاندة الذي تلا هذه المعركة حربا واضحة المعالم لمنع عودة العرش الذي كان ولي العهد (شارل الثاني فيما بعد) يسعى اليه بمساعدة السكوتلانديين . ولكن يتعذر وضع هذه الحرب مع المعارك التي اثرت على التاريخ بشكل حاسم ، رغم اعتماد كروموبل فيها على استراتيجية الهجوم غير المباشر . ولقد بدأت المعارك عندما قابل كروموبل الجيش السكوتلاندي بقيادة ليسلي وكان متمركزا على طريق ادنبره ، واجرى معه اشتباكا بسيطا استنتج منه قوة هذا الموقع ، فسيطر على نفسه ولم يقم بالهجوم الجبهي على ارض غير ملائمة رغم قربه من هدفه ونقصان تموينه ورغبته في المعركة . ولم يشتبك الا بعد ان

---

٧ — جون لامبيرت : (١٦١٩ — ١٦٩٦) من انصار البرلمان الانكليزي واحد قواد الثورة التي قادها كروموبل . خدم البرلمان باخلاص ثم ثار عليه . «المعرب»

جذب العدو الى ارض مكشوفة فحصل بذلك على امكانيـــة مهاجمة مجنبتـــه المكشوفة . وهكذا انسحب في اتجاه موسيل بورغ ودونبار بغية تعزيز امكانياته، ثم اتجه نحو موسيل بورغ في نفس الاسبوع واخذ تموينا يكفيه ثلاثة ايام ، قبل القيام بمناورة كبيرة على مؤخرة العدو عبر هضاب ادنبرة . وفـي ٢١ اغسطس (آب) عام ١٦٥٠ قطع ليسلي الطريـــق المباشر الى كورستورفينهيل ، فحاول كرومويل ، رغم بعده عن قاعدته ، تطبيق شكل جديد للهجوم باستخدام المناورة بجناحه الايسر ، ولكن ليسلي أوقفه مرة اخرى عند جوجار . ولو كان قائـدا غيره في مثل ظروفه لزج بكل امكانياته في معركة مباشرة . ولكن كرومويل لـم يفعل ذلك بل انسحب ثانية نحو موسيل بورغ ودونبار رغم خسائره الفادحـــة الناجمة عن تعب الجنود ومرضهم . وجذب انسحابه هذا جيش ليسلي الـذي بدا يتعقبه ، وعرض عليه مساعدوه ركوب البحر والنجاة بمن بقي معه ولكنه أصر على الانتظار في دونبار متوقعا قيام خصمه بارتكاب غلطة تخلق أمامه فرصة ملائمة.

وكان ليسلي خصما حاذقا ، فقام بحركة زادت الخطر المحدق بكرومويل اذ ترك الطريق الرئيسية ، واستدار حول دونبار خلال ليلـــة اول سبتمبر (ايلول) واحتل دون هيل وسيطر بذلك على طريق بيرويك ، كما ارسل مفرزة للاستيـلاء على طريق كوكبورنباث الواقع على بعد ٧ اميال نحو الجنوب . وفي صبيحـــة اليوم التالي وجد كرومويل نفسه معزولا عن انكلترا وهذا موقف حرج يزيد من خطورته فقدان التموين وزيادة انتشار الامراض بين الجنود .

كانت خطة ليسلي تتضمن الانتظار على المرتفعات حتى يحاول الانكليز شـق طريقهم الى بيرويك فينقض عليهم . ولكن القساوســـة السكوتلانديين لم يعودوا قادرين على الانتظار وهم يرون « فتح الله» وهو ينطبق على كروموبـــل الكافر . وزادت دعواتهم وابتهالاتهم ارتفاعا عندما علموا ان المهاجم قادر على الخـــلاص بطريق البحر . وفي ٢ سبتمبر (ايلول) هبت عاصفة قوية اجبرت الوحـــدات السكوتلاندية على ترك مرتفعات دون هيل والنزول عبر المسالك الجبلية للوصول الى السهل قرب طريق بيرويك حيث يمكنهم الاحتماء من المطر بشكل افضل . وكانت جبهتهم مستندة على مجرى نهر بروك الذي يجري ضمن واد ضيـــق حتى مصبه .

هنا كان كرومويل ولامبرت يراقبان هذه الحركة ، وجاءتهم فكرة واحـــدة «ان ليسلي يمنحنا فرصة نادرة لمهاجمته» . وكان الجناح الايسر السكوتلانـدي محصورا بين الهضبة والنهر الذي تشكل ضفته جرفا شديد الانحدار ، بشكـل يصعب معه الذهاب لنجدة الجناح الايمن اذا ما ركز كرومويل وسائطه الهجومية عليه . وفي مجلس الحرب الذي عقد في المساء عرض لامبرت فكرة القيـــام بالهجوم مباشرة دون تردد على الجناح الايمن والالتفاف حول خطوط القـــوات السكوتلاندية ، بينما تقوم المدفعية برمي كثيف يدمر الجناح الايسر المشلول فعلا عن الحركة . واقتنع المجتمعون بحججه ، وسلمه كروموبـــل قيادة المناورات

التحضيرية ، واخذت وحداته مواضعها على الضفة الشمالية للنهر وسط المطر والريح وتحت جنح الظلام . وبعد ان وضع لامبرت مدافعه امام الجناح الايسر السكوتلاندي سار الى الجناح الآخر مع طلوع الفجر لقيادة هجوم الخيالة التي اندفعت قرب الشاطىء . وامنت المفاجاة عبور الخيالة ومشاة القلب دون صعوبة، ثم اوقف العدو التقدم فترة من الوقت ، ولكن تدخل النجدات الانكليزية امال الكفة في الجناح على ضفاف البحر ، وسمح لكرومويل بأن يضغط الصفوف السكوتلاندية ويجعلها تدور حول نفسها من اليمين الى اليسار ويحصرها في زاوية واقعة بين الهضبة والنهر . ولم يجد السكوتلانديون امامهم سبيلا سوى الفرار . وهكذا استطاع كرومويل بهجوم غير مباشر تكتيكي استغلال ثقة الخصم بنفسه وتدمير جيش اكبر من جيشه بمرتين . وختم معاركه بانتصار يرجع الفضل فيه الى صموده امام مغريات الفرص التي سنحت له لترك سياسة الهجوم غير المباشر . وادى انتصار دونبار الى سيطرة كرومويل على سكوتلاندة الجنوبية وسحق الجيش المعادي وطرد حزب الكوفنان من ميدان السياسة بحيث اخرجهما من قائمة القوى المشتركة في الصراع. ولم يبق امام كرومويل من يعارضه سوى العناصر الملكية في مقاطعة هايلاند . ثم توقف التقدم بمرض كرومويل ، الامر الذي اعطى ليسلي الوقت الكافي لتدريب جيش ملكي جديد خلف نهر فورث .

وفي يونيو (حزيران) عام ١٧٥١ تماثل كرومويل للشفاء وعاد لمتابعة العمليات فوجد امامه مشكلة صعبة ، ولكنه وضع لها حلا يمكن مقارنته بمعارك التاريخ العسكري الكبرى بفضل براعته وحسن تقديره . كان كرومويل في هذه المرة متفوقا عدديا ، وعليه ان يعمل ضد عدو عنيد متمركز بقوة ، في منطقة بها مستنقعات ورمال تمنع تقدم كل مهاجم وتعوق الحركة في اتجاه ستيرلينغ . كما وجد نفسه مضطرا لقضاء شتاء جديد في سكوتلاندة الا اذا استطاع تدمير مقاومة العدو بسرعة الامر الذي ينهك وحداته ويزيد متاعب سياسته الداخلية. ولم يكن مجرد اخراج العدو من منطقة المستنقعات كافيا ، لان النجاح الجزئي يؤدي الى انتشار العدو في هايلاند حيث يبقى شوكة في مجنبة الانكليز .

اتخذ كرومويل حلا ممتازا ، اذ هدد في بادىء الامر جبهة ليسلي وسار نحو بيرث مستديرا بذلك حول الحاجز الدفاعي الذي وضعه ليسلي على الطريق المباشر المؤدي الى ستيرلينغ ، واحتل الطريق المؤدي الى منطقة تموين العدو . ولقد ادت هذه المناورة في نفس الوقت الى كشف طريق انكلترة نفسها ، وهذا امر يدل على مهارة كرومويل الذي تمركز على مؤخرة العدو المهدد بالجوع والفناء وترك له ممرا ضيقا مفتوحا . ويقول احد خصومه في هذا الصدد : «كان علينا ان نموت جوعا او ندخل انكلترة مع بعض الرجال . وهذا حل يبدو اقل سوءاً رغم انه بلا أمل .» واختار السكوتلانديون في النهاية هذا الحل فتوجهوا في نهاية شهر يوليو (تموز) نحو الجنوب في اتجاه انكلترة .

توقع كرومويل هذه الحركة واستعد مع سلطات وستمنستر لملاقاتهم ، وجرى حشد الحرس الوطني لهذه المهمة ولمراقبة كل من يشك في ولائه ،

وصودرت مستودعات الاسلحة المخبأة. وتقدم السكوتلانديون على طريق الشاطىء الغربي ، فأرسل كرومويل خلفهم خيالة لامبرت ، على حين استدار هاريسون من نيوكاسل الى وارينغتون وفليت وود وتوجه الى الشمال مع حرس مقاطعة ميدلاند الوطني . والتف لامبيرت حول مجنبة العدو ، والتقى مع هاريسون في ١٣ اغسطس (آب) وقام كلاهما بدفاع مرن اوقف المتقدمين . بينما كان كرومويل يسير بسرعة ٣٠ ميلا في اليوم في حرارة شهر اغسطس (آب) الملتهبة بمحاذاة الشاطئ الشرقي ثم انحرف نحو الجنوب الغربي . وهكذا تقدمت اربع قوى لملاقاة العدو فأوقعته في الفخ . وحاول شارل ترك طريق لندن والتوجه الى وادي سيفون ، فلم يؤد ذلك الا الى تأخير خاتمة هذه المغامرة التي وقعت في ٣ سبتمبر (ايلول) في ميدان معركة وورسيستر .

يمكننا ان نجد بعض المعارك الحاسمة القليلة في سلسلة المعارك التي قام بها لويس الرابع عشر (٨) ضد الجيوش الاوروبية ، منفصلة او مجتمعة ، في الفترة الواقعة بين حرب الثلاثين وابتداء حرب الوراثة الاسبانية . وكانت غايات الحرب والاهداف العسكرية المؤدية اليها محدودة غالبا . ويعود السبب في قلة عدد المعارك الحاسمة الى عاملين رئيسيين ، أولهما تفوق التحصينات وتقدمها على التسليح ، مما أعطى الدفاع تفوقا ظاهرا مثل تفوقه في بداية القرن العشرين بفضل استخدام المدافع الرشاشة . وثانيهما عدم وجود جيوش منظمة في وحدات دائمة مستقلة ، واعتماد الجيوش على الحركة والقتال ككتلة واحدة مما يقلل امكانية المناورة واعمال المشاغلة ولفت الانظار الرامية الى خدع العدو وعرقلة حرية عمله .

وفي خلال الحروب التالية المتعاقبة كحرب الفروند وحرب هولندا او حلف أوغسبورغ وغيرها وقعت معركة واحدة حاسمة هي معركة الشتاء في عام ١٦٧٤ ــ ١٦٧٥ التي قادها تورين (٩) وادت الى انتصاره في توركهايم . كانت فرنسا آنذاك في موقف حرج بعد ان تخلى حلفاء لويس الرابع عشر عنه ، واتحد الاسبانيون والهولنديون والدانيماركيون والنمساويون ومعظم الامراء الالمان ضده، فاضطر تورين الى الانسحاب بعد ان اشاع الخراب في مقاطعة بالاتينا . وسار

---

٨ ــ لويس الرابع عشر الكبير ملك فرنسا من عام ١٦٤٣ الى ١٧١٥ مات ابوه وعنده خمس سنوات فكان مازاران وصيا عليه بناء على توصية ريشيليو . تميز عصره بالعظمة (حروب ــ ابنية ضخمة ــ أعياد رائعة) اهتم بالمالية والزراعة والصناعة ونظم الجيش واقام الحصون وأراد ان يفرض سيطرة فرنسا على الدول الاخرى ، فاشترك في حروب مع اكثر دول اوربا وحقق انتصارات كبيرة ولكنه انهك الشعب الفرنسي . «المعرب»

٩ ــ تورين : مارشال فرنسا وقائد الجيش الفرنسي في المانيا خلال حرب الثلاثين عاما . حقق لفرنسا انتصارات عسكرية كبيرة ، كان بسيطا متواضعا يؤمن بالحساب والتفكير في وضع الخطط الحربية . «المعرب»

حكام براندبورغ للالتحاق بالجيش الامبراطوري الذي يقوده بورنونفيل ، ولكـــن تورين هزم هذا الاخير في اكتوبر (تشرين اول) عام ١٦٧٤ في اينزهيم قبل وصول قوات حكام براندبورغ ، ثم اضطر للانسحاب الى ديتويلر بينما اجتاح الالمـــــان الالزاس وعسكروا لقضاء الشتاء في المناطق الواقعة بين ستراسبورغ وبيلفور .

وكان كل شيء معدا لعمل تورين العظيم . وحدثت اول مفاجأة عندما قـــرر دخول المعركة في قلب الشتاء ، وقام بخداع العدو بأن وضع حصون الالـــزاس الوسطى على اهبة الدفاع ، وسحب كل وحداته المقاتلة الى اللورين بدون ادنى ضجة ، ثم سار منها بسرعة نحو الجنوب متسترا خلف جبال الفوج التي كانت تخفي تقدمه كما كانت تخفي وصول النجدات اليه على طول الطريق . وفـــي مراحل التقدم الاخيرة قسم قواته الى مفارز صغيرة متعددة ليخـــدع جواسيس العدو . وبعد سير طويل في مناطق جبلية وسط العواصف الثلجية وصل قرب بيلفور ، فجمع جيشه وهاجم الالزاس فورا فاجتاحها من الجنوب وهي التي كان قد انسحب منها من قبل من الشمال ، وحاول بورنونفيل ايقاف تورين بالقوى المتوفرة لديه ، وتم اللقاء في ميلوز بتاريخ ٢٩ ديسمبر (كانون اول) وانتصر تورين واندفع التيار الفرنسي الجارف بسرعة بين جبال الفوج ونهر الرين طاردا امامه جنود الامبراطورية الهاربين بفوضى نحو الشمال في اتجاه ستراسبورغ . وكان الفرنسيون يسحقون خلال هذه المطاردة كل مفرزة تحاول المقاومة . وفي كولمار الواقعة على منتصف الطريق الى ستراسبورغ وقف حكام براندبورغ مع قـــوة معادلة لجيش تورين واقاموا سدا دفاعيا ، وكان تورين يملك قوة الدفع الماديـــة والمعنوية مع حرية العمل ، فاحتفظ بكل ذلك لكي يقوم في معركة توركهايم بهجوم غير مباشر تكتيكي يهدف الى شل امكانية مقاومة العدو اكثر مما يهدف الى تدميره. واعتمد على تأثيرات هذا التكتيك لتأمين هزيمة العدو ، وتم نجاح خطته بشكـــل رائع ، ولم يعد في الالزاس بعد عدة ايام اي جندي للعدو .

وعاد الفرنسيون الى معسكراتهم الشتوية في ستراسبورغ حيث اصبحـــوا قادرين على الحصول على المؤن دون اية صعوبة من الضفة الالمانية لنهر الريـــن وحتى حدود نهر نيكار . وانسحبت القوات الالمانية المتبقية الى براندبـــورغ واستدعي مونتي كوكولي (١٠) خصم توريـــن القديم لتسلـــم قيادة الجيش الامبراطوري ، ولكن تورين هزمه ووضعه في موقف حرج قرب نهر سالزبار ، ولكن تورين قتل في بداية المعركة بقنبلة مدفع . وبموتـــه تغير مجرى الحرب مرة اخرى .

تختلف المعركة التي قام بها تورين في ذلك الشتاء عن مختلف المعارك التـــي دارت في أوربا خلال القرن السابع عشر ، بأنها كانت معركة حاسمة لا مثيل لها في ذلك العصر الذي كان قادته من ذوي المستوى العسكري المحدود رغم تفوقهم

---

١٠ ــ مونتي كوكولي : قائد نمساوي (١٦٠٩ ــ ١٦٨١) . «المعرب»

في المناورة بشكل كبير . ولكن قدرتهم على المناورة كانت متساوية تقريبا لدرجة ان حركات الالتفاف التي يقومون بها كانت تصد ببراعة ، ويكفي تقديم هـــذه المعركة كنموذج للمعارك التي يتم فيها سحق العدو سحقا تاما ، ومما يرفع قيمة هذا القائد ان عبقريته كانت تزداد مع تقدمه في السن . لقد خاض من المعـارك اكثر مما فعل اي قائد حربي آخر في التاريخ . ثم وجد في معركته الاخـــيرة الحل الحاسم للمشكلة التي كان يبحث عنها فن الحرب في القرن السابع عشر . ولقد وجد هذا الحل دون أن يتجاهل قاعدة ذلك العصر القائلـــة : بأن المدربين تدريبا عسكريا عاليا يكلفون غاليا فلا يجب التضحية بهم .

لقد علمته خبرته ان الوصول الى نتيجة حاسمة في مثل هذه الاحوال فـــي حاجة الى تطبيق خطة استراتيجية مع هجوم غير مباشر اكثر مما كان الامر يتطلب في اية معركة سابقة . لقد كانت المناورات آنذاك متعلقة بالحصون حيث توجد المستودعات والوحدات الاحتياطية اللازمة للقوات المقاتلة الميدانية ، فحرر نفسه جديا من هذه القواعد ، وحقق توافق المفاجأة والحركة للحصول على الحـــل الحاسم ولتأمين سلامة مناوراته . ولم يكن يعتمد في عمله على الحظ مثـــل اعتماده على الحساب الدقيق ، كما ان نجاحه في تمزيق العدو فكريا ومعنويـــا وتدمير وسائل امداده حقق له قدرا كافيا من حرية العمل التي اتاحت له تنفيذ خططه الحربية تنفيذا بارعا .

الفصل السابع

القرن الثامن عشر
مارلبورو ، فردريك الثاني

تمتاز حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠١ ـ ١٧١٣) بازدواج غريب في طبيعتها. لقد كان لها هدف سياسي محدود وآخر كبير يرمي الى تحطيم قوة فرنسا المتفوقة التي يملكها لويس الرابع عشر . وكانت على الصعيد الاستراتيجي عبارة عن سلسلة متوالية من الهجوم المباشر والمناورة غير المباشرة دون نتائج ذات اهمية . وكان فيها رغم ذلك بعض الهجمات الناجحة غير المباشرة المتعلقة دائما باسم مارلبورو (١) والتي كانت تحدد غالبا تحول وجه الحرب .

كان الحلف المعقود ضد فرنسا حينئذ يضم النمسا وبريطانيا وهولندا

---

١ ـ مارلبورو قائد انكليزي (١٦٥٠ ـ ١٧٢٢) تسلم قيادة الجيش الانكليزي في البلاد الواطئة عام ١٧٠١ حصل على انتصارات كبيرة واصبح اسمه فيما بعد اسطوريا بفضل اغنية شعبية هزلية.

والدانيمارك والبرتغال وعدة دويلات المانية ، بينما كان حلفاؤها قاصرين على اسبانيا وبافاريا وسافوا .

وبدات الحرب في شمالي ايطاليا ؛ بينما كانت بقية الجيوش تكمل استعداداتها . واحتشد النمساويون بقيادة الامير أوجين (٢) في بلاد التيرول واستعدوا للسير مباشرة نحو الخصم الذي يسد الطريق في ممر ريفولي بقيادة كاتينا (٣) ولكن أوجين عرف ممرا صعبا في الجبال لم يستخدم منذ زمن طويل ، فسلكه وخرج فجأة من السهل بعد ان قام بحركة التفاف عريضة من الشرق . واستفاد من هذه الميزة منذ البداية ، وقام بمناورات ناجحة خدعت الاعداء عدة مرات واخفت اهدافه الحقيقية ، ودفعت خصومه الى مهاجمته فهزمهم وثبت أقدامه في شمال ايطاليا .

افتتح هذا الهجوم غير المباشر الصراع واعطى الحلفاء خصوم فرنسا قوة معنوية دافعة ، وحطم اسطورة جيوش لويس الرابع عشر التي لا تغلب ، وصدم النفوذ الفرنسوي والاسباني في ايطاليا صدمة لم تقم له بعدها قائمة . وكان من نتائج هذا الانتصار انضمام دوق سافوا الذي يعمل دائما مع الاقوى الى الحلفاء. وفي عام ١٧٠٢ بدأ الصراع الرئيسي عندما تم تجهيز الجيش الفرنسي الاكبر في الفلاندر حيث حصن الفرنسيون خطوط بارابان ، من انفرس الى هوي ، بطول ٦٠ ميلا ، لتأمين سلامة مؤخرتهم خلال التقدم المقبل . وشعر الهولنديون بخطر الغزو فالتجأوا الى حصونهم . وكان مارلبورو يؤمن بفكرة الحرب الايجابية ولكنه لم يبدل هذا الدفاع السلبي بهجوم مباشر على بوفلير (٤) المتقدم نحو الرين بل ترك الحصون الهولندية الهامة وسار مسرعا نحو «خطوط بارابان» وخط التراجع الفرنسي . واحس بوفلير بالقبضة توشك ان تخنقه معنويا فانسحب بسرعة وغدا الجيش الفرنسي منهكا ماديا ومعنويا ، واصبح هدفا سهلا لمارلبورو الذي كان يراقبه عن كثب للقيام بتطويقه ، ولكن الهولنديين رفضوا هذه الفكرة وقنعوا بابتعاد خطر الغزو عن بلادهم . وفي هذه السنة جذب مارلبورو خصمه بوفلير الى الفخ مرتين ، وساعد التردد الهولندي في كل مرة الفرنسيين على الخلاص.

في السنة التالية قام مارلبورو بمناورة ناجحة لاحتلال انفرس واجتياز خط الخنادق المحصن ، وكان يأمل في تثبيت الجيش الاساسي الفرنسي الذي يقوده

---

٢ ــ الامير اوجين : قائد مشهور من قادة جيوش الامبراطورية النمساوية (١٦٦٣ ــ ١٧٣٦) . «المعرب»

٣ ــ كاتينا : مارشال فرنسا (١٦٣٧ ــ ١٧١٢) من احسن القادة في عهد لويس الرابع عشر اظهر مهارة عسكرية وسياسية .

٤ ــ بوفلير مارشال فرنسا (١٦٤٤ ــ ١٧١١) اشتهر في الدفاع عن ليل والانسحاب في ماليلاكيه. «المعرب»

فيلوروا (٥) بهجوم مباشر على الطرف الجنوبي لخطوط بارايان ، بينما يهاجم كوهورن بفيلقه الهولندي وبمساعدة الاسطول مدينة ستاند، وتتجه قوات هولندية اخرى بقيادة سيار نحو أنفرس من الشمال الغربي ، وكان الهدف من هذه الحركات على الساحل اجبار القيادة الفرنسية على النظر وراءها وسحب قواتها المتمركزة في الطرف الشمالي لخطوط بارايان. وكان على فيلق أوب دام الهولندي التقدم بعد ٤ ايام ومهاجمة المدينة من الشمال الشرقي على حين يترك مارلبورو فيلوروا ويتقدم في اتجاه الشمال نحو انفرس مطبقا عليها بكل قواته .

تم تنفيذ القسم الاول من المخطط بشكل مشجع ، وجذب الخوف من مارلبورو جيش فيلوروا الى نهر الموز ، ولكن كوهورن لم ينفذ الحركة في اتجاه ستاند كما كان مقررا ، وقام بحركة أقل اتساعا قرب أنفرس بالتعاون مع سبار. ولم تحقق هذه الحركة نتيجتها المتوقعة في خداع العدو وتحرك اوب دام قبل الوقت المحدد ، فلما تقدم مارلبورو الى الشمال لم تخدع حركته فيلوروا الذي سبقه وأرسل بوفلير مع ٣٠ سرية من سرايا الخيالة و٣ آلاف رجل من المشاة رماة القنابل الذين ساروا على الاقدام بسرعة مسير الخيالة ، وسارت هذه المفرزة السريعة الحركة ٤٠ ميلا في ٢٤ ساعة والتحقت بحامية انفرس في يوليو (تموز) ثم هاجمت أوب دام فجأة واضطرته الى الانسحاب بعد ان كبدته خسائر فادحة . وهكذا فشل المخطط الذي أسماه مارلبورو بكل غرور «المخطط الكبير» .

اقترح الانكليز بعد هذا الفشل القيام بانقضاض مباشر على خطوط بارابان جنوبي أنفرس ، وعارض القادة الهولنديون هذه الفكرة لانها كانت تعني الهجوم الجبهي على موضع محصن تشغله دفاعيا قوة تعادل قوة المهاجمين . والحقيقة ان مارلبورو كان يتمتع بموهبة كبيرة في حقل المناورة ولكنه كان يتصرف في لحظات اليأس تصرفات تفقده هذه الميزة وتعيده الى الطريق العادية . ولكن المؤرخين البريطانيين المتأثرين بأعماله ومآثره يحكمون احكاما قاسية على الهولنديين نتيجة هذا الموقف الذي يمكن تفسيره بشعور الهولنديين بالخطر المباشر على كيانهم وبلادهم اكثر من الانكليز ، علاوة على احساسهم بأن الحرب بالنسبة لهم مسألة تقرير مصير لا مجرد مغامرة كبيرة او لعبة مسلية ، وتأكدهم كما قال الاميرال جليكو بعد قرنين بأنه «يمكن خسارة الحرب في ظهيرة يوم واحد» وبأن الاشتباك في المعركة معناه تعرضهم لهزيمة محققة .

اضطر مارلبورو امام فكرة القادة الهولنديين الى ترك فكرة الهجوم في منطقة أنفرس ، وتوجه نحو الموز ليغطي حصار مدينة هوى . وفي نهاية أغسطس (آب) اقترح من جديد مهاجمة خطوط بارابان وقدم حججا لدعم فكرته ولتأكيد صلاحية القطاع الجنوبي لهذا المشروع . ولكن حججه فشلت في اقناع الهولنديين .

---

٥ ــ فيلوروا : قائد فرنسي (١٦٤٤ ــ ١٧٣٠) لم يبدِ مهارة في قيادة العمليات ومع ذلك عينه لويس الرابع عشر لتعليم وتثقيف لويس الخامس عشر . «المعرب»

ولقد تضايق مارلبورو من موقف القواد الهولنديين ، لذا فانه تقبل بحماسة فكرة فراتيسلو ميعوث امبراطور النمسا ، وهي الفكرة التي تهدف الى دفع قواته في اتجاه نهر الدانوب . وانسجمت هذه الفكرة مع آراء مارلبورو الواسعة الافق ، مما ادى في عام ١٧٠٤ الى القيام بهجوم غير مباشر يعتبر مثالا يحتذى في التاريخ العسكري . كان احد الجيوش الفرنسية الرئيسية يعمل في الفلاندر بقيادة فيلوروا ، بينما كان هنالك جيش آخر بقيادة تالار (٦) متمركزا في المجرى العلوي لنهر الرين بين مانهايم وستراسبورغ تحت حماية مفارز صغيرة لتغطية المواقع ، اما الجيش الثالث المؤلف من البافاريين بقيادة حكام بافاريا ومارزان (٧) فكان قرب مدينة هولم ونهر الدانوب ، وكانت حركة هذا الجيش الى الشرق تعني تهديدا خطيرا لمدينة فيينا . ودرس مارلبورو الموقف وقرر الانتقال من الموز الى الدانوب بوحداته الانكليزية ، وضرب البافاريين على حدة للحصول على نصر حاسم ضد اضعف اعدائه . ويمكن اعتبار هذه الحركة الواسعة التي تبعده عن قاعدته الانكليزية ، وتفقده مكاسبه في الشمال ، شجاعة لا مثيل لها. وتزداد اهمية هذه الحركة وجراتها عند مقارنتها مع استراتيجية ذلك العصر البطيئة المترددة . وكانت سلامة مناورته مضمونة بعامل التحطيم المعنوي الذي اصاب العدو بسبب هذه الحركة المفاجئة غير المتوقعة . وكانت المفاجأة تعتمد على امكانيات الهجوم في اتجاهات مختلفة ، وتهديد عدة اهداف في وقت واحد في كل مرحلة ، مما يمنع العدو من اكتشاف الهدف الحقيقي .

وعندما سار مارلبورو نحو الجنوب في اتجاه نهر الرين اعتقد العدو في باديء الامر انه يريد غزو فرنسا عبر وادي نهر الموزيل .

ولما اجتاز كوبلانس ظن انه يريد مهاجمة القوات الفرنسية في الالزاس ، وقد تأكدت هذه الفكرة عندما استعد لانشاء جسر على نهر الرين في مدينة فيليبسبورغ . ولكنه عندما وصل الى منطقة مانهايم غيّر محور تقدمه الطبيعي المؤدي الى الجنوب الغربي واتجه نحو الجنوب الشرقي واختفى في الهضاب التي تكسوها الاشجار ، وسار مع وادي نهر فيكار ، ثم سار في اتجاه هولم مجتازا قاعدة المثلث الذي يشكله الرين والدانوب . ولقد غطت مناورته الاستراتيجية المجهولة اتجاه تقدمه بشكل فعال ، وساعدته على الاستفادة حتى من تقدمه البطيء الذي لم تتجاوز سرعته ١٠ أميال في اليوم خلال اسابيع . وبعد ان أمن مارلبورو الاتصال في مدينة ايباخ مع الامير أوجين وكونت باد تابع تقدمه مع قوات الكونت فقط ، لان الامير اوجين عاد بجيشه ليعرقل ويوقف الجيوش الفرنسية على نهر الرين ، وهي الجيوش التي جاءت من الفلاندر بقيادة فيلوروا

---

٦ — تالار : مارشال فرنسا ورجل سياسي (١٦٥٢ — ١٧٢٨) .

٧ — مارزان : مارشال فرنسا (١٦٥٦ — ١٧٠٦) قتل في معركة تورين . «المعرب»

في وقت متأخر (٨) .

وكان مارليورو آنذاك عند مؤخرة الجيش الفرنسي البافاري بالنسبة لفرنسا وفي وضع جبهي بالنسبة للبافاريا . وجاء هذا الازدواج في الوضع الجغرافي لينضم الى عوامل اخرى منعت مارلبورو من استغلال المميزات الاستراتيجية التي حصل عليها ، وأول هذه العوامل تشكيل الجيوش في ذلك العصر وتلاؤمه مع التكتيك الجامد الذي يمنع كل مرونة استراتيجية ، ويسمح لكل قائد بجذب عدوه الى الفخ دون ان يقدر على ايقاعه فيه ، ان لم يكن العدو راغبا في ذلك ، اي ان القائد كان غير قادر على اجبار خصمه على الدخول في المعركة رغم انفه . اما العامل الآخر فكان متعلقا بمارلبورو واقتسام القيادة بينه وبين كونت باد المتردد الذي لا يستطيع اتخاذ قرار حاسم .

كانت جيوش بافاريا والماريشال مارزان المشتركة تحتل موضعا محصنا في ديليغين على نهر الدانوب شرقي هولم ، وعلى منتصف الطريق بين هولم ودونوفرس . وكان جيش الجنرال تالار مستعدا للهجوم من ناحية نهر الرين ، لذا غدت هولم منطقة غير صالحة لدخول بافاريا . وقرر مارلبورو شق طريقه في دونوفرس لانها النهاية الطبيعية لخط المواصلات الجديد الاحتياطي الذي يحل محل الطريق المار من نورمبرغ ، ولان احتلال دونوفرس يعني السيطرة على الطريق المؤدي الى بافاريا والذي يسمح بالمناورة بحرّية على ضفتي نهر الدانوب.

ومن سوء حظ مارلبورو ان العدو في ديليغين شاهد حركة المجنبة التي قام بها بشكل يتعارض مع القواعد العسكرية النظرية والتي تم تنفيذها ببطء شديد، اتاح الفرصة للبافاريين لكي يرسلوا مفرزة كبيرة لنجدة دونوفرس . وفي المرحلة الاخيرة المناورة اسرع مارلبورو في التنفيذ ولكن العدو استطاع توسيع نطاق الدفاعات قبل وصول الانكليز الى المدينة في ٢ يوليو (تموز) . ولم يشأ مارلبورو اعطاء الفرصة لعدوه لكي يقوي دفاعه ، فقام بالهجوم في مساء اليوم نفسه ، وتم صد الانقضاض الاول مع خسائر كبيرة تعادل اكثر من نصف القوات المهاجمة ، ثم جاءته نجدات حليفة فحصل على تفوق عددي يعادل ٤ الى ١ ورجحت كفته بفضل هذا التفوق ، ولكنه لم يحصل على نتيجة حاسمة رغم كل هذا الا بمناورة دائرية كشفت قطاعا ضعيفا في الدفاع ، وسمحت بفتح ثغرة فيه . ولقد اعترف مارلبورو في تقريره بأن احتلال دونوفرس «كلفه غاليا» وهذا انتقاد عام لتكتيكه لان قائد المناورة الحاسمة كان كونت مقاطعة باد .

انسحبت معظم القوات المعادية بعد ذلك الى أوغسبورغ بينما توغل مارليبورو في اتجاه الجنوب مخربا بافاريا ومشعلا الحرائق فيمئات القرى ليجبر البافاريين

---

٨ ــ احتفظ مارلبورو حتى اللحظة التي ترك فيها نهائيا وادي نهر الرين بامكانية تنفيذ مسير مضاد نحو الفلاندر يستخدم فيه القوارب التي جمعها لنقل رجاله . ولقد لعبت هذه الحيطة دورا اضافيا زاد من خطأ افتراضات القيادة الفرنسية .

على التصدي له او الاشتباك في معركة في ظروف غير ملائمة . ولم تؤد هـذه الطريقة الهمجية المنافية للانسانية الى نتيجة حاسمة ، لان الحرب في ذلـك العصر كانت قضية حكام لا قضية شعوب ، ولم يكن الحاكم ليشعر بتأثير ظروف واوضاع لا تمسه مباشرة ، ووجد تالار الفرنسي الوقت الكافي ليتقدم من منطقة الرين ويصل الى اوغسبورغ في ٥ اغسطس (آب) .

ولكن من حسن حظ الحلفاء ان ظهور تالار على المسرح ضـاع تأثيره بسبب ظهور الامير اوجين الذي ترك بكل سرية مواضعه امام فيلوروا وسار بجـرأة لمساعدة مارلبورو . وكانا قد اتفقا قبل ذلك بوقت قليل ان على كونت بـاد الاستفادة من تغطية مارلبورو والامير اوجين والنزول بمحاذاة نهر الدانوب لمحاصرة مدينة اينغولشتاد التي يحتلها العدو .

وفي ٩ اغسطس (آب) وردت معلومات بأن جيش العدو المشترك يتحرك باتجاه الشمال نحو الدانوب بغية السيطرة على مواصلات مارلبورو ، ولم يمنع هذا الخبر مارلبورو والامير اوجين من السماح لكونت باد بمتابعة تقدمه نحو اينغولشتـاد متنازلين بذلك عن قوته للتخلص من شخصيته المترددة ، واصبح مجموع قواتهما ٥٦ الف رجل مقابل عدو يملك ٦٠ الف رجل قابلين للزيادة . ويمكننا ان نفهم رغبتهما في التخلص من الكونت ولكن انقاص قوتهما بهذا الشكل أمر يدعو الى الاستغراب ، خاصة وانهما قررا الاشتباك في المعركة في اول فرصة . ولعل هذا القرار ناجم عن الثقة بتفوق صفات رجالهما على صفات رجال العدو . ولكـن المعركة التي تلت ذلك كانت ضارية وغير حاسمة مما يثبت ان هذه الثقة لم تكن قائمة على اساس .

ومن حسن حظهما ان ثقة العدو بقوته كانت مماثلة لثقتهما . ويبدو ان حاكم بافاريا كان متعجلا القيام بالهجوم رغم عدم استعداد القسم الاكبر من قواتـه للعمل . ولقد اعترض تالار على ذلك لان الحكمة تتطلب انتظار وصول الامدادات والتحصن دفاعيا حتى يتم ذلك ، فاستغرب الحاكم من هذا الاعتراض ولم يقبل اتباع مثل هذا الحذر مما اضطر تالار الى ان يجيبه بتهكم : «لو لم أكن مقتنعـا تماما باخلاص سعادتكم ، لاعتقدت انكم تودون العبث بجيوش ملك فرنسا دون تعريض جيوشكم للخطر ، والاكتفاء بالتمتع برؤية ما يحدث» .. وتم بعد ذلك الاتفاق على حل وسط يتضمن قيام الفرنسيين بمظاهرة عسكرية تمهيدية لاحتلال موضع قريب من بلنهايم الواقعة خلف نهر نيبل على طريق دونوفرس .

وفي صباح اليوم التالي ١٣ اغسطس (آب) فوجئت جيوشهما باقتـراب الحلفاء على طول الضفة الشمالية لنهر الدانوب ، وهاجم مارلبورو ميمنـة الفرنسيين بينما هاجم الامير اوجين ميسرتهم . ولم تسمح المسافة الضيقـة المحصورة بين النهر والمرتفعات بالقيام بمناورة . وكان الحلفاء يمتازون بـروح القتال العالية وتدريبهم العسكري الجيد وتدخلهم غير المتوقع ، لان اتخاذ قرار الهجوم في ظروف مشابهة ، كان امرا غير محتمل . ومنعت المفاجأة الجيشين

الفرنسيين من اخذ تشكيلات قادرة على القتال بتعاون ، لذا دخل الفرنسيون في المعركة حسب ظروف المواقع التي كانوا موجودين فيها لا حسب متطلبات المعركة مما افقدهم التوازن المادي ، وترتب على ذلك عدم توافر المشاة في قطاع واسع من قلب القوات المحاربة . ولم يبدُ هذا النقص بشكل واضح قبل ساعة متأخرة ، وكان الفرنسيون يستطيعون تلافيه لو لم تكن هنالك عوامل اخرى .

كانت المرحلة الاولى من المعركة في صالح الفرنسيين ، وفشل هجوم مارلبورو على الجناح الايسر في بلنهايم وتكبد خسائر فادحة ، كما فشل الهجوم على الجناح الايمن . وصُدّ بعد ذلك هجوم الامير اوجين مرتين . ولما اشتبكت وحدات مارلبورو في القلب هاجمت الخيالة الفرنسية مقدمة ارتاله اثناء عبور نهر نيبل ، ولم يمكن صد هذا الهجوم الا بصعوبة ولسبب خطأ في نقل الاوامر. والواقع ان قوات مارلبورو اوقفت هذا الهجوم بعدد من سرايا الخيالة يقل عن العدد الذي كان يتوقعه تالار . واعقب ذلك هجوم مضاد قامت به خيالة مارزان الفرنسي على مجنبة الحلفاء المكشوفة وتم صد هذا الهجوم في الوقت المناسب عندما تدخلت خيالة الامير اوجين دون تردد بناء على طلب مارلبورو .

واستطاع الحلفاء تجنب الكارثة ، ولكن بقي الوضع حرجا . وكان على مارلبورو ان يعمل بسرعة ليتخلص من ضفاف نهر نيبل المليئة بالمستنقعات التي تضعه في مأزق كبير . ودفع تالار بعد ذلك غاليا ثمن الغلطة التي ارتكبها عندما سمح لخصمه باجتياز النهر ، اي انه دفع ثمن التنفيذ السيء لمخططه . وبعد ان فشلت خيالة تالار في الهجوم المضاد الذي كاد يخترق قلب قوات مارلبورو توافدت النجدات عبر النهر لمساندة هذا القلب . ولقد وضع تالار ٥٠ كتيبة من المشاة ضد كتائب مارلبورو الـ ٤٨ ، ولم يكن امام قلب الجيش الانكليزي المؤلف من ٢٣ كتيبة سوى ٩ كتائب فرنسية ، ويرجع ذلك الى خطأ في توازن التشكيلة الاساسية لم يتم اصلاحه عندما كانت الفرصة ملائمة . وبعد ان قامت مدفعية مارلبورو بالرمي الكثيف على بعض مواقع المشاة الفرنسيين تقدمت مشاته واجتاحت هذه المواقع ، فاندفع في الثغرة المفتوحة وقسم مجموعة المشاة الفرنسيين المتكدسة في بلنهايم الى جيوب صغيرة . ثم حاول القيام بمثل هذه العملية على مجنبة مارزان المكشوفة ، ولكن هذه المجنبة استطاعت الانسحاب فلم تقع في كماشة الامير اوجين ، وتراجعت دون خسائر جدية بعكس الجزء الاكبر من جيش تالار الذي تم حصاره قرب الدانوب فاضطر الى الاستسلام .

لقد كان النصر في بلنهايم غالي الثمن ولم يتم الحصول عليه الا بعد التعرض لاخطار كبيرة . واذا ما حللناه بدقة وتجرد وجدناه راجعا لصلابة وعناد الجنود الانكليز وخطأ القيادة الفرنسية وليس الى مهارة مارلبورو الشخصية . ولقد كان من نتائجه تشويه سمعة الجيوش الفرنسية وتحطيم الفكرة القائلة بانها لا تغلب . الامر الذي ادى الى تبدل عام في الموقف الاوروبي .

تبعت الجيوش الخليفة الفرنسيين المنسحبين وعبرت وراءهم نهر الرين في فيليبسبورغ . وهنا بدت نتائج الخسائر المدفوعة ثمنا لنصر بلنهايم بشكل

واضح، ولم يبدِ اي شخص عدا مارلبورو رغبة في متابعة التقدم الى مدى أبعد.

وفي عام ١٧٠٥ رسم مارلبورو مخططا لغزو فرنسا يجنبه الاشتباك مع شبكة الحصون الكثيرة المنتشرة في بلاد الفلاندر ، وذلك بمشاغلة القوات الفرنسية في ايطاليا الشمالية بقوات الامير أوجين ، وتثبيت جبهة الفلاندر بجيش هولانـــدي يقف موقف الدفاع ، على حين يندفع جيش الحلفاء الرئيسي بقيادة مارلبـــورو ويصعد بمحاذاة نهر الموزيل حتى مدينة تيونفيل التي يتجه اليها جيش كونت باد سائرا عبر مقاطعة السار . ولم يتم تنفيذ المخطط بحذافيره لنقـــص التموين ، وضعف وسائط المواصلات ، وعدم كفاية النجدات الحليفة المتوقعة ، وتـــردد كونت باد الذي أثار الشكوك وجعل الكثيرين ينسبون هذا التردد الى شعـــوره بالغيرة حتى ظهر سبب تردده فيما بعد عندما مات متأثرا بجرح متقيح .

ولكن مارلبورو احتفظ بمخططه رغم زوال الظروف الملائمة لنجاحه ، حتـــى تحوّل عمله الى هجوم مباشر بحت . وتقدم نحو نهر الموزيل كي تطمع القـــوات الفرنسية في قواته الضعيفة فتشتبك معه في معركة . ولكن فيلار فضل الانتظار ريثما يضعف مارلبورو نتيجة نقص تموينه . كما ان فيلوروا بدأ الهجوم فـــي الفلاندر مما اجبر الهولنديين على طلب النجدة . وأرغم هذان العاملان مارلبورو على التوقف وترك مخططه . وفقد الامل لدرجة اعتبر معها كونت باد مسؤولا عن كل ما حدث ، وارسل الى فيلار رسالة يبين فيها سبب الانسحاب ويلقي وزر ذلك على عاتق الكونت .

امن انسحاب مارلبورو السريع الى الفلاندر الوضع هناك ، اذ رفع فيلوروا اثناء تقدمه الحصار عن ليبج ، ثم سار نحو خطوط برابان ليحتمي خلفها . وبدأ مارلبورو بعد ذلك في استخدام طريقة تسمح باجتياز هذا الحاجز ، فقام بمناورة ضد قطاع ضعيف التحصين قرب الموز مما ادى الى جذب الفرنسيين نحـــو الجنوب . ثم سار في الاتجاه المضاد ووصل فجأة تيرلومون الى قطاع قـــوي التحصين ولكنه قليل الحامية . الا انه لم يستفد من الفرصة التي سنحت امامه بالسير مباشرة الى لوفان والتقدم وراء نهر ديل . ويعود هذا الخطأ الى انه خدع اعداءه كما يعود الى ضعف قواته المؤقت . وكانت نتيجة كل ذلك تحطيم اسطورة خطوط برابان المشهورة كحاجز لا يمكن اجتيازه .

بعد عدة اسابيع نظم مارلبورو مخططا آخر فيه تطور واضح في طرق قيادته. ولم يتوج هذا المخطط بنجاح كبير ولكنه كشف من جديد عن عظمة هذا القائد .

لم تكن مناورته التي خطط لها في الفلاندر لتنجح الا اذا خدع العدو ، وكان نجاحها يعتمد على تنفيذها بسرعة وهي سرعة لم يكن مارلبورو يستطيع فرضهـــا على حلفائه الهولنديين الحذرين . ولقد استخدم في هذه المرة هجوما غير مباشر عندما سلك طريقا تسمح باختيار اهداف محتملة مختلفة ، فتوزع انتباه العدو بذلك على حقل واسع وأهداف متعددة معرضة للخطر بدرجة واحدة . مما جعل مارلبورو قادرا على اقلال اهتمامه نسبيا بعامل السرعة .

وبعد ان هاجم تحصينات فيلوروا قرب لوفان سار في اتجاه يخدع العدو عن الهدف الحقيقي المعرض للضربة التالية . ثم تجاهل كل المدن المحصنة الموجودة في هذه المنطقة وهي نامور وشارلوروا ومونس وآت وتابع تقدمه حتى وصل الى جيماب ثم انحرف نحو الشمال وسار على طريق واترلو المؤدي الى بروكسل . عندئذ قرر فيلوروا الاسراع في العودة لنجدة المدينة . ولما اراد الفرنسيون الحركة غيَّر مارلبورو اتجاهه نحو الشرق ليلا وظهر على خط جبهة العدو الجديدة ، وكانت هذه الجبهة قليلة القوة ، ولكنها أصلب من جناح عدو سائر في ظروف المفاجأة العادية اثناء الحركة . وكان وصوله مبكرا فلم يستطع الاستفادة من الميزات التي حصل عليها ، ووجد القادة الهولنديون المترددون عذرا كافيا لرفض الانقضاض المباشر الذي طلبه منهم مارلبورو متعللين بأن موضع الفرنسيين الجديد خلف نهر ليش قوي رغم الفوضى التي تدب في صفوفهم ، واقوى من موضعهم السابق في بلنهايم .

وخلال معركة عام ١٧٠٦ وضع مارلبورو فكرة هجوم غير مباشر على مستوى اكبر ، واقترح اجتياز الالب وملاقاة الامير اوجين بعد ذلك . وكان يأمل بذلك طرد العدو من ايطاليا وايجاد السبيل لغزو فرنسا وتأمين التوافق بين هجومه عن طريق البر والعمليات البرمائية ضد طولون وعمليات بيتربورو في اسبانيا . وأخيرا تخلى الهولنديون عن حذرهم وسمحوا له بالزحف . ولكن مخططه فشل عندما هزم كونت باد امام فيلار . وتقدم فيلوروا في الفلاندر . وكان الدافع الى هذه المناورة الفرنسية الخطرة هو اعتقاد الملك لويس الرابع عشر بأن هجوما عاما يمكن ان يقنع اعداءه بأنه قوي مما يسمح له بانتزاع الصلح الذي يحتاج اليه ولكن بشروط ملائمة لفرنسا. ولكن الهجوم على ميدان العمليات الذي يعمل به مارلبورو لم يؤد الى الصلح ، وانما أدى الى فتح طريق الفشل امام الفرنسيين بسبب ابتعادهم عن الهدف المنشود . واستفاد مارلبورو من الفرصة دون تردد ، لانه كان يعتقد بأن هذه هي المرة الثانية التي يحبط فيها الفرنسيون مخططاته بتحصنهم خلف الخطوط المجهزة دفاعيا رغم وجود عنصر المباداة في يدهم . وتم الالتقاء في رامبي والفرنسيون متمركزون في مواقعهم على شكل قوس مقعر . واستفاد مارلبورو من وجوده على وتر القوس وقام بهجوم غير مباشر تكتيكي ، اذ هاجم ميسرة الفرنسيين مما اجبرهم على استدعاء الاحتياطي الى هذا الجناح ، ثم سحب قواته بحذق ووجهها الى ميمنة الخصم للاستفادة من الفرصة السانحة على هذا الجناح بفضل ثغرة فتحتها الخيالة الدانيماركية . ولقد توافق هذا التهديد على المؤخرة مع الضغط الجبهي المتزايد مما ادى الى تفكك صفوف الفرنسيين ، واستغل مارلبورو هذا النصر فنظم مطاردة فعالة غدت بعدها جميع بلاد الفلاندر وخطوط برابان في يده .

في نفس العام انتهت الحرب في ايطاليا بعد عملية تقرب غير مباشر استراتيجي . كان الامير اوجين قد انسحب في بداية المعركة نحو الشرق حتى بحيرة غارد وتوغل في الجبال بينما كان حليفه دوق سافوا محاصرا في تورينو .

ولم يحاول الامير فتح طريقه بالقوة بل لجأ الى الخدعة عندما دخل مقاطعة بيمون واجتاز لومبارديا عازلا نفسه عن قواعده . ثم هزم العدو المتفوق عدديا امام تورينو عندما وجده في وضع غير متوازن .

وبدات الحرب بعد ذلك على حدود فرنسا في الشمال والجنوب . وفي عام ١٧٠٧ اعطى تناقض مخططات الحلفاء الوقت الكافي للفرنسيين ليلتقطوا انفاسهم، وفي السنة التالية ركزوا ثقل قوتهم على مارلبورو . ولكن مارلبورو كان مرتبطا بدفاع الفلاندر ويشكو من عدم تفوقه العددي فقرر تلافي هذا النقص بتكرار مناورة الدانوب ، على ان ينطلق الامير أوجين من الرين ليلحق به . وكانت القيادة الفرنسية حينئذ بيد قائد مشهور اسمه فاندوم (٩) الذي تحرك قبل أن يتم اللقاء المتوقع بين الامير أوجين ومارلبورو . واجبر هذا التهديد المباشر مارلبورو على الانسحاب الى لوفان ، وربح فاندوم القسم الاول من المعركة عندما غيّر اتجاهه فجأة نحو الغرب ، واحتل بذلك مدينتي غان وبروغ وكل اراضي الفلاندر غرب نهر ايسكو دون خسائر كبيرة . ولم يشتبك مارلبورو مع فاندوم مباشرة ، بل تركه وسار بجرأة نحو الجنوب الغربي ليضع نفسه بين جيش العدو وحدوده . وفي أودونارد تم استغلال ميزة هذا العزل الاستراتيجي باختراق تكتيكي .

ولو استطاع مارلبورو بعد ذلك العمل كما يريد والتقدم بسرعة نحو باريس لانتهت الحرب حتما في وقت مبكر . ولكن الملك لويس الرابع عشر كفاه مؤونة مثل هذا العمل وعرض الصلح في الشتاء بشروط ملائمة للحلفاء . ولكن الحلفاء رفضوا هذا العرض الذي يضمن لهم نصرا محدودا وهم يريدون نصرا كاملا ، وهذه غلطة وحماقة في حقل الاستراتيجية العليا ، ولم يكن مارلبورو ليرتكب هذا الخطأ وهو المعروف بمهارته في الاختيار بين السلم والحرب . وهكذا استؤنفت الحرب في عام ١٧٠٩ بشكل اعنف ، وكان مخطط مارلبورو مبنيا على القيام بهجوم غير مباشر عسكري بغية الوصول الى هدف سياسي يؤثر على نتيجة الصراع . وكان يبغي التسرب خلف الجيوش المعادية وتثبيت الحصون والتوجه الى باريس . وبدت هذه الخطة جريئة جدا حتى بالنسبة للامير أوجين ، مما ادى الى تعديلها وتنظيمها من جديد في مخطط يتحاشى كل انقضاض مباشر على الخطوط المحصنة التي تغطي الحدود بين دوي وبيتون ، ولكنه يهدف الى الاستيلاء على المحصنتين الواقعتين على المدينتين مجنبة هذا الخط (تورنيه ومونس) لاستخدامهما كقاعدة في المستقبل لغزو فرنسا من طريق يمر شرقي المنطقة المحصنة .

---

٩ ـ فاندوم : لويس جوزيف ، من احسن القادة العسكريين في نهاية عهد لويس الرابع عشر (١٦٥٤ ـ ١٧١٢) . حقق انتصارات كثيرة في معارك عديدة . «المعرب»

وتوصل مارلبورو مرة اخرى الى خداع خصومه عندما تظاهر بتحضير هجوم مباشر على خطوطهم ، الامر الذي دفعهم الى سحب قوات من حامية تورنيه لتقوية هذه الخطوط . عندئذ عاد مارلبورو وهاجم المدينة ، ولكن المدينة قاومت بعناد ، فاضاع الانكليز بذلك شهرا من الزمن وفي ذلك الوقت قام بتهديد جديد على خطوط باسي مما سمح له بمهاجمة مونس واحتلالها دون عناء كبير . ولكن الفرنسيين قاموا بمناورة سريعة ليسدوا عليه طريق الجنوب وحرموه بذلك من توسيع مخططه الاول . ودفعه هذا الفشل الى محاولة القيام بهجوم مباشر فأظهر آنذاك مهارة محدودة في حساب النتائج الممكنة بالنسبة للوضع العام ، وكان مارلبورو حينئذ اقل حكمة من كرومويل قبل معركة دونبار . ورغم انتصاره في الهجوم على عدو يدافع بشدة عن موقع مجهز في ثغرة مالبلاكيه ، فقد كان ثمن هذا النصر غير متناسب مع نتائجه . واستطاع فيلار المغلوب ان يكتب للملك لويس الرابع عشر : «اذا منّ علينا الرب بفشل آخر كهذا استطعنا ابادة اعداء جلالتكم» . هذا تنبؤ صحيح لان النصر في هذه المعركة افقد الحلفاء كل امل في كسب الحرب .

واستمرت العمليات الحربية في عام ١٧١٠ ووجد مارلبورو نفسه امام سد كبير من التحصينات الممتازة التي جهزها الفرنسيون من فالانسين حتى البحر . وكان خصوم مارلبورو السياسيين في انكلترة يعملون ضده للاطاحة بمركزه، وبدأ الحظ يتخلى عن هذا القائد الذي اضاع الفرصة في الماضي . وفي عام ١٧١١ استدعي جيش الامير أوجين من المعركة بسبب تطور الوضع السياسي وبقي مارلبورو وحده امام عدو يتفوق عليه كثيرا . وكان عاجزا عن الانتصار في عملية حاسمة او حتى محاولة القيام بها . ولكنه كان قادرا رغم ذلك على تحطيم غرور الفرنسيين باحتلال خطهم الشهير . ولقد توصل الى ذلك بهجوم غير مباشر يفوق كل اعماله السابقة ، ونفذ مجموعة حيل وخدع والتفافات للدخول في قلب الخطوط دون اطلاق رصاصة واحدة . ولكنه دعي بعد شهرين الى انكلترة واسيئت معاملته . وفي عام ١٧١٢ اصبحت انكلترة متعبة من الحرب فتركت حلفاءها يقاتلون دون ان تتدخل الى جانبهم .

منذ ذلك الوقت اصبح النمساويون والهولنديون تحت قيادة الامير أوجين فتمسكوا بمواقعهم فترة من الزمن ، وشعر الخصمان المتحاربان بالتعب . وفي عام ١٧١٢ قام فيلار بمناورة مركبة تشبه أعمال مارلبورو لما تحتويه من براعة وسرية وسرعة في التنفيذ . وكانت نتيجتها نصرا حاسما قليل التكاليف في دونان ادى الى تفتيت أواصر الحلف . واستطاع لويس الرابع عشر الحصول على الصلح بشروط تختلف عن الشروط المحتملة قبل مالبلاكيه . ولقد ادى هجوم مباشر واحد الى اضاعة المكاسب التي حصل عليها الحلفاء بسلسلة من عمليات الهجوم غير المباشر . ثم انتهت الاحداث بعد ذلك بهجوم آخر غير مباشر ولكن لصالح الفرنسيين في هذه المرة .

ولم يستطع الحلفاء في النهاية الوصول الى هدفهم بمنع تحالف اسبانيا

وفرنسا تحت تاج لويس الرابع عشر . ولكن الانكليز ربحوا بعض الاراضي بفضل افكار مارلبورو التي حطمت الحدود الضيقة لحقل العمليات ، وخلقت مخططا يجمع عمليات واسعة في البحر الابيض المتوسط ، متوافقة زمنيا مع العمليات في الفلاندر ، الامر الذي يمكن اعتباره مناورة مشاغلة عسكرية وورقة سياسية رابحة . لقد سهلت حملات ١٧٠٢ و١٧٠٣ عملية عزل البرتغال وسافوا عن فرنسا وفتحت السبيل لعملية ضد اسبانيا اهم حليف للفرنسيين . وأمنت مناورة عام ١٧٠٤ احتلال جبل طارق ثم بيتربورو مما ترتب عليه تشتيت قوى وانتباه العدو . وفي عام ١٧٠٨ احتلت حملة اخرى جزيرة مينورقة في جزر الباليار . ثم جاءت بعد ذلك معارك ضعيفة القيادة قليلة النجاح ولكن انكلترة خرجت من الصراع رغم ذلك سيدة على جبل طارق وجزيرة مينورقة وهما مفتاحان هامان للسيطرة على البحر الابيض المتوسط ، ويعادلان في اهميتهما اسكوتلاندة الجديدة والارض الجديدة في المحيط الاطلسي الشمالي .

حروب فريدريك الثاني (١٠) :

لا يمكن تصوير نتائج حرب وراثة العرش النمساوي (١٧٤٠ ــ ١٧٤٨) غير الحاسمة تصويرا جيدا الا اذا تذكرنا ان فرنسا التي حصلت فيها على اكبر نصر عسكري لم تكسب منها شيئا ، اللهم الا عبارة ساخرة كان الفرنسيون يتندرون بها فيما بينهم وهي «انكم اغبياء مثل معاهدة الصلح» .

وقد استطاع فريدريك الكبير الحصول على فوائد من هذا الصراع اذ ربح سيليزيا منذ البداية ثم انسحب من الحرب . ثم عاد اليها فيما بعد وغامر كثيرا دون ان يربح شيئا جديدا سوى بعض الانتصارات العسكرية البحتة . وكان من نتيجة هذه الحرب ظهور بروسيا كقوة كبيرة .

وتستحق الحوادث التي ادت الى حصول بروسيا على سيليزيا خلال صلح بريسلو في عام ١٧٤٢ شيئا من الفحص والتحليل . كان حظ فريدريك في مطلع ذلك العام سيئا ، وكان من المقرر تقدم الفرنسيين والبروسيين ضد الجيش النمساوي . ولكن الفرنسيين توقفوا بعد قليل ، ولم يتابع فريدريك التقدم للالتقاء مع حلفائه بل دار بسرعة الى الجنوب في اتجاه فيينا . ووصلت طلائعه الى مشارف المدينة ولكنه انسحب عندما عرف ان الجيش النمساوي

---

١٠ ــ فريدريك الثاني الكبير : ملك بروسيا (١٧١٢ ــ ١٧٨٦) تولى العرش في عام ١٧٤٠ . كان رجلا عسكريا واداريا ناجحا . حصل على انتصارات كبيرة وصمد مع انكلترة في حرب السبع سنوات . نظم دولته بشكل جيد وجمع حوله عددا من الادباء والمثقفين . «المعرب»

يستعد لعزاله عن قواعده . ولقد اعتبر البعض حركة فريدريك هذه مظاهرة فيها غرور وتهور ، ويبدو هذا النقد الان خاطئا اذا حكمنا على هذه الحركة بناء على تأثيراتها على نتائج المعركة . ولقد جذب انسحابه السريع النمساويين في قلب سيليزيا ، ثم استدار نحوهم وهزمهم هزيمة منكرة ، اتبعها بمطاردة عنيفة لدرجة اجبرت النمسا بعد ٣ اسابيع على عقد صلح منفصل معه والتخلي له عن سيليزيا .

ان من التسرع استنباط كثير من الاستنتاجات لهذا الحادث . ولكن من الواضح انه الهجوم غير المباشر الوحيد الذي اثر على هذه الحرب ووضع النمسا في ظروف تجبرها على قبول الصلح مع تضحية كبيرة . رغم ان هذا الهجوم غير المباشر لم يكن في الحقيقة سوى مظاهرة امام فيينا ونجاح تكتيكي أصغر من معظم اعمال فريدريك الاخرى ، ولم يتم الحصول عليه الا بكل صعوبة .

وهكذا بقيت حرب العرش النمساوي غير حاسمة في نتائجها العامة ، كما لم تكن الحرب الكبيرة التي تلتها في منتصف القرن الثامن عشر أوفر منها حظا وتأثيرا على السياسة الاوروبية . ولكن انكلترا انهت الحرب بنتائج ذات تأثير حاسم على مسير التاريخ الاوروبي ، ولم تكن المحرك الخفي لحرب السبع سنوات (١٧٥٦ ــ ١٧٦٣) فحسب ، بل اشتركت فيها وحصلت من جرائها على فوائد جمة بصورة غير مباشرة .

عندما كانت جيوش دول القارة الاوروبية تتصارع وتنهك بعضها بعضا بعمليات مباشرة تؤثر على الدول نفسها ، استفادت مفارز انكليزية صغيرة من الضعف العام وأنشأت الامبراطورية البريطانية . وعلاوة على ذلك ، فان حصول بروسيا المنهكة تماما على صلح بشروط مناسبة يعود الى ان قوات الهجوم الفرنسية كانت محطمة بسبب خسائرها في المستعمرات ، كما يعود الى وفاة قيصرة روسيا في الوقت الذي كان الروس يستعدون فيه لضرب بروسيا ضربة قاضية .

وتبرز من خلال هذه السلسلة الطويلة من المعارك معركة حاسمة واحدة ذات نتائج عسكرية وسياسية هامة ، وهي المعركة التي احتل الانكليز فيها مدينة كيبيك في كندا بخطة بسيطة وعلى حقل عمليات ثانوي . ويرجع الفضل في سقوط كيبيك وانتهاء السيطرة الفرنسية في كندا الى مجموعة من عمليات التقرب غير المباشر التي نفذت بفضل السيطرة البحرية على مستوى الاستراتيجية العليا . كما امن التقرب غير المباشر على المستوى الاستراتيجي تطور المعركة عسكريا بشكل ملائم . ولنجاح هذه المغامرة اهمية خاصة لانه ناجم عن هجوم غير مباشر تم تطبيقه بعد فشل التقرب المباشر من خط مون مورانس وتكبده خسائر فادحة في الرجال علاوة على تأثيره المعنوي السيء . هذا مع العلم بأن القائد الانكليزي وولف (١١) لم يلجأ الى ذلك الهجوم المباشر الفاشل الا بعد عمليات

---

١١ ــ وولف : جيمس ، قائد انكليزي (١٧٢٧ ــ ١٧٥٩) قتل في معركة كيبك . «المعرب»

وتحرشات سابقة مثل قصف كيبيك بالقنابل ، وارسال مفارز منعزلة الى بوانت ليفي وعلى مقربة من مون مورانس ، دون ان تؤدي هذه التحرشات الى جذب الفرنسيين خارج مواقعهم المحصنة .

يمكن استنباط درس هام من هذا الفشل اذا قارناه بالنجاح الذي توج العملية الخطرة التي انزل فيها وولف قواته عند مؤخرة الفرنسيين . لقد كان وضع الطعم بعد معركة كيبيك امرا غير كاف لاخراج العدو من تحصيناته ، وكان من الضروري جذبه بعنف لاخراجه منها . كما يمكن الاستفادة من درس آخر يقدمه لنا فشل محاولة خدع العدو خلال هجومه المباشر ، لانها لم تكن مقرونة بعملية مشاغلة ولفت نظر تشغل أفكار العدو بعمل آخر ، وتحد من حرية عمله بحيث يتعذر عليه القيام برد فعل ملائم ما دامت قواته في وضع مبعثر .

تبدو آخر مناورات وولف من النظرة الاولى كمغامرة يائسة نهائية ، غير انها كانت في الحقيقة تستند الى كل العوامل التي ذكرت من قبل ومن هنا جاء النصر . ومع ذلك يرى المؤرخون الذين اعتادوا دراسة التاريخ من خلال موقف القوات المسلحة ان درجة تفتت الجيش الفرنسي لم تكن كافية لتفسر وحدها سبب كارثتهم الكبيرة . وكتب الكثيرون مقالات متعددة عما كان يجب على الفرنسيين عمله ليعيدوا تنظيم مواقعهم ، متناسين بكل بساطة حقيقة واضحة أكدتها معركة كيبيك ، وهي : ان الهزيمة كانت نتيجة انهيار القيادة معنويا اكثر مما كانت نتيجة تفتت قواتها ماديا . ومن المعروف ان لهذه العوامل المعنوية تأثير يعوق تأثير الاعتبارات الجغرافية والحسابات الاحصائية التي تملأ تسعة اعشار كتب التاريخ العسكري التقليدية .

ويقول التاريخ ان الدرس الاساسي في حرب السبع سنوات ظل غير واضح النتائج في اوروبا رغم كثير من الانتصارات التكتيكية وهذا امر يستحق الدراسة. ويتحدث الكثيرون عند شرح هذه الظاهرة عن عدد اعداء فريدريك ، ولكن ميزاته الشخصية كانت كافية لموازنة ضغط عدد هؤلاء الاعداء . لذلك يجب علينا ان نجد تفسيرا آخر اكثر اقناعا .

كان فريدريك يجهل معنى فكرة مشاركة المسؤولية ، كما يجهل الحدود المفروضة على الاستراتيجيين . وموقفه هذا يشبه موقف الاسكندر المقدوني ونابليون . لقد كان يجمع في شخصه كل الوظائف والسلطات التي توزع عادة بين المسؤولين عن الاستراتيجية والاستراتيجية العليا . وأتاح له اشتراكه الدائم مع جيشه الفرصة لينظم ويعدل باستمرار وسائطه حسب الاهداف والغايات المنشودة . كما كانت قلة الحصون نسبيا في حقل عملياته ميزة اضافية عادت عليه ببعض الفوائد .

لقد كانت انكلترة حليفه الوحيد بينما كانت النمسا وفرنسا وروسيا والسويد وبلاد الساكسون متحالفة ضده . وكان يتمتع بتفوق عددي فيما يتعلق بالقوات الجاهزة للمعركة منذ بداية الصراع وحتى منتصف المعركة الثانية . كما كان

يتمتع بميزتين هما : جيش متفوق تكتيكيا على جيش خصمه ، وموقع وسط بين مختلف الاعداء .

ولقد سمحت له هذه الميزات بتطبيق العمليات الحربية على الخطوط الداخلية ، فكان يضرب الجيوش المعادية واحدا بعد الآخر ، مستفيداً من وجود هذه الجيوش على محيط دائرة يشغل هو مركزها ، ومن قصر المسافة التي ينبغي عليه اجتيازها ليجمع كل قواته ضد احد الخصوم وضربه قبل ان يستطيع حلفاؤه البعيدون مساعدته .

ويبدو من النظرة الاولى انه كلما كانت جيوش حلف ما متباعدة عن بعضها كلما أمكن الانتصار عليها بشكل حاسم . فاذا ما حللنا وجهة النظر هذه الى عناصر (الزمن والمسافة والقوى وجدناها تنطوي على فكرة صحيحة . ولكن اذا أدخلنا في حسابنا العامل المعنوي الهام وجدنا نتائج اخرى مخالفة ، ذلك لان تباعد قوى العدو المتحالفة بمسافات كبيرة يجعل كل عنصر منها يشكل بنفسه وحدة متكاملة ويحاول تقوية وحداته وزيادة فاعليتها لصد الضغط الواقع عليه . اما اذا كانت العناصر متقاربة فانها تحس برغبة في الالتصاق لتشكل جسما واحدا يندمج كل عنصر فيه في العنصر الآخر فكريا ونفسيا وماديا . فيتأثر القادة بأفكار بعضهم بعضا وتنتقل التأثيرات المعنوية بسرعة الى كل منهم كما تؤثر التحركات على الصعيد المادي على حركات الآخرين فتعرقلها وتقلل من سهولة اجرائها . واذا تمتع خصم هؤلاء المتحالفين المشترك بحقل عمل أصغر وكان في حاجة لوقت أقل للقيام بأعماله فان نتائج تحطيمه لاحد الحلفاء المعادين تظهر بسرعة على باقي هؤلاء الحلفاء . يضاف الى ذلك انه اذا كانت جيوش الحلفاء قريبة من بعضها واتجه العدو نحو احدها ثم غيّر فجأة اتجاه تقدمه الاساسي واشتبك مع جيش آخر كان هجومه الاخير هذا هجوما غير مباشر . اما الجيوش المتباعدة جدا فانها تملك الوقت الكافي لصد او تحاشي الضربة التالية لعدو مشترك يقع في موضع وسط بينها .

يمكن اعتبار استخدام «الخطوط الداخلية» كما فعل مارلبورو عند تقدمه نحو الدانوب نوعا من أنواع الهجوم غير المباشر . انه في الحقيقة هجوم غير مباشر بالنسبة لقوى العدو في مجموعها ، ولكنه هجوم مباشر بالنسبة للجيش الذي تم اختياره كهدف في تلك اللحظة ، هذا باستثناء الحالة التي يتم فيها الاشتباك مع هذا الجيش فجأة فعندئذ يجب تكملة المناورة بهجوم غير مباشر آخر على الهدف نفسه .

وهكذا استفاد فريدريك الثاني من موقعه المتوسط ليجمع قواته ضد جزء من جيوش العدو ، ويطبق دائما تكتيك الهجوم غير المباشر مما ساعده على تحقيق انتصاراته الكبيرة . وكان تقربه التكتيكي في جوهره جغرافياً لا معنويا ، يتصف بالمفاجآت البارعة التي كان يحبها سيبيون . لذلك نفذت المناورات البروسية بمهارة ولكن على نطاق صغير ، وكانت صدمتها الاولى قوية ولكن بدون مفاجأة ، غير انها كانت تؤثر على الخصم فتجعله غير قادر على مقاومة الصدمة التالية بسبب

شلل قيادته وعدم مرونة تشكيلاته القتالية .

بدأت الحرب في نهاية اغسطس (آب) عام ١٧٥٦ عندما اجتاح فريدريك بلاد الساكسون بغية احباط مخطط الحلفاء ، واستغل التأثيرات الاولى للمفاجأة ودخل دريسدن بدون قتال تقريبا . وعندما تحرك الجيش النمساوي متأخرا لنجدة المدينة سار فريدريك مع نهر الالب لملاقاته ، وهزمه في معركة اوبوزيتس فضمن بذلك سيطرته على اقليم ساكس . وفي ابريل (نيسان) عام ١٧٥٧ اجتاز قمم جبال بوهيميا وسار نحو براغ ، فوجد عند اقترابه من المدينة النمساويين يحتلون موقعا قويا على المرتفعات خلف النهر . فترك مفرزة تغطي حركته وتحمي المخاضات وسار مع النهر خلال الليل ثم اجتازه واتجه نحو ميمنة العدو . لقد بدأ هجومه بشكل غير مباشر ثم حوّله الى هجوم مباشر قبل انتهاء المناورة . لذا وجد الجيش النمساوي الوقت الكافي لتعديل خط جبهته ، ووجدت المشاة البروسية نفسها امام عدو ينتظرها بكل عناد ، فقامت بهجوم جبهي على مرتفع يضربه النمساويون بنيرانهم فسقط البروسيون بالآلاف . ثم مالت كفة المعركة لصالح البروسيين من جديد بعد تدخل خيالة زيتين غير المنتظرة ، والتي وصلت الى ميدان المعركة بعد حركة التفاف كبيرة . واضطر النمساويون الى الانسحاب والتحصن في براغ التي حاصرها البروسيون ولم ينقذها سوى قدوم جيش نمساوي جديد لنجدتها بقيادة دون . ولما علم فريدريك بالنبأ سحب من القوات المحاصرة اكبر عدد ممكن وسار لملاقاة دون . وفي ١٨ يونيو (حزيران) قابل الجيش النمساوي في بقعة محصنة تدافع عنها حامية تعادل ضعف قوته، فحاول القيام بالتفاف آخر على ميمنة العدو ، ولكن مناورته جرت على مقربة من الخط النمساوي مما ادى الى ضرب الارتال البروسية بنيران رماة هذا الخط، فاضطرت الى الابتعاد عن خط سيرها الاصلي والقيام بهجوم مباشر غير منتظم أوقعها في كارثة مؤلمة ، مما اضطر فريدريك الى رفع الحصار عن براغ والجلاء عن بوهيميا.

في هذا الوقت اجتاح الروس بروسيا الشرقية ، ودخل احد الجيوش الفرنسية هانوفر ، كما تقدم جيش مختلط بقيادة هيلدبورغ هاوزن وهدد برلين من جهة الشرق . واراد فريدريك منع الجيشين الاولين من الالتقاء فتحرك بسرعة نحو ليبزيغ وأبعد هذا الخطر . ولكنه اضطر للتوجه بعد ذلك نحو الشرق لصد خطر جديد يهدد سيليزيا ، فاستغلت مفرزة نمساوية هذه الفرصة وانقضت على برلين فدخلتها ونهبت المدينة . وبعد ان تم طرد هذه المفرزة بصعوبة تحرك هيلدبورغ هاوزن فسار فريدريك بسرعة لملاقاته .

وفي معركة روزباخ التي اعقبت ذلك حاولت الجيوش المتحالفة التي تعادل ضعف جيش فريدريك القيام بمناورة كمناورة البروسيين . ولكن التنفيذ كان سيئا فكشفها فريدريك بسرعة وبدأ في التراجع واحس الحلفاء بتراجعه فتركوا مواضعهم وهبوا لمطاردته . عندئذ عاد فريدريك وقام بهجوم مضاد على أبعد اجنحتهم عن القلب فهزمهم وبعثرهم دون كبير عناء .

وهكذا نجح فريدريك في القيام بهجوم غير مباشر صحيح بفضل حماقة خصومه ، مستخدما عامل المفاجأة دون ان يستخدم عامل الحركة . وتعتبر معركة روزباخ أقل انتصاراته ثمنا اذ خسر فيها ٥٠٠ قتيل بينما فقد اعداؤه نحو ٧٧٠٠ رجل وتفتت جيشهم المؤلف من ٦٤ الف رجل .

ولكن سوء حظه دفعه الى ان يطلب من قواته ما هو اكثر من طاقتها في المعارك التالية ليستثمر انتصاره ويستخلص منه فائدة كاملة . لقد كان عليه الا ينسى الجيش النمساوي الذي لم يستطع تدميره نهائيا في براغ وكولان . وجاءت بعد ذلك معركة لوتين التي ربحها بفضل «النظام المائل» المشهور الذي يمكن اعتباره هجوما غير مباشر ممتازا وان كان ينطوي على الخطورة ، ولقد كلفه هذا النصر اكثر مما تسمح به امكانياته .

واستمرت الحرب خلال عام ١٧٥٨ ، وكانت نتائجها غير حاسمة ، وقام فريدريك خلالها بهجوم غير مباشر ضد النمساويين عندما اجتاز حدودهم واتجه الى مجنبتهم متوغلا ٢٠ ميلا في ارض معادية ، ولم ينسحب عندما فقد قافلة تموين كبيرة بل تابع تقدمه عبر بوهيميا مهددا بذلك مؤخرة النمساويين . ثم احتل قاعدتهم المحصنة في كونيغراتس . ولكنه اضطر ثانية لدفع ثمن الفرص الضائعة في براغ وكولان عندما تقدمت الجحافل الروسية الكبيرة نحو بوزن «حاليا بوزنان» على طريق برلين واضطرته الى ايقاف معركة بوهيميا . واتجه فريدريك نحو الشمال لوقف الزحف الروسي ونجح في مهمته ، ولكن معركته كانت مشابهة لمعركة براغ ، لقد استدار فريدريك فيها حول الحاجز الذي تشكله المواقع الروسية القوية بغية مهاجمتها من الخلف ، ولكن المدافعين استطاعوا اجراء تبديل في جبهتهم وتحول هجوم فريدريك غير المباشر الى هجوم جبهي ، وكاد فريدريك ان يقع في موقف حرج لولا تدخل قائد خيالته الماهر سيدليتس وقيامه بالتفاف وهجوم على مجنبة العدو الجديدة في ارض غير صالحة لاستخدام الخيالة . الامر الذي جعل المناورة غير متوقعة وذات تأثير كتأثير الهجوم غير المباشر . وكانت خسائر فريدريك في هذه المعركة اقل من خسائر الروس . ولكنها كبيرة بالنسبة لتعداد قواته .

وكان رصيد فريدريك من الرجال يتناقص باستمرار مما اضطره لترك الروس يلتقطون انفاسهم وتحوّل ضد النمساويين . ولكنه تلقى هزيمة كبدته خسائر كبيرة في الرجال ، لاعتقاده الخاطىء بأن خصمه النمساوي القديم غير قادر على اخذ زمام المبادرة في العمليات مما سبب مفاجأته وتطويقه ليلا ولم ينقذه من الابادة سوى خيالة زيتين التي فتحت له طريق الانسحاب . واستمرت الحرب في عام ١٧٥٩ وغدت قوات فريدريك ضعيفة جدا ، فهزمه الروس اسوأ هزيمة مُني بها في حياته كما هزمه القائد دون النمساوي هزيمة اخرى في ماكسن بسبب ثقته المفرطة . ومنذ ذلك الوقت اصبح فريدريك عاجزا عن ايقاف العدو الا بالطرق السلبية .

ولما أفل نجم بروسيا اشرقت شمس حلفائها الانكليز في كندا . وشجع نجاح

وولف الانكليز على ارسال نجدات سريعة لالمانيا ، وتم الانتصار على الفرنسيين في ميندن مما عدل خسائر فريدريك السابقة .

ولكن ضعف فريدريك استمر خلال عام ١٧٦٠ ، وقام بخدعة ليكسب بعض الوقت ويستريح مؤقتا من الضغط الموجه اليه من الشرق . وتتلخص هذه الخدعة بأنه أوقع متعمدا في يد الروس رسالة تتضمن ما يلي : «تم سحق النمساويين الكامل هذا اليوم وجاء الان دور الروس . نفذوا ما اتفقنا عليه» .

وصدق الروس هذه الخدعة فقاموا بعمليات انسحاب . وقام فريدريك عندئذ بمعركة ضد النمساويين في تورغو وانتصر عليهم انتصارا كلفه ثمنا غاليا . وشلته كثرة خسائره ووجود ٦٠ الف رجل فقط معه ، ولم يعد قادرا على المغامرة بدخول معركة جديدة ، حتى انه حوصر في سيليزيا وعزل عن بروسيا عزلا تاما . ولحسن حظه كانت استراتيجية النمساويين تضعف باستمرار ، ولم يقم الجيش الروسي بعمل حاسم بسبب الفوضى التي عمت مؤخراته وتموينه . وطالت مدة الصراع وماتت خلال ذلك قيصرة روسيا ، وجاء بعدها من يوقع الصلح ويفكر حتى في مساعدة فريدريك . وتابعت فرنسا والنمسا الحرب دون حماس كبير ، اذ كانت قوة الاولى منهكة بسبب هزائمها في المستعمرات . وكانت الثانية سلبية في بادىء الامر ثم عقدت معاهدة الصلح ، تاركة جميع المنطقة التي كانت حقلا للعمليات العسكرية في حالة انهيار اقتصادي تام . ولم يستفد من هذه الحرب الدامية التي استمرت ٧ سنوات سوى انكلترة .

يمكننا أن نستخلص من معارك فريدريك دروسا كثيرة اهمها ان : طريقته غير المباشرة كانت مباشرة جدا . اي انه كان يعتبر الهجوم غير المباشر مناورة بسيطة مبنية على الحركة فقط ، بدلا من ان يراها توافقا بين الحركة والمفاجأة . وهذا ما جعله يفشل فشلا ذريعا رغم موهبته الفذة في تطبيق مبدأ الاقتصاد في استخدام القوى .

الفصل الثامن

الثورة الفرنسية ونابليون بونابرت

بعد مرور ثلاثين عاما ارتفع الستار عن حرب كبرى تألقت فيها عبقرية نابليون بونابرت وعادت فرنسا لتشكل ، كما كانت في الماضي ، خطرا يدفع كل القوى الاوربية للتحالف ضدها . وكان سير الصراع هنا مختلفا لاعتماد فرنسا الثورية على كثير من المؤيدين في البلاد الاخرى . الا ان هؤلاء المؤيدين كانوا خارج الحكم وليس لهم نفوذ على القوات المسلحة لهذه الدول . ورغم ذلك بدات فرنسا الحرب بمفردها واستطاعت صد كل القوى المتحالفة التي كانت تطبق على خناقها، واصبحت بعد التغيرات الثورية التي طرات عليها خطرا عسكريا كبيرا هدد أوربا حقبة من الزمن . واستطاعت فرنسا في النهاية فرض سيطرتها العسكرية على معظم دول القارة .

وكان السبب الجوهري في حصول فرنسا على كل هذه القوة يرجع الى مجموعة من الظروف الملائمة والعوامل الانسانية الفردية والى الروح الثورية التي انبثقت في الجيش الفرنسي «جيش المواطنين» . وكان من الضروري تطوير الفكر التكتيكي وتشجيع البداهة الفردية ، للتعويض عن النظام العسكري الدقيق

الذي كان من المستحيل تطبيقه في ظل الروح الثورية الجديدة . وظهرت تكتيكات جديدة مبنية على المرونة في الحركة . وكانت هذه المرونة تقوم على اساس بسيط هو ان الفرنسيين كانوا في ذلك الوقت يسيرون ويقاتلون بخطوة سريعة تعادل ١٢٠ خطوة في الدقيقة . بينما كان اعداؤهم يسيرون بالطريقة التقليدية بسرعة ٧٠ خطوة فقط .

وترتب على هذا الاختلاف الاساسي ان اصبح الفرنسيون قادرين على اجراء عمليات نقل سريعة للقوات من مكان الى آخر قبل ظهور عصر الآلة ووسائل النقل الآلية السريعة ، كما أدى الى تسهيل عمليات تجميع الوحدات للقيام بهجوم واصبح الفرنسيون قادرين كما قال نابليون على «زيادة عددهم بواسطة السرعة» وذلك على الصعيدين ، الاستراتيجي والتكتيكي .

والعامل الملائم الآخر هو تنظيم الجيش الى فرق مستقلة دائمة ، وتقسيمه الى وحدات تتألف كل منها من مجموعة كاملة قادرة على العمل مستقلة عن بعضها وجاهزة للعمل ايضا بكل تعاون ضد هدف مشترك . وكان بورسيه هو اول من نصح باجراء هذه التعديلات في التشكيلات العضوية ، ثم تطبيقها عمليا بصورة محدودة في عام ١٧٤٠ ، ووافق المارشال دوبروغلي عليها رسميا عندما اصبح قائدا عاما في سنة ١٧٥٩ . ثم جاء المفكر العسكري الجريء جيبير وادخلها في قائمة التدابير المتخذة لاعادة تشكيل الجيش قبيل الثورة في عام ١٧٨٧ .

والعامل الثالث له علاقة بالعامل السابق وهو خاص بموضوع التموين . ونظرا الى ان جهاز التموين والامداد كان مضطربا وكانت جيوش الثورة لا تتبع النظام العسكري فقد كان مما لا مناص منه العودة الى طرق التموين القديمة والعيش محليا على موارد البلد . ولقد ادى توزيع الجيش الى فرق الى الاقلال من النتائج السيئة لهذه الطريقة التي كان الجيش في العهود السابقة يعاني منها . ذلك لانه كان على وحدات الجيش فيما مضى التجمع للقيام بعملية ما ، اما الان فقد اصبحت قادرة على تنفيذ مهمة معينة ضمن نطاق عملية عامة مع استمرار توفير مؤونتها بوسائطها الخاصة .

وأدى هذا التخفيف في الاعباء الى مرونة وسرعة الوحدات حيث تتقدم بدون صعوبة في الغابات او الجبال ، كما ادى عدم اعتماد الجنود على المخازن وقوافل التموين والعتاد الى اعطائهم النشاط والاندفاع اللذين يتميز بها الرجال الجائعون الذين لا يترددون عن مهاجمة مؤخرة العدو الذي يتبع الطرق المباشرة في التموين ويعتمد عليها اعتمادا كبيرا .

وبالاضافة الى هذه العوامل الثلاثة ينبغي ان نذكر عاملا انسانيا : وهو عامل خاص كان له تأثير حاسم ، الا وهو ظهور القائد نابليون بونابرت الذي زادت عبقريته الحربية الطبيعية ونمت بدراسة التاريخ العسكري وتفهم افكار بورسيه وجيبير وهما اعظم الكتاب العسكريين شهرة ونبوغا في القرن الثامن عشر .

لقد اخذ من بورسيه مبدأ التشتيت المدروس ، اي دفع العدو الى تشتيت قواته المركزة بغية توجيه ضربة قوية اليه بمركز ثقل قوات يجمعها بسرعة . كما

تعلم قيمة الخطة ذات «الفروع المتعددة» والعمل على خط يسمح بالاختيار بين عدة اهداف ويهدد عدة اهداف في وقت واحد ، هذه الخطة التي طبقها خلال معركته الاولى ونظمها بناء على مشروع وضعه بورسيه قبل ذلك بنصف قرن .

كما تعلّم من جيبير الفكرة القائلة بأن الحركة والمرونة عاملان من اهم العوامل بالنسبة للجيش . وفهم مغزى تقسيم الجيش وتشكيله في فرق مستقلة . لقد وصف جيبير تكتيك نابليون ، قبيل ظهوره بجيل كامل ، فقال : «ان المهارة هي في الانتشار دون اعطاء الآخرين فرصة لامساكنا ، والالتفاف حول العدو دون ان يؤدي ذلك الى تفكيك وحدة قواتنا ، والقيام بحركات متتالية ومتسلسلة على جناح العدو دون تعريض جناحنا للخطر» . ولقد استنبط فكرة طريقته واصولها من نصيحة جيبير القائلة بضرورة تهديد مؤخرة العدو لتحطيم توازن قواته . كما اخذ منه ايضا طريقة تركيز نيران المدفعية المتحركة على نقطة حساسة من جبهة العدو وفتح ثغرة فيها . هذا وان التعديلات العملية التي ادخلها جيبير في الجيش الفرنسي قبل بدء الثورة بقليل نظمت وصقلت الاداة التي استخدمها نابليون . ولقد تنبأ جيبير بثورة في فن الحرب ، يقوم بها رجل ينتمي الى طبقة عميقة الجذور في دولة ثورية الامر الذي أثار طموح وتخيلات نابليون الشاب .

لقد اضاف نابليون الشيء القليل الى الافكار النظرية التي شكلت تفكيره ، ولكنه لم يكتف بذلك بل وضعها موضع التنفيذ ، ولو لم يطبقها تطبيقا عمليا لبقيت جميعها في حالة نظرية بحتة . لقد تجاوبت خطوط تعليمه العريضة مع طبيعته . وجاءت الظروف اللائمة لتطلق لطبيعته العنان وتسمح له بتطبيق كل الامكانيات في تشكيل الوحدات على الاسلوب الفرقي . واشترك نابليون في خلق الفكرة الاستراتيجية عندما وسّع أبعاد التوافق الاستراتيجي الذي أمكن تطبيقه اخيرا بواسطة تشكيل الوحدات .

لقد ذهل المهاجمون عند فشل الغزو الاول لفرنسا عام ١٧٩٢ في موقعتي فالمي وجيماب ، وأيقنوا ان فرنسا والثورة الفرنسية اصبحتا بعد ذلك في مأمن من اي خطر كبير يهددهما . ولم تشكل انكلترة وهولندا والنمسا وبروسيا واسبانيا وسردينيا اولحلف ضد فرنسا الا بعد اعدام الملك لويس السادسعشر . عندئذ فقط وضع خصوم فرنسا في الميزان كل عبقرياتهم الفكرية وكل قوتهم من الرجال والعتاد . ولم يكن لدى المهاجمين هدف حربي محدد ، وكانوا يفتقرون الى الادارة الحكيمة ، ومع هذا بقيت فرنسا معرضة لاخطار الغزو حتى عام١٧٩٤ حيث مالت كفة الحظ لصالح الفرنسيين بشكل ملفت للانظار ، واضطر المهاجمون الى الانسحاب . ومنذ ذلك الوقت اصبحت فرنسا مهاجمة بعد ان كانت في موقف الدفاع . فكيف يمكن تفسير هذا التحول المفاجىء ؟ والجواب على ذلك انه رغم بقاء هدف الحرب غامضا ومحدودا فان اهمية الاحداث ظهرت لان التفوق كان نتيجة هجوم استراتيجي غير مباشر .

كانت الجيوش الرئيسية للطرفين مشتبكة قرب ليل في معارك دامية ،

عندما تلقى القائد الفرنسي جوردان الذي يعمل في الموزيل بعيدا عن ليل الامر بتشكيل مفرزة هجومية على جناحه الايسر بقصد التقدم نحو ليبج ونامور عبر الآردين . ولما وصل جوردان الى نامور بعد زحف منهك تموّنت وحداته خلاله على قدر الامكان من المناطق التي مرت بها ، جاءته رسالة تبلغه بأن ميمنة الجيش الرئيسي في مأزق امام شارلوروا ، واكد هذه الرسالة صوت المدافع الآتية من بعيد . فلم يقم بحصار نامور بل اتجه مباشرة نحو الجنوب الغربي في اتجاه شارلوروا ومؤخرات العدو ، فسقطت شارلوروا في يده .

ولم يكن لدى جوردان كما يبدو هدف أوسع من ذلك . ولكن الصدمة المعنوية التي اصابت مؤخرة العدو بعد هذه الحركة اعطته نتائج كثيرا ما بحث عنها القادة الكبار . واستطاع كوبورغ قائد القوات المعادية الانسحاب نحو الشرق ، وجمع خلال حركته كل الوحدات التي تمكن من مقابلتها . ثم عاد وهاجم جوردان الذي تحصن في موضع دفاعي يغطي شارلوروا . ووقعت معركة عنيفة ، وكان لدى جوردان تفوق كبير ناجم عن عدم توازن اعدائه استراتيجيا وقيامهم بالهجوم بجزء فقط من قواتهم . ولما انهزمت هذه القوات قام الحلفاء بانسحاب عام .

ولما اخذ الفرنسيون دور الهجوم ، لم ينجحوا في الحصول على نصر حاسم خلال معاركهم الرئيسية على ضفة الرين الاخرى رغم تفوقهم العددي . وكانت بداية هذه المعارك عقيمة ثم فشلت نهائيا بسبب هجوم غير مباشر قام به اعداؤهم. ففي شهر يوليو (تموز) عام ١٧٩٦ كان على الارشيدوق شارل الوقوف امام تقدم جيشين فرنسيين يفوقانه عدديا هما جيشا مورو وجوردان ، فعقد العزم على «التراجع بجيشه وجيش فارتنزليين خطوة خطوة دون التعرض للاشتباك في معركة ، ثم استغلال الفرصة المناسبة لجمع جيشه وجيش حليفه والحصول على قوات تعادل او تفوق قوة الخصم ومهاجمة احد جيشيه» ولكن ضغط العدو لم يسمح له بتطبيق سياسة «الخطوط الداخلية» فاضطر لترك الارض والانسحاب في انتظار الفرصة الملائمة . واستمر في خطته هذه حتى بدل الفرنسيون اتجاههم فوجد الوقت مناسبا للقيام بعمل جريء . وبدا ذلك عندما لاحظ قائد خيالته ناوندورف اثناء استطلاعه في العمق ابتعاد الفرنسيين عن جبهة الارشيدوق في اتجاهين متباعدين بغية الالتقاء بعد ذلك على جيش فارتنزليين وإبادته . وأرسل ناوندورف الى الارشيدوق الرسالة التالية في الوقت الملائم : «اذا كنتم تستطيعون ارسال ١٢ الف رجل على مؤخرة جوردان فانه سيكون في مقدوركم هزيمته» ولم ينفذ الارشيدوق المخطط بالجراة المطلوبة ، ولكن ما قام به كان كافيا لتحطيم الهجوم الفرنسي . وانسحب جوردان الى الطرف الآخر من الرين بجيش محطم . عندئذ وجد مورو نفسه مضطرا لايقاف تقدمه الناجح في بافاريا والتراجع بدوره .

وفي الوقت الذي فشل فيه الجهد الرئيسي الفرنسي على نهر الرين ، حصل الجيش الفرنسي الذي يعمل في حقل العمليات الثانوي بايطاليا على نتائج حاسمة،

عندما استطاع نابليون تحويل الدفاع الفاشل الى هجوم غير مباشر حاسم ادى الى النصر . لقد كان المخطط جاهزا في راسه منذ سنتين عندما كان ضابطا في اركان هذا القطاع من الجبهة . وفي باريس هضم المخطط جيدا او اعطاه شكله النهائي . ورغم ان هذا المخطط كان مشابها لمخطط معركة عام ١٧٤٥ وطبق الدروس المستفادة منها ، فان افكار نابليون كان مصدرها ولا شك اساتذته الذين اشرفوا على دراسته العسكرية خلال سنوات شبابه . ان نابليون مفكر عسكري عملي ، لم يكتب فلسفة عسكرية واضحة واكتفى بالحكم والجمل القصيرة .

وتبدو رغبته في استعمال الجمل القصيرة والاقوال المأثورة من قوله : «ان مبادىء الحرب في المعركة العادية مماثلة لمبادىء الحرب في الحصار . يجب تركيز النار على نقطة واحدة ، وما ان تنفتح الثغرة حتى ينهار التوازن ، وما بقي بعد ذلك فغير مهم» .

وجاءت النظريات العسكرية بعد ذلك فأخذت هذا القول واهتمت بجزئه الاول بدلا من اهتمامها بجزئه الثاني . لقد ركزت انظارها على كلمة «نقطة واحدة» بدلا من ان تركزها على كلمة «توازن» . والجزء الاول في حد ذاته تعبير مأخوذ من الحقل المادي بينما يدل الجزء الثاني على النتيجة المعنوية الناجمة عنه «وما بقي بعد ذلك غير مهم» . ويدل الاتجاه الاستراتيجي لمعارك نابليون على الاهمية التي اعطاها لهذا التعبير الاخير .

وكانت كلمة «نقطة واحدة» سببا لاخطاء كثيرة ومناقشات متناقضة اذ ظن البعض ان فكرة نابليون تعني تركيز الجهود على اقوى النقاط في موضع العدو ، معتمدين في ذلك على ان هذا التركيز وحده قادر على اعطاء نتيجة حاسمة ، لان تحطيم المقاومة الرئيسية للعدو يعني فتح ثغرة تحطم كل مقاومة اخرى اضعف تظهر بعد ذلك ، وهذا تفكير خاطىء لان عملا كهذا ينهك المهاجم . اما انصار مدرسة الاقتصاد في القوى (التي تفهم الاقتصاد ضمن حدود التكاليف الرئيسية الاولى للعملية) فيصرون على ضرورة التركيز على اضعف النقاط في مواضع العدو . ولكن العدو لا يترك غالبا نقطة ضعيفة بلا سبب ، فقد يكون ضعفها ناجما عن عدم اتصالها بطريق حيوي او مركز حساس كما قد يكون ضعفا مقصودا لجذب قوات العدو الى فخ .

وتجيء معركة نابليون التي طُبق فيها هذه الفكرة لتقدم التفسير لها . انها تدل ولا شك على انه عندما قال «نقطة» اراد بذلك «نقطة تمفصل» . لقد كان في هذه المرحلة من حياته متأثرا بعمق بفكرة الاقتصاد بالقوى لدرجة تمنعه من تبديد وسائطه المحدودة بمهاجمة العدو في اقوى نقاطه . «ونقطة التمفصل» التي اراد الاشارة اليها حيوية وضعيفة حساسة في آن واحد .

وفي ذلك الوقت قال نابليون جملة ترددت كثيرا فيما بعد لتفسير اخطر عمليات تركيز القوى على الكتلة الاساسية لقوات العدو : «ان النمسا عدونا الاكبر .... فاذا ما تم سحقها سقطت اسبانيا وايطاليا لوحدهما . يجب علينا

الا نبعثر هجماتنا بل نركزها» . ثم تجيء بقية نص المذكرة التي تقع فيها هـذه الجملة لتدل بوضوح على انه لا يقترح مهاجمة النمسا مباشرة بل يطلب استخدام الجيش الموجود على الحدود الايطالية النمساوية في هجوم غير مباشر ضدها . وكانت ايطاليا الشمالية حسب هذا الراي ممرا يؤدي الى النمسا . وكان هدفه في حقل العمليات الثانوي تطبيق تعليمات بورسيه وإلحاق الهزيمة بمقاطعـة بيدمونت الايطالية اضعف الحلفاء في بادىء الامر ثم الالتفاف الى النمسا عدوته الكبرى .

وتم تنفيذ هجومه غير المباشر بكل حذق ومهارة ، ولكن الاحتكاك مع الواقع اظهر صعوبة تنفيذ حلمه ، ذلك الحلم الذي فكر فيه وابلغه الى حكومته بعـد انتصاراته الاولى : «انني آمل في الوصول خلال شهر الى جبال التيرول والالتقاء مع جيش الرين للاشتراك معه في الحرب في بافاريا» ولكن فشله في تحقيـق آماله وتنفيذ مخططه فتح امامه باب حظه العريض ، لانه شجـع النمساويين ودفعهم الى القيام بسلسلة من الهجمات الفاشلة في ايطاليا . ولما نجح فـي صدها وجد السبيل الى النمسا مفتوحا .

عندما اصبح نابليون قائدا لجيش ايطاليا في مارس (آذار) ١٧٩٦ كانت قواته موزعة بشكل شريط على طول الشاطىء قرب جنوا . وكان النمساويون واهالـي سردينيا يسيطرون على الممرات الجبلية المؤدية الى السهول الايطاليـة . وكان مخططه يتضمن القيام بحركتين في الجبال تلتقيان عند قلعة سيفا . وما ان فتح طريقا في بيدمونت حتى اعتمد على هذا النجاح لاغراء حكومة سردينيا على التقدم نحو تورينو بقصد اجبارها على عقد صلح منفصل . وكـان يأمل في بقـاء النمساويين هادئين في معسكراتهم الشتوية ، على ان يقوم اذا تحركوا لنجـدة حلفائهم ، بحركة مخادعة في اتجاه آكي ويجبرهم على الانسحاب نحو الشمـال الشرقي على محاور متباعدة .

وفي الحقيقة جاء النصر بفضل الحظ لا بفضل المخطط ، عندمـا استطاع نابليون الحصول على ميزة أولية بفضل تباعد الجيشين الطيفين المعادين. وجاءت الفرصة الملائمة عندما قام النمساويون بحركة هجومية وهددوا جناح الفرنسيين الايمن بغية ايقاف تقدمهم في اتجاه جنوا . عندها قام نابليـون بهجوم معاكس لايقافهم . وتم تنفيذ هذا الهجوم على نقطة تمفصل في التشكيلة النمساوية مع ضربتين ثانيتين على نقطتين مجاورتين لنقطة التمفصل ، الامـر الذي أجبر النمساويين على الانسحاب الى آكي .

في ذلك الوقت سار قلب الجيش الفرنسي نحو سيفا ، ولكن نابليون فشل في ١٦ ابريل (نيسان) عندما حاول احتلال الموقع بانقضاض مباشر . فحاول في ١٨ ابريل القيام بحركة التفاف وغيّر خط مواصلاته وسلك طريقا بعيدا عـن التهديد النمساوي . عندئذ ترك جيش مقاطعة بيدمونت الحصن قبل الهجـوم الجديد ، فطاردهم نابليون ، ولكنه صُدّ ثانية عندما قام بهجوم مباشر آخر على مكان توقف فيه العدو مؤقتا وتكبد خسائر فادحة . ثم قام بعد ذلك بمنـاورة

التف فيها حول مجنبة الاعداء وطردهم في اتجاه السهل .

ووجد اهالي مقاطعة بيدمونت ان تهديد الفرنسيين لتورينو يزداد خطورة رغم الوعد المتأخر الذي اعطاه النمساويون لهم بمساعدتهم فطلبوا الصلح قبل وقوع الهزيمة المادية ، وخرجوا بذلك من المعركة .

لقد أكدت معركة عام ١٧٩٦ اهمية عامل الزمن . ولو ان اهل بيدمونت صمدوا بضعة ايام لاضطر بونابرت الى الانسحاب والعودة نحو الساحل بسبب صعوبة التموين . ويكفي لاثبات اهمية عامل الزمن ان نذكر قوله آنذاك : «قد اضيع في المستقبل معركة ، ولكنني لن أضيع دقيقة واحدة» .

بعد ذلك اصبح جيش نابليون اكبر من جيش النمساويين وكان معه ٣٥ الف رجل ضد ٢٥ الف ولكن هذا لم يدفعه للسير نحوهم مباشرة . وفي اليوم التالي لتوقيع الهدنة مع مقاطعة بيدمونت حدد ميلانو هدفا له . وكان الطريق من تورتونا الى بيلزانس يؤدي بصورة غير مباشرة خلف ميلانو. لذا خدع النمساويين وتظاهر بالاتجاه نحو الشمال الغربي فتجمعوا في فالانسيا ليمنعوا تقدمه . عندئذ سار نحو الشرق على الضفة الجنوبية لنهر بو . ووصل الى بليزانس مستديرا بذلك حول خط المقاومة النمساوية المتوقع .

وللوصول الى ذلك لم يتقيد بالقواعد المألوفة وانتهك حياد دوقية بارم التي كانت بليزانس تابعة لها . وكان يأمل ان يجد في المدينة القوارب والناقلات اللازمة لعمل جسر يعبر به نهر بو . ولكن تجاهله لحياد دولة كهذه اعطى خصومه درسا ومثلا يحتذى فلما تقدم نحو مؤخرتهم انسحبوا دون ان يضيعوا الوقت واجتازوا خلال انسحابهم ارضا واقعة في حدود اراضي البندقية المحايدة . وامنوا انسحابهم قبل ان يتمكن من استخدام نهر آدا كحاجز يمنعهم من التراجع ولما وصلوا مدينة مانتوا الحصينة التجأوا اليها واصبحوا في مأمن من هجومه .

أمام هذه الحقيقة القاسية غدا مشروع اجتياح النمسا بعد مضي شهر امرا بعيد المنال ، خاصة وان المسؤولين في الحكومة الفرنسية الذين خافوا عواقب هذه المغامرة وعجزوا عن تقديم الامكانيات اللازمة لها ، اعطوه الامر بالعودة و«اخلاء» الدويلات الاربع المحايدة اثناء مسيره ، وهو ما يعني في مفهوم ذلك العصر نهب هذه الدويلات . وتمت في هذه المرحلة عملية سلب واسعة النطاق لم تستطع ايطاليا بعدها العودة الى رخائها الماضي .

لقد كان من حسن حظ بونابرت ان المسؤولين الفرنسيين حددوا حرية عمله العسكري ، لان هذا التحديد اجبره على عدم متابعة احلامه التوسعية ، واعطاه الفرصة ليعدل اهدافه حسب امكانياته الحقيقية ، حتى تصبح نسبة القوى ملائمة للوصول الى هدفه الرئيسي . ويقول المؤرخ الايطالي المشهور فيويرو بهذا الصدد : «لقد وصفت المعركة الايطالية الاولى منذ قرن بأنها معركة ظافرة لحركة هجومية ، معركة احتل بها بونابرت ايطاليا بكل سهولة لانه قام بهجمات متسلسلة ساعده فيها حظه وشجاعته . ولكن اذا درسنا بدون تحيز تاريخ هذه المعركة ،

وجدنا بوضوح ان كل واحد من الخصمين قد هاجم او هوجم بالتناوب . وأن المهاجم فشل في اغلب الاحيان» .

لقد لعبت مانتوا صدفة دور الطعم ، وجذبت بين مخالب بونابرت كل الجيوش النمساوية التي اسرعت لنجدتها . ومما يلفت النظر هنا انه لم يتحصن في موضع منيع كما يفعل القادة التقليديون ، ولكنه حافظ على مرونة قواته وقدرتها ، بأن قسمها الى مجموعات متباعدة ولكنها قادرة على التجمع بسرعة في اي اتجاه .

وعندما حاول النمساويون نجدة مانتوا فقدت طريقة بونابرت اهميتها لانه لم يشأ رفع الحصار عن المدينة ، ولم تسترجع هذه الطريقة قدرتها الحركية وتتمكن من ضرب النمساويين في كاستيغليون الا بعد ان قرر انهاء هذا الحصار.

واصدرت حكومة باريس الامر لبونابرت عندئذ باجتياز التيرول والتعاون مع جيش الرين الرئيسي . فاستفاد النمساويون من هذا السير المباشر وتسربوا سرا نحو الشرق مع معظم قواتهم ونزلوا في سهل البندقية ، ثم ساروا نحو الغرب لنجدة مانتوا . فأوقف بونابرت تقدمه نحو الشمال ، ولكنه لم يعد نحو المدينة بل اندفع في مطاردتهم عبر الجبل ، وكان غرضه من ذلك ان يرد على هجومهم المباشر بهجوم غير مباشر يهدف الى حسم الموقف ، وفي باسانو فاجأ نصف جيشهم الخلفي ودمره ، ثم تابع مطاردة النصف الثاني حتى وصل الى سهل البندقية ، وعندئذ قرر قطع طريق انسحاب العدو وهو الطريق الذي يبدأ من تريستا في اتجاه النمسا بدلا من مواجهته تحت جدران مانتوا . فحصل بذلك على مكاسب جديدة غير القوات التي كسبها بعد ان بقيت محاصرة في المدينة .

واحست النمسا بأن جزءا كبيرا من قواتها قد دخل المعركة فقررت ارسال وحدات جديدة لتحسين الموقف. وهنا تصرف بونابرت بتكتيك مباشر عرض للخطر مكاسبه التي حصل عليها بفضل استراتيجيته غير المباشرة . وعندما تقدم جيشا الفانزي ودافيدوفيتش نحو فيرونا (وهي مدينة رئيسية يتوقف عليها الحصار الفرنسي لمدينة مانتوا) قام بونابرت بنفسه بمهاجمة الفانزي اقوى الخصمين المتقدمين ولكنه صُدّ بشدة في كالديرو . وبدلا من ان ينسحب بعد هذا الفشل قام بمناورة جريئة واسعة للالتفاف على جناح العدو الجنوبي ومؤخراته ، وعندئذ وجد نفسه في وضع ميئوس منه» وليس أدل على ذلك مما كتبه آنذاك للمسؤولين في باريس : «ان ضعف الجيش وانهاكه يجعلاني اتوقع أسوأ العواقب ، وقد نكون على ابواب فقدان ايطاليا» . وحاول عندئذ القيام بمناورات ولكن المستنقعات والقنوات جعلتها غير اكيدة النتائج . ومع هذا احبط مخطط العدو الذي كان يرغب في اغلاق فكي الكماشة على جيشه معتقدا بانه في فيرونا . وعندما تحرك الفانزي لمقابلته بقي دافيدوفيتش بدون حركة ، ومع ذلك كان بونابرت عاجزا عن التغلب على قوات الفانزي المتفوقة على قواته . لذا استخدم في معركة اركول خدعة تكتيكية (قلما استخدمها) اذ أرسل بعض نافخي البوق قرب مؤخرة العدو ليعلنوا بالبوق اشارة الهجوم ، واعتقد النمساويون ان الخطر يداهمهم من

الخلف ، ولم تمر بضع دقائق حتى ولوا الادبار .
وفي يناير (كانون الثاني) وبعد معركة اركول بشهرين قام النمساويون بمحاولة رابعة واخيرة لانقاذ مانتوا ، ولكنهم فشلوا في ريفولي عندما استخدم بونابرت بعنف ضدهم تشكيلته الجديدة المنظمة كمجموعات متمفصلة على نطاق واسع . وكانت تشكيلته كشبكة مشدودة ومثبتة من اطرافها الاربعة بحجارة ، فاذا لامسها رتل عدو تقلصت فتحاتها في نقطة الضغط وامسكت به ثم جاءت الحجارة لتقع كلها فوقه وتسحقه .
وهذا التنظيم الذي يؤمن لنفسه عوامل الحيطة ، وينقلب الى تشكيلات متجمعة للهجوم في نقطة الاختراق هو تطبيق لنظام نابليون الجديد الفرقي ، وهو النظام الذي ادى الى خلق جيش مقسم بصورة دائمة الى وحدات قادرة على الحركة بصورة مستقلة بدلا من ان تشكل قسما واحدا تنطلق منه الوحدات في مهام مؤقتة . ولقد تطورت بعد ذلك التشكيلات المتجمعة التي استخدمها بونابرت في معركة ايطاليا حتى وصلت بعد معارك كثيرة الى شكل افضل يتمثل في الكتيبة المربعة كما حلت الفيالق محل الفرق .
لقد راينا ان الشبكة مع حجارتها سحقت جناح النمساويين المتقدم ولكن انهيار مقاومتهم الاساسية يعود الى شجاعة بونابرت الذي امر لواء مؤلفا من ٢٠٠٠ رجل بعبور بحيرة غاردا على قوارب ليقذف بهم على خط تراجع جيش كامل . وسقطت مانتوا ، ووجد النمساويون الذين اضاعوا جيوشهم في جهود عقيمة للمحافظة على هذه المدينة التي تعتبر بمثابة باب امامي لبلادهم ، عاجزين عن ايقاف زحف بونابرت السريع نحو باب بلادهم الداخلي الذي اصبح بدون حماية ، واستبد الخوف بالنمساويين فاضطروا لعقد الصلح بينما كانت الجيوش الرئيسية الفرنسية واقفة في مكانها بدون عمل على بضعة اميال من ضفة الرين .
وفي خريف عام ١٧٩٨ شكلت روسيا والنمسا وانكلترة وتركيا والبرتغال ونابولي الحلف الثاني الذي بدأ يناقش عقد معاهدة صلح مع فرنسا . وكان بونابرت آنذاك في مصر . ولما عاد وجد الوضع في فرنسا حرجا فالجيوش المحاربة في تناقض مستمر والخزانة فارغة وتجنيد الجنود متعذر .
ولم ينتظر بونابرت كثيرا بعد عودته الى باريس فقلب حكومة الادارة (الديريكتوار) واصبح القنصل الاول ، وامر بتعبئة جيش احتياطي في ديجون مؤلف من كافة الوحدات التي يمكن جمعها من داخل البلاد . ولم يستخدم هذا الجيش لدعم القوات الرئيسية التي تعمل على مسرح العمليات الاساسي في منطقة الرين ، وبدلا من ان يفعل ذلك قام بهجوم غير مباشر بالغ الجراة ، لقد كان يرغب في الانقضاض على فريسته بعد مناورة دائرية كبيرة تحيط بمؤخرات الجيش النمساوي في ايطاليا . وكان هذا الجيش آنذاك قد دفع الجيش الفرنسي الصغير في ايطاليا الى الزاوية الشمالية الغربية حتى حدود فرنسا تقريبا . وقرر بونابرت اجتياز سويسرة عبر لوسيرن او زوريخ ، والنزول في

ايطاليا بعيدا نحو الشرق عن طريق الممر الجبلي في سان غوتار او عبر جبال التيرول . ولكن جاءته معلومات تفيد ان الجيش الفرنسي في ايطاليا واقع في مأزق حرج فاضطر لسلوك أقصر سبيل يمر عبر ممر سان برنار .

فلما خرج من الالب في الاسبوع الاخير من شهر مايو (أيار) عام ١٨٠٠ وجد امامه ميمنة الجيش النمساوي . وبدلا من التقدم نحو الجنوب الشرقي والذهاب لنجدة القائد الفرنسي ماسينا المحاصر في جنوه ، ارسل بونابرت طلائعه نحو الجنوب حتى شيراسكو وغطى بذلك قلب جيشه الذي تحرك نحو الشرق في اتجاه ميلانو ، وبدلا من السير لملاقاة الاعداء والاقتراب مما كان يسميه «مواقعهم الطبيعية» نراه يكتل موضعا طبيعيا حصينا على مؤخرة النمساويين مشكلا بذلك سدا استراتيجيا ، ذلك السد الذي كان هدف مناورته الاساسية الخطيرة على مؤخرات العدو . وكان تنظيم السد على حواجز طبيعية يؤمن له نقطة ارتكاز ومناورة امينة يستطيع منها خنق العدو ، الذي ما ان يجد طريق تموينه وانسحابه مهددا بالانقطاع حتى يقوم بهجوم سريع يتسم بالفوضى على هذا السد . وهنا يمكننا القول ان فكرة السد الاستراتيجي كانت أهم فكرة ادخلها بونابرت في حقل استراتيجية الهجوم غير المباشر .

وفي ميلانو قطع احد الطريقين اللذين يمكن ان يستخدمه النمساويون في التراجع ، ثم مد نطاق سده الاستراتيجي نحو ممر ستراديلا جنوب نهر بو ، وقطع بذلك الطريق الآخر . ولكن الفكرة كانت اكبر من امكانياته التي لم تتجاوز آنذاك ٣٤ الف رجل . كما أدى تردد القائد الفرنسي مورو الى تأخر ١٥ الف رجل طلبهم بونابرت من جيش الرين وامرهم بالقدوم عبر ممر سان غوتار ، لذلك كان ضعف السد واضحا . وفي هذه الفترة سقطت الحامية الفرنسية في جنوه وتحررت قوات اعدائه ولم يعد امامها ما يمنعها من الانطلاق .

ولم يستطع بونابرت ان يحدد الجهة التي سيتحرك اليها النمساويون ، وخاف ان يعودوا الى جنوه حيث يستطيع الاسطول البريطاني تموينهم ، فاضطر لترك كثير من مكاسبه . لقد اعطى لعدوه في الحقيقة ميزة مباداة لم يكن هذا العدو يملكها ، وترك موضعه الطبيعي في ستراديلا ، ودفع قوات استطلاعه نحو الغرب وأرسل دوزيكس مع فرقة لقطع الطريق بين الاسكندرية (١) وجنوة . وهكذا فوجيء وهو لا يملك الا جزءا من قواته عندما انطلق النمساويون فجأة من الاسكندرية واندفعوا لملاقاته في سهل مازجو في ١٤ يونيو (حزيران) ١٨٠٠ وبقيت المعركة سجالا مدة طويلة ولم يتم صد النمساويون الا بعد عودة قوات دوزيكس وانضمامها الى بونابرت . ولكن ميزات الموضع الاستراتيجي الذي يحتله بونابرت أجبر القيادة المعادية اليائسة على عقد اتفاق أخلى النمساويون بموجبه لومبارديا وانسحبوا الى ما وراء مينسيو . ورغم استمرار الحرب بصورة

---

١ ـ الاسكندرية : مدينة صغيرة في ايطاليا . «المعرب»

متقطعة خلف مينسيو ، فقد ظهر تأثير معركة مارنجو المعنوي بعد ستة اشهر بعقد هدنة وضعت حدا لعمليات الحلف الثاني الحربية .

بعد عدة سنوات من سلم مزعزع رفعت الستارة التي اسدلت على حروب الثورة الفرنسية ، وبدات حروب نابليون ، وفي عام ١٨٠٥ تجمع جيش بونابرت المؤلف من ٢٠٠ الف مقاتل في ميناء بولوني الفرنسي وهدد الشواطىء الانكليزية، ثم تحرك بسرعة نحو الرين بخطى حثيثة . واننا لنتساءل حتى الان ، هل فكر نابليون جديا في غزو بريطانيا ام ان تهديده كان عبارة عن مرحلة أولى من الهجوم غير المباشر ضد النمسا . لقد طبق بعمله هذا مبدأ بورسيه القائل بضرورة وضع «مخطط من عدة فروع» . وعندما قرر تطبيق الفرع الشرقي من مخططه توقع ان يرسل النمساويون كعادتهم جيشا الى بافاريا لاغلاق مداخل الغابة السوداء . لذا قام بمناورة التفاف واسعة حول جناحهم الشمالي واجتاز جيشه نهر الدانوب ثم اندفع نحو نهر ليش وشكل سدا استراتيجيا على مؤخرتهم ويشبه هذا المخطط مناورة ستراديلا على مستوى اكبر . ولقد أوضح نابليون هذا التشابه وشرحه لوحداته ، وساعده تفوقه العددي على تحويل هذا السد الى سد متحرك التصق بمؤخرة النمساويين وضغط عليهم واجبرهم على التسليم في هولم دون سفك دماء .

وكان على بونابرت بعد ان افنى اضعف اعدائه ، مواجهة الجيش الروسي الذي وصل بقيادة كوتوزوف حتى نهر إين بعد اجتياز النمسا وتجنيد بعض رجالها للقتال معه . كما كان عليه مجابهة خطر اقل ناجم عن تدخل جيوش نمساوية اخرى قادمة من ايطاليا والتيرول . واصبحت امكانياته الكبيرة عاملا معوقا له ، لان جيشه الضخم صار عاجزا عن القيام بهجوم غير مباشر ضد العدو في المساحة الصغيرة المحصورة بين الدانوب والجبال الواقعة في الجنوب الغربي . ولم يكن لديه الوقت الكافي للقيام بحركة التفاف واسعة على مستوى مناورة معركة هولم . كما ان بقاء الروس على نهر إين جعلهم في موقع طبيعي كترس يحمي الاراضي النمساوية ويغطي تقدم الجيش النمساوي القادم من الجنوب للانضمام الى الجيش الروسي وتشكيل سد مشترك منيع امام نابليون .

وامام هذه المشكلة قام بونابرت بسلسلة متنوعة من عمليات الهجوم غير المباشر الباهرة ، وكان هدفه الاول دفع الروس ما امكن نحو الشرق وفصلهم عن الجيوش النمساوية القادمة من ايطاليا . وفي الوقت الذي تقدم فيه نحو الشرق ضد كوتوزوف وفي اتجاه فيينا ، دفع مورتييه على طول ضفة الدانوب الشمالية مهددا مواصلات كوتوزوف مع روسيا مما أجبره على الانسحاب في اتجاه الشمال الشرقي نحو كريمس على نهر الدانوب . ودفع نابليون قائده مورا ليحطم جبهة كوتوزوف الجديدة ويتقدم نحو فيينا . ومن فيينا زحف مورا في اتجاه الشمال . وهكذا هدد نابليون في بادىء الامر جناح

الروس الايمن ثم هدد جناحهم الايسر . ثم فشلت هذه المناورة بسبب خطأ ارتكبه مورا عندما عقد هدنة مؤقتة مع العدو ، ذلك لان المناورة لم تؤد الى وقف انسحاب الروس بل دفعتهم الى الانسحاب السريع في اتجاه الشمال الشرقي نحو هولوتس قرب حدودهم ، وكانوا يبتعدون بذلك عن النجدات النمساوية ويقتربون من نجداتهم . وفي هولوتس وصلتهم نجدات كبيرة ، كما ان اندفاعهم نحو الشرق باستمرار زاد من قوتهم ، وكان الوقت يمضي ودخول بروسيا في الحرب متوقع بين لحظة واخرى ، فقام نابليون بهجوم غير مباشر معنوي عندما تظاهر بالضعف ودفع الروس لمهاجمته . ولم يجمع امام جيش العدو المؤلف من ٨٠ الف رجل سوى ٥٠ الفا . ثم دفع مفارز منعزلة في اتجاه هولوتس . وعزز تظاهره بالضعف عندما أرسل (رسائل صلح) لقيصر روسيا وأمبراطور النمسا ، ولما اقتنع العدو بالحيلة انسحب نابليون الى موقع أوسترليتز حيث تسمح له الارض بعمل الفخ الذي أعده . ولقد قام خلال المعركة بعد ذلك بهجوم غير مباشر تكتيكي بقصد الحد من مساوىء نقصه العددي . وخدع خصومه ودفعهم الى مد جناحهم الايسر لمهاجمة خط تراجعه ثم دفع قلبه مهاجما «نقطة التمفصل» الضعيفة في تشكيلتهم وحقق بذلك نصرا حاسما ارغم امبراطور النمسا بعد ٢٤ ساعة على طلب الصلح .

وبعد بضعة اشهر جاء دور بروسيا ، وكان لدى بونابرت تفوق عددي يعادل ٢ الى ١ ، وكان عليه ان يجابه بجيشه الكبير المدرب الحديث جيشا بروسياً صغيرا قديما وغير مدرب . فأثر هذا التفوق الساحق على استراتيجيته في هذه المعركة كما اثر على معاركه التالية . وفي عام ١٨٠٦ عمل جاهدا للحصول على مميزات المفاجأة الاولية عندما عسكر بوحداته قرب الدانوب ، ثم نقلها من هناك وجمعها بسرعة في الشمال مستترا خلف الستارة الطبيعية المشكلة من غابة تورينفر ، ولما خرجت وحداته من تخوم الغابة الى الارض المكشوفة توغلت في قلب بلاد العدو ووجد نابليون نفسه صدفة على مؤخرة البروسيين فاستدار فجأة ليسحقهم معتمدا على قدرته الهجومية وعلى التأثير المعنوي الناجم عن وضعه الاستراتيجي.

كان نابليون خلال المعارك التالية التي وقعت ضد الروس في بولونيا وبروسيا الشرقية ، يبحث عن هدف واحد هو اجبار العدو على الدخول في معركة ، معتمدا على قدرة جهازه الحربي على سحق العدو . ولقد استخدم غالبا المناورة على مؤخرة العدو بغية الامساك به بقوة تمنعه من الفرار ، لا بقصد تدمير معنوياته وتسهيل عملية تحطيمه ، لذا يمكن اعتبار الهجوم غير المباشر هنا وسيلة لخداع العدو ومشاغلته وشده ماديا اكثر من ان يكون سبيلا لبعثرة قواه وتدميره معنويا .

ثم فكر نابليون في جذب الروس نحو الغرب في مناورة بولتوسك بغية عزلهم عن بلادهم خلال تقدمه في شمال بولونيا . ولكن الروس احبطوا هذه الخطة وتحركوا بمحض ارادتهم نحو الغرب في يناير (كانون الثاني) عام ١٨٠٧ بقصد الانضمام الى من تبقى منحلفائهم البروسيين في دانزيغ . وأراد نابليون استثمار

الفرصة بسرعة وقطع مواصلاتهم مع بروسيا ، فسقطت اوامره بين أيدي جنود القوزاق واستطاع الجيش الروسي الانسحاب في الوقت الملائم . عندئذ قام نابليون بمطاردته مباشرة حتى لحق به في إيلو ، ووجده على موقع جبهي جاهز لدخول المعركة ، فقام بمناورة تكتيكية بسيطة على مؤخرته ، ولكن عاصفة ثلجية عرقلت التنفيذ . ولم يتم سحق الروس رغم محاصرتهم .

وبعد ٤ اشهر التقط الخصمان خلالها انفاسهما ، بدأ الروس يتقدمون نحو الجنوب في اتجاه هيلسبرغ ، ورد نابليون على ذلك بتحريك جيشه نحو الشرق لقطع مواصلاتهم عن اقرب قواعدهم في كونيكسبرغ . وكان راغبا في القتال لدرجة انه عندما ابلغته خيالة المجنبة عن وجود الروس في موقع فريدلاند الحصين القى بكل قواته مباشرة على الهدف ، وحصل على نصر تكتيكي بدون استخدام المفاجأة او الحركة ولكن بفضل القوة الهجومية الناجمة عن تكتيكه الجديد باستخدام المدفعية وتركيز النيران على نقطة مختارة بدقة ، وقد اصبح هذا التكتيك فيما بعد المحرك الاساسي لجهازه الحربي . وهنا تجدر الملاحظة بأن نابليون لم يبذل جهدا للمحافظة على ارواح جنوده خلال معركته الظافرة في فريدلاند والمعارك التي جاءت بعدها .

ومن الغريب ان نذكر انه كان للحصول على مطلق الحق في التصرف في القوى البشرية نتائج متشابهة في الاعوام ١٨٠٧ ـ ١٨١٤ و١٩١٤ ـ ١٩١٨ . كما ان من الغريب توافق كلتا الحالتين مع استخدام نيران المدفعية بغزارة . وتفسير ذلك ان القدرة على تبذير القوى تؤدي إلى تصرفات غير حكيمة تتناقض مع مبدأ الاقتصاد بالقوى التي يتعذر الحصول عليها دون المفاجأة والحركة .

استغل نابليون المجد الذي حصل عليه بعد انتصاره في موقعة فريدلاند ليفرض هيبته الشخصية ، ويخرج القيصر من الحلف الرباعي . ولكنه غامر فيما بعد بكل مكاسبه ، وبمصير امبراطوريته نفسها عندما اعتمد بدون حذر على هذه الهيبة . لقد كان تصرفه تجاه روسيا عنيفا لدرجة جعلت الصلح معها مزعزعا ، كما كانت اهدافه لتدمير انكلترة واضحة وجاءت عملية غزو اسبانيا والبرتغال فأجبرتهما على الثورة ضده والانضمام لاعدائه ، وهنا وقع في خطأ اساسي في مجال الاستراتيجية العليا .

كانت عمليات الكر والفر المفاجئة التي قام بها في اسبانيا القائد الانكليزي سير جون مور ضد مدينة بورغوس وضد مواصلات الفرنسيين نوعا من الهجوم غير المباشر الذي دمر مخطط نابليون في هذه البلاد ، واعطى الثورة الاسبانية الوقت والمدى الكافيين لتجميع قواتها . وغدت اسبانيا والبرتغال منذ ذلك الوقت جرحا متقيحا في جنب نابليون . كما اعطى هذا الفشل الاول نتائج معنوية أثرت فيما بعد على سير الحوادث .

لم يجد نابليون الفرصة الكافية لحل هذه المشكلة ، لان ثورة بروسيا وخطر تدخل النمسا جذباه من جديد نحو الشرق . وفي معركة عام ١٨٠٩ حاول نابليون

مرارا في لاندشوت وفي فيينا القيام بمناورة على مؤخرات العدو ، ولكن عوامل عديدة غير متوقعة كانت تتدخل لتعرقل تنفيذ المناورة ، الامر الذي ارغم نابليون على استخدام الهجوم المباشر . وفي اسبرن ـ ايسلينغ اصيب بأول هزيمة كبيرة ، ثم استعاد مركزه بالانتصار في موقعة فاجرام بعد ذلك بستة اسابيع . ولكنه دفع ثمن هذا النصر غاليا .

الحرب في شبه جزيرة ايبريا :

لقد كان لدى نابليون سنتان كاملتان يستطيع خلالهما العمل على علاج «القرحة الاسبانية» ولكن تدخل السير جون مور عرقل خططه منذ البداية . كما وجاء ويلنغتون فيما بعد وعرقل كل التدابير التي اتخذها لعلاج الجرح ومنع السم من التسرب في اجهزة نابليون . لقد استطاع الفرنسيون في البداية هزيمة كل الجيوش الاسبانية النظامية ، ولكن دارت هذه الهزائم فيما بعد لمصلحة المغلوب لانها دفعت الاسبانيين الى توجيه جهودهم الرئيسية للقيام بحرب عصابات ، وتشكيل شبكة كبيرة من العصابات التي لا يمكن السيطرة عليها فحلت بذلك محل الاهداف العسكرية السهلة المنال ، وتولى القيادة منذ ذلك الحين قواد اسبان اكفاء غير نظاميين بدلا من الجنرالات القدماء العاجزين .

ومالت كفة الحظ فترة من الوقت ضد مصلحة اسبانيا وانكلترة وذلك عندما حصلت اسبانيا على نجاح مؤقت دفعها الى اعادة تشكيل الوحدات النظامية . ولم تصمد هذه الوحدات امام الفرنسيين الذين دمروها وبعثروها في طول البلاد وعرضها ، ففقدت عناصرها بذورا للثورة في كل مكان .

وكان لتدخل انكلترة اثر بالغ لانها ساهمت في زيادة حدة الالتهاب . وقد استطاعت باستخدام قوة صغيرة احباط مخطط خصم كبير وبعثرة قواته . وتظهر التأثيرات في اسبانيا متناقضة بوضوح مع النتائج الصغيرة الباهظة التكاليف التي حصلت عليها انكلترة بالتعاون مع حلفائها في اوربا وبحملاتها فيما وراء البحار ضد نقاط لا تؤثر على الخصم لبعدها عنه جغرافياً ونفسيا . وقد يجد البعض مبررا سياسيا او اقتصاديا للسلسلة الثانية من المشروعات التي قامت بها انكلترة فيما وراء البحار اذا وضع في الاعتبار ان الكاب ، وجزيرة موريس ، وسيلان ، وغينيا البريطانية ، وجزر كثيرة من جزر الهند الغربية ، دخلت ضمن ممتلكات الامبراطورية البريطانية نتيجة لهذه المشروعات . وقد نجد في التاريخ كتّابا تقليديين تسيطر عليهم فكرة المعركة فلا يعطون الهجوم غير المباشر الذي طبقه الانكليز في اسبانيا على مستوى الاستراتيجية العليا التقدير الذي يستحقه . وفي الحقيقة اذا نظرنا فعلا للحرب الاسبانية من خلال معارك وحصارات ويلنغتون بدت لنا بعض الامور غامضة . ولقد حاول جون فورتسكيو تبديد هذا الغموض وابعاد هذه الفكرة ، كما قادته دراسته العميقة الى اعطاء اهمية كبرى لتاثير حرب

العصابات في اسبانيا على نتيجة الصراع الذي دار هناك ، لقد كان وجود الحملة البريطانية عنصرا اساسيا في هذه الحرب . ولكن معارك ويلنغتون لم تؤد الى نتائج مادية كبيرة لانها لم توقع بالفرنسيين خلال خمس سنوات سوى خسارة قدرها ٤٥ الف رجل ما بين قتيل وجريح واسير . بينما بلغت جملة خسائر الفرنسيين في تلك الفترة حسب تقدير ماربوت حوالي ١٠٠ قتيل كل يوم ، ومن هنا نستنتج ان معظم خسائر الفرنسيين المادية والمعنوية لا ترجع الى معارك ويلنغتون بل كانت ترجع الى حرب العصابات واسلوبها في ازعاج العدو وتحويل البلاد الى صحراء ليس للفرنسيين فيها الا الموت جوعا .

ومن الملاحظ ايضا قيام ويلنغتون بعدد قليل من المعارك فهل هذا راجع الى حكمته العملية التي وجد فيها مفتاح شخصيته وتصرفاته ؟ يقول احد المؤرخين الجدد «كانت الواقعية الضيقة المباشرة هي جوهر شخصية ويلنغتون ، واليها يرجع سبب نقائصه وعيوبه اما المستوى الاوسع حيث لعب دوره كرجل جماهيري فقد لعبت واقعيته دورا أوصله الى العبقرية» . ولعل هذا الوصف ملائم تماما لاستراتيجية ويلنغتون في اسبانيا .

عندما رات الحكومة البريطانية فشل الجهد الرئيسي لقواتها على نهر ايسكو في اسبانيا سحبت جزءا من هذه القوات ودفعتها لانقاذ البرتغال ، فحصلت بذلك على نتائج هامة دون ان يكون هنالك تقدير صحيح متوقع لنتائج هذه الحملة في مستوى الاستراتيجية العليا او تأثيرها الممكن على زيادة خطورة «القرحة الاسبانية» . ولقد تقدم كاستلرغ بمبررات لهذه الحملة أيدها السير آرثر ويلسلي (دوق ويلنغتون فيما بعد) وقد اتفق رأيهما على ان عملية دعم الجيش والميليشيا في البرتغال بـ ٢٠ الف انكليزي ارغمت الفرنسيين على ارسال ١٠٠ الف رجل لتعسكر وتحتل هذه البلاد ، وهذا عدد يتعذر الحصول عليه اذا استمر الاسبانيون في المقاومة . وهذا يعني ان ٢٠ الف بريطاني استطاعوا ارغام الفرنسيين على تثبيت ١٠٠ الف رجل تقريبا جلب بعضهم من حقل العمليات الرئيسي في النمسا .

ولم تكن هذه الحملة لتبدو دعما فعالا للنمسا ، كما ان اعتبارها ترسا لحماية البرتغال امر غير متفق عليه حسب راي البرتغاليين انفسهم . ولكنها فرضت على الفرنسيين جهدا كبيرا وحصل الانكليز منها على فوائد تفوق الفوائد المتوقعة منها عشر مرات .

تلقى ويلسلي ٢٦ الف رجل في ابريل (نيسان) ١٨٠٩ نزلوا في لشبونه . وكان الفرنسيون آنذاك مبعثرين بشكل كبير في اسبانيا والبرتغال بسبب الثورة الاسبانية وهجمات مور على بورغوس وانسحابه الى كورونيا . وكان الجنرال ني يحاول في اقصى الشمال الغربي السيطرة دون جدوى على غاليسيا . كما كان جيش الجنرال سولت يعمل في شمال البرتغال جنوبي القطاع الذي يعمل فيه ني ، مع جيش وحداته موزعة . اما فيكتور فكان يحاصر ميريدا على الطريق

الشمالية المؤدية الى البرتغال .

استغل ويلسلي وضعه المتوسط ، وتبعثر العدو ، وتأثيرات ظهوره المتوقعة، فسار نحو الشمال في اتجاه سولت . ولم يستطع عزله عن مفارز الجنوب كما اراد ولكنه فاجأه على كل حال قبل ان يستطيع جمع جيشه . ثم اجتاز ويلسلي نهر الدور فقلب توازن اعدائه وأعقب هذه النتيجة المدمرة بأن دفعهم خارج خط انسحابهم الطبيعي ، واجتاح مقاومة العدو قبل ان تتبلور ، كما فعل تورين في عام ١٦٧٥ . وتحمل جيش سولت عند انسحابه نحو الشمال عبر جبال غاليسيا خسائر فادحة لا تتناسب مع قيمة المعارك التي خاضها .

ثم جاءت عملية ويلسلي الثانية فلم تكن مفيدة كسابقتها كما انها لم تكن مخططة جيدا بحيث تؤمن تناسب الامكانيات مع الهدف . ولما «اختفى» سولت في تالافيرا استدعي فيكتور الذي كان سلبيا حتى ذلك الوقت في ميريدا وطلب منه تغطية الطريق الرئيسية الى مدريد . وبعد مضي شهر قرر ويلسلي السير في اتجاه مدريد على نفس الطريق مندفعا بذلك في قلب اسبانيا بين شدقي الذئب ، وشكلا هدفا تستطيع كل الجيوش الفرنسية في اسبانيا اللقاء عليه بأسهل السبل . بالاضافة الى ان التقاء هذه الجيوش في مكان مركزي يحقق لها ميزة السيطرة على كل طرق المواصلات التي تصلها ببعضها كأنها حزمة واحدة وتتخلص بذلك من تباعدها الذي كان نقطة ضعف لديها .

انطلق ويلسلي في بداية الامر مع ٢٣ الف رجل فقط ثم دعم هذا الجيش بعدد مساو من الاسبانيين بقيادة كويستا الضعيف . وانسحب القائد الفرنسي فيكتور ليتمركز قرب مدريد بشكل يسهل دعمه من قبل الجيشين الصديقين الآخرين . وبلغ التجمع الفرنسي حوالي ١٠٠ الف رجل لان ني وسولت وفورتييه وصلوا الى مدريد من الشمال (عن طريق المصادفة لا حسب خطة مدروسة كما يرى فورتسكيو) . ولم يستطع ويلسلي السير بالسرعة المطلوبة نظرا لضرورات التموين ولتردد حليفه كويستا ، لذا فانه لم يصل الى فيكتور الا بعد وصول جوزيف بونابرت من مدريد لنجدته . فاضطر عندئذ الى الانسحاب ثم تخلص من المأزق بشكل جيد في معركة دفاعية وقعت في تالافيرا وحصل على بعض النجاح واراد الاندفاع الى الامام ولكن كويستا رفض ذلك ، وكان ذلك لصالح ويلسلي وحسن حظه . لان سولت جاءه من مؤخرته وقطع مواصلاته عن الطريق التي جاء منها مما اضطره الى الانسحاب من جنوب نهر تاج . وكان انسحابه الى حدود البرتغال منهكا كثير التكاليف محطما للمعنويات . وأعاق نقص التموين القوات الفرنسية التي كانت تطارده وبذلك انتهت معركة ١٨٠٩ التي علمت ويلسلي درسا في ضعف قيمة الوحدات الاسبانية النظامية ، وكوفيء ويلسلي بأن اصبح دوق ويلنغتون . وفي عام ١٨٠٩ عقدت النمسا الصلح وغدا نابليون حرا في نقل جهوده واهتمامه الى اسبانيا والبرتغال (حتى عام ١٨١٢) وتشكل هاتان السنتان مرحلة حرجة في هذه الحرب . وكان لعجز الفرنسيين عن تنفيذ مخططاتهم في هذه البلاد اهمية تاريخية تفوق اهمية الهزائم التي

اصابتهم هناك او اهمية انتصارات ويلنغتون في ١٨١٢ – ١٨١٣ . وتعـــود الانتصارات البريطانية قبل كل شيء الى التقدير الصحيح للعامـــــل الاقتصادي العسكري (صعوبة التموين الفرنسي) وانشاء خط تورس فيدراس وكلا الامرين من عمل ويلنغتون الذي كانت تعتمد استراتيجيته على الهجوم غير المباشر ضـد الهدف مع اختيار اهداف اقتصادية عسكرية .

ولقد ساعدته القوات النظامية الاسبانية قبل بدء المعركة الرئيسية ولكن على طريقتها المعهودة ، ولكنها عندما اشتركت في حملة الشتـاء دمرتها القـــوات الفرنسية وتشتت شملها . ولما وجد الفرنسيون انفسهم سادة الموقـــف وليس امامهم مقاومة تذكر اندفعوا الى توسيع رقعة الاراضي التي احتلوها بغية السيطرة على اسبانيا كلها ، واحتلال مقاطعة الاندلس الغنية في الجنوب . وتسلم نابليون زمام الامر بيده رغم بعده عن مسرح العمليات ، وجمع في فبرايـــــر (شباط) ١٨١٠ حوالي ٣٠٠ الف رجل في اسبانيا وكانت هنالك وحدات اخرى تنتظـــر دورها للعمل . وكان من بين قوات نابليون في اسبانيا ٦٥ الف رجل بقيـــادة ماسينا مهمتهم طرد البريطانيين من البرتغال ، وكان لدى البريطانيين خمسون الف رجل بما فيهم البرتغاليون الذين دربهم الانكليز . ويمكن اعتبار هذه القوة كبيرة ولكنها تعتبر صغيرة بالنسبة لمجموع القوات المشتبكة ضدها في الحرب ، وهذا يدل بكل وضوح على اهمية الجهود التي كانت تبذل باستمرار لمحاربـــة العصابات الاسبانية .

جاء غزو ماسينا من الشمال عن طريق سيوتماد رودريغو وهذا ما اعطـــى ويلنغتون المدى والوقت الكافيين للقيام بتنفيذ استراتيجيته بالشكـــل الكامل ، فاتخذ التدابير اللازمة لاخلاء البلاد من التموين الموجود فيها للحد من سرعـــة اندفاع تقدم ماسينا ، كما جهز موقعا حصينا في بوساكو على منتصف الطريـــق ليكبح جماح هذا التقدم وزادت حماقة ماسينا من فعالية تدابـــير ويلنغتون ، خاصة عندما قام بانقضاض مباشر دون جدوى . ولتغطية لشبونـــة انسحب ويلنغتون الى خطوط تورس فيدراس المجهزة في المناطق الجبلية المحصورة بين البحر ونهر تاج . وفي ١٤ اكتوبر (تشرين اول) كان ماسينا قد قطع ٢٠٠ ميل في اربعة اشهر واصبح على مقربة من الخطوط ، وفوجيء بها . ولم يكن قادرا على اختراق هذا الخط الدفاعي فوقف امامه شهرا ثم ارغمه نقص التموين على الانسحاب الى سان تاريم الواقعة على نهر تاج وعلى بعد ٣٠ ميلا من الخط . ولم يحاول ويلنغتون البحث عن المعركة او تعجيل التراجع ، ولكنه ضغط ماسينا في اصغر بقعة ارض ممكنة ، ووجد الفرنسيون انفسهم نتيجـة لذلك فـــي صعوبات تموينية كبيرة . فدفعوا ثمن افكارهم الخاطئة المبنية على كلمات نابليون المتفائلة التي وجهها الى الاستراتيجيين الحذرين :

«التموين ؟ لا تحدثوني عن هذا . ان ٢٠ الف رجل يستطيعون العيش فـــي الصحراء » .

وتابع ويلنفتون هذه الاستراتيجية باستمرار رغم الخطر غير المباشر الذي قد يأتي من اي تغير في خط السياسة الاوربية ، والخطر المباشر الناجم عن تقدم سولت في الجنوب على طريق باداخوس ، بغية المشاغلة وتخفيف الضغط عن ماسينا . وقاوم ويلنفتون كل محاولات ماسينا لدفعه الى الهجوم . ولقد تبين فيما بعد صحة عمله . وقد جنى ثمار هذا العمل عندما اضطر ماسينا في مارس (آذار) الى الانسحاب ، وفقد الجيش الفرنسي حتى وصوله الى الحدود ٢٥ الف رجل سقط منهم في المعارك الفان فقط . وازداد عدد الثوار الاسبانيين ونشاطهم ، استطاع بضعة آلاف من الجنود الاسبانيين النظاميين الذين يقاتلون بتكتيك العصابات شل حركة فيلقين فرنسيين يقدر تعدادهما بستين الف رجل لدرجة عجز معها هذان الفيلقان عن مساعدة الجيش الفرنسي في البرتغال الذي كان يقوده ماسينا . وفي الجنوب حاصر الفرنسيون قادس وعجز الحلفاء عن استثمار نصر باروسا ورفع الحصار عن قادس ، وكان ذلك لمصلحتهم لان الحصار شغل بدون فائدة وحدات فرنسية كثيرة . وخلال كل هذه السنوات كان هناك عامل هام أثر على معنويات الفرنسيين وهو خوفهم الدائم من ان ينزل الانكليز قوات في اراضيهم ، وكان هذا الخوف له ما يبرره بسبب سيطرة الاسطول الانكليزي على البحار .

ومنذ ذلك الوقت أصبح الجميع يحسون بويلنفتون كمصدر للتهديد اكثر من احساسهم بضرباته . فاذا هدد نقطة ما اضطر الفرنسيون لجمع وحدات لصده مما يعطي رجال العصابات فرصة ليزيدوا نشاطهم في المناطق الاخرى .

ولم يكن ويلنفتون يكتفي فقط بالتهديد ، بل طارد ماسينا عند انسحابه الى سالامنك واستخدم جيشه لتغطية حصار حصن دالميدا في الشمال ، وطلب من بيرس فورد القيام بحركة التفاف حول باداخوس من الجنوب فقسم جيشه بذلك الى قسمين متساويين تقريبا . هنا كان ماسينا قد اعاد جمع وتنظيم قواته وجاءته الامدادات فاندفع لنجدة حصن دالميدا وهاجم ويلنفتون وأوقعه في خطر اكيد . ولكن الحظ لعب الى جانب ويلنفتون واستطاع صد الهجوم وقد قال في هذه المناسبة : «لو كان بونابرت هنا لهزمنا» . واندفع بيرس فورد قرب باداخوس امام جيش سولت القادم لنجدة الفرنسيين ، ووقع في خطأ فاحش كاد أن يورده وجيشه موارد التهلكة . ثم تحسن موقفه بفضل حسن بلاء مساعديه وجنوده ولكن بعد ان مني بخسائر فادحة .

ثم دفع ويلنفتون قواته لحصار باداخوس ولكن بدون وسائط حصار ، واضطر الى ترك الحصار امام حركة مارمون الذي تسلم قيادة جيش ماسينا وبدأ يتحرك نحو الجنوب للالتقاء مع سولت دون ان يستطيع احد وقف تقدمه . ولما تم اللقاء قرر القائدان الفرنسيان السير في اتجاه ويلنفتون ، الذي ساعده الحظ مرة ثانية بسبب اختلاف القائدين . ولما وصل الى سولت نبأ اشتداد حرب العصابات في اقليم الاندلس أسرع بالعودة اليها تاركا لمارمون مهمة ادارة العمليات وانتهت الحملة عام ١٨١١ دون ان تراق فيها دماء كثيرة .

من الملاحظ ان ويلنغتون خاطر كثيرا خلال معاركه ومن الصعب القول بأن هذه المعارك اعطته مكاسب اكثر من مكاسب استراتيجيته التي طبقها من قبل . لقد كان عدد رجاله قليلا لذا تعذر عليه استخدامهم بشكل مفيد . وكانت خسائره بلا شك اقل في مجموعها من خسائر الفرنسيين ، ولكنها كانت كبيرة بالنسبة لتعداد جيشه . وهنا بدأ نابليون استعداده لغزو روسيا ، فقوي مركز ويلنغتون. وادى هذا التغيير في الموقف العام وازدياد حرب العصابات في اسبانيا الى تعديل مخطط العمليات الفرنسي ، واصبح محور جهدهم الرئيسي موجها لاحتلال فالنسيا والاندلس بغية الانطلاق بعد ذلك في هجوم جديد على البرتغال .

ومنذ عام ١٨١٠ نقص تعداد الجيش الفرنسي في اسبانيا بمقدار ٦٠ الف رجل ، اما القوة الباقية فقد انشغل منها حوالي ٨٠ الف رجل بالمحافظة على خطوط المواصلات مع فرنسا ضد اعمال العصابات ، من تارغون على البحر الابيض المتوسط حتى اوفييدو على المحيط الاطلسي .

واصبح ويلنغتون حرا في حركته امام عدو ضعيف فانطلق بسرعة الى سيوتماد رودريغيو واحتلها بينما كانت مفرزة بقيادة هيل تغطي جناحه الاستراتيجي ومؤخرته . ولم يستطع مارمون التدخل او استعادة المدينة لان ادوات الحصار اللازمة لاستعادتها كانت موجودة فيها وسقطت في يد الانكليز . كما انه وجد نفسه عاجزا عن مطاردة ويلنغتون في المنطقة الجرداء القاحلة التي تفصلهما عن بعضهما .

واستغل ويلنغتون حاجز الجوع الذي يحميه من العدو فسار نحو الجنوب واحتل باداخوس ولكنه تكبد اثناء ذلك خسائر كبيرة لانه لم يستطع التمهل والتريث . واستولى في باداخوس على وسائل نصب الجسور الفرنسية . وجاءت بعد ذلك عملية تدمير جسر القوارب العائم الذي نصبه الفرنسيون على نهر تاج في مدينة الماراز ، وتم بذلك عزل جيشي مارمون وسولت استراتيجياً . وأصبح اقرب سبيل للاتصال بينهما هو طريق جسر توليد الذي يبعد ما يزيد عن ٣٠٠ميل من مصب نهر تاج .

ومن جهة اخرى كان سولت مرتبطا ارتباطا وثيقا بالاندلس بسبب حصوله على تموينه منها وازدياد نشاط العصابات فيها ، لذا تمتع ويلنغتون بالقدرة على العمل بكل امان وبدون ان يخشى مفاجآت من سولت . فجمع ثلثي قواته ليسير نحو مارمون في سالامنك . ودفع هذا الهجوم المباشر مارمون الى الانسحاب نحو قواعد تموينه . ولما تم توازن القوى ناور على مواصلات ويلنغتون وكان الامر سهلا لان ويلنغتون لم يهتم بحراسة مؤخراته . وتقدم الجيشان عدة مرات على رتلين متوازيين بينهما عدة كيلومترات فقط ، وكل منهما يبحث عن الفرصة الملائمة لمهاجمة خصمه . وكانت قدرة الفرنسيين على الحركة تفـوق قدرة البريطانيين لذا نشأت عندهم الرغبة في الالتفاف واستثمار هذا التفوق . ولكن في ٢٢ يوليو (تموز) دفعت هذه الثقة المفرطة مارمون الى ارتكاب غلطة افقدته توازن جيشه وتماسك وحداته عندما سمح لجناحه الايسر بالابتعاد كثيرا عن

جناحه الايمن ، فاستغل ويلنغتون الفرصة وانقض على الجناح المكشوف وهـزم الفرنسيين قبل ان تصلهم النجدات .

ولم يستطع ويلنغتون رغم ذلك تدمير الجيش الفرنسي تدميرا تاما في معركة سالامنك ، وكان التفوق العددي حتى ذلك الوقت لصالح الفرنسيين في مسرح العمليات الاسباني بصفة عامة . ويمكن توجيه اللوم الى ويلنغتون لانه لم يطارد بشدة الفرنسيين المنسحبين الذين تسلم كلوزيل قيادتهم قبل وصولهم الـــى بورغوس والاحتماء بها ، خاصة وان مواصلاته اصبحت مهددة بتقدم الملـــك جوزيف بونابرت القادم من مدريد .

وبدلا من مطاردة العدو قرر ويلنغتون التحرك الى مدريد لما لهذه المناورة من تأثير سياسي ومعنوي . ولما دخل مدريد فر الملك جوزيف بسرعة ، ولكنه كان عاجزا عن البقاء في المدينة بعد هذه الاغارة الناجحة اذا عاد اليها الفرنسيـــون بقوات كبيرة . ولم يكن هناك في الواقع سبب يرغمهم على تجميع جيوشهم المبعثرة في مختلف المناطق والاتجاه نحو المركز اكثر من سقوط هذه المدينة . لذلك غادر ويلنغتون مدريد قبل وصولهم وسار نحو بورغوس ، وكان الجيش الفرنسي يعتمد في تموينه على امكانيات المناطق التي يحتلها ولذلك فلم يتأثر كثيرا بالهجمـــات الموجهة الى المواصلات التي تربطه بفرنسا . وكانت نتائج الهجمات المعادية محدودة وزاد من قلة فاعليتها ضعف وسائل الحصار لدى ويلنغتون ونقص عتاده ، ممـا ادى الى اضاعة وقت كثير لا يسمح الموقف باضاعته .

وترتب على انتصاره في معركة سالامنك والمعارك التي جاءت بعدها ان اضطر الفرنسيون الى ترك عملياتهم الهجومية في مختلف الاراضي الاسبانية وتجميـــع قواتهم ضده . ووجد ويلنغتون نفسه في موقف اخطر من الموقف الذي واجهه مور من قبل ، ولكنه انسحب في الوقت الملائم . ولما لحق به هيل زادت ثقته بنفسه واشتبك في معركة مع الجيوش الفرنسية التي تجمعت في سالامنك مرة اخرى . وكان تفوق الفرنسيين العددي اقل من تفوقهم في المعارك السابقـــة (٨٠ الف ضد ٦٨ الف) ولم يبدِ الفرنسيون رغبة في الرد على تحرشـــات ويلنغتون للدخول في معركة على الارض التي اختارها ، فتابع انسحابه الـــى سيوتماد رودريغو . وبوصوله اليها انتهت حملة عام ١٨١٢ .

ثم انسحب ويلنغتون من فنائه الى الحدود البرتغالية ، فترك الفرنسيون القسم الاكبر من الاراضي الاسبانية ليحشدوا قواتهم ضده ، الامر الذي ساعد على زيادة نشاط العصابات وفقدان الامل في السيطرة عليها . وفي ذروة هذه المأساة جاءت اخبار انسحاب الجيوش الفرنسية من روسيا ، واضطر نابليـــون الى سحب معظم قواته من اسبانيا وتغير الموقف بشكل جذري .

وجاءت النجدات الى ويلنغتون فزادت قوته الى ١٠٠ الف رجل نصفهـــم بريطانيون فأخذ دور المهاجم ، وبدأ نجمه في الصعود ، بينما كانت معنويـــات الفرنسيين في تناقص مستمر نتيجة لحرب العصابات لا بسبب هزيمة عسكرية عادية ، مما اضطرهم الى الانسحاب خلف نهر إيبر ، وحاولوا الصمود على الحدود

الاسبانية الشمالية ولكن ضغط الثوار على مؤخرتهم في بيبسكاي وفي منطقة البيرنيه اجبرهم على تكريس جهود ٤ فرق من قواتهم القليلة لهذه المنطقة . ثم تقدم ويلنغتون نحو جبال البيرنيه والحدود الفرنسية ، وتعرض خلال تقدمه لبعض المتاعب التي انقذه الحظ من عواقبها . ويمكن اعتبار هذا التقدم مرحلة استراتيجية في تاريخ الحرب في شبه الجزيرة .

ويعود الفضل في الوصول الى هذه النهاية السعيدة الى التأييد المادي والمعنوي الذي قدمه ويلنغتون للثوار في اسبانيا والبرتغال ، واعماله التي شغلت الفرنسيين وجذبت قسما من قواتهم ، مما ساعد حرب العصابات على الامتداد والانتشار . ويمكننا ان نعتبر الحرب الاسبانية مثالا تاريخيا يستحق الدراسة والملاحظة ، نظرا للاستراتيجية التي طبقت فيها بنجاح بفضل التفكير الحكيم ، وان كان ينقصها التخطيط المنسق، تلك الاستراتيجية التي جاء لورانس بعد قرن من الزمان لكي يطورها في نظرية محددة ، ويطبقها عمليا بالاشتراك مع العرب ، ويصل بفضلها الى نتائج جيدة وان كانت غير حاسمة كنتائج ويلنغتون.

نابليون من موقعة فيلنا الى موقعة واترلو :

تعتبر الحملة الروسية عام ١٨١٢ الذروة والنهاية الطبيعية لتطور الاستراتيجية لدى نابليون . وقد لاحظنا ان هذه الاستراتيجية كانت تعتمد على عامل العدد اكثر من اعتمادها على عامل الحركة ، وعلى عامل الوضعية الاستراتيجية اكثر من اعتمادها على عنصر المفاجأة . هذا مع العلم ان الظروف الجغرافية زادت نقاط الضعف في هذه الاستراتيجية .

لقد كان تعداد قواته في فيلنا ٤٥٠ الف رجل ، وهذا ما دفعه الى تطبيق توزيع القوات في صفوف طويلة تقريبا ، وفرض عليه استراتيجية الهجوم المباشر تجاه خط الانتظار الطبيعي للعدو . صحيح انه عزز جناحه الايسر ، كما فعل الالمان في عام ١٩١٤ ، وقام بحركة دائرية لضرب مجنبة الروس ، ولكن هذه المناورة كانت مباشرة اكثر من اللازم ولم تكن تصلح لمشاغلة العدو او بعشرة قواته، الا اذا كان هذا العدو شديد الحماقة . وزاد من قلة فاعليتها موقف الجمود الذي اتخذه جيروم شقيق نابليون الذي كان مكلفا بتثبيت العدو . وعلى اي حال فقد كانت نتائج هذه المناورة محدودة لان الروس اتخذوا قرارا بانتهاج استراتيجية تحاشي الدخول في معركة او استراتيجية المماطلة وتمييع الموقف . عندما توغل نابليون في روسيا بعد عدة ضربات ومعارك «في الفراغ» عدل خطوطه لتطبيق نظام الفرق المقسمة الى مربعات ، وحاول استخدامها تكتيكيا على مؤخرات العدو. وكان الروس يطبقون سياسة «المعركة» بكل حماقة . فلما وضعوا انفسهم بين فكي نابليون المفتوحين ، انطبق الفكان بشكل يراه الجميع لدرجة سمحت للروس بالافلات في سمولنسك ، كما تحطم الفكان فوق بعضهما في معركة نهر موسكفا.

وليس هنالك مثل أوضح من هذا المثال للدلالة على الفرق بين الهجوم غير المباشر الحقيقي ، ومجرد الهجوم من اتجاهين للالتقاء في نقطة واحدة .

ثم تلى ذلك انسحاب ذو نتائج مفجعة تعود لقسوة الطقس وهبوط معنويات الجيش الفرنسي بعد ان فقد استراتيجيته وصار يبحث عن المعركة مع الجيش الروسي الذي يطبق استراتيجية تحاشي القتال ، تلك الاستراتيجية التي كانت تهدف الى تنفيذ ما يمكن تسميته السياسة العليا للهجوم غير المباشر .

ان الحظ السيء الذي اصاب نابليون بسبب فشله في روسيا زاد تفاقم النتائج المادية والمعنوية التي ترتبت على فشل جيوشه في اسبانيا . وهنا لا بد من الاشارة الى دور الاعمال البريطانية في اسبانيا حيث استخدمت انكلترة سياستها التقليدية في الحرب وهي السياسة التي تهدف دائما الى زعزعة قوة العدو من جذورها .

وفي عام ١٨١٣ اصبح لزاما على نابليون مواجهة الثورة التي نشبت في بروسيا واجتياح الجيوش الروسية لبعض المناطق التي يحتلها . وكان معه للقيام بهذه المهمة جيش كبير من الجنود الجدد ولكنه أقل قدرة على الحركة من جيوشه السابقة . فبدأ يحاول سحق العدو بالطريقة التي اعتاد عليها ، والتي تهدف الى الاطباق على العدو من جهات متعددة بقوات تنظم على شكل مربعات . واحرز بعض الانتصارات ولكن انتصاره لم يكن حاسما ، وانسحب الحلفاء الى داخل البلاد واحبطوا بذلك محاولات نابليون المتكررة لجرهم الى المعركة . ودفع تملصهم هذا نابليون الى طلب هدنة مدتها ٦ اسابيع ، انضمت النمسا في نهايتها الى معسكر اعداء نابليون .

سلطت معركة الخريف التي اعقبت ذلك ضوءا غريبا على التغيير الذي طرأ على تفكير نابليون . لقد كان معه ٤٠٠ الف رجل وهذا عدد يوازي تقريبا عدد قوات اعدائه . فاستخدم ١٠٠ الف رجل للقيام بحركة التفاف من طرفين على برلين . ولكن هذا الضغط المباشر ادى الى زيادة مقاومة برنادوت في هذه المنطقة ، واضطر الفرنسيون الى التراجع . وفي ذلك الوقت كان نابليون يرابط مع معظم قواته في موضع مركزي في اقليم ساكس ويغطي مدينة دريسدن. ولكن نفاد صبره دفعه الى التقدم فجأة نحو الشرق لمقاتلة ٩٥ الف رجل بقيادة بلوخر الذي انسحب ليجذبه الى سيليزيا على حين بدأ شفارتسنبرغ الزحف من بوهيميا مع ١٨٥ الف رجل نحو الشمال بمحاذاة نهر الالب ، وبعد اجتياز بوهيميا دخل بلاد ساكس ووقع على مؤخرات نابليون السابقة في دريسدن .

عندئذ ترك نابليون مفرزة في المكان الذي كانت جيوشه قد وصلت اليها ورجع بسرعة للرد على هذا الهجوم غير المباشر بهجوم آخر اكثر خطورة . وكانت خطته هي السير في اتجاه الجنوب الغربي عبر جبال بوهيميا وقطع طريق التراجع على شفارتسنبرغ في الجبل مشكلا بذلك سدا استراتيجيا مثاليا . ولكن عندما علم باقتراب العدو فقد هدوء أعصابه ، وقرر في آخر لحظة القيام بهجوم مباشر ضد دردسن شفارتسنبرغ . وكانت نتيجة هذا الهجوم نصرا حاسما ولكن في

المجال التكتيكي فقط واستطاع شفارتسنبرغ الانسحاب دون صعوبة كبيرة نحو الجنوب عبر الجبال .

بعد ذلك بشهر بدأت الجيوش الحليفة الثلاثة الضغط على نابليون ، وكان جيشه قد ضعف من توالي المعارك ، فانسحب من دريسدن الى قرب ليبزغ . وكان شفارتسنبرغ في الجنوب وبلوخر في الشمال ، أما برنادوت فكان يناور حول وخلف جناح نابليون الشمالي دون ان يدري نابليون شيئا عن حركاته . وقرر نابليون القيام بهجوم مباشر يعقبه هجوم غير مباشر ، وذلك لسحق بلوخر اولاً ثم قطع مواصلات شفارتسنبرغ مع بوهيميا بعد ذلك .

اذا نظرنا الى تسلسل العمل بهذا الشكل على ضوء التجربة التاريخية وجدنا انه تسلسل خاطىء لان الحركة المباشرة نحو بلوخر لم تستطع اجباره على القتال، ولكن كان لها نتيجة غريبة غير متوقعة لانها كانت في حد ذاتها ، ودون أن يدري نابليون ، حركة غير مباشرة على مؤخرات برنادوت افقدته شجاعته ودفعته الى الانسحاب بسرعة نحو الشمال فاتحا بذلك طريق الانسحاب امام نابليون . وهكذا انقذت الحركة المباشرة الفاشلة ضد بلوخر جيش نابليون وخلصته من كارثة محققة بعد عدة ايام عندما ضغط بلوخر وشفارتسنبرغ عليه في ليبزغ واشتبك معهما في قتال هزم على أثره ، ولكنه وجد ممرا ساعده على القتال التراجعي والانسحاب نحو فرنسا .

في عام ١٨١٤ اصبح الحلفاء متفوقين عدديا ، فاتجهوا نحو فرنسا واجتاحوا اراضيها . ووجد نابليون تعداد جيشه قليلا لكثرة خسائره التي نجمت في الماضي عن فرط ثقته الامبراطورية بقوة الكتل البشرية الكبيرة . فاضطر الى الاستعانة بسلاحيه القديمين المفاجأة والحركة ، واستخدمهما بشكل ناجح . ولكنه كان شديد الرغبة في الاشتباك مع الغزاة في معركة . الامر الذي منعه من استخدامهما بمهارة -كما كان يفعل هانيبال او سيبيون .

ومع ذلك فانه استخدمهما في نهاية مصيره . اذ عرف كيف يوفق بدقة بين غاياته وبين امكانياته . لقد عرف ان امكانياته اصبحت محدودة وغير كافية للحصول على نصر عسكري حاسم فقرر تحطيم تعاون الجيوش المعادية واستخدم الحركة بمهارة تدعو الى الدهشة اكثر من اي وقت مضى . فاستطاع تأخير العدو بشكل ملحوظ . وكان في مقدوره الحصول على نتائج اكبر وابعد اثرا لو لم تصب وسائله اللازمة لمتابعة هذه الاستراتيجية بالضعف لكثرة محاولاته في تتويج كل نجاح استراتيجي بنجاح تكتيكي .

ومع ذلك قام بسلسلة من الهجمات خمس منها على شكل مناورة على مؤخرات العدو تمت ضد مفارز معادية منعزلة والحق بها سلسلة من الهزائم المتكررة . الى ان تهور وقام بهجوم مباشر ضد بلوخر وهاجمه فمني بهزيمة كبيرة واصيب بخسائر لا تتحملها امكانياته .

عندئذ قرر استخدام قوته الباقية المؤلفة من ٣٠ الف رجل للقيام بضربة اخيرة والتحرك نحو الشرق في اتجاه سان ديزييه ، وجمع كل الحاميات التي

يصادفها وتأليب البلاد ضد الغزاة . وكانت هذه في الواقع حركة خطيرة قادرة على قطع مواصلات شفارتسنبرغ ولكن تنفيذ كل ذلك كان متعلقا بضرورة الوصول الى مؤخرات العدو والتمركز هناك ، وتجميع الجيش من المنطقة ، وهذه امور معقدة زاد من صعوبة تنفيذها عدم توفر الوقت والامكانيات الكافية لذلك ، ولسوء حظه وقعت اوامره في يد العدو وفقد بذلك عامل المفاجأة والزمن . ومع ذلك سببت مناورته هذه صدمة استراتيجية قوية لاعدائه لدرجة عطلت تفكيرهم فلم يتخذوا قرارا بالزحف نحو باريس بدلا من العودة لاحباط مناورته ، الا بعد مناقشات حامية . ولكن حركتهم نحو باريس كانت ايضا ضربة قاضية لمعنويات نابليون وقضيته .

في ١٨١٥ عاد نابليون من جزيرة البا وجمع امكانيات كبيرة الهبت خياله وملأته حماسا . ولكنه استخدم مع ذلك المفاجأة والحركة بطريقته القديمة وتوصل بذلك الى نتائج قربته من النصر . وعلى الرغم من ان هجومه على جيش بلوخر وويلنفتون كان مباشرا من الناحية الجغرافية ، فان تطوره مع الزمن كان مفاجأة واستطاع بخططه الجديدة فصل جيشي العدو عن بعضهما . ولكن الجنرال ني لم يستطع في موقعة ليني متابعة القيام بدوره حتى النهاية على شكل هجوم غير مباشر تكتيكي ، واستطاعت جيوش البروسيين تحاشي الهزيمة الساحقة . ولما عاد نابليون نحو ويلينفتون في واترلو كان هجومه مباشرا بحتا ، ففقد بذلك وقتا وجنودا مما زاد من سوء الموقف الذي سببه غروشي بعجزه عن تثبيت بلوخر بعيدا عن ميدان المعركة . وظهر بلوخر على مجنبة نابليون بشكل غير متوقع وكان ذلك بمثابة هجوم غير مباشر معنوي وحاسم .

الفصل التاسع

١٨٥٤ — ١٩١٤

في عام ١٨٥١ بدأ عهد جديد في الصراع وكانت اول جروب هذه المرحلة غير حاسمة عسكريا او سياسيا ، ولكنها تنطوي على دروس سلبية نستنبطها من الصراع الاحمق في حرب القرم ، واهم هذه الدروس هي عقم الهجوم المباشر .

وكان الجنرالات في ذلك الوقت تنقصهم الفطنة ، ولهذا لم يكن من المستغرب ان يدفع احد ضباط اركان الحرب لواء خفيفا مباشرة في وجه المدفعية الروسية. وكان مبدأ الضربة المباشرة يسيطر في الجيش البريطاني على كل مجالات العمل بصورة اذهلت القائد العام للجيش الفرنسي «كانروبير» ، الى ان حضر حفلة راقصة في البلاط ، ولما بدأ الرقص برقت الفكرة في ذهنه وقال لنفسه : «ان البريطانيين يقاتلون كما ترقص الملكة فيكتوريا» ولم يكن الروس اقل من البريطانيين تشبعا بهذا المبدا ، ولما اضطروا في احد الايام الى المناورة مخالفين بذلك مبادئهم ، سار احد الالوية طوال النهار ثم وجد نفسه في المساء بعد هذه الحركة عند نفس المواقع التي كان يحتلها في الصباح امام سيباستيبول .

ان دراسة حرب القرم تدعو الى خيبة الامل . ولكن هناك حقيقة يجب ان نذكرها ، وهي ان الجيوش الاوربية غدت خلال الاربعين سنة التي مرت بعد واترلو جيوشا محترفة . وليس في هذا انتقاص لقيمة الجيوش المحترفة ولكن

المقصود هو اظهار الاخطار الكامنة في الاوساط العسكرية المحترفة المتقوقعة على نفسها ، تلك الاخطار التي تزداد بازدياد الرتبة وسنوات الخدمة الا اذا عدل من تاثيرها الاطلاع الدائم على الافكار الخارجية . ولقد ابدت المراحل الاولى للحرب الاهلية الامريكية ضعف الجيوش غير المحترفة ، لان التدريب هو اساس الجيوش التي يستخدمها القادة بشكل فعال . وان الحرب الطويلة ؛ او السلم القصير يوفران افضل الظروف لخلق مثل هذه الجيوش . واذا تفوقت قيمة الاداة على قيمة القائد اصاب الخلل الجهاز كله .

لهذا او لاسباب اخرى كانت الحرب الاهلية الامريكية١٨٦١ ــ ١٨٦٥ متناقضة مع حرب القرم وظهرت فيها حركات استراتيجية محلية .

وازداد هذا الاتجاه مع تطور السكك الحديدية التي اعطت الاستراتيجية امكانيات اكبر في سرعة الحركة . الا ان هذه السرعة لم تكن تتمتع بالمرونة التي تعتبر عاملا رئيسيا ثانيا للحركة الحقيقية . لقد كانت الحرب الاهلية الامريكية اول حرب تلعب فيها السكك الحديدية دورا هاما لتامين حركة النقل ، لذا ادت شبكتها الصلبة الى تثبيت الاستراتيجية على خطوط صلبة .

وغدت الجيوش خلال هذا الصراع وبعده معتمدة تماما على السكة الحديدية لمتابعة حياتها دون ان تحس بأهمية ذلك . وشجعت سهولة التموين القادة على تكديس عتادهم في نهاية الخط الحديدي دون ان يتساءلوا عن نتائج مثل هذا الاجراء على امكانيات العمل . وهكذا ادت وسائط النقل الجديدة الى انقاص امكانيات الحركة بدلا من زيادتها . وزادت السكة الحديدية في ميل الجيوش الى التوغل بالعمق والابتعاد عن القواعد ما دامت قادرة دائما على نقل الرجال والعتاد بمقادير تزيد عن حاجة المعركة . وزاد القطار من حاجات الجنود . وغدت الجيوش مرتبطة بالمحطات ومعتمدة في حياتها المادية على شريط رفيع سهل الكسر .

وكان هذا كله واضحا في بداية الحرب الاهلية الامريكية وازداد وضوحا في عام ١٨٦٤ . فقد كانت جيوش الشمال معتادة على حياة مادية تتسم بالرخاء لذا كانت مهددة بالشلل اكثر من خصومها . وكانت جيوشها الموزعة في حقل العمليات في الغرب حسب مخطط شبكة السكك الحديدية تحت رحمة هجمات خيالة الجنوب التي يقودها قادة مثل فورست ومورجان . ووجد الشماليون في قائدهم شيرمان استراتيجياً قادرا على تشخيص اسباب العلة بادراك يفوق ادراك معاصريه ومن جاؤوا بعده ، الى ان اتى مفكرو المدرسة الحديثة التي ظهرت بعد الحرب العالمية الاولى والتي كانت نواة حرب الحركة الآلية . واستطاع العدو ضرب شيرمان عندما ضرب سككه الحديدية ، ثم رد شيرمان الضربة فيما بعد بنفس الاسلوب بعد ان غطى نفسه وادرك ان من واجبه التخلص من خطوط مواصلاته الثابتة والاستقلال عنها اذا اراد الحصول على امكانيات المناورة الاستراتيجية دون التعرض لخطر الشلل . وكان تخلصه من السكك الحديدية

يعني تخفيض حاجات جيوشه لى الحد الادنى الضروري . وتحرر من تبعيته لمواصلات السكك الحديدية وسار نحو الباب الخلفي للاتحاديين ليقطع خطوط تموين جيوشهم الرئيسية وتجفيف جهاز امدادهم من منابعه . وكانت النتيجة حاسمة بصورة مؤثرة .

الحرب الاهلية الامريكية :

كان الخصمان المتحاربان يحاولان في البداية الاشتباك مع بعضهما بعمليات هجوم مباشر . وكانت النتيجة غير حاسمة في فيرجينيا وميسوري . وفي عام ١٨٦٢ عين ماك كليلان قائدا عاما لجيوش الشمال ففكر في الاستفادة من السيطرة البحرية لينقل جيوشه الى مجنبة العدو الاستراتيجية ، وفتحت هذه الخطة آفاقا أوسع بكثير من الهجوم المباشر . وقد وضع هذه الخطة في الحقيقة لاختصار الهجوم المباشر نحو ريتشموند عاصمة العدو ، لا ليجعل منه هجوما غير مباشر بمعناه الحقيقي . ولم يتم تنفيذ هذه الخطة لان الرئيس لنكولن رفض تعريض الجيوش لاخطار محتملة ، واحتفظ بفيلق ماكدويل لتغطية واشنطن ، فحرم بذلك ماك كليلان من جزء من قواته كان ينبغي تخصيصه لمناورة العدو لضمان نجاح الخطة .

وأضاع ماك كليلان شهرا كاملا امام مدينة يورك تاون بعد نزوله على الشاطىء، ثم عدل المخطط وأعطاه شكل هجوم من عدة جبهات نحو نقطة واحدة ، وذلك بالتعاون مع ماكدويل الذي كلف بالسير برا من واشنطن الى ريتشموند في هجوم مباشر . ولكن العمليات غير المباشرة التي قام بها جيش الجنوب بقيادة ستون‌وول جاكسون في وادي شينان دوا كان لها تأثير معنوي بالغ على حكومة واشنطن ، فأوقفت من جديد حركة ماكدويل التي كانت تهدف الى مساعدة القوات الرئيسية . ومع ذلك وصلت قوات ماك كليلان الى حوالي ٤ أميال من ريتشموند واستعدت للوثبة النهائية قبل ان يستطيع الجنرال لي تجميع قوات كافية للتدخل . وفشل ماك كليلان في معركة السبعة ايام فشلا تكتيكيا ولكنه احتفظ بتفوق استراتيجي كبير الاهمية . لان ايقاف مسيره نحو المجنبة لم يمنعه من دفع قواعده نحو الجنوب على نهر جيمس ، مؤمنا بذلك مواصلاته ومهددا مواصلات العدو الممتدة من ريتشموند نحو الجنوب .

ولكن تبدلا في الاستراتيجية قضى على هذا التفوق ، وذلك عندما اصبح هاليك رئيسا لماك كليلان ، وأمر بسحب الجيش وركوب البحر للعودة الى الشمال والتجمع مع جيش بوب للقيام بهجوم مباشر بري . وأدى تجميع القوة العددية كما يحدث كثيرا في التاريخ الى اقلال القوة بصورة عامة لانها أدت الى نقص خطوط التقدم المحتملة نحو العدو .

لقد كانت استراتيجية هاليك تنفيذا حقيقيا لمبدأ تجميع القوى ، ولكنها

كشفت الاخطار الناجمة عن تطبيق هذا المبدا بشكل روتيني للوصول الى الهدف الحربي ، وظهر عجز استراتيجية الهجوم المباشر المطبقة خلال النصف الثاني من عام ١٨٦٢ عندما فشلت فشلا داميا في فريدريك سبورغ ١٣ ديسمبر (كانون اول) . ولم تؤد هذه الاستراتيجية الى هجوم قوي على ريتشموند بل ادت على العكس الى اجتياح جيش الجنوب لاراضي الشمال بعد ان مُني جيش الشمال بفشله الذريع .

وكان الاجتياح الذي قام به جيش الجنوب غير مباشر استراتيجيا وماديا ومعنويا ، ولكن ضاعت كل مكاسبه عندما قام الجنرال لي بانقضاض مباشر على مواقع الجنرال ميد في جيتسبورغ . وكان انقضاضه عنيدا دون مناورة فخسر فيه نصف جنوده خلال ثلاثة ايام . وفي نهاية هذا العام عاد الجيشان المتحاربان الى قواعد انطلاقهما الاساسية وقد انهكتهما الخسائر الدامية . وتمركزا دون عمل جدي وهما يواجهان بعضهما .

وهكذا كان الفوز في معارك الهجوم المباشر لمن يتمسك بالدفاع ويمنع تقدم الآخر . لان للدفاع في مثل هذه الظروف الاستراتيجية ميزة عدم القيام بجهد عقيمة .

يقول البعض ان فشل الجنرال لي في جيتسبورغ كان نقطة التحول في هذه الحرب ، ولعل في هذا القول بعض المبالغة . اذ يؤكد التاريخ المجرد ان النتائج الحاسمة الحقيقية جاءت من الغرب .

وكانت اولى هذه النتائج في ابريل (نيسان) ١٨٦٣ عندما تغلب الاسطول الشمالي على الحصون التي تحرس مصب نهر المسيسيبي واحتل ميناء نيواورليانز دون سفك دماء ، وكانت هذه عملية جريئة واستراتيجية انتزعت من الاتحاديين خط المسيسيبي الحيوي .

اما النتيجة الثانية فقد تم الحصول عليها بعد ذلك في ٤ يوليو (تموز) في نقطة تقع على نفس النهر والى الشمال قليلا عندما بدا الجنرال لي في التراجع من ميدان معركة جيتسبورغ واحتل جرانت بذلك مدينة فيكسبورغ مما اعطى قوات الشمال السيطرة التامة على هذا الشريان الحيوي . ووجد الجنوبيون انفسهم في معزل تام عن مصادر نجداتهم التي تمدهم بالرجال والعتاد وكانت تقع على ضفاف النهر اليمنى .

ثم وقعت في فبراير ومارس (شباط وآذار) من عام ١٨٦٣ اربع محاولات فاشلة للوصول الى الهدف بمناورات التفاف محدودة المدى. وفي ابريل (نيسان) قام جرانت بهجوم غير مباشر حقيقي يذكرنا بمناورة وولف النهائية امام كيبيك بما فيها من شجاعة وجراة ، وذلك عندما اخترق قسم من اسطول الشماليين المحمل بالجنود مواقع بطاريات فيكسبورغ ليلا دون ان يحتل المدينة واتجه الى مكان يقع على بعد ٣٠ ميلا جنوبي المدينة ، بينما تابع قلب الجيوش البرية زحفه على ضفة نهر المسيسيبي الغربية ، ثم عبر الى الضفة الشرقية دون مقاومة

تحت تغطية عمليات المشاغلة التي قام بها شيرمان في الشمال الشرقي من فيكسبورغ . ولما اجتمع شيرمان مع جرانت قرر الاخير القيام بمخاطرة كادت تعزله عن قاعدته المؤقتة فسار نحو الشمال الشرقي ودخل ارض العدو واندفع في اتجاه مؤخرة فيكسبورغ ، ثم تمركز على خطوط مواصلاتها مع ولايات الاتحاد الرئيسية في الشرق . فرسم بمناورته هذه دائرة كاملة تقريبا ابتداء من نقطة انطلاقه. وبدأ تقدمه اندفاعا بين فكي كماشة العدو المتجمع فيمدينتي فيكسبورغ وجاكسون التي تقع على بعد ٤٠ ميلا الى الشرق (كانت جاكسون نقطة تجمع الخطوط الحديدية القادمة من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب) ولكنه كان ينبغي بعمله هذا احباط عمل الكماشة .

وهنا لا بد لنا من ان نذكر ان وصول جرانت الى هذا الخط الحديدي دفعه الى التفكير في ضرورة دفع كل جيشه في باديء الامر نحو الشرق بقصد ارغام العدو على اخلاء جاكسون ، وهذا يدل على تأثير تطور السكة الحديدية على المعطيات الاستراتيجية . ولو كان نابليون مكان جرانت لاستخدم خطا طبيعيا كنهر او سلسلة هضاب واقام عليه سدا استراتيجيا ، ولكن جرانت اقام هذا السد في نقطة واحدة هي نقطة تجمع السكك الحديدية . ولما سيطر على هذه النقطة غيّر اتجاهه وسار نحو فيكسبورغ التي تم عزلها وسقطت بعد ٧ اسابيع. ونجم عن ذلك ان اصبح الباب الاستراتيجي مفتوحا حتى جورجيا مخزن تموين الاتحاديين ، ومنها نحو بقية ولايات الشرق .

منذ ذلك الوقت اصبحت قوات الاتحاديين معرضةللهزيمة ، ولكن الشماليين اضاعوا فرصة ذهبية للانتصار عندما ظهر عليهم التعب في عام ١٨٦٤ بسبب تأثرهم معنويا بعد ان طالت مدة الحرب . وكانت عودة الجنود متعبين من الحرب تزيد من عدد الراغبين في السلام ، ولكن اقتراب موعد انتخابات الرئاسة التي كان من المقرر ان تجري في نوفمبر (تشرين الثاني) ورغبة انصار لنكولن في الحصول على بشائر النصر حتى لا ينجح مرشح آخر ينادي بسلم مشروط، دفعهم الى استدعاء جرانت من الغرب وتعيينه قائدا عاما . فكيف حصل جرانت على النصر في هذا الوقت القصير ؟ لقد حصل عليه باستخدام الاستراتيجية التي يطبقها خيرة العسكريين ، والتي تقوم على استخدام التفوق في الامكانيات لسحق جيش العدو او انهاكه «بضربات متلاحقة» ولقد رأينا كيف طبق في فيكسبورغ الهجوم غير المباشر بعد فشل مجموعة من عمليات الهجوم المباشر المتتالية . ولقد نجح في هذا العمل بمهارة وشجاعة . ولكن الدرس الذي استفاده من هذه المعركة لم يؤثر كثيرا على تفكيره .

وعندما اصبح جرانت قائدا عاما عاد الى طبيعته ، وقرر العمل حسب الخطة القديمة والقيام بهجوم مباشر بري في اتجاه الجنوب ابتداء من راپاهانوك حتى ريتشموند . وكان هدفه في هذه المرة مختلفا لانه كان موجها نحو جيشي العدو وليس نحو عاصمته . واعطى مرؤوسه الجنرال ميد الامر «بالذهاب الى حيث يوجد الجنرال لي» وهكذا قام جرانت بهجوم مباشر ولكنه لم يكن هجوما جبهيا ،

لانه كان يحاول دائما الالتفاف على جناح خصمه ، حتى لو كانت المناورة على مستوى صغير . كما كان يحترم كل المبادىء العسكرية ويحتفظ بجيشه متجمعا، ولا ينحرف عن هدفه ويغير اتجاهه لمتابعة اهداف جانبية . وكانت «رغبته في النصر» كبيرة لدرجة تفوق رغبة المارشال فوش . والعسكريون الذين طبقوا طريقته خلال حرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨ حسدوه ولا شك على ثقة رؤسائه به ومساندتهم له . ومن النادر توفر ظروف ملائمة كهذه لتطبيق استراتيجية الهجوم التقليدية .

ومما يدعو الى السخرية ان جرانت قاد جنوده المتفوقين عدديا بكل حماسة، ثم تناقص عدد رجاله بشكل مريع بعد المعارك الطاحنة دون ان يتمكن من سحق العدو او الوصول لنتيجة حاسمة . بينما جاءت الثمرة الرئيسية والمكاسب الجغرافية التي تم الحصول عليها من العمليات قرب وحول ريتشموند كنتيجة لمناورات تمت دون سفك دماء . وهكذا قنع جرانت في النهاية بنتيجة متواضعة هي العودة الى المواقع التي كان ماك كليلان قد احتلها في عام ١٨٦٢ بعد ان تكبد خسائر فادحة . وجاء الانقاذ على يد شيرمان الذي حل محل جرانت في قيادة القوات بالغرب بعد ان استلم جرانت مهمة القائد العام ، وكانت اهدافهما متناقضة ، اذ كان هدف جرانت الرئيسي هو جيش العدو بينما كانت طريقة شيرمان مبنية على تهديد النقاط الاستراتيجية بشكل يرغم العدو على كشف نفسه عند محاولة تغطية هذه النقاط ، او يضطره الى اخلائها للمحافظة على قواه . وكان لشيرمان دائما هدفان متناوبان ، يحتل واحدا منهما فقط اثناء التنفيذ لتنفتح امامه اتجاهات ومجالات واهداف اخرى . وكانت اتلانتا قاعدة جيش العدو فهي نقطة التقاء اربعة خطوط حديدية هامة ، كما انها مستودع تموين حيوي وهي مملوءة بأفران صهر الحديد ومعامل الاسلحة علاوة على انها رمز معنوي كبير .

ومهما اختلفت النظريات حول اهداف جرانت وشيرمان فان هدف شيرمان كان اقرب للنفسية الديموقراطية واكثر توافقا معها . اذ لا يستطيع اعتبار «القوى المحاربة» المعادية هدفا عسكريا الا قائد يتمتع بالسلطة المطلقة ، والمركز الوطيد ، وهو قد يستطيع حينئذ ان يتصرف بذكاء وحكمة ، ويطابق بين الهدف وحقيقة الموقف بعد ان يكون قد وزن امكانيات تحقيق الهدف . ولكن الرجل العسكري الذي يعمل في خدمة الدولة الديموقراطية لا يملك مثل هذه الحرية لاعتماده على تأييد وثقة رؤسائه ، ويظل عمله ضمن حدود زمنية ومادية أضيق من الحدود المتاحة للرجل العسكري «المطلق التصرف» ، كما انه يكون اكثر تعجلا للحصول على النتائج بسرعة . وهو لا يستطيع تأخير اعلان مكاسبه الحقيقية مهما كانت الاهداف المطلوبة ، كما انه يضطر احيانا الى الابتعاد فترة ما عن هدفه الاولي او على الاقل اظهاره بشكل آخر ، مع تبديل خط العمليات . واننا لنتساءل امام هذه الحقيقة التي لا يمكن تجنبها الا ينبغي ان تكون النظرية العسكرية اقوى بنيانا

بحيث تستطيع الملاءمة بين هدفها وبين الواقع الاليم ؟ ان جهدها العسكري يعتمد على القاعدة الشعبية ، ويتوقف دعمها بالرجال لمتابعة القتال على ارادة رجـــل الشارع ، ويستطيع الرجل العسكري ان يحصل على ما يريد اذا استطاع ان يقنع الشعب بالموافقة على خططه العسكرية .

ومما يزيد قيمة مبدأ الاقتصاد في القوى الذي طبقه شيرمان بفضل المناورة مقارنته بمناورة جرانت العقيمة في فيرجينيا وملاحظة ارتباطها عمليا بالخـــط الحديدي في عمليات التموين . ولم يشتبك شيرمان في هجوم مباشر ، بل قطع نفسه عن خطوط مواصلاته لمدة محدودة وعمل مناورة مدتها ثلاثة اسابيع لم يقم خلالها الا بهجوم جبهي واحد في جبل كينساو ، بعد ان اضطر للقيام به ليوفر على وحداته عناء سير طويل في طرق غارقة بالامطار . واصيب هجومه هـــذا بهزيمة خفف من نتائجها توقفه عن الهجوم عند ظهور اول بادرة من بـــوادر الفشل . ولقد زحف خلال مناورته ١٣٠ ميلا في منطقة جبلية كثيرة الانهار ، وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي زج فيها برجاله في معركة هجومية ، لانه كان يستعيض عن الهجوم بالمناورة الماهرة التي خدعت الاتحاديين عدة مرات ودفعتهم الى القيام بهجمات فاشلة كثيرة الخسائر ، خاصة وان حركات شيرمان الهجومية كانت متوافقة دائما مع اسلوب جيد في بناء التحصينات الميدانية بسرعة . وكان كل فشل يصاب به خصومه يعني بالنسبة له ربحا استراتيجيا جديدا متمثلا في احتلال نقطة هامة . وهكذا فان ارغام عدو مشغول بالدفاع الاستراتيجي علـــى القيام بسلسلة هجمات تكتيكية فادحة التكاليـــــف يعتبر نموذجا رائعا للفـــن الاستراتيجي النادر المثال . ويزيد من اهمية هذا المثال ان شيرمان كان يعتمد على خط مواصلات واحد . واذا ما نظرنا الى هذا العمل من الوجهة العسكرية البحتة ، ولم ندخل في حسابنا نتائجه المعنوية والاقتصادية الهامة ، وجدنا انه يعتبر نصرا كبيرا لانه سبب للعدو خسائر اكبر من الخسائر التي تحملها شيرمان.

بعد احتلال اتلانتا قام شيرمان بمغامرة اكبر اثارت انتقاد كثير من المعلقين العسكريين . لقد فكر في ان تدمير شبكة السكك الحديدية في جورجيا (مستودع حبوب الجنوب) واختراق كارولينا قلب الجنوب يؤديان الى ضغط معنوي كبير ، والى وقف التموين المتجه نحو ريتشموند في الشمال وجيش لي الاتحادي في الجنوب مما يسبب حتما انهيار مقاومة الاتحاديين .

وهكذا تجاهل جيش هود الذي انسحب من اتلانتا ، وقام بزحفه المشهور نحو البحر عبر جورجيا متمونا من المدن الواقعة على طريقه ، ومدمرا السكـك الحديدية التي تصادفه ، لقد ترك اتلانتا في ١٥ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٦٤ ووصل الى سافانا في ١٠ ديسمبر (كانون اول) حيث اعاد تنظيم مواصلاته بحرا. وهنا يجدر بنا ان نذكر حكم المؤرخ الاتحادي الجنرال الكسندر الذي كتب « لا يمكن الشك في ان التأثير المعنوي لهذا الزحف عبر كل البلاد ... كان اكبر من تأثير اي انتصار .» ثم توجه شيرمان نحو الشمال عبر كارولينا متجها نحـــو مؤخرات الجنرال لي وحرم الاتحاديين من الموانىء الرئيسية الباقية لهم .

ان الاساليب التي استخدمها شيرمان في عملياته تستحق دراسة عميقة . لانه عزل نفسه عن قواعده عند تقدمه عبر كارولينا ، كما استغنى عن جميع التجهيزات الزائدة حتى غدا جيشه قوة سريعة الحركة مؤلفة من وحدات خفيفة تعدادها ٦٠ الف رجل . وكانت فيالقه الاربعة مستقلة عن بعضها وتعمل معها مفارز من الخيالة التي تقوم بأعمال الاستطلاع والتدمير وبث الذعر وتسير كستارة امام جبهة التقدم وعلى مجنبات الوحدات .

وبالاضافة الى ذلك فقد ادخل شيرمان اثناء التقدم تحسينات في طريقته الاستراتيجية، ذلك انه لم يكن قد نسي الضرر الذي لحقه في معركة اتلانتا منجراء توجهه نحو هدف جغرافي واحد الامر الذي سهل مهمة خصمه التي اقتصرت على وقف تهديد واحد . ولقد تدارك شيرمان فيما بعد هذا النقص بعبقريته واوقع الخصم في شك دائم . ولقد اختار شيرمان بالفعل خط هجوم يضع الاتحاديين دائما في شك وحيرة ، كالخط المؤدي الى كل من ماكون او اوغوستا على ان يتم الاختيار بين الهدفين خلال التنفيذ . لقد كان له دائما هدف مفضل ، ولكنه كان قادرا على التوجه نحو الهدف الآخر اذا تطلب الموقف ذلك . وهكذا استطاع بفضل اتجاهه المخادع القاء الحيرة في نفوس اعدائه بحيث لم يضطر مرة واحدة الى التخلي عن هدفه الاصلي .

ولقد برهن شيرمان بزحفه عبر جورجيا كيف يمكن تحريك الجيش بسهولة وجعله خفيفا الى اقصى درجة . وحاول اثناء تقدمه في بادىء الامر نحو الشمال عبر كارولينا ان يقلب جيشه الى «آلة متحركة حسب الطلب ، وقادرة على الانطلاق في طرفة عين والعيش على اقل الوجبات» . ورغم حلول الشتاء فان الجنود وضباطهم كانوا قادرين على الاقامة تحت قطع من القماش ممدودة فوق اعمدة او اقواس خشبية بعد الاستغناء عن الخيام ومهمات المعسكرات .

ثم اخذ شيرمان اتجاها جديدا سبب حيرة الاعداء بين هدفين محتملين ، فلم يستطيعوا اتخاذ قرار لتغطية مدينتي اوغوستا او شارلستون ، وانتهى بهم الامر الى توزيع قواتهم . ولكنه تجاهل كلتا المدينتين وتوغل بينهما نحو كولومبيا عاصمة كارولينا الشمالية ومركز افضل قواعد تموين الجنرال لي . وزادت شكوك الاتحاديين واصبحوا عاجزين عن معرفة هدفه الحقيقي ، أهو شارلوت ام فاييت فيل . ولما ترك فاييتفيل وقعوا في حيرة بين هدفين آخرين هما راليبت وجولدسبورو ، وكان شيرمان نفسه يفكر في الاختيار بين هدفين هما جولد سبورو وويلمنغتون .

لذا يمكننا اعتبار التأثيرات المعنوية والمادية لاختيار محور هجوم مفاجىء تفسيرا معقولا لتقدمه بدون توقف مسافة ٤٢٥ ميلا في منطقة مليئة بالحواجز الطبيعية كالانهار والمستنقعات ، وضد عدو لديه الامكانيات الكافية للقيام بمقاومة جدية . وجاءت مرونة شيرمان لتساعده على تنويع اختيار الهدف وجعلت تقدمه لا يقاوم . ولقد كان يتقدم على جبهة عريضة غير منتظمة بقوات مؤلفة من اربعة

الى ستة أرتال يغطي كل واحد منها ستارة من مفارز الخيالة للاستطلاع والتخريب وبث الذعر . فاذا ما توقف احد أرتاله كان الثاني قادرا على متابعة السير الى الامام . وكانت اساليب عمل أرتاله ونتائج تقدمها مشابهة لعمل القوات المدرعة التي اجتاحت فرنسا في عام ١٩٤٠ . وكانت الوحدات المعادية تضطرب وتفقد توازنها وتتحطم معنوياتها فتنسحب قبل وقوع اي ضغط مادي. واصبحت الافكار مشغولة بمناورة شيرمان لدرجة دفعت الاعداء الى التفكير في القتال التراجعي بمجرد تمركزهم على مواقعهم الدفاعية . لقد كانت الثقة قادرة على كسب نصف المعركة ، كما كان تحطيم ثقة العدو قادرا على اكتساب اكثر من النصف ، لان ثمراته تاتي بدون معركة . وكان شيرمان اهلا لان يقول كما قال نابليون في النمسا : «لقد دمرنا العدو بمجرد تقدمنا» .

في ٢٢ مارس (آذار) وصل شيرمان الى جولد سبورو حيث اتصل مع جيش شوفيلد وتموّن واستعد للمرحلة النهائية المؤدية الى اشتباكه مع الجنرال لي الذي بقي في ريتشموند حتى ذلك الوقت . ولم يتابع جرانت زحفه الا في بداية ابريل (نيسان) وحصل آنذاك على نصر كبير ، وسقطت مدينة ريتشموند ثم اعقبتها هزيمة جيش لي بعد اقل من اسبوع واحد . فاذا ما نظرنا الى هذه الانتصارات نظرة سطحية رأيناها تؤيد استراتيجية جرانت المباشرة وهدفه في البحث عن «المعركة» ولكن النظرة العميقة تدلنا على ان انهيار الاتحاديين امام جرانت يعود الى خواء بطونهم وتأثير ذلك على روحهم المعنوية ، والى الاخبار السيئة التي كانت تنهال عليهم من عائلاتهم حتى ان جرانت كتب قبل وصول شيرمان الى جولد سبورو : «لقد فقد جيش لي الان معنوياته ويمكن الان تحطيمه بسهولة » .

وكان الهجوم غير المباشر على مؤخرات العدو الاقتصادية والمعنوية حاسما في المرحلة الاخيرة ، كما كان حاسما من قبل في مختلف المراحل المتعاقبة التي ادت الى تحقيق النصر في مناطق الغرب .

وتبدو هذه الحقيقة بوضوح لكل من يدرس تلك الحرب بعمق وفطنة . ولقد توصل الجنرال ادموندز الى الاستنتاج التالي في نهاية كتابه عن تاريخ الحرب الاهلية الامريكية «لقد كانت عبقرية القادةالاتحاديين العسكرية مثل لي وجاكسون، وقدرة جيش فرجينيا الشمالية على القتال ، وتقارب العواصم المتعادية اسبابا رئيسية في جذب الانظار نحو حقل العمليات الشرقي . ولكن الضربات الحاسمة تمت في الغرب . ان احتلال فيكسبورغ وبورت هدسون في يوليو (تموز) ١٨٦٣ كان نقطة تحول هامة في الحرب . كما ادت عمليات شيرمان في الغرب الى انهيار الاتحاديين واستسلام الجنرال لي في الشرق» .

معارك مولتكه :

هناك اختلاف متعدد النواحي بين الحرب الاهلية الامريكيـــة وبين الحربين الاوربيتين اللتين وقعتا بعدها مباشرة .

ويعود الاختلاف الاول الى استعداد كلا المعسكرين في عام ١٨٦٦ وفي عام ١٨٧٠ للقيام بالحرب على الاقل على الورق .

كما يعود الاختلاف الثاني الى ان القوات المتحاربة في أوربا كانت نظاميـــة محترفة . اما الاختلاف الثالث فهو ارتكاب القيادة العليا لكلا المعسكرين اخطـاء فاحشة تفوق ما وقع في الحرب الاهلية الامريكية . ويعود الاختلاف الرابع الى فقدان عنصري المهارة والفن في الاستراتيجية الالمانية خـــلال هاتين الحربين . والاختلاف الخامس والاخير هو الحصول على نتائج سريعة رغم كل هذه العيوب.

كانت استراتيجية القائد الالماني مولتكه عبارة عن هجوم مباشر مع بعـــض الخدع . وكان يعتمد على عامل الصدمة الناجم عن تجميع قوى متفوقة . فهل يمكن اعتبار هاتين الحربين بمثابة استثناء يؤيد القاعدة ؟ لقد كانتا غريبتين فعلا ولكنهما لا تؤثران على القاعدة التي حصلنا عليها بعد سلسلة طويلة من دراســة الحالات الواقعية . اذ ليس في هذه الحالات حالة واحدة اجتمع فيها ضعـــف الافكار مع ضعف الامكانيات لدى المغلوب بهذه الصـــورة التي اثرت علـــى ميزان القوى .

في عام ١٨٦٦ كانت امكانيات النمساويين ضعيفة نظـــرا لسوء تسليحهم . وكان البروسيون يملكون بندقية ذات مغلاق للتلقيم تمتاز عن البندقية النمساوية التي يتم تلقيمها من الفوهة . وبدا هذا التفوق بكل وضوح في حقل المعركة رغم المحاولات التي تمت بعد ذلك للاقلال من قيمته . وفي عام ١٨٧٠ كان ضعـــف الفرنسيين ناتجا عن قلة تعدادهم وضعف تدريبهم العسكري .

ان هذه المعطيات كافية لتفسير هزيمة النمساويين النكراء في عـــام ١٨٦٦ وهزيمة الفرنسيين في عام ١٨٧٠ . وليس في العالم رجل عسكري استراتيجي واحد يستعد للحرب ويبني مخططاته مفترضا ضعف العدو ماديا وفكريا كما كان النمساويون في عام ١٨٦٦ والفرنسيون في عام ١٨٧٠ .

كما ان الاستراتيجية الالمانية المباشرة في بدايتها انقلبت اثناء التنفيـــذ واصبحت غير مباشرة نسبيا ، واظهرت قدرا كبيرا من المرونة ، ونجحت فـــي تحقيق النصر . ولكن بعض الاستنتاجات السطحية عزت النصر بعد ١٨٧٠ للهجوم المباشر ولم تر الحقيقة السافرة . وامتد الخطأ بعد ذلك حتى سطر على الحرب الروسية اليابانية .

الحرب الروسية اليابانية ١٩٠٤ ــ ١٩٠٥ :

كان القادة اليابانيون يقلدون القادة الالمان ولهذا جاءت استراتيجيتهم علـــى

شكل استراتيجية هجوم مباشر ، ولا نجد فيها محاولة فعلية للافادة من اعتماد اعدائهم الروس على خط حديدي واحد يسير عبر سيبريا . لقد كان الجيش الروسي يتنفس بقصبة طويلة ضيقة بشكل لم يعرفه التاريخ العسكري من قبل. وزادت ابعاد روسيا الشاسعة من صعوبة هذا التنفس . ولكن الاستراتيجيين اليابانيين تجاهلوا هذا ووجهوا ضرباتهم مباشرة نحو الجيش الروسي وجمعوا قواتهم في جبهة اضيق من جبهة مولتكه في عام ١٨٧٠ . وحاولوا مع ذلك احيانا القيام بهجوم من جهات مختلفة للالتقاء في نقطة واحدة قبل لياو ـ يانغ. كما حاولوا بعد شن الهجوم القيام بعدة عمليات التفاف حول الروس . ولكن مناورات الالتفاف هذه كانت كبيرة على الخريطة وضيقة جدا اذا ما نظرنا اليها على مستوى الجيوش . ولم يكن اليابانيون يملكون جيشا مستقلا كما كان يملك مولتكه ، كما لم توفر لهم الظروف طعما غير متوقع مثل ميتز ، او قائدا يبتلع الطعم كما ابتلعه ماكماهون (لانهم ابتلعوا طعمهم بأنفسهم عندما احتلوا بورت آرثور) . كان القادة اليابانيون يحلمون بالقيام بمعركة تشبه معركة سيدان . ولكنهم قاموا بدلا من ذلك بمجموعة من المعارك الدامية غير الحاسمة . وكانت النتيجة انهاك جيوشهم بعد المعركة الاخيرة غير الحاسمة في موكدن لدرجة دفعتهم الى توقيع الصلح مع عدو لا يرغب في القتال ، ولم يدفع في المعركة حتى ذلك الوقت سوى عشر قواته .

اذا نظرنا للمعلومات العسكرية نظرة عامة نجد ان التأمل والتفكير ينطويان على فائدة كبيرة في معظم الاحيان . ولهذا فاننا اذا ابتعدنا قليلا عن خط هذا الكتاب، وجدنا شبها كبيرا بين بورت آرثور ومانتوا مع الاخذ بعين الاعتبار العقبات التي واجهها اليابانيون بسبب ضعف مواصلاتهم وصعوبة الاراضي في كوريا ومنشوريا . ومع الاعتراف بأن الظروف كانت قاسية بالنسبة لهم في بعض الاحوال فانها كانت طيبة في أحوال اخرى ، وكان جهازهم الحربي افضل وأكثر إعدادا . وهذا يدفعنا الى التساؤل باستغراب لماذا لم تقم الاستراتيجية اليابانية باستخدام طعم بورت آرثور في المرحلة الاولى للحرب كما فعل بونابرت في مانتوا ! ولماذا لم تقطع قصبة تنفس الجيش الروسي التي تربط بين خاربين وموكدن ؟

الفصل العاشر

استنتاجات مستنبطة
من دراسة خمسة وعشرين قرنا

لقد تناولت هذه الدراسة الـ ١٢ حربا التي أثرت على سير التاريخ الاوربي القديم بشكل حاسم . كما تناولت الـ ١٨ حربا رئيسية في التاريخ الحديث حتى عام ١٩١٤ وقد اعتبرت كل القتال الذي دار ضد نابليون بمثابة حرب واحدة ، هذا القتال الذي لم يكن يهدأ في مكان الا ليبدأ من جديد بصورة أعنف في مكان آخر . وتشمل هذه الحروب الثلاثين اكثر من ٢٨٠ حملة ، تم في ستة منها فقط النصر الحاسم بتطبيق مخطط استراتيجي يعتمد على الهجوم المباشر ضد جيش العدو الرئيسي في معارك ايسوس وغوغامل وفريدلاند وفاغرام وسادوفا وسيدان . كما ان زحف الاسكندر المقدوني في الحملتين الاولى والثانية كان قد اعد على اساس الهجوم غير المباشر على مستوى الاستراتيجية العليا فمهد بذلك الى تدمير ثقة الفرس وحلفائهم بأنفسهم . وفضلا عن ذلك فان النجاح في ميدان المعركة كان مضمونا نتيجة امتلاك جهاز حربي تكتيكي ذي قدرة عالية واستخدم في هجوم غير مباشر تكتيكي او فني .

اما في الحملتين الثالثة والرابعة فقد بدأ نابليون عمله بمحاولة هجوم غير

مباشر ، ثم تركها واستخدم الهجوم المباشر لنفاد صبره واعتماده على تفوق جهازه الحربي المبني على استخدام المدفعية بكثافة وتركيز النيران على نقطة حساسة رئيسية . وجاء النصر في فريدلاند وفاغرام كثمرة لهذه الطريقة التكتيكية الجديدة . ولكن ثمن هذين الانتصارين وتأثيرهما السيء على مصير نابليون لا يشجع على استخدام هذه الطريقة المباشرة حتى بعد الحصول على تفوق تكتيكي مشابه .

وفي معركتي سادوفا وسيدان كان الهجوم مباشرا ولكنه تطور بشكل غير ارادي واصبح هجوما غير مباشر زاد من تأثيراته تفوق التكتيك البروسي بفضل البندقية ذات المغلاق في سادوفا ومزايا المدفعية في سيدان .

ان تحليل هذه الحملات الست لا يبرر مطلقا استخدام الطريقة المباشرة في الاستراتيجية ، هذا مع ان استخدام طريقة الهجوم المباشر خلال التاريخ كان اكثر حدوثا ، واستخدام الهجوم غير المباشر نادر الوقوع . ومن المفيد معرفة ان القادة لم يستخدموا الطريقة غير المباشرة كاستراتيجية اساسية بل كحل اخير لا مناص منه . ولقد اعطتهم هذه الطريقة الحل المناسب في الوقت الذي فشل فيه الهجوم المباشر ووضعهم في موقف ضعيف نسبيا ولا يساعد تماما على تطبيق الاستراتيجية غير المباشرة . والحصول على نجاح حاسم في مثل هذه الظروف غير المواتية يتسم اذن باهمية خاصة .

ولقد اظهرت الدراسة ان عددا كبيرا من المعارك تتصف بهجوم غير مباشر واضح وضوح نتائجها الحاسمة، ونذكر معارك ليزاندر (٤٠٥ ق.م) وايبامينونداس في بلاد البيلوبونيز (٣٦٢ ق.م) وفيليب في بيوسيا (٣٣٨ ق.م) والاسكندر المقدوني (٣٠٢ ق.م) ومعارك هانيبال عند ترازيمين ، وسيبيون في افريقيا في معركتي أوتيك وزاما ، ومعركة ليردا التي قام بها يوليوس قيصر . كما نذكر في التاريخ الحديث معارك بريستون ودومبار وورسيستر التي قام بها كروموبل ، ومعارك تورين في الالزاس ١٦٧٤ ــ ١٦٧٥ ، ومعركة الامير اوجين في ايطاليا عام ١٧٠١ ومعركة الفلاندر التي قام بها مارلبورو في ١٧٠٨ وفيلار في ١٧١٢ ومعركة كيبيك التي قام بها وولف ، ومعركتي الموزيل والرين اللتين قام بهما الارشيدوق شارل في عام ١٧٩٦ ومعارك بونابرت في ايطاليا ١٧٩٦ ــ ١٧٩٧ ــ ١٨٠٠ ومعاركه في هولم واوسترليتز ١٨٠٥ ومعركة جرانت في فيكسبورغ ومعركة شيرمان في اتلانتا . كما كشفت الدراسة عددا لا يحصى من المعارك الثانوية التي كانت فيها صفتا الحسم والهجوم غير المباشر أقل وضوحا .

ان هذا العدد الكبير من المعارك الحاسمة التي تتميز بقلة حالات الهجوم المباشر فيها يؤيد استنتاجنا بأن الهجوم غير المباشر هو الشكل الاستراتيجي الافضل للوصول الى الهدف .

ونستطيع الان استنباط استنتاجات اكثر دقة من دراسة التاريخ ومنها ان القادة الذين كان النصر معقودا بلوائهم ، باستثناء الاسكندر المقدوني ، لم يهاجموا ابدا بصورة مباشرة عدوا متحصنا في موقع قوي من الوجهة المادية او الطبيعية .

وعندما كانت الظروف ترغمهم على القيام بالهجوم فانهم كانوا يفشلون فشلا يشوه قائمة انتصاراتهم. والتاريخ يثبت ان القائد العظيم كان يترك الهجوم المباشر ليسلك سبيل الهجوم غير المباشر مهما بلغت خطورته حتى لو اضطره الامر الى اجتياز الجبال او الصحاري او المستنقعات ، مستخدما جانبا صغيرا من قواته فقط ، وعازلا نفسه اذا لزم الامر عن خطوط مواصلاته . لقد كان يفضل مجابهة الظروف الطبيعية القاسية عن التعرض لخطر الفشل الكامن في كل هجوم مباشر.

ان مفاجآت الطبيعة اقل خطرا وتقلبا من مفاجآت القتال ، والمعطيات الطبيعية كلها يمكن حسابها ، واجتياز الحواجز الطبيعية اسهل من التغلب على حدود المقاومة البشرية لان الاعداد والتخطيط الجيدين يساعدان على اجتياز هذه الحواجز في اللحظة المحددة . وقد استطاع نابليون في عام ١٨٠٠ اجتياز جبال الالب حسب المخطط الموضوع ، ولكن مقاومة حصن بارد الصغير عرقلت جديا حركة جيشه ووضعت مخططه بكامله في كف القدر .

واذا نظرنا الى الموضوع من زاوية اخرى ، وفحصنا كل معركة حاسمة في التاريخ لوجدنا ان المنتصر جذب خصمه في معظمها ووضعه في موقف يضعف روحه المعنوية قبل الدخول في المعركة . وهذا ما حدث في ماراتون وسالامين وايغوس بوتاموس وماتينيه وكيرونه وغوغامل (على مستوى الاستراتيجية العليا) وايداسب وايبسوسي وترازيين وكان وزاما وتريكاميرون وتاجيناي وهاستينغر وبريستون ودومبار ووورسيستر وبلنهايم واودونارد ودونان وكيبيك وفلوروس وريفولي واوسترليتز وبينا وفيكسبورغ وسادوفا وسيدان .

فاذا ربطنا التحليل الاستراتيجي بالتحليل التكتيكي وجدنا ان معظم هذه الامثلة تدخل في احد الشكلين التاليين : اولهما يتعلق باستراتيجية دفاع مرن وتراجع مدروس يتوج بهجوم تكتيكي ، وثانيهما يتعلق باستراتيجية هجومية تهدف الى اتخاذ موضع يفقد الخصم توازنه وتتوج بدفاع تكتيكي «مع توجيه ضربة الى المؤخرة» . ان هاتين الصورتين هما من صور الهجوم غير المباشر واساسهما النفسي يمكن التعبير عنه بكلمتي «طعم» و«فخ» .

ويمكننا ان نقول بشكل اوسع واعمق من مفهوم كلوزفيتس ، بأن الدفاع هو شكل الاستراتيجية الاقوى والاكثر اقتصادا . ومع ان الشكل الثاني الناجم عن الاستراتيجية الهجومية يتصف بصورة عامة بصفة المناورة الهجومية فان له هدفا مستورا هو دفع العدو الى القيام بحركة خاطئة لاستغلال قوته ذاتها ، كرافعة تساعد على سقوطه .

ان الهجوم غير المباشر في الاستراتيجية الهجومية عبارة عن حركة عسكرية وإدارية ضد هدف اقتصادي هو مركز تموين الدولة المعادية او مركز تموين جيشها . ولقد كان لبعض الحركات هدف نفسي بحت كما كان الحال في عمليات بيليزير . ومهما كان الشكل المستخدم فان الهدف المنشود هو زعزعة افكار ومواقع العدو وهذه النتيجة هي حجر الزاوية في استراتيجية الهجوم غير المباشر .

وهناك استنتاج آخر ينبثق من دراستنا ويدعو الى التأمل والتفكير وهو ضرورة تجميع القوى عند الاشتباك مع عدة دول او عدة جيوش ضد العدو الاضعف بدلا من محاولة تدمير العدو الاقوى بدافع الفكرة القائلة بأن تدمير القوي يؤدي حتما الى انهيار الآخرين .

ويلاحظ في حربين من اهم الحروب في العصور القديمة ان هزيمة الفرس امام الاسكندر المقدوني وهزيمة قرطاجة امام سيبيون جاءتا بعد تدمير «جذورهم».

ولم تخلق هذه الاستراتيجية العليا في الهجوم غير المباشر الامبراطوريتين المقدونية والرومانية فحسب ، ولكنها خلقت ايضا فيما بعد الامبراطورية البريطانية ، كما قامت عليها قوة امبراطورية نابليون ، وقوة بناء الولايات المتحدة الامريكية بعد ذلك .

ان من المتعذر فهم استراتيجية الهجوم غير المباشر وتقديرها حق قدرها الا بعد دراسة تاريخ الحروب كله . ولكن يمكن تركيز الدراسات في مثالين بسيطين: الاول سلبي والثاني ايجابي . ويقول الاول ان ليس في التاريخ قائد له العذر في دفع قواته الى هجوم مباشر ضد عدو متمركز بشدة في مواضع معينة . ويقول الثاني انه يجب تدمير توازن العدو قبل القيام بالهجوم الحقيقي بدلا من القيام بهذا الهجوم بقصد تدمير هذا التوازن .

ولقد اصاب لينين عندما قال : «ان افضل استراتيجية في الحرب تتمثل في تأجيل العمليات الى ان يسمح لنا تفكك العدو المعنوي بتوجيه الضربة القاضية اليه بسهولة» . وليس هذا الامر ممكنا دائما ، ولكن يمكن تعديله ليصبح كما يلي : «ان افضل استراتيجية في الحرب تتمثل في تأجيل المعركة . وافضل تكتيك هو تأجيل الهجوم وذلك الى ان يسمح تفكك العدو المعنوي بتوجيه ضربة حاسمة له » .



القسم الثاني

الاستراتيجية خلال الحرب العالمية الأولى

الفصل الحادي عشر

المخططات ونتائجها
في مسرح العمليات الغربي في عام ١٩١٤

ان المخططات التي وضعت قبل الحرب العالمية الاولى يمكن ان تكون نقطة انطلاق لدراسة العمليات الحربية التي دارت في الجبهة الغربية . لقد كان طول الجبهة الفرنسية ـ الالمانية ٢٥٤ كيلومترا فقط ، ولم تكن هذه المسافة الصغيرة لتسمح للجيوش الكبيرة التي عبئت واعدت للحرب باجراء مناورات . وكانت نهاية الجبهة الجنوبية الغربية تستند الى سويسرة ، فاذا ما سرنا نحو الشمال واجتزنا مسافة صغيرة في المناطق المستوية قرب بيل فورت وجدناها تسير خلال ١٢٠ كيلومتر مع طول جبال الفوج ومنها تمتد من الناحية الفرنسية وراء سلسلة من الحصون المستندة على مواقع ايبينال وتول وفيردان لتصل الى حدود لوكسومبورغ وبلجيكا . وكان المخطط الفرنسي الموضوع بعد كارثة عام ١٨٧٠ مبنيا على دفاع رئيسي يعتمد على حصون الحدود ويتحول في النهاية الى ضربة حاسمة ضد العدو . لذا انشأ الفرنسيون بناء على هذه الفكرة الاستراتيجية جهاز تحصينات كبير على طول الالزاس واللورين وتركوا فيه ثغرات (كثغرة شارم بين تول وايبينال) بقصد جذب اندفاع تيار الهجوم الالماني في اتجاه معين بشكل

يؤمن القيام بالضربة المضادة بشكل دقيق وفعال .

ولقد كان هذا المخطط ينطوي على نوع من الاستراتيجية غير المباشرة في نطاق الميادين التي توفرها جبهة القتال الضيقة ، كما كان يحترم بشدة حياد البلاد المجاورة .

ولكن ظهرت في السنوات العشر التي سبقت ١٩١٤ مدرسة جديدة يرأسها العقيد الفرنسي دوغران ميزون وبدات بمناقشة ومهاجمة هذا المخطط لانه لا يتلاءم مع العقلية الفرنسية ، ويتضمن تجاهلا تاما تقريبا للفكرة الهجومية . ووجد انصار الهجوم المتحمسين في جوفر الذي عين رئيسا لاركان الحرب الفرنسية في عام ١٩١٢ شخصية تناصر فكرتهم . فما ان وصلوا الى مراكز القيادة في الجيش الفرنسي حتى اهملوا المخطط القديم ، ووضعوا المخطط المشهور رقم «١٧» الذي لم يكن سوى استراتيجية مباشرة عادية بشكل هجوم عميق تقوم به «كل القوى مجتمعة» ضد مركز القوات الالمانية . وللقيام بهذا الهجوم الجبهي على طول الجبهة افترض الفرنسيون وجود تعادل في القوى مع عدو يعتمد على منطقة حدوده الحصينة بينما يحرم التوغل في العمق الفرنسيين من مزايا حدودهم وحصونهم . وكانت الناحية الوحيدة الذكية المتلائمة مع دروس التاريخ والعقل في هذا المخطط هي عدم مهاجمة حصن ميتز والاكتفاء بتثبيته ، على ان يتم الهجوم في اللورين الى شماله وجنوبه . وكان على الجناح الايسر مد الهجوم ضمن اقليم اللوكسمبورغ البلجيكي اذا خرق الالمان الارض المحايدة . وهكذا كان المخطط الفرنسي مستمدا من نظريات المفكر الالماني كلوزفيتس بينما كان المخطط الالماني يتشابه مع آراء نابليون وافكار هانيبال .

ولم يكن اشتراك الوحدات البريطانية في المخطط الفرنسي وليد الدراسة السابقة وانما جاء نتيجة «للفكرة الاوروبية» التي نشأت عند الانكليز خلال السنوات العشر التي سبقت الحرب . ودفعتهم الى قبول القيام بدور «حلقة اضافية» لجناح الفرنسيين ، الامر الذي أبعدهم عن انتهاج الطريقة التي مارستها بريطانيا خلال تاريخها كله ، وهي الطريقة التي تعتمد على سرعة الحركة التي توفرها لها السيطرة البحرية . وفي الاجتماع الحربي الذي عقد يوم اعلان الحرب أظهر جون فرينش قائد الحملة البريطانية شكا في المخطط وطلب الذهاب الى انفرس لدعم مقاومة البلجيكيين وتهديد مؤخرة الجناح الايمن للجيوش الالمانية اذا دخلت فرنسا عبر بلجيكا . ولكن الجنرال هنري ويلسون رئيس العمليات الحربية تعهد بأن تعمل القيادة البريطانية العامة دائما بالتعاون المباشر مع الفرنسيين . وهكذا أدت الاتفاقيات العسكرية التي استمرت من عام ١٩٠٥ الى عام ١٩١٤ الى فتح الطريق امام سياسة حربية تختلف تماما عن السياسة البريطانية التقليدية المطبقة خلال عدة قرون .

ولكن اضطر الجميع امام الامر الواقع الى رفض فكرة فرينش وتجاهل رغبة هيج الذي كان يود تأخير انزال القوات البريطانية من السفن حتى يصبح الموقف اكثر وضوحا . كما لم يؤخذ في الاعتبار اقتراح كيتشنر بعدم تجميع القوات

البريطانية في مكان قريب من الجبهة .

وساعد المخطط الفرنسي الجديد المخطط الالماني الاساسي الذي وضعه شليفن في عام ١٩٠٥ على طريقة هجوم غير مباشر حقيقي . ولم يجد الالمان امام السد الفرنسي المنيع القائم على طول الجبهة المحصنة سوى حل وحيد منطقي هو الاستدارة حول الحاجز باجتياز بلجيكا . واختار شليفن هذا السبيل وقرر القيام بحركة التفاف واسعة ما امكن ، ولكن القيادة الفرنسية لم تدرك ذلك وظلت تفترض حتى عندما اجتاح الالمان بلجيكا في شهر اغسطس ١٩١٤ ان الجيوش الالمانية ستسلك السبيل الاقصر شرقي نهر الموز وتزحف في جبهة اضيق .

كان مخطط شليفن يقضي بتركيز الجزء الاكبر من القوات الالمانية عند جناحها الايمن الذي كان عليه ان يجتاز بلجيكا وشمال فرنسا بسرعة ثم يبدل اتجاهه وينحرف نحو الشرق قليلا . على ان يقوم الطرف الايمن لهذا الجناح باجتياز نهر السين قرب روان ، ويتجه الى الجنوب نحو باريس ويدفع الفرنسيين امامه في اتجاه نهر الموزيل ويحصرهم ويوجه اليهم الضربات المتلاحقة وهم محصورون بين الحدود السويسرية وحدود اللورين .

ان قيمة هذا المخطط الحقيقية مبنية على القيام بهجوم غير مباشر لا يعتمد على الحركة الجغرافية مثل اعتماده على فكرة توزيع القوى . ولقد تم تأمين المفاجأة الاساسية باضافة وحدات احتياطية الى التشكيلات الفعلية لانشاء الكتلة الهجومية الرئيسية . وكان لدى الالمان آنذاك ٧٢ فرقة وضع المخطط منها ٥٣ فرقة في اتجاه الجهد الرئيسي للصدمة بينما وضع ١٠ فرق في مركز الحركة امام فيروان و٩ فرق فقط على الجناح الايسر امام الجبهة الفرنسية . ولقد تم اضعاف الجناح الايمن وتشجيع الفرنسيين على دفع الجناح الايسر الالماني بعنف في اللورين في اتجاه نهر الرين بحيث يتعذر عليهم التدخل لمنع التقدم ، حتى يصبح الوضع كباب يدور حول محور ، اذا دفع الفرنسيون جناحا دار الجناح الآخر وضربهم في ظهرهم . وتزداد شدة الضربة كلما زادت قوة الدفع .

ادى كبر تعداد القوات المشتركة في القتال وصغر المساحة المستخدمة الى جعل مناورة شليفن عبر بلجيكا من الناحية الجغرافية هجوما غير مباشر نسبيا اما من الناحية النفسية فان تجميع قواته ضد جناح العدو الايسر قلب هذا التقرب الى هجوم غير مباشر تماما . وجاء المخطط الفرنسي مساعدا للمخطط الالماني على الوصول الى ذروة المثالية ، لانهم لم ينتظروا احدا ليجذبهم الى الفخ بل اندفعوا اليه بمحض ارادتهم . ولكن مخطط شليفن لم يطبق بحذافيره لان القائد مولتكه الشاب عدله وافقده قوته اثناء التحضيرات التي سبقت الحرب ثم اهمله بالتدريج خلال التنفيذ .

قام مولتكه في الفترة الواقعة بين ١٩٠٥ و١٩١٤ بدعم الجناح الايسر باستمرار بقوات جديدة . فأفقد التوزيع المقرر سابقا كل معناه وجعل حظ

المخطط في النجاح ضعيفا . ثم واصل بعد ذلك تهديم قواعده حتى سبب انهياره .

عندما انطلق الهجوم الفرنسي في اغسطس (آب) ١٩١٤ فكر مولتكه في الرد على التحدي بشكل مباشر والبحث عن النصر في اللورين مؤخرا بذلك حركة جناحه الايمن الالتفافية ، ولم تعط هذه المحاولة نتيجة رغم زج ست فرق مشكلة حديثا ومعدة لتقوية الجناح الايمن . وادت هذه القوة الجديدة الى دفع القادة الالمان في اللورين الى الشعور بالغرور وتجاهل مهمتهم الاساسية ، وبدلا من ان ينسحب الجناح الايسر ويجذب الفرنسيين الى مدى ابعد. فانه توقف واستعد للاشتباك في المعركة ، ولما رأى تأخر الهجوم الفرنسي اتفق مع القوات المجاورة له على المبادأة بالهجوم ، وكان الجيشان الالمانيان يضمان ٢٥ فرقة مقابل ١٩ فرقة فرنسية . وأضعف من قيمة هذا التفوق العددي وضع الالمان الاستراتيجي السيء فلم يؤد رد الفعل الى نصر حاسم . واقتصر على دفع الفرنسيين الى مواضعهم المحصنة مما زاد مقاومتهم وجعلهم قادرين على ارسال وحدات الى الغرب للاشتراك في معركة المارن .

وهكذا أفسد نشاط الالمان في اللورين مخطط شليفن اكثر مما افسده الاقلال المستمر لدور الجناح الايمن وتعداده ، مع ان الانهيار جاء على هذا الجناح رغم انه أضعف بشدة بمختلف السبل ، كنقل ست فرق الى اللورين وسحب سبع فرق اخرى لاحتلال بعض المدن ، ثم سحب اربع فرق لدعم الجبهة في بروسيا الشرقية . وعندما تقدم جيش كلوك في اقصى اليمين قبل الوقت المحدد بناء على طلب جاره وبعد موافقة مولتكه وجدت حامية باريس في هذه الحركة فرصة ملائمة لضربه من مجنبته . ولم يستطع الالمان على هذا الجناح تخصيص اكثر من ١٣ فرقة مقابل ٢٦ فرقة انكلو - فرنسية وهذا يدل بوضوح على مدى إضعاف هذا النجاح الذي كان شليفن قد خصصه لحسم المعركة . وهكذا زال التفوق الالماني بعد تخفيض الوحدات في جناحهم الايمن وازداد التفوق الفرنسي بسبب سوء تصرف الجناح الالماني الايسر .

ولو ان الجناح الفرنسي استطاع التوغل بعمق في اللورين لتعذر نقل الفرق الفرنسية من اليمين الى اليسار ، ولكن هل كان الجناح الالماني الايمن قادرا على المحافظة على اندفاعه لو لم تسحب منه كل هذه الفرق ؟ والجواب مشكوك فيه لان تدمير البلجيكيين لجسور نهر الموز عرقل مواصلات الالمان ، ولم تستطع قطاراتهم العبور الى ما وراء لييج الا بعد ٢٤ اغسطس (آب) . وكان مسيرها يتخذ شكل استدارة طويلة ، الامر الذي منع الالمان من تقوية جناحهم الايمن كما كان متوقعا . كما كان تموين جيوشهم الثلاثة على هذا الجناح يتطلب المرور في هذا الشريان شبه المقطوع ، خصوصا وان تدمير الفرنسيين والانكليز المنسحبين لطرق المواصلات عرقل عملية التموين بشكل كبير .

عندما وصل الالمان الى المارن كان شكلهم مشابها لشكل وحدات منهزمة نظرا لقيامهم بزحف صعب وبطونهم خاوية ، ولو لم يقم مولتكه بعملية سحب بعض

القوات من جناحه الايمن ، تلك العملية التي شرحناها وانتقدناه بسببها ، لضم هذا الجناح وحدات اكبر ، ولاصبحت حالة الوحدات بعد هذا الزحف أسوأ . وتكرر درس الحرب الاهلية الامريكية القائل بأن تطور السكك الحديدية وتعلق الجيوش بها في المواصلات الجامدة السريعة التأثر بالصدمات يمنعان انتشار الوحدات الكبيرة التي لا يمكنها العمل في عمليات واسعة المدى دون التعرض لخطر الانهيار المفاجيء .

وتقودنا معركة المارن التي غيرت مجرى الحرب الى خط تحديد غير واضح بين الاستراتيجية والتكتيك ولكنها تلقي ضوءا على مشكلة «الهجوم» ، وهي مشكلة تستحق الدراسة ، لذا يجب ذكرها مع الحوادث المحيطة بها .

كان الجناح الايمن للقائد الفرنسي قد صد في الآردين بعد معركة تلاقي . وانسحب جناحه الايسر الذي انتشر متأخرا وتملص من تطويق خطير بين نهري السامبر والموز . عندها استنبط جوفر من المخطط «١٧» المحطم مخططا جديدا، وقرر سحب جناحه الايسر وقلبه مرة اخرى الى الوراء معتمدا على فيردان كنقطة دوران ، على ان يسحب من ميمنته الصامدة بشدة وحدات تشكل الجيش السادس الذي يضعه على مجنبته اليسرى .

وجاءت التقارير الاولى لقادة الجيوش الالمانية من معارك الحدود تحمل بعض المبالغة ، واعتقدت القيادة العليا الالمانية انها على ابواب الانتصار الحاسم ، ولكن قلة عدد الاسرى نسبيا اثارت شكوك مولتكه ودفعته الى دراسة الوضع بشكل أوضح . وادى تشاؤم وتفاؤل قادة جيوشه الى احداث تغيير جديد في خطتهم ، وكان هذا التغيير يحمل في أعماقه بذور الهزيمة . وعندما هزم الجناح الايسر البريطاني في ٢٦ اغسطس (آب) وانسحب من كاتو نحو الجنوب انحرف الجيش الالماني بقيادة كلوك من جديد نحو الجنوب الغربي . ولقد جاء اختيار هذا الاتجاه نتيجة خطأ في تقدير خطر انسحاب البريطانيين ، ولكنه توافق صدفة مع الخط المعطى اصلا لكلوك الذي كان عليه ان يتقدم راسما خطا منحنيا كبيرا . وقادته هذه الحركة الى منطقة أميان وبيرون فوصلها مع وصول العناصر الاولى للجيش الفرنسي السادس المشكل حديثا ، وقابلها عند نزولها من القطارات القادمة من اللورين ، فاضطرت للانسحاب بسرعة وفشلت خطة جوفر للقيام بهجوم ضد الالمان .

ولكن ما ان انحرف كلوك نحو الجنوب الغربي حتى اضطر الى تعديل خط سيره من جديد . لان جوفر أمر جيش لانروزاك الفرنسي بمهاجمة الجيش الالماني الثاني بقيادة بولوف لتخفيف الضغط الواقع على البريطانيين مما اضطر بولوف لطلب النجدة من كلوك . وتمكن الجيش الالماني الثاني من ايقاف هجوم لانروزاك في ٢٩ اغسطس (آب) قبل تدخل نجدات كلوك ، ومع ذلك أصر بولوف على طلب المساعدة من جاره لقطع طريق الانسحاب على الجيش الفرنسي . ولكن كلوك طلب موافقة مولتكه على ذلك ، وجاء الطلب في الوقت الذي كان مولتكه يشعر

خلاله بقلق مبهم من طريقة الفرنسيين في التخلص من قبضته كما كان منشغل الفكر بسبب ثغرة مفتوحة بين جيشيه الثاني والثالث ، فوافق على تبديل الاتجاه الذي اقترحه كلوك مما أدى الى اهمال حركة الالتفاف الواسعة المقررة حول باريس ، ومرت مجنبة الجناح الالماني المتقدم قرب العاصمة وامام دفاعاتها . وهكذا تقلصت الجبهة ، وغدا العمل مباشرا ، وضحى مولتكه لتأمين الحيطة بأوسع الامكانيات والآمال التي تتضمنها خطة شليفن الالتفافية الواسعة . ولكن هذا العمل لم يؤمن الحيطة او يقلل الخطر بل كان سببا لقيام العدو بهجوم مضاد ساحق .

واتخذ مولتكه قرارا بترك المخطط الاساسي نهائيا في ٤ سبتمبر (ايلول) واستبداله بالتفاف ضيق على قلب الفرنسيين وجناحهم الايمن ، مع اندفاع القلب الالماني المؤلف من الجيش الرابع والخامس نحو الجنوب الشرقي ، وقيام جناحه الايسر المؤلف من الجيش السادس والسابع بمتابعة الهجوم في اتجاه الجنوب الغربي ، مع محاولة خرق الخط المحصن بين تول وإيبينال بحيث يتم اغلاق فكي الكماشة من طرفي فردان . وفي هذا الوقت كان على الجناح الايمن المؤلف من الجيش الاول والثاني الوقوف فيإتجاه الغرب ومنع كل مناورة هجومية مضادة يقوم بها الفرنسيون من مواضعهم الامامية قرب باريس .

ولكن بدات مناورة الفرنسيين المضادة قبل ان يوضع المخطط الالماني موضع التنفيذ .

وبدت اللحظة الحاسمة امام جوفر الذي كان قد امر بالانسحاب بعد ان تدخل غالييني حاكم باريس العسكري . ففي ٣ سبتمبر (ايلول) لاحظ غالييني اتجاه كلوك نحو مركز الجبهة ، ففهم معنى ذلك ، وأعطى الامر لجيش مونوري بالاستعداد لضرب مجنبة الالمان المكشوفة .

واستمرت المناقشات طيلة النهار التالي في القيادة العامة لجوفر ، وكان قائد مكتبه العسكري الرائد غاملان متحمسا للقيام بهجوم مضاد مباشر ، وعارضه الجنرال بيرتولو ، ولم تؤد المناقشة الى نتيجة ، ولم يتخذ جوفر قراره الا عندما تدخل غالييني الذي كلمه بالتليفون في المساء . وما ان اقتنع جوفر بالفكرة حتى تصرف بشكل حاسم وامر الجناح الفرنسي الايسر بايقاف الانسحاب والقيام بالهجوم العام في ٦ سبتمبر (ايلول) .

كان مونوري قد تحرك منذ ٥ سبتمبر (ايلول) وتزايد ضغطه على نقطة حساسة في جبهة الالمان ، فوجد كلوك نفسه مضطرا لمجابهته بقسم من جيشه ثم زج الجيش كله ليدعم المجنبة المهددة ، وانفتحت ثغرة عرضها ٣٠ ميلا بين الجيشين الالمانيين الاول والثاني ، ولم يعد امام هذه الثغرة سوى ستارة من الخيالة لحمايتها ، وتشجع كلوك من انسحاب البريطانيين الذين كانوا يقابلون هذه الثغرة ، ولم يعد الانكليز على أعقابهم في ٥ سبتمبر (ايلول) بل تابعوا انسحابهم خلال يوم كامل متجهين نحو الجنوب . وادى هذا الانسحاب صدفة الى خلق سبب غير مباشر او غير متوقع الى النصر ، لان عودتهم بعد ذلك وانتشار

أخبار دخولهم في الثغرة اجبرت بولوف في ٩ سبتمبر (ايلـــول) على سحب الجيش الثاني . وانعزل الجيش الاول وضاعت مكاسبه التي حققهـا ضد جيش مونوري . واضطر كلوك الى الانسحاب في اليوم نفسه .

وفي ١١ سبتمبر (ايلول) تم انسحاب جميع الجيوش الالمانيـــة ، وفشلت محاولة تطويق فردان كما تحطمت كماشة الجيش السادس والسابع على دفاع الجبهة الفرنسية الصلب . ومن الصعوبة تصور الشكل الذي كانت القيادة الالمانية قادرة به على انتزاع النصر بهجوم جبهي غير محضر مع العلم ان فرصة نجاحها في حالة تطبيق مخطط العمليات الرئيسي المحضر كانت قليلة اصلا ، لقد كان امام الالمان حل واحد قبل الحرب للحصول على نتائج افضل وهو اجتياح بلجيكا .

ويمكننا القول باختصار بأن نتيجة معركة المارن جاءت بعد حدوث صدمـــة وثغرة . اما الصدمة فهي نتيجة هجوم مونوري على مجنبة الجبهة الالمانية اليمنى الذي أدى الى احداث ثغرة في نقطة اتصال ضعيفة . ثم نجم عن هذه الثغـــرة المادية ثغرة معنوية في القيادة الالمانية .

لقد كانت حركة كلوك غير المباشرة المتمثلة في التفافه خارج الجبهة بعد كاتو مفيدة جدا للالمان ، ولكن حركته التالية نحو داخل الجبهة في اتجاه العـــدو مباشرة كانت ضارة . لقد قلبت الحركة الاولى مخطط جوفر الذي كان قد اتخذ قرارا بالعودة بسرعة الى الهجوم، وعملت على تعجيل الانسحاب الانكلو ـ فرنسي. ولنذكر هنا مرة ثانية ان هجوم مولتكه الاستراتيجي غدا مباشرا بشكل متزايد ، كما ان هجوم الجناح الايسر الالماني جبهيا كان فشلا غالي الثمن دون اي كسب استراتيجي .

ان من الخطأ اعتبار انسحاب جوفر بمثابة حركة غير مباشرة ، لان فرصة المارن ظهرت صدفة دون سابق دراسة او توقع . وتمت صدمة غالييني فـــي الوقت الملائم قبل ان يستطيع الجيشان الالمانيان الاول والثاني اخذ مواضعهمـــا الجديدة على المجنبة ، ولكنها كانت صدمة مباشرة بحتة فلم تعطِ نتائج حاسمة. ولو هاجم غالييني جنوب المارن حسب تعليمات جوفر لكان هجومه اكثر مباشرة واقل نجاحا . ولقد جاء النصر الحقيقي من الحركة التي اجبرت الالمان علـــى الانسحاب ، وهي حركة غير مباشرة ، ولكنها لا ارادية بشكل يجعلها فصلا من مهازل التاريخ . ونقصد بهذه الحركة انسحاب القوات البريطانية واختفاؤها ثم ظهورها في الوقت المناسب صدفة امام نقطة الاتصال الضعيفة في الجناح الالماني الايمن . ولقد انتقد الفرنسيون بطء حركة القوات البريطانية في العودة ، ولـــو عادت هذه القوات بسرعة اكبر كما كان يرغب الفرنسيون لما وجدت نقطة الاتصال ضعيفة لهذه الدرجة ، ولما نجح هجوم مونوري في تحقيق النصر . ومن حسن حظ هذه القوات انها تأخرت فوصلت امام الثغرة بعد سحب فيلقين المانيين منها، وكان وصولها متوافقا مع حركتهما فلم يستطيعا التدخل بشكل فعال .

يجب علينا عند تحليل اسباب الانسحاب الالماني الانتباه الى عامل اهملـــه

الكثيرون ، وهو تأثر القيادة الالمانية باستمرار من التقارير المؤكدة لاحتمال القيام بعمليات انزال بريطانية على الشاطىء البلجيكي ، تشكل خطرا على مؤخـــرات ومواصلات جيوشها ، لدرجة انها أعدت عملية تراجعية قبل بدء معركة المارن .

وفي ٩ سبتمبر (ايلول) تلقى الجيش الاول من القيادة العليا اوامر وتعليمات تقول بأن «المعلومات سيئة ، والجيشين السادس والسابـع متوقفان امام نانســـي وايبينال ، كما يلاقي الجيشان الرابع والخامس مقاومة شديدة . وهناك قوات فرنسية يتم نقلها بالسكك الحديدية من جناح الفرنسيين الايمن الى باريس ، على حين يقوم الانكليز بانزال قوات جديدة على الشاطىء البلجيكي ، وينتظر وصول قوات روسية الى نفس المنطقة . وخلاصة الموقف ان الانسحاب غدا محتوما» .

ولقد تأثرت القيادة الالمانية بفكرة الانزال البريطاني لدرجة تصورت معهـــا نزول ٤٠ الف رجل ، بينما كانت القوات الحقيقية القادمة ثلاث كتائب بحريـــة نزلت في اوستاند وبقيت فيها ٤٨ ساعة فقط . يقال ان فكرة قدوم الروس كانت وليدة تخيلات مهووس انكليزي يعمل في السكك الحديدية ، ويستحق ان يقام له نصب تذكاري، ولقد أكد المؤرخون فيما بعد ان زيارة الكتائب الثلاث لاوستاند وشائعة الغزو الروسي كانتا من الاسباب الاساسية للنصر في المارن .

عندما نقارن التأثير المعنوي الذي سببته هذه القوات الوهمية مع بقاء الوحدات الالمانية في بلجيكا خوفا من انطلاق البلجيكيين من حصن انفرس (ذلك الامـــر الذي وقع في ٩ سبتمبر «ايلول») نجد انفسنا مرغمين على تأييد الاستراتيجية التي طالب جون فرينش بتطبيقها دون جدوى . ولو طبقت هذه الاستراتيجية لكان للحملة البريطانية تأثير ايجابي حاسم على الصراع بدل اقتصارها علـــى التأثير السلبي .

ثم حل فالكنهاين محل مولتكه ، وأحس بالتهديد الدائم المتمثل في الشاطىء البلجيكي على مؤخرات الجيش الالماني فقام بمحاصرة انفرس . ومن هنا ظهرت اول عملية فيها بعض الهجوم غير المباشر ، ولكن التنفيذ لم يتـــلاءم مع الفكرة ، وانقلب الى هجوم مباشر بحت ، الا انه كان كافيا لدفع الحلفاء الى حافة الهزيمة.

وتوقفت ملاحقة الحلفاء الجبهية نهائيا عند نهر إين . وفي ١٧ سبتمبـــر (ايلول) لاحظ جوفر فشل محاولة مونوري في الالتفاف حول المجنبة الالمانية ، فقرر تشكيل جيش جديد بقيادة كاستلنو بغية محاولة القيام بالتفاف في الشرق، ولكن الجيوش الالمانية تماسكت في ذلك الوقت ، ووجدت القيادة العليا نفسها قادرة على مجابهة مناورة صغيرة كهذه تتم ضمن خط الانتظار المتوقع .

وفي الشهر التالي قام كلا الطرفين بسلسلة من المحاولات المتوقعة للالتفاف حول جناح الخصم الغربي ، وفشلت كل هذه المحاولات المسماة «السباق نحـو البحر» . وتعب فالكنهاين في هذه المرحلة قبل جوفر ، وفي ١٤ اكتوبر (تشرين أول) جهز فالكنهاين فخا استراتيجيا ضد محاولات الحلفاء المتوقعة ، وأعطـــى الاوامر للمجنبة المشكلة مؤخرا بتجنب الصدام مع العدو ، على ان يقوم جيش مؤلف من الوحدات التي انتهت مهمتها بعد سقوط انفرس مع ٤ فيالق حديثة

بالهجوم بسرعة على طول الشاطىء البلجيكي واختراق مجنبة قوات الحلفاء المهاجمة ، والالتفاف حولها وضربها من الخلف . كما اوقف مؤقتا حركة الوحدات المكلفة بمتابعة الجيش البلجيكي المنسحب من انفرس كيلا يعطي قيادة الحلفاء تحذيرا مسبقا .

ولكن الملك البيرت الحذر رفض طلب فوش الذي كان يريد اشتراك البلجيكيين في حركة التفافية ، اذ لم يكن يود الابتعاد عن منطقة الشاطىء . لذا كان الجيش البلجيكي جاهزا لصد الهجوم الالماني القادم من الشمال او تعطيله على الاقل باغراق الاراضي الواطئة على الشاطىء . ووجد فالكنهاين نفسه مضطرا للقيام بهجوم مباشر على مجنبة الحلفاء . وتقدم قلب القوات البريطانية وجناحها الايمن فوصلا قبل الاوان مما ادى الى توقفهما . ولكن جون فرينش اعطى الاوامر لجناحه الايسر بقيادة هيج للقيام بالالتفاف الذي فكر فيه جوفر ، ولعب الحظ الى جانب الحلفاء ، اذ اتفق هجومهم في الزمن مع هجوم الماني انطلق قبل اوانه، وفشل هجوم الحلفاء فانتقلوا الى الدفاع . ولما فقد فالكنهاين كل أمل في طرد العدو من الشاطىء البلجيكي حاول انتزاع النصر بهجوم مباشر . وانتصر دفاع الحلفاء رغم ضعفه ، كما هي الحالة في كل هجوم مباشر ، وهكذا امتد سد الخنادق من الحدود السويسرية حتى البحر . وتوقفت بذلك مختلف العمليات والمناورات .

مسرح العمليات الغربي ١٩١٥ ـ ١٩١٧ :

اقتصرت عمليات الحلفاء الانكلو ـ فرنسيين خلال سنوات الحرب التي تلت ذلك على محاولات متعددة للخروج من المأزق باختراق السد او بالبحث عن مخرج يظهر صدفة للالتفاف حوله .

واصبحت الاستراتيجية على الجبهة الغربية امام هذه الخطوط المتوازية اللامتناهية من الخنادق مجرد تابع للتكتيك . ولم يكن التكتيك سوى آلة بلا تفكير . وكانت استراتيجية الحلفاء في سنوات ١٩١٦ ـ ١٩١٧ عبارة عن استراتيجية هجوم مباشر ولكنها كانت عاجزة عن اخراجهم من المأزق ولا تستحق كبير دراسة او تحليل . ومهما كان لحرب الانهاك من قيمة ومهما قدم البعض من حجج وبراهين لاظهار هذه المرحلة كمعركة مستمرة فان محاولة تتطلب بذل الجهود لمدة ٤ سنوات للحصول على النصر لا يمكن اخذها مثالا يحتذى .

وفي مدينة نوف شابيل قامت محاولة الهجوم الاول في عام ١٩١٥ ، وكان الهجوم مباشرا ولكن المفاجأة التكتيكية كانت محققة . وكان الهجوم على شكل رمي تمهيدي طويل الامد بالمدفعية يعقبه انقضاض المشاة جبهيا «وصدورهم مكشوفة» لرصاص العدو . وفي مايو عام ١٩١٥ قام الفرنسيون بهجوم مماثل في آراس ، كما قام الانكليز والفرنسيون بعدة هجمات مشابهة في سبتمبر (ايلول)

في مقاطعة شمبانيا وفي شمال آراس ، ومن يوليو (تموز) حتى نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩١٦ في مقاطعة السوم ، وفي ابريل (نيسان) ١٩١٧ على نهر اين وفي آراس . واستمرت فترة نزع الجيش البريطاني داخل مستنقعات باسشاندائيل من يوليو (تموز) الى اكتوبر (تشرين أول) ١٩١٧ . وفي ٢٠ نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩١٧ ظهرت المفاجأة التكتيكية الجديدة باستخدام الدبابات التي دخلت المعركة فجأة وعلى شكل مجموعات لتحل محل القصف التمهيدي بالمدفعية بالاسلوب التقليدي . ولكن من المتعذر وضع هذا الهجوم الصغير المدى الناجح في بدايته والمتعثر في نهايته ضمن وسائل الهجوم غير المباشر الاستراتيجي .

اما استراتيجية الالمان فكانت دفاعية بحتة باستثناء معركة فردان عام ١٩١٧ التي يمكن اعتبارها هجوما مباشرا عاديا الا اذا ادخلنا في نطاق الهجوم غير المباشر فكرة «استنزاف» دم العدو حتى يؤدي النزيف الى موته بفضل سلسلة كبيرة جدا من قرصات «دود العلق» المحلية ، ولكننا نلاحظ هنا ان التبذير في استخدام الدود ادى الى افلاس الدولة .

وكانت اقرب العمليات الدفاعية الالمانية للهجومغير المباشر انسحاب لودندورف في ربيع ١٩١٧ الذي تم تخطيطه وتنفيذه بمهارة ، وتم بفضله سحب قسم من الجيوش الالمانية الى خط هندنبورغ . ولايقاف اي هجوم انكلو - فرنسي على السوم جهز خطا جديدا من الخنادق المحصنة بشدة بمواضع دفاعية . وكان هذا الخط يستند الى وتر القوس المشكل من مدن لانس ونوايون ورانس . ثم دمر المنطقة المحصورة بين القوس ووتره وانسحب بصورة متقطعة وعلى مراحل متتالية حتى وصل الى الخط الجديد الاقصر من الخط السابق . وتظهر هذه المناورة شجاعة لودندورف وثقته اللتان دفعتاه الى عدم التردد في ترك الارض بغية احباط مخطط الحلفاء الهجومي المحضر للتنفيذ في الربيع . وكسب الالمان بذلك سنة من الراحة بعيدا عن كل خطر وفي مأمن من كل هجوم مشترك يقوم به الحلفاء . كما كان لهذه السنة تأثير سيء على روسيا القيصرية التي انهارت وخرجت من الحرب . واستطاع لودندورف بذلك زج قوات اكبر في هجومه النهائي في الغرب عام ١٩١٨ ، وهو الهجوم الذي كان يهدف من ورائه الى احراز النصر .

الفصل الثاني عشر

مسرح العمليات الشمالي ــ الشرقي

كانت مخططات المعارك على الجبهة الشرقية اقل دراسة ودقة وتحضيرا من مخططات الجبهة الغربية . ولكنها مرت خلال التطبيق بأخطاء ومغامرات سيئة ومشاكل متنوعة كما حدث في الجبهة الغربية . وكانت المعطيات الجغرافيـــة قابلة للحساب بعكس العامل الرئيسي المتعلق بتركيز وتجميع القوات الروسيـــة الذي لم يكن يدخل في اي تقدير .

وكانت بولونيا الروسية تشكل بروزا كبيرا في غرب روسيا نفسها ، وكانت محاطة من ثلاث جهات بمناطق المانية ونمساوية . فعلى مجنبتها الشمالية بروسيا الشرقية ثم بحر البلطيق ، وعلى مجنبتها الجنوبية مقاطعة غاليسيا النمساويـة المستندة على جبال الكاربات التي تسيطر على مداخل السهول الهنغارية ، اما من الغرب فتوجد مقاطعة سيليزيا .

وكان في مقاطعات الحدود الالمانية شبكة واسعة من السكك الحديديـــة الاستراتيجية التي لم تكن متوفرة في بولونيا او روسيا . وكان الالمان وحلفاؤهم قادرين على التجمع وايقاف كل تقدم روسي بدفاع ناجح ، ولكن قيامهم بالهجوم وتوغلهم في بولونيا وروسيا يعني فقدان كل هذه الميزات . وتدلنا دروس التاريخ المتعددة على ان احسن استراتيجية يطبقها الالمان في هذه الحالة وضع طعـــم

للروس يجذبهم الى موضع يسمح بالقيام ضدهم بهجوم مضاد كبير بدلا من ان يبدأ الالمان انفسهم بالهجوم . ولكن هذه الاستراتيجية كانت تنطوي على سيئة كبيرة هي اعطاء الروس وقتا كافيا لتحضير وتحريك جهازهم الحربي الثقيل العتيق .

وهنا ظهر اختلاف في الراي بين فيينا وبرلين . لقد اتفقت الحليفتان مبدئيا على ضرورة ايقاف الروس واحباط محاولاتهم خلال ٦ اسابيع ريثما يسحق الالمان الفرنسيين بسرعة، ثم يجمعوا قواتهم على الجبهة الشرقية ويقوموا مع النمساويين بضرب الروس ضربة حاسمة . وكان الاختلاف فقط على طريقة التنفيذ . وقد دفعت فكرة تحقيق النصر في فرنسا القيادة الالمانية الى وضع ستارة بسيطة في الشرق ، ولولا خوفها السياسي من ان تتعرض اراضي الوطن لخطر الغزو لما ترددت في الجلاء عن بروسيا الشرقية والوقوف عند نهر فيستولا . وقد قام رئيس الاركان في القيادة النمساوية هوتزندورف باقناع النمساويين بفكرة تعطيل الجهاز الروسي بهجوم فوري قوي . ووجد مولتكه ان هذه الفكرة تسمح بمشاغلة الروس حتى تنتهي معركة فرنسا فوافق عليها . وكانت فكرة هوتزندورف هي القيام بهجوم في بولونيا في اتجاه الشمال الشرقي ينفذه جيشان يغطي مجنبتهما جيشان آخران يعملان في اتجاه الشرق .

وكانت الاستراتيجية لدى الحلفاء مختلفة وتتعدد فيها الآراء . اذ كانت القيادة الروسية العسكرية ترغب لاسباب عسكرية في تركيز جميع قواتها ضد النمساويين وتجاهل الالمان حتى يتم تجنيد كل القوى في روسيا . ولكن الفرنسيين احسوا بضغط الالمان وارادوا تخفيفه عن جبهتهم فطلبوا من الروس الهجوم على الالمان معهم . وقام الروس بهجوم غير محضر من ناحية التنظيم والقوات . ووجهوا الى جبهتهم الجنوبية الغربية مجموعتين من الجيوش في كل واحدة منها جيشان مهمتهما الالتقاء في غاليسيا ضد القوات النمساوية . كما وجهوا الى الجبهة الشمالية الغربية جيشين للالتقاء في بروسيا الشرقية ضد القوات الالمانية . وكادت روسيا ان تتخلى عن استراتيجيتها التقليدية البطيئة الناجمة عن التنظيم البدائي ، وعدم المرونة وسرعة الحركة وذلك بالقيام بهجومين مباشرين سريعين .

عندما اندلعت الحرب عجل القائد العام الروسي الغراندوق نيقولا باجتياح بروسيا الشرقية بغية تخفيف ضغط الالمان على حلفائه الفرنسيين . وفي ١٧ اغسطس (آب) عبر جيش رينكامبف الحدود ، ثم قابل في ١٩ ـ ٢٠ اغسطس الجيش الثامن الالماني بقيادة بريتفتس وصده في غومبينن . وفي ٢١ علم بريتفتس ان جيش سامسونوف الروسي دخل من الجنوب في بروسيا الشرقية مهددا مؤخراته التي لم تكن تحرسها الا ثلاث فرق امام عشر فرق روسية . فأخذه الهلع وقرر الانسحاب الى وراء نهر الفيستولا ، فعزله مولتكه وعين بدلا منه الجنرال المتقاعد هندنبورغ على ان يساعده رئيس اركانه لودندورف .

اخذ لودندورف مخطط العقيد هوفمان احد ضباط اركان الجيش الثامن

ووسع مداه وابعاده، وجمع حوالي ٦ فرق ضد جناح سامسونوف الايسر ، ولكن جيشه الضعيف عدديا كان غير قادر على تحقيق النصر الحاسم . ولما علم لودندورف ان رينكامبف لا يزال موجودا قرب غومبينن ، خاطر وسحب من هذه المنطقة بقية الوحدات الالمانية تاركا امام العدو ستارة بسيطة من الخيالة ، ودفع هذه الوحدات ضد جناح سامسونوف الايمن . واستفادت هذه الحركة الجزئية من نقص الارتباط بين القائدين الروسيين ومن سهولة حل شيفرة الاوامر الروسية المنقولة باللاسلكي . وحطم هذان الهجومان المتلاقيان مجنبة سامسونوف ووقع قلب قواته في الحصار وافني جيشه تقريبا . ويمكن اعتبار معركة تاننبرغ هذه مثالا كاملا لاستخدام «الخطوط الداخلية» في الهجوم غير المباشر .

وما ان تلقت القيادة الالمانية فيلقين قادمين من الجبهة الفرنسية حتى استدارت نحو رينكامبف المتقدم ببطء ناجم عن خسائره في غومبينن ونقص المعلومات عنده ، وطردته من بروسيا الشرقية . وترك الروس على ارض المعارك ٢٥٠ الف رجل ، كما خسروا خسارة اكبر لا تعوض عبارة عن كمية كبيرة من العتاد الحربي . ولكن اجتياح بروسيا الشرقية خفف العبء عن الحلفاء في الغرب لانه ارغم الالمان على سحب فيلقين من جبهتهم ، الامر الذي ساعد الفرنسيين على استعادة نشاطهم في المارن .

وفقدت نتائج معركة تاننبرغ جزءا من قيمتها لعجز الالمان وحلفائهم في غاليسيا عن الحصول على النصر . لقد تقدم الجيشان النمساويان الاول والرابع في بولونيا في بادىء الامر ، ثم ضاعت فائدة هذا التقدم عندما قام الجيشان الروسيان الثامن والثالث بهجوم ضد الجيشين النمساويين الثاني والثالث القائمين بحماية المجنبة اليمنى للجبهة النمساوية . وكان التفوق العددي لصالح الروس ، وهزم الجيشان النمساويان هزيمة ساحقة في ٢٦ ـ ٣٠ اغسطس (آب) وتم دفعهما الى ما وراء ليمبرغ . وهدد تقدم الجناح الايسر الروسي مؤخرات الجناح الايسر النمساوي المنتصر . وحاول هوتزندورف الالتفاف حول الجناح الروسي بجزء من جناحه الايسر ، وصد الروس الضربة واندفع جناحهم الايمن بتقدم جديد ، مما اجبره على اعطاء الامر بتراجع تم بدون نظام في ١١ سبتمبر (ايلول) . وارتدت الجبهة النمساوية حتى اصبحت في نهاية سبتمبر قرب كراكوفي .

وغدا موقف النمسا حرجا ، واضطر الالمان الى ارسال النجدات فشكلوا من معظم قواتهم الموجودة في بروسيا الشرقية جيشا اسموه الجيش التاسع ، ونقلوه بسرعة الى الزاوية الجنوبية الغربية من بولونيا ، ومنها اتجه نحو فارسوفيا بالتعاون مع جيش نمساوي جديد . وهنا كان الروس قد جهزوا كل قواتهم وجمعوا معظم جيوشهم وقاموا بهجوم مضاد كبير اوقف تقدم العدو ثم اندفع محاولا اجتياح سيليزيا .

وشكل الغراندوق نيقولا مجموعة كبيرة مؤلفة من ٧ جيوش موزعة كما يلي : ٣ جيوش في النسق الاول وجيشان يحميان كل مجنبة . وكان الجيش الروسي العاشر يجتاح بروسيا الشرقية ويقاتل القوات الالمانية الضعيفة . وهنا اجتمع هندنبورغ ولودندورف وهوفمان لايجاد حل يوقف الخطر الروسي . وتوصل هؤلاء الثلاثة الى فكرة بارعة تعتمد على سهولة الانتقال الناجمة عن توفر السكك الحديدية في بلادهم بشكل متواز مع الجبهة . وكان الجيش التاسع الالماني ينسحب امام تقدم الروس مخربا سبل المواصلات القليلة في بولونيا تخريبا كاملا لعرقلة حركة العدو . ولما وصل الى حدود سيليزيا دون ان يشتبك جديا مع العدو ، توجه اولا نحو الشمال في منطقة ثورن – بوزن . وفي ١١ نوفمبر (تشرين ثاني) اندفع نحو الجنوب الشرقي في اتجاه منبع نهر الفيستولا ، وسار على ضفته اليسرى في نقطة الاتصال بين الجيشين الروسيين القائمين بتغطية المجنبة الروسية اليمنى . واستطاع تفريق هذين الجيشين عن بعضهما كإسفين يغوص تحت ضغط المطرقة . واجبر الاول على التراجع ، وحقق ضد الثاني انتصارا يشبه النصر في تاننبرغ ، وكاد ان يحاصره في لودز لو لم يحضر الجيش الخامس لنجدته . ونتيجة لهذه المناورة كاد قسم من الالمان القائمين بحركة تطويق ان يقع هو ذاته في الطوق ، ولكنه نجح في فتح ممر نحو قلب القوات الالمانية . ولم يحصل هندنبورغ على نصر تكتيكي حاسم ، ولكن هذه المناورة اثبتت قدرة الجيش الصغير على شل تقدم عدو متفوق عليه عدديا اذا استخدم امكانياته الحركية بمهارة ليقوم بهجوم غير مباشر على نقطة حساسة في تشكيلة العدو . وتعطل الجهاز الروسي الضخم ولم يعد بعد ذلك قادرا على تهديد الاراضي الالمانية .

وخلال اسبوع واحد جاءت اربعة فيالق المانية جديدة من الجبهة الغربية حيث فشل هجوم الإيبر . وكان قدومها متأخرا بحيث اصبح متعذرا تحقيق نصر حاسم ، ولكن لودندورف استخدمها مع ذلك ودفع الروس حتى خط بزورا – رافكا امام فارسوفيا . وعندئذ بدأ التمركز في الشرق داخل الخنادق بشكل مشابه للجبهة الغربية ، ولكن بخطوط اضعف . وكان الروس قد بددوا مخزونهم من الذخيرة ، لدرجة عجزوا معها عن تجديدها .

القصة الحقيقية في عام ١٩١٥ على الجبهة الشرقية عبارة عن صراع بين فكرتي قائدين كبيرين ، اولاهما فكرة لودندورف التي تهدف الى الحصول على النصر باستراتيجية الهجوم غير المباشر جغرافيا على الاقل ، وثانيهما فكرة فالكنهاين التي تعتمد على توفير الوسائط الالمانية وشل قدرة روسيا الهجومية باستراتيجية الهجوم المباشر . وكان فالكنهاين في مركز لودندورف فاستطاع فرض رأيه ، ولكن استراتيجيته عجزت عن تحقيق اي هدف من اهدافه المنشودة.

ولاحظ لودندورف ان تقدم الروس الخريفي نحو سيليزيا وكراكوفي دفعهم الى زج قلب قواتهم في بولونيا ، وبينما كانوا يحاولون في الجنوب الغربي الاندفاع عبر فتحات الشبكة حتى الاراضي النمساوية ضربهم لودندورف في لودز

ضربة شلتهم . ولما استعادوا قواهم وجدوا الشبكة النمساوية من جديد قوية متماسكة . وقام الروس من يناير الى ابريل (كانون الثاني ـ نيسان) بعدة محاولات غير مجدية على السفوح الشمالية لجبال الكارابات ، وادت جهودهم الى تبعثر معظم قواتهم الكبيرة داخل الشبكة .

هنا اراد لودندورف استغلال الفرصة والقيام بهجوم كبير غير مباشر حول جناح الاعداء الشمالي قرب البلطيق عبر كوفنو وفيلنا بقصد الوصول الى مؤخراتهم والتمركز على خطوط مواصلاتهم الضعيفة نحو بولونيا . وتردد فالكنهاين امام هذا المخطط الجريء الذي لا يحتاج الى استخدام جزء كبير من قواته الاحتياطية، ولم يوافق عليه ولكنه طبق طريقة كلفته فيما بعد قوى اكثر . واضطر لايقاف كل عمليات الانقضاض الرامية لخرق خطوط الخنادق في الغرب ، واضعاف قواته الاحتياطية الخاصة لدعم حلفائه النمساويين واستخدام هذه القوات في عملية محدودة استراتيجيا وغير محدودة تكتيكيا بقصد اضعاف روسيا بشكل يستطيع معه العودة الى الهجوم في الغرب دون التعرض لاي ازعاج .

واقترح هوتزندورف مخططا طبقه فالكنهاين في الشرق . ويتضمن هذا المخطط خرق مركز الجبهة الروسية بين الكارابات ونهر الفيستولا . وفي ٢ مايو (مارس) بدأ الهجوم ، وكانت المفاجأة كاملة ، وتم استثمارها بسرعة . وفي ١٤ مايو قام الخط الروسي كله على طول جبال الكارابات بتراجع لمسافة ٨٠ ميلا حتى وصل الى سان .

وهنا نرى مثالا واضحا للفرق بين الهجوم غير المباشر والمفاجأة . وتمت في هذه المعركة مفاجأة في الزمان والمكان والقوى . وتكبد الروس خسائر فادحة ولكنهم اندفعوا اثناء تراجعهم ككرة من الثلج تزداد تماسكا وكبرا بازدياد تدحرجها. وتم انسحابهم نحو مراكز تموينهم وسككهم الحديدية ، فعوضوا ما ضاع منهم . ولم يؤد هذا الهجوم المباشر رغم خطورته الى الانهيار التام .

وادرك فالكنهاين عندئذ انه تقدم في غاليسيا بشكل لا يسمح له بالتراجع ، كما لاحظ فشل هجومه الجزئي في تامين الحيطة على الجبهة الشرقية ، ووجد نفسه مضطرا الى سحب وحدات جديدة من فرنسا للوصول الى هدفه . ولكنه اختار الهجوم المباشر مرة اخرى ، فغير اتجاه هجومه من الشرق الى الشمال الشرقي ، وأعطى الى لودندورف الذي كان يتميز غيظا في بروسيا الشرقية امرا بالهجوم في الوقت نفسه في اتجاه الجنوب الشرقي . واعترض لودندورف على هذا المخطط لانه يشبه الهجوم الجبهي رغم ان له شكل حركة جيشين يزحفان من اتجاهين مختلفين للالتقاء عند نقطة واحدة ، ولان الجناحين الالمانيين عاجزان عن محاصرة الروس وتحطيمهم ؛ واصر على تطبيق مناورة فيلنا التي اقترحها من قبل . ولكن فالكنهاين رفض ذلك من جديد .

وجاءت النتائج مؤيدة لفكرة لودندورف ، عندما انطبق طرفا المقص الالماني وطردا الروس دون التوصل الى قطعهم . وجاء هذا الطرد لمصلحة الروس اذ قصر المسافات بين مواقعهم . وفي نهاية سبتمبر (ايلول) كانت مواقعهم ممتدة على

خط مستقيم من ريغا على بحر البلطيق حتى الحدود الرومانية . ولم تعد القوات الروسية تشكل خطرا مباشرا على المانيا ، ولكنها كانت كافية لتجميد قوات المانية كبيرة وازعاج النمسا ماديا ومعنويا .

عندما اوقف فالكنهاين العمليات على مستوى كبير سمح للودندورف بكل فتور بالقيام بتجربة مناورة فيلنا بالوسائط القليلة المتوفرة لديه . وكانت الموافقة متأخرة ، ومع ذلك استطاعت هذه الضربة المنعزلة قطع السكة الحديدية بين فيلنا ودفينسك ووصلت حتى خط مينسك شريان المواصلات الروسية الحيوي . وكان هذا برهانا واضحا على قدرة هذه المناورة على اعطاء اكبر النتائج لو انها نفذت قبل ذلك وبقوات اكبر ولاسيما عندما كان الجيش الروسي مشتبكا بشدة في بولونيا .

بعد ان انهى الالمان وحلفاؤهم الهجوم في الشرق ، وثبتوا الدفاع في الغرب ، قرروا تخصيص الخريف لمعركة في بلاد الصرب . ويمكن اعتبار هذه العملية من وجهة النظر العامة للحرب هجوما غير مباشر محدود الهدف . ولكنها كانت حاسمة في اطارها المحلي ونتائجها الخاصة . ولقد دارت هذه المعركة في ظروف سياسية وجغرافية خاصة مما يسلط ضوءا جديدا على نتائج هذه الطريقة . وكان المخطط مبنيا على تدخل بلغاريا في المعركة الى جانب الالمان وحلفائهم ، ولقد فشل الغزو الالماني ــ النمساوي المباشر في اللحظة التي دخل فيها البلغاريون بلاد الصرب من الشرق . واستمر الصربيون في الدفاع مستفيدين من طبيعة بلادهم الجبلية حتى استطاع الجناح الايسر البلغاري دخول البلاد من الجنوب والاستدارة حول مؤخراتهم وعزلهم عن النجدات الانكلو ــ فرنسية القادمة من سالونيك . وانهارت مقاومتهم ولم يبق من جيشهم الا وحدات متفرقة تتراجع نحو الغرب عبر البانيا في ظروف الشتاء القاسية للوصول الى شواطىء الادرياتيكي . ولقد ادى هذا التجمع السريع لسحق دولة صغيرة من دول الحلفاء الى تحرر النمسا من كل خطر قادم من هذا الاتجاه . كما سمح للالمان بالسيطرة على اوروبا الوسطى وتنظيم خطوط مواصلاتهم فيها .

ان العمليات التي وقعت في ١٩١٦ ــ ١٩١٧ على الجبهة الروسية لا تستحق كثيرا من التعليق ، فقد كانت دفاعية من جهة الالمان والنمساويين وهجومية بشكل مباشر من قبل الروس . وتظهر هذه العمليات فقر الاستراتيجية المعتمدة على تطبيق القوة بهجوم مباشر وتأثيرها المعنوي الذي يشبه تأثير سلاح يرتد الى صدر صاحبه . وعندما اندلعت الثورة في عام ١٩١٧ وعجلت بانهيار مقاومة روسيا القيصرية كانت القوات الروسية احسن تسليحا وتجهيزا من قبل ، ولكن الخسائر الكبيرة دون جدوى حطمت الرغبة في القتال لدى الشعب الروسي الذي كان يتمتع بروح تضحية لا مثيل لها في اوروبا كلها ، كما حدث اثناء عمليات التمرد التي بدأت تظهر في الجيش الفرنسي بعد هجوم الربيع عام ١٩١٧ ، وخاصة عندما تلقت الوحدات التي انهكها القتال امرا بالعودة الى الخنادق .

وكان هجوم بروسيلوف قرب لوك في يونيو (حزيران) عام ١٩١٦ العملية

الوحيدة غير المباشرة التي قام بها الروس . ولقد تم الحصول على هذه النتيجة لان العملية كانت بدون هدف جدي ثابت ، كما كانت عملية مشاغلة وخداع نفذت بناء على طلب ايطاليا ، ثم تركت قبل الاوان . ومن الجدير بالذكـــر انها تمت بدون تحضير خاص او تجميع قوات كبيرة ، ولكنها سببت تأثيرا كبيرا عندمـــا وقعت صدفة على دفاع نمساوي غير مستعد وسببت وقوع ٢٠ الف نمساوي في الاسر خلال ثلاثة ايام .

ولقد كان لهذه الصدمة المفاجئة نتائج استراتيجية متعددة ، اذ انها اوقفت الهجوم النمساوي في ايطاليا ، واجبرت فالكنهاين على سحب وحدات مـــن الجبهة الغربية والتخلي عن معركة الانهاك في فيردان ، ودفعت رومانيا الـــى الدخول في الحرب ضد المانيا وحلفائها ، وسببت سقوط فالكنهايـــن وتعيين هندنبورغ ولودندورف مكانه . ويظن البعض ان دخول رومانيا في الحرب هـو سبب عزل فالكنهاين ، ولكن السبب الحقيقي هو فشل استراتيجيتـه المباشرة الضيقة الاهداف والابعاد في عام ١٩١٥ ، والتي ادت الى تجدد تماسك الروس وظهورهم على مسرح العمل من جديد في عام ١٩١٦ .

ولكن نتائج تقدم بروسيلوف غير المباشر لم تدم طويلا . اذ دفعت القيـــادة الروسية الى تركيز ثقلها على خط مقاومة واحد يتقوى مع الزمن يؤدي الـــى استنزاف القوى المهاجمة ، وهكذا اضاع الروس معظم قواتهم الاحتياطية دون جدوى . وترك بروسيلوف مليون رجل على ارض المعركة ، وكان اصـــلاح الخسائر ممكنا رغم فداحتها ولكن انكشاف افلاس القادة الفكري امام الجنود ادى الى انهيار معنويات القوات العسكرية الروسية .

وتابع الروس بذل هذا الجهد بعناد ، فاستفاد هندنبورغ ولودندورف مـن هذا الموقف للقيام بهجوم غير مباشر آخر «مع تبديل سريع» في الهدف بشكل يشبه الهجوم الذي وقع عام ١٩١٥ في بلاد الصرب ، وكانت رومانيا هدفهما . وكانت القوات الرومانية مؤلفة من ٢٣ فرقة سيئة التجهيز مقابل ٧ فرق معادية، وكانت الحكومة الرومانية تأمل ان يؤدي ضغط بروسيلوف ، وضغط الانكليز في السوم وضغط وحدات الحلفاء في سالونيك الى منع العدو من زيادة قواتـــه الموجهة ضدها . ولكن اعمال الحلفاء كلها كانت مباشرة فلم تمنع المانيا وحلفاءها من سحب قوات كافية من الجبهات للقيام بسحق رومانيا .

كانت الارض الرومانية محصورة بين ترانسلفانيـــا وبلغاريا وتعتمد عنـــد طرفيها على موانع طبيعية هي جبال الكارابات ونهر الدانوب . ولكنهـــا كانت معرضة بشكل كبير للهجوم غير المباشر ، كما ان منطقة دوربرودجا المكونة مـــن شريط ضيق على شاطىء البحر الاسود كانت تشكل صيدا يسهل على الخصـم الماهر اقتناصه .

كما ان رغبة رومانيا في القيام بهجوم نحو الغرب عبر ترانسلفانيـــا جعلت خصومها يردون عليها بهجوم غير مباشر لم يكن في نيتهم القيام به اصلا .

بدأ التقدم الروماني في ٢٧ اغسطس (آب) ١٩١٦ وتقدمت ثلاثة ارتـــال رئيسية يتألف كل واحد فيها من ٤ فرق تقريبا نحو الشمال الغربي عبر جبال

الكارابات مشكلة بذلك هجوما مباشرا نحو السهل الهنغاري ، وعهد بحراسة الدانوب لثلاث فرق لتعزيزها . وكان تقدم الارتال الرومانية حذرا وبطيئا ، ولا يعود ذلك الى مقاومة العدو بل الى التدمير الشامل لمجموعة الجسور . ولم تكن الفرق النمساوية الخمس الضعيفة التي تغطي الحدود حاجزا امام التقدم وبقيت تحرس الحدود وحدها حتى دعمت بخمس فرق المانية وفرقتين نمساويتين جديدتين . ووضع الالمان تحت تصرف ماكنزن ٤ فرق بلغارية مع مدفعية المانية ووحدات جسور نمساوية بغية تنفيذ النصف الثاني للمخطط الذي وضعه فالكنهاين قبل تركه القيادة وهو المخطط الذي يتضمن اجتياح دوبرودجا .

وبينما كانت الارتال الرومانية تتقدم ببطء نحو الغرب عبر ترانسلفانيا قام ماكنزن بانقضاض مفاجىء احتل به في ٥ سبتمبر (ايلول) رأس جسر في تورتوكائيا وحطم ثلاث فرق رومانية كانت تحرس نهر الدانوب . ثم استند بجناحه على النهر وتقدم نحو الشرق في اتجاه دوبرودجا ، ولم يتجه الى بوخارست كما كان متوقعا ، ومع ذلك كان تأثير الصدمة المعنوية كبيرا وناجحا ، لان النتيجة الفورية لاستراتيجيته كانت في ترانسلفانيا حيث فقد الهجوم الروماني كل قوته الدافعة .

وكان فالنكهاين يتولى حينذاك قيادة الجيوش الالمانية في هذه المنطقة فقام بهجوم مضاد مباشر مع كثير من الاندفاع . وكان يضرب بوحداته المتماسكة جيدا ارتال الجنوب والمركز بينما تقوم مفارز صغيرة اخرى بايقاف الخصوم الآخرين. وكانت نتيجة هذه العمليات ضد الرومانيين الذين ظلوا مع ذلك مرابطين في الجبال . وكاد المخطط الالماني ان يتعرض للفشل لان القوات الرومانية المسيطرة على الممرات الجبلية آنذاك صدت بشدة كل المحاولات الاولى للعبور في اقصى الغرب . ثم نجحت محاولة اخرى قبل ظهور ثلج الشتاء . واستدار فالكنهاين نحو الغرب فدخل رومانيا من بابها الحقيقي . وتلا ذلك هجوم مباشر يتضمن اجتياز سلسلة من الانهار ، ولما اضطر للتوقف على طول نهر الآلت تدخل ماكنزن لاصلاح الموقف .

سحب ماكنزن بسرعة معظم قواته من دوبرودجا نحو سيستوفو وفي ٢٣ نوفمبر (تشرين ثاني) عبر نهر الدانوب . وأتاح هذا الانسحاب دعم قوات فالكنهاين ومساعدته على عبور نهر الآلت ولكنه ساعد الرومانيين ايضا على استخدام مواضعهم المركزية الواقعة على مقربة من العدو لتوجيه ضربات خطيرة الى ماكنزن الذي كانت مجنبته شبه مطوقة . ولما زال الخطر اشترك فالكنهاين وماكنزن في دفع الجيش الروماني الى الوراء حتى بوخارست ، ثم انسحب منها بعد ذلك الى خط سيرس ـ البحر الاسود .

واحتلت المانيا منذ ذلك الوقت معظم رومانيا ووضعت يدها على قمحها وبترولها . ولكنها لم تدمر الجيش الروماني الذي نمت معنوياته ، وازدادت قدرته على المقاومة خلال صراعه ضد هجوم الالمان الاخير ، حتى وقعت روسيا البلشفية معاهدة الصلح مع المانيا في ١٩١٧ ، ووجدت رومانيا نفسها منعزلة ومضطرة لعقد معاهدة صلح مماثلة .

الفصل الثالث عشر

مسرح العمليات في الجنوب الشرقي
او في البحر الابيض المتوسط

مسرح العمليات في ايطاليا :

في عام ١٩١٧ كانت ايطاليا هدف القيادة الالمانية ومسرح عملياتها خلال الخريف . وكان شكل الجبهة ملائما لقيام الالمان بهجوم غير مباشر من الوجهة الجغرافية والمادية ، وغير ملائم لقيام اعدائهم بمثل هذا الهجوم .

كانت مقاطعة البندقية الايطالية تشكل بروزا داخل الاراضي النمساوية ، يحده من الشمال التيرول النمساوي واقليم ترنتين ومن الجنوب البحر الادرياتيكي ، الذي يشكل شاطئه شريطا ارضيا منخفضا نسبيا . وكانت الحدود حينئذ تحاذي جبال الالب وترسم قوسا كبيرا في الشمال الشرقي يمتد حتى بحيرة غارد . ولم تجد ايطاليا هدفا حيويا في الشمال حيث كانت طبيعة المنطقة جبلية وعرة فلم تندفع للقيام بهجوم في هذا الاتجاه . واكتفت بالتفكير في القيام بحركة مباشرة على شكل هجوم في اتجاه الشرق ضد النمسا ، ولكنها ظلت مهددة بهجوم نمساوي قد يأتي على مؤخراتها عبر اقليم ترنتين . ولم تجد

ايطاليا بدا من اختيار هذا السبيل لعدم وجود حل آخر .

واستمرت ايطاليا في هجومها المباشر مدة سنتين ونصف سنة . وفشلت جيوشها في ١١ معركة ولم تتقدم عن نقاط انطلاقها رغم تكبدها خسائر قوامها مليون و١٠٠ الف رجل مقابل ٦٥٠ الف رجل فقدتهم النمسا . وقد قامت النمسا خلال هذه الفترة بهجوم واحد في عام ١٩١٦ عندما حاول القائد النمساوي هوتزندورف الحصول على مساعدة فالكنهاين المادية بقصد تدمير العدو بضربة حاسمة جنوب ترنتين على مؤخرات الجيش الايطالي المشتبك حينئذ في ليزونزو . ولكن فالكنهاين اتخذ موقفا حذرا من هذا المخطط ومن «الضربات الحاسمة» التي يحلم بها هوتزندورف وكان ينوي الاستمرار في حرب الانهاك امام فردان فرفض اعطاء هوتزندورف ٩ فرق المانية لدعم فرقه النمساوية على الجبهة الشرقية . لذا قرر هوتزندورف المغامرة بالعملية بامكانياته الخاصة ، فسحب من الشرق افضل فرقه وعرض جبهته الشرقية لتقدم بروسيلوف دون ان يستطيع جمع وحدات كافية في الالب للقيام بهجوم فعال ضد الايطاليين .

وكادت المناورة ان تنجح ، ولم يأخذ هذا الهجوم خط انتظار غير متوقع ولكنه حمل في طياته رغم ذلك بعض الصفات غير المتوقعة ، اذ لم تكن القيادة الايطالية تعتقد بوجود قوات كافية مع هوتزندورف للقيام بعملية واسعة المدى . وكان الهجوم على مستوى واسع حقا ولكنه لم يكن كبيرا بشكل كاف . وتم الحصول على انتصارات ، ومكاسب سريعة خلال عدة ايام . ولكن القائد الايطالي كادرونا استطاع ان يسحب قواته الاحتياطية من قطاع ليزونزو واستعد لسحب الذخيرة والمدفعية الثقيلة ، وبقيت المعركة سجالا ، وكاد الهجوم النمساوي ان يصل الى السهل ولكن نقص قواته الاحتياطية حد من اندفاعه . وجاء تقدم بروسيلوف الروسي على الجبهة الشرقية فتوقف كل شيء في هذا القطاع .

بعد سبعة اشهر فكر لودندورف في القيام بضربة مشتركة مع النمسا ضد ايطاليا ، الا أن الوضع كان أقل ملائمة بسبب خطورة موقف النمسا . ولم يكن قادرا على تقديم اكثر من ست فرق تسحب من الاحتياطي العام لدعم حليفه المنهوك ماديا ومعنويا . ولنقص الامكانيات اقتصر المخطط على القيام بهجوم اكثر مباشرة واقل اتساعا في اتجاه الزاوية الشمالية الشرقية لجبهة ليزونزو حيث ينعطف الهجوم نحو جبال الالب . وقد تم اختيار نقطة الهجوم آنذاك بناء على مبدأ يطبق لاول مرة على هذه الجبهة ويقول بضرورة البحث عن اقل الخطوط التكتيكية مقاومة .

وكانت الخطة الاساسية عبارة عن عمل ثغرة في كابوريتو للاحاطة بالجبهة الايطالية في ليزونزو ، ثم عدلت هذه الخطة بفكرة اكثر جراة مع بقاء الامكانيات على حالها دون زيادة . وارتكب لودندورف في كابوريتو نفس الخطأ العميق الاستراتيجي الذي ارتكبه البريطانيون في نفس الوقت في كامبري وهو خطأ اساسه «تفصيل الثياب دون مراعاة كمية القماش الموجودة» . وكان خطأ لودندورف عكس خطأ فالكنهاين الذي كان يطلب دائما قليلا من القماش نظرا

لسوء تقديره لمقاس الثياب ، ثم يضطر لطلب مزيد من القماش لتوسيع حجم الثياب بواسطة الترقيع .

وفي ٢٤ اكتوبر (تشرين اول) انطلق الهجوم الالماني النمساوي بشكل مجهز جيدا ودون ان يذاع عنه شيء حتى آخر لحظة . ودق بذلك اسفينا بين الجيوش الايطالية ، وبعد ٨ ايام وصل الى تاغليامنتو . ولكن ما ان قام الايطاليون بسحب وجمع وحداتهم المبعثرة (المتناقصة باستمرار) حتى تابع الهجوم تقدمه نحو الشمال على شكل هجوم مباشر بحت ، ودفع الايطاليين حتى نهر بياف الذي يعتبر حاجزا قويا يمكن الاستناد عليه . وفكر لودندورف بعد فوات الوقت في توجيه قواته الاحتياطية نحو ترنتين . وفشلت هذه المناورة لضعف شبكة السكك الحديدية في هذه المنطقة . وحاول الجيش النمساوي الهجوم في ترنتين بامكانياته الضعيفة دون جدوى ، لانه لم يعد قادرا على العمل بشكل فعال ضد مؤخرات عدو سحب وحداته وقواته الاحتياطية الى الخلف مسافة كبيرة .

وانقضت لحظة المفاجأة الاساسية ، وأصبح الهجوم النمساوي ـ الالماني عبارة عن مناورة التقاء مباشرة جعلت الايطاليين يتراجعون نحو قواتهم الاحتياطية ومراكز تموينهم وبلادهم ونجدات حلفائهم . وكانت النتيجة الحتمية سلبية ، ولكن مدى النجاح الذي تم الحصول عليه بوسائط ضعيفة كهذه يشكل مع ذلك ردا تهكميا على تصرف فالكنهاين الذي رفض في بداية عام ١٩١٦ قبول مخطط هوتزندورف الذي كان ينطوي على آمال عريضة .

مسرح العمليات في البلقان :

لنحاول قبل دراسة مخطط لودندورف لعام ١٩١٨ ان نتذكر الطريقة التي تصرف او حاول ان يتصرف بها خصومه خلال السنوات الثلاثة السابقة باستثناء عملياتهم في الجبهتين الروسية والفرنسية .

فبينما كانت القيادة العامة الفرنسية والبريطانية تؤمن ايمانا لا يتزعزع بمزايا الهجوم المباشر ، فقد كان هناك من يشك ، ابتداء من شهر اكتوبر ١٩١٤ ، في قيمة هذه المزايا . وكان بعض هؤلاء الذين ساورهم الشك بعيدين عن الجبهة، وبعضهم قريبين منها ، ومن هؤلاء الناس غالييني في فرنسا ، وكيتشنر في انجلترا ، ولقد كتب كيتشنر في ٧ يناير (كانون ثاني) ١٩١٥ الى سير جون فرنش : «يمكن اعتبار خطوط الالمان في فرنسا حصنا لا يمكن احتلاله بانقضاض مباشر ، كما لا يمكن الاستدارة حوله تماما . لذا يجب تثبيته بقوات معينة والاستمرار في العمليات في مكان آخر» .

وقد زعم البعض ومنهم ونستون تشرشل انه يمكن اعتبار مجموع الدول المعادية كتلة واحدة ، وان التقدم الحديث قد طوّر جذريا طريقة تقدير المسافات

وقدرة الحركة ، وان ضربة على مسرح عمليات مجاور تشكل هجوما استراتيجيا على مجنبة العدو في المسرح الاصلي . كما ان عملية كهذه تبدو ملائمة للاستراتيجية البرمائية التقليدية في بريطانيا ، وتسمح لها باستثمار التفوق الناجم عن سيطرتها البحرية والتي لم تستغلها حتى ذلك الحين . وفي يناير (كانون ثاني) ١٩١٥ دعم كيتشنر المخطط الذي يطالب بقطع الطريق الرئيسي لمواصلات تركيا مع الشرق بالنزول في خليج اسكندرونة . ولقد دلت تعليقات هندنبورغ وانور باشا بعد الحرب على ان عملا كهذا كان قادرا على شل حركة تركيا رغم عجزه عن تحقيق نتيجة حاسمة .

واقترح لويد جورج نقل معظم القوات البريطانية الى بلاد البلقان ، واختراق بلاد العدو ومن «الباب الخلفي» ولكن القيادتين الفرنسية والبريطانية الواثقتين من اقتراب النصر في الجبهة الفرنسية قاومتا هذه الفكرةبشدة محتجتين بصعوبة المواصلات والتموين وسهولة ارسال وحدات المانية الىالبلقان لمجابهة هذا التهديد. وهذه اسباب وجيهة ولكن حماسة القيادتين الفرنسية والبريطانية دفعتهما الى المبالغة في تقدير اهمية هذه الاسباب ، ولكن هاتين القيادتين كانتا اقل معارضة لمخطط غاليني في البلقان ، وكان هذا المخطط يهدف الى انزال قوات في سالونيك ، وجعل هذه المدينة قاعدة انطلاق لجيش قوي يزحف في اتجاه القسطنطينية ويرغم اليونان وبلغاريا على الانضمام للحلفاء ، على ان يتبع احتلال العاصمة التركية تقدم مشترك مع الرومانيين على طول نهر الدانوب حتى امبراطورية النمسا وهنغاريا . وفي سبتمبر (ايلول) ١٩١٨ رات القيادة العسكرية الالمانية في هذا المخطط حركة خطيرة وحاسمة ضدها . وكان هذا التهديد الذي برز في الاسبوع الاول من نوفمبر (تشرين ثاني) عاملا من العوامل الرئيسية التي عجلت باستسلام المانيا .

ومن الجدير بالذكر ان قيادة الحلفاء العسكرية تجاهلت في يناير (كانون ثاني) ١٩١٥ كل الاقتراحات التي كانت ترمي الى القيام بعمليات مشاغلة ومنع تجميع كل الجهود على الجبهة الغربية . ولكن بقيت الفكرة كامنة حتى وجد الحلفاء انفسهم في وضع يسمح لهم ببعث مخطط الشرق الادنى بشكل جديد وعلى مستوى اصغر .

في ٢ يناير (كانون ثاني) طلب الغراندوق نيقولا من كيتشنر القيام بعملية مشاغلة لتخفيف ضغط تركيا على الجيوش الروسية في القوقاز . ولم يكن لدى كيتشنر قوات كافية ، فاقترح القيام بمظاهرة بحرية امام الدردنيل . وراى تشرشل النتائج الاقتصادية الاستراتيجية الهامة التي قد تنجم عن هذه المظاهرة فاقترح تحويلها الى عملية اقتحام لمضيق الدردنيل نظرا الى انه ليس من الممكن تقديم المساعدات التي طلبها الروس . وجمعت قوة بحرية معظمها من السفن القديمة بالتعاون مع الفرنسيين . وفي ١٨ مارس (آذار) دخلت السفن الحربية في مضيق الدردنيل بعد قصف شديد بالمدافع . ولكن الالغام البحرية العائمة التي زرعت منذ وقت طويل في مكان غير متوقع اغرقت بعض السفن وفشلت

المحاولة .

ويمكن هنا ان نتساءل عن امكان نجاح مثل هذه العملية لو انها تكررت مـرة ثانية بسرعة وخاصة بعد نفاد الذخيرة التركية ، الامر الذي يسهل عملية اجتياز الالغام العائمة . ولكن القائد الجديد للقوات البحرية الاميرال دوروبيك اعترض على ذلك المشروع الا اذا تم دعمه برا . وكان المجلس العسكري قد قرر قبل ذلك بشهر القيام بهجوم مشترك ، وارسل وحدات بقيادة يان هاملتـون . وترددت القيادة في ارسال الوحدات اللازمة . ولما ارسلت هذه الوحدات بأعداد قليلـة غير كافية اضاع الحلفاء عدة اسابيع في الاسكندرية لتنظيم نقلها حسب متطلبات العمل التكتيكي . وزاد الطين بلة سياسة التردد التي اضاعت فرصة المفاجأة ، وكانت القوات التركية خلال القصف المبدئي في فبراير (شباط) عبارة عـــن فرقتين . ولما بدات المحاولة البحرية زيدت هذه الفرق الى اربع ، وعندما وجد هاملتون نفسه جاهزا للقيام بعملية انزال الجنود بلغ عدد الفرق التركيـــة ست فرق . وكانت قوات هاملتون المؤلفة من ٤ فرق بريطانية وفرقة فرنسيـــة واحدة اضعف في مجموعها من قوى العدو الذي يتمتع علاوة على ذلك بالميزات التي يملكها الدفاع في مواجهة الهجوم ، وزادت هذه الميزات بسبب صعوبـــة الارض . واضطر هاملتون نظرا لضعفه العددي واقتصار مهمته على دعم عبـور الاسطول الى انزال الجنود في شبه جزيرة غاليبولـــي بدلا من انزالها علـــى الشاطىء الآسيوي .

وفي ٢٥ ابريل (نيسان) انطلق البريطانيون من الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة قرب غابات تيبة على بعد ١٥ ميلا من شاطىء بحر ايجه وقاموا بقفزة اولى الـى الامام ، ونزل الفرنسيون المكلفون بالقيام بعملية مشاغلة وخداع مدة من الزمن في كوم كاليه على الشاطىء الآسيوي . ولما انتهى تأثير المفاجأة الاساسية استطاع الاتراك جلب قواتهم ، ولم يعد المهاجمون قادرين على توسيع راس جسرهـــم المهدد باستمرار .

وفي يوليو (تموز) قررت الحكومة البريطانية ارسال خمس فرق جديدة لدعم الفرق السبع الموجودة آنذاك في شبه الجزيرة ، وعندمـــا وصلت هذه القوات وجدت عدد الفرق التركية قد بلغ ١٥ فرقة . وقرر هاملتون القيام بعملية معقدة تهدف الى القيام بضربة ضد غاباتيبة بمجموعة من قوارب الهجـــوم ، في الوقت الذي تم فيه انزال مفرزة من الجنود على بعد عدة أميال الى الشمال في خليج سوفلا للسيطرة على أواسط شبه الجزيرة وتأمين المرتفعات المسيطرة على المضيق. وقد تبدو هذه الصدمة مباشرة اكثر مما لو تم انزال القوات في بولايير او علـى الشاطىء الآسيوي ولكنها تمت في اتجاه لا يتوقعه العدو الذي كانت قواتـــه الاحتياطية متجمعة في مكان آخر بعيد عنه . ولم تكن القوات التركية التي تدافع عن الممر تتجاوز خلال ذلك ٣٦ كتيبة ونصف من الجنود ، ثم وصلت النجدات وضاعت الفرصة من يد الحلفاء . وهنا أدى نقص خبرة وحدات النزول ، وعدم براعة قادة الهجوم ، وضياع الامل الناجم عن الفشل ، واستمرار مقاومة من

كانوا ضد فكرة هذا المشروع من البداية، الى الجلاء عن شبه الجزيرة .

ويقول القائد الالماني فالكنهاين في هذا الصدد : «لو كانت المضائق الواقعة بين البحر الابيض المتوسط والبحر الاسود مفتوحة امام قوافل الحلفاء لنقصت فرصة ربح الحرب امامنا ، ولتخلت روسيا عن عزلتها التي نستفيد منها لما تقدمه لنا من ضمانات تفوق ضمانات النجاح العسكري» .

ولم يكن الخطأ كامنا في تنظيم المخطط بل في تنفيذه ، ولو زج البريطانيون منذ البداية ببعض القوات التي اضطروا الى ارسالها فيما بعد على دفعات متتالية لكان نجاحهم محتملا . ويمكن اعتبار معركة الدردنيل ، هجوما مباشرا ضد تركيا وغير مباشر ضد معظم الجيوش التركية التي كانت تقاتل حينئذ في جبال القوقاز، كما يمكن اعتبارها على المستوى الاكبر هجوما غير مباشر ضد الالمان وحلفائهم في وسط أوربا . ولو قارنا نتائج الصراع العقيم في فرنسا حيث اشتبكت قوات كبيرة على مساحات صغيرة بشكل يمنع تحقيق اختراق حاسم ، مع فكرة الغزو في الدردنيل ، لوجدنا هذه الفكرة متلائمة في الاصل مع المبدأ القائل بضرورة مطابقة الهدف مع الواسطة ، ولو ان هذا المبدأ لم يحترم خلال التنفيذ .

حقل العمليات في فلسطين وما بين النهرين :

لا يمكننا ادخال الحملات في الشرق ضمن هذه الدراسة لانها كانت بعيدة عن مسرح العمليات الرئيسي بحيث لا تستطيع القيام بتأثير استراتيجي حاسم . واذا اعتبرناها عمليات مشاغلة استراتيجية وجدناها تمتص عددا من القوات البريطانية يزيد عما وضعه العدو لمجابهتها .

ويمكننا ان نقر هنا بوجود النتيجة السياسية ، لان بريطانيا عدلت من قبل بشكل مستمر هزائم حلفائها في القارة الاوربية باحتلال مواضع العدو فيما وراء البحار . وتشكل مثل هذه العمليات أوراقا رابحة في مباحثات الصلح ، اذا كان الموقف في حقل العمليات الرئيسية سيئا او غير ملائم . كما انها تبعث الحماس في نفوس المقاتلين طوال مدة الصراع (١) .

---

١ ـ ان الذين عارضوا بعد الحرب فكرة اعادة جزء من المستعمرات لالمانيا واثاروا فكرة الخطر الذي تشكله هذه المستعمرات لم تكن معارضتهم ترجع الى اهمية هذه المستعمرات غير المباشرة بالنسبة للبريطانيين في حرب مقبلة . اذ يعرف البريطانيون ان احتلال هذه المستعمرات في المستقبل والحصول على نجاح أولي فيها بفضل تفوق القوى البحرية البريطانية يعوض التأثير المعنوي السيء وفقدان الهيبة بسبب الهزيمة في أوربا . كما ان حصول دولة قارية على مناطق وراء البحار يسهل قطع مواصلاتها معها وبرغمها على الاعتدال والحد من نواياها العدوانية . ولقد بدا ذلك واضحا عندما ترددت ايطاليا طويلا في دخول الحرب عام ١٩٣٩ خوفا على مستعمراتها ، ولم تدخلها الا بعد ان تأكدت من انتصار حليفتها ، هذا مع العلم ان مجموعة قواعد منتشرة فيما وراء البحار قد تخفف الرغبة في الحرب ولكنها لا تقضي عليها نهائيا .

وتستحق الاستراتيجية المحلية في فلسطين رغم ذلك شيئا من الاهتمام . لقد كانت في البداية خليطا من الهجوم المباشر وغير المباشر . واستخدمت الخط المتوقع من قبل العدو الذي كان اطول الطرق واصعبها للوصول الى مركز القوة التركية الحيوي . وفي مارس (آذار) وابريل (نيسان) ١٩١٧ ، وبعـــد فشلين متتاليين في غزة التي كانت حصنا يحمي طريق الهجوم المباشر بين مصر وفلسطين بمحاذاة الشاطىء ، جرب البريطانيون هجومـــــا أقل مباشرة مع كافة القوات الموجودة .

ووضع شيتوود مخططا وافق عليه اللبي ، وكان هذا المخطـــط غير مباشر جغرافياً ضمن الحدود التي تسمح بها امكانية التموين بالماء وضيق المنطقـــــة المحصورة بين البحر والصحراء . وكانت مواقع الاتراك الدفاعية في غزة تمتد مسافة عشرين ميلا داخل البلاد ، بينما كانت بئر السبع الواقعة على بعـــد ١٠ اميال تشكل منطقة امامية تغطي الجزء الشرقي من منطقة الهجـــوم المحتمل . واستطاع اللنبي جذب انتباه الاتراك نحو غزة بفضل مجموعة من الخدع مـــع الاحتفاظ التام بسرية الخطة ، ثم احتل بلدة بئر السبع بهجوم عنيف مفاجىء على الجزء غير المحصن منها . واستفاد بذلك من منابع مياهها . وكانت الخطة عبارة عن هجوم مشاغلة على غزة ، وهجوم على مجنبة المواضع التركية الرئيسية ، مع التفاف خيالة بئر السبع بسرعة حول مؤخرة الاتراك . ولكن صعوبة التموين بالماء وهجوم الاتراك المضاد شمالي بئر السبع اوقفا هذه المناورة . وتم اختراق الجبهة التركية دون الوصول الى نتيجة حاسمة ، ووجدت القوات التركية نفسها مطرودة الى ما بعد القدس ولكنها نجت من التطويق والابادة التي كان البريطانيـــــون يحلمون بهما .

ولقد تأخرت عمليات التطويق والابادة بعد ذلك سنة كاملـــة حتى سبتمبر (ايلول) ١٩١٨ . وفي ذلك الوقت جرت في الصحراء الشرقية والجنوبية عمليات غريبة ساعدت على إضعاف القوات المحاربة التركية ، وسلطت الاضواء علـــى استراتيجية خاصة للهجوم غير المباشر . وهذه العمليات هي عمليات الثـــورة العربية التي نشبت بمساعدة لورانس ، ويمكن اعتبارها في مجموعها من عمليات حرب العصابات التي تعتبر بطبيعتها من اعمال الهجوم غير المباشر . ولكـــن استراتيجيتها المدروسة علميا كان لها تأثيرها الاكيد على الحرب العادية .

ولقد كانت هذه العمليات صورة صادقة للهجوم غير المباشر ، لذا نراها تؤدي الى نتائج فعالة قليلة التكاليف ضمن حدود امكانياتها البسيطة . وكان العرب اكثر حركة واقل تحملا للخسائر من الجيوش النظامية ، اما الاتراك فلم يبـــدوا اي اهتمام لفقدان الرجال على عكس تأثرهم الواضح بفقدان العتاد الذي بدا يتناقص عندهم بسرعة . وكانوا يصمدون بصورة رائعة اذا ما هوجموا في خنادقهـــم ويسددون نيرانهم باحكام على الاهداف المتجهة نحوهم مباشرة ، ولكنهم كانـــوا يعجزون عن الاستمرار في بذل جهد طويل الامد في العمليات العسكرية التـــي

تحتاج الى مرونة وحركة كبيرتين ، وكانوا يأخذون على عاتقهم احتلال مساحات كبيرة من الارض بامكانيات لا تكفي لتشكيل شبكة فعالة من المراكز الدفاعيـــــة المتباعدة التي تحمي مواصلات طويلة تمتد في مناطق غير مأمونة .

وكان العرب يتحاشون القتال في الظروف التي يسعى اليه فيها اي جيش عادي . وكانوا يبحثون عن تدمير عتاد العدو في النقاط غير المحروسة بدلا من محاولة تدمير قوات العدو كما تفعل عادة الجيوش التقليدية. وذهبت استراتيجية لورانس الى ابعد من ذلك ، فلم يحاول طرد العدو بقطع التموين عنه بل حاول تثبيته في موقعه بالسماح لكمية قليلة من التموين بالوصول اليه ، بصورة يزداد معها ضعف العدو المادي والمعنوي كلما طال بقاءه . ولو قام لورانس بهجمات جدية قوية لاضطر العدو الى التجمع مما يسهل على العدو مشكلتي التموين والحيطة . ولكنه فضل القيام «بوخزات» تزغم العدو علىبعثرة قواته . وسارت استراتيجيته على خط المقاومة الاضعف . ولقد شرحها لورانس بقوله : «لم يحاول الجيش العربي الاحتفاظ بالنصر او استثماره ، ولكنه كان يتحرك دائما ليضرب من جديد في نقطة اخرى . لقد استخدم اقل القوي في اصغر زمن وفي ابعد مكان . ولو استخدم طريقة اطالة مدة العمليات لدرجة تدفع العدو الى تبديل تكتيكه الخاص بالقتال بقصد الاستمرار في المقاومة لخالف القاعدة الاساسية التي ترمي الى عدم اتاحة الفرصة للعدو لتنفيذ اغراضه» .

فما هو وجه الخلاف بين هذه الاستراتيجية ، وتلك التي طبقت في عام ١٩١٨ على الجبهة الغربية ؟ انهما في الحقيقة متشابهتان ولكن احداهما اكثر تطورا من الاخرى ، وتطبيقها في الحرب العادية مشروط بعوامل الزمن والامكانيات وسعة حقل العمل . لقد كانت عبارة عن نوع سريع وفعال من انواع الحصار ، ولكن نتائجها ابطأ من نتائج استراتيجية التدمير . ان استخدام استراتيجية التدمير يصبح ضروريا اذا تطلب الموقف انتصارا سريعا بسبب السياسة الوطنية ، وقـد تكون ابطأ واكثر كلفة وخطرا من استراتيجية لورانس الا اذا نجأت لسبيل غير مباشر للعمل . وقد يعرقل العمل كثافة الوسائط المستخدمة وصغر مساحة حقل العمليات . وكقاعدة عامة يجب علينا في الحرب العادية اختيار هجوم غير مباشر يؤدي الى النصر السريع الحاسم بإيقاع العدو في فخ ، فاذا تعذر مثل هـــذا الهجوم او فشل بعد قيامه وجب استخدام هجوم غير مباشر يهدف الى تحقيق النصر عن طريق استنزاف قوى الخصم وسحق ارادته . وتظل كافة الحلـــول افضل من الهجوم المباشر .

ولم تسنح الفرصة امام الاستراتيجية العربية لمتابعة اهدافها ؛ ففي سبتمبر (ايلول) ١٩١٨ ادت هذه الاستراتيجية الى شل حركة الجيش التركي المنتشر على طول الخط الحديدي في الحجاز وقام اللنبي بضربة حاسمة في فلسطين لعبت فيها القوات العربية دورا هاما ، وانهارت القوات التركية الرئيسية انهيارا تاما.

وهنا نتساءل : هل يمكن النظر الى العمليات التي انهت الحرب في فلسطين باعتبارها حملة ام معركة تلتها مطاردة ؟ والاجابة على ذلك صعبة بسبب حدوث

اشتباك بين الطرفين منذ بداية الصراع ، وقد تحقق النصر قبل انتهاء القتـــال بحيث ان هذه العمليات تبدو بالاحرى كأنها معارك . ولكن النصر جاء قبل كـل شيء بطرق استراتيجية ، ولم يكن للقتال فيها دور هام .

وهذا ما ادى في الحقيقة الى الاقلال من قيمة نتائجها في نظر من يؤمنـون بمبدأ كلوزفيتس القائل بأن الدم المراق هو ثمن النصر . وبالرغم من تفوق قوات اللنبي عدديا (٢ او ٣ ضد ١) فان احتمالات نجاحه كانت أقل من احتمالات نجاح التقدم البريطاني الاول في فلسطين الذي انتهى الـى الفشل . وليس التفـوق العددي كل شيء فكثيرا ما فشلت الهجمات في الحرب العالمية وفي الحروب التي سبقتها رغم هذا التفوق .

ومما يقلل من انتصار اللنبي وقوعه بعد ان انخفضت قوة الاتراك المعنوية . ولكن رغم الشروط الملائمة في سبتمبر (ايلول) ١٩١٨ يمكن اعتبار هذا الانتصار من روائع التاريخ الحربي لما تميز به من بعد نظر . اننا نعترف بأن المهمة كانت سهلة ولكننا نعترف ايضا بأن هذه المعركة في خطوطها الرئيسية هي اللوحـــة الوحيدة تقريبا لفكرة حسنة نفذت بشكل ممتاز .

ومخطط معركة فلسطين يتلاءم جيدا مع تعريف الاستراتيجية الذي قدمه ويليش والقائل بأنها : «دراسة المواصلات» ، كما يتلاءم مع قول نابليون «يكمـن سر فن الحرب في السيطرة على المواصلات» . لان هذا المخطط كان يهدف الى تحقيق سيطرة البريطانيين على جميع المواصلات التركية بمختلف أشكالها . ويعني قطع مواصلات جيش ما شل تنظيمه المادي ، اما قطع خط انسحابه فيعني شل تنظيمه المعنوي ، كما ان قطع خطوط الاتصالات الداخلية التي يتم بواسطتها نقل الاوامر والتقارير فيعني شل جهازه العصبي الذي يصل المخ بالاعضاء العاملة في الجسم . وكان الطيران في هذه المعركة مكلفا بتنفيذ المهمة الثالثة اذ طرد مـــن الجو كافة الطائرات المعادية ، فأصبحت القيادة التركية عاجزة عن الرؤية ، ثم قصف المراكز اللاسلكية والتلفونية في العفولة فأفقد هذه القيادة امكانية النطق والسمع . ويعود الفضل في تنفيذ المرحلة الثانية للعملية الى العرب الذين قطعوا السكة الحديدية الرئيسية في درعا مما أدى الى نتيجة مادية تمثلت في توقف تيار التموين التركي بعض الوقت وهذا امر كبير الاهمية . كما ادى الى نتيجة معنوية دفعت القيادة التركية الى ارسال جزء من قواتها الاحتياطية الى أمكنـة الحوادث .

كانت الجيوش التركية الثلاثة مرتبطة مع دمشق بطريق حديـديّ واحد . وكانت درعا نقطة التقاء الخط الحديدي الذاهب الى الجنوب في اتجاه الحجاز. والخط الآخر الذاهب الى الغرب نحو العفولة على الضفة الثانية لنهر الاردن حيث يتفرع الى فرعين يتجه احدهما الى الغرب نحو حيفا كما يتجه الثاني الى الجنوب نحو المنطقة التي يحتلها الجيشان التركيان السابع والثامـــن . وكان الجيش التركي الرابع في شرق الاردن يعتمد على الخط الحديدي الحجازي . وكـــان احتلال العفولة ونقطة اجتياز الخط الحديدي على نهر الاردن قرب بيسان يعني

قطع مواصلات الجيشين التركيين السابع والثامن واغلاق خط انسحابهما العادي السهل ، مع بقاء سبيل انسحاب واحد صعب نحو الاراضي الوعـرة في شرق الاردن . اما احتلال درعا فكان بمثابة السيطرة على مواصلات الجيوش التركية الثلاثة وقطع افضل طرق تراجع الجيش الرابع .

كانت درعا بعيدة عن الجبهة بشكل يمنع البريطانيين من الوصول اليهـا بسرعة للتأثير على النتيجة النهائية . ولكن العرب انطلقوا من الصحراء كأشباح اسطورية وقطعوا الخطوط الحديدية الثلاثة . الا ان طبيعة الارض وموقع درعا ونوع التكتيك العربي كل هذا لم يسمح بعمل سد استراتيجي على مؤخرة الاتراك، وكان اللنبي يبحث عن مكان اقرب لعمل هذا السد والحصول على نصر سريع ، فوجد ان مفترق طرق العفولة والجسر الموجود على نهر الاردن قرب بيسـان واقعان في منطقة تبعد ٦٠ ميلا عن الجبهة ، اي ضمن مدى قفزة استراتيجية تقوم بها الخيالة والعربات المدرعة ، على ان يتم الوصـول الى هاتين النقطتين الحيويتين دون ملاقاة اي حاجز . وكان من الضروري ايجاد طريـق هجوم لا يستطيع العدو اغلاقه في الوقت المناسب ،والتحقق مقدما من عدم وجـود تحضيرات بهذا الصدد .

فكيف تم حل المعضلة ؟

يشكل سهل شارون الساحلي ممرا الى سهل مرج ابن عامر ووادي بيسـان الذي توجد فيه العفولة وبيسان ، وكان هناك باب واحد لسد هذا الممر ، وكان هذا الباب بعيدا او غير محروس ومؤلفا من خط الجبال الصغير الذي يفصـل سهل شارون الساحلي عن سهل بيسان في الداخل ، وكان مدخل الممر مغلقا بخنادق الاتراك .

وهنا استخدم اللنبي طريقة تعتمد على الاستعاضة عن قذف القنابل بمجموعة من الخدع والحيل حتى توصل الى ابعاد انظار العدو عن الشاطىء نحـو وادي الاردن . وساعده على ذلك فشل هجومين قام بهما في الربيع في شرق الاردن . وفي شهر سبتمبر (ايلول) كان الاتراك ينظرون نحو الشرق عندما تقدمت وحدات اللنبي خفية في الغرب حتى وصلت الى الشاطىء وارتفع تفوقها العددي البالغ ٢ ضد ١ حتى بلغ ٥ ضد ١ . وفي ١٩ سبتمبر (ايلول) تقدمت المشاة بعد تمهيد كثيف بالمدفعية لمدة ربع ساعة واحتلت دون صعوبة الخندقين التركيين المجهزين بشكل بدائي . ثم استدارت نحو الشرق وغيرت اتجاهها الى الداخل واندفعت الخيالة من الباب المفتوح ودخلت الممر مع العربات المدرعة ودخلت عبر الممـرات الجبلية حتى سهل مرج بن عامر . ويعود معظم الفضل في هذا النجاح الـى نشاط الطيران البريطاني الذي جعل القيادة التركية صماء عمياء بكماء .

وفي اليوم التالي تم عمل السد الاستراتيجي على مؤخرة الاتراك . ولم يعد امامهم سبيل سوى واحد للخلاص في الشرق على الطرف الثاني لنهر الاردن ، وكانوا قادرين على الوصول اليه لولا تدخل الطيران البريطاني . وكانت مشـاة اللنبي يتقدمون ببطء بسبب مقاومة مؤخرات العدو الشديدة . وفي صباح ٢١

سبتمبر (ايلول) اكتشف الطيران البريطاني رتلا معاديا كبيرا يضم تقريبا كل مـا بقي من الجيشين التركيين المنسحبين ، متجها نحو الاردن ، فقام بهجوم جوي دام اربع ساعات وبعثر الرتل وزال الجيشان التركيان السابع والثامن من الوجود.

أما في شرق الاردن فكان الوضع غير ملائم لعمل مثل هذا السد . وتمت تصفية الجيش الرابع بسرعة بواسطة وخزات متتالية غير متقطعة بدلا مـن استخدام التدمير العنيف . وسقطت دمشق نتيجة لذلك . ثم تم استغلال هذا النصر بالسير نحو حلب على بعد ٢٠٠ ميل من دمشق وعلى مسافة ٣٥٠ ميل من قواعد الانطلاق التي غادرها البريطانيون قبل ٣٨ يوما . وتم خلال هذا التقدم أسر ٧٥ الف جندي تركي ، وخسر البريطانيون أقل من خمسة آلاف رجل .

عندما وصل اللنبي الى حلب كانت تركيا مهددة باحتمال انهيار بلغاريا وتقدم جيش الجنرال ميلين المنطلق من سالونيك في اتجاه استنبول ومؤخرات البلاد، فاضطرت الى الاستسلام في ١٣ أكتوبر (تشرين اول) .

نلاحظ عند تحليل النصر الحاسم في فلسطين ان الاتراك كانوا قادرين على ايقاف المشاة البريطانيين حتى لحظة انتشار نبأ السد الاستراتيجي الذي تم على مؤخراتهم ، اذ أدى هذا النبأ الى نتيجة معنوية حاسمة . لقد كانت المشـاة ضرورية لاقتحام الخنادق في هذه المعركة ، وما ان تم ذلك حتى تم تحقيـق النصر بواسطة عناصر متحركة لم تكن تشكل سوى جزء من القوى الرئيسية .

وتمتاز هذه الحالة من الهجوم الغير مباشر بأن تحضيرها كان جيدا ، وكان تنفيذها يعتمد على سرعة حركة المهاجم التي تفكك قوى العدو وتفقده معنوياته . وكانت هذه السرعة في الحركة مفاجأة قوية للعدو لدرجة أثرت فيه تأثيرا شديدا.

وكان هناك ميدان عمليات آخر يستحق الملاحظة هو ميدان سالونيك فـي الجنوب الشرقي من الميدان الاوربي . وقد تم ارسال قوات الحلفاء اصلا الى هذا الاتجاه للقيام بمحاولة دعم قوات الصرب في خريف عام ١٩١٥ . وبعد ٣ سنوات انطلق من نفس المكان هجوم كانت له نتائج كبيرة . ولكن رغم وجـود اسباب سياسية واستراتيجية هامة تقتضي التمسك بنقطة ارتكاز في البلقان فان من الضروري التساؤل عن الحكمة في تكريس عدد كبير من الوحدات البريطانية لهذه الغاية حتى بلغت حوالي نصف مليون رجل ، فيما أسماه الالمان بكل تهكم اكبر معسكر اعتقال .

الفصل الرابع عشر

الاستراتيجية في عام ١٩١٨

تتطلب دراسة الاحداث العسكرية في السنة الاخيرة لهذه الحرب معرفة وضع البحرية قبل عام ١٩١٨ بسبب تأثير ذلك على الاحداث بشكل عميق . ان هذه البحرية لم تقم بمعركة حاسمة معركة الطرف الأغر ولكنها اشتركت اكثر من اي عامل آخر في تحقيق النصر للحلفاء . لقد كانت البحرية أداة الحصار ، ولما درس هذا الحصار بعد انتهاء الحرب ظهرت آثاره الهامة الخطيرة لدرجة اعتبره البعض اول عامل ادى الى حسم نتيجة الحرب .

يؤدي العجز غالبا الى فقدان الامل ، ويؤكد التاريخ ان للامل اثرا اكبر من فقدان الرجال . ولا يمكن لاي مؤرخ تجاهل قيمة التأثير المباشر الذي اصاب الشعب الالماني بسبب حالة «نصف الجوع» التي كان يعاني منها وكيف ادى ذلك الى انهيار «الجبهة الداخلية» . فاذا ما تركنا جانبا موضوع تأثير الثورة على الفشل العسكري وبالعكس ، وجدنا ان عامل الحصار قد تدخل جديا في كل التقديرات العسكرية .

وكان الخطر الكامن في الحصار سببا من الاسباب التي دفعت الالمان الى اول هجوم بالغواصات في فبراير (شباط) ١٩١٥ الامر الذي دفع بريطانيا الى الغاء اتفاقية لندن ، وتقوية الحصار بايقاف وتفتيش كل السفن التي تعتقد انها تقوم

بتموين المانيا . واتاح حادث اغراق الباخرة لوزيتانيا (١) بطوربيد غواصة المانية للولايات الامريكية سببا وجيها لدخول الحرب ضد المانيا ، وقضى على الخلافات في وجهات النظر الانجلو ـ امريكية حول موضوع الحصار .

وبعد مضي عامين دفعت الازمة الاقتصادية الناتجة عن الحصار القادة العسكريين الالمان الى مضاعفة حرب الغواصات . وكانت بريطانيا تعتمد على البحر لتموين شعبها وجيشها ، وهذه في الحقيقة نقطة ضعفها ، وكان هجوم الغواصات الالمانية على مواصلاتها البحرية بمثابة هجوم غير مباشر على مستوى الاستراتيجية العليا وله نتائج محتملة حاسمة . ورغم بعض اخطاء الالمان وجدت بريطانيا نفسها في وضع حرج فعلا . وارتفعت الخسائر البحرية من ٥٠٠ الف طن في شهر فبراير (شباط) الى ٨٧٥ الف طن في ابريل (نيسان) . وهنا بادر البريطانيون باتخاذ تدابير مضادة للغواصات ، وكان عدد الغواصات الالمانية غير كاف ، فقل عدد سفن الحلفاء التي تغرقها هذه الغواصات ، ولم يكن عند بريطانيا آنذاك من المؤن ما يكفيها الا لمدة ستة اسابيع فقط .

لقد كانت آمال القادة الالمان كبيرة في الحصول على النصر عن طريق الضغط الاقتصادي ضد بريطانيا ، فلما فشل هذا الضغط بداوا يشعرون بالخوف من وقوع انهيار اقتصادي في بلادهم ، اذا ما طبق العدو ضدهم هذا النوع من الضغط . لقد بداوا حرب الغواصات وهم يعلمون خطورة هذا العمل واحتمال دخول الامريكيين الحرب بسببه . وفي ٦ ابريل (نيسان) تحقق هذا الخطر ؛ ورغم تأخر دخول الامريكيين في المعركة واستفادة الالمان من هذا الوقت الضائع فقد ادى مجرد اعلان الحرب الى زيادة ضغط الحصار البحري ضد المانيا . وما ان دخلت الولايات المتحدة الحرب حتى بدات باستخدام هذا السلاح الاقتصادي دون الاهتمام بالبلاد المحايدة . ولم يعد امام الحصار اية مشكلة ناتجة عن اعتراض المحايدين . وانقلب الحصار بعد دخول امريكا الى خنق دائم تراخت المانيا بسببه باستمرار لان القوة العسكرية تقوم على الوضع الاقتصادي ، وهذه حقيقة هامة يتجاهلها الكثيرون .

ويمكن اعتبار هذا الحصار استراتيجية عليا لا يمكن مقاومتها وكان خطره ناجما من بطء تأثيره ، وتزايد هذا التأثير بتزايد مدته . وفي نهاية عام ١٩١٧ شعر الالمان وحلفاؤهم به بشكل مرير ، فاضطروا للقيام بمحاولة يخلصون منها انفسهم من انهيار اقتصادي محقق . وكانت هذه المحاولة عبارة عن هجوم عسكري قاموا به في عام ١٩١٨ ، وما ان فشل هذا الهجوم حتى بدت الكارثة

---

١ ـ باخرة ركاب انكليزية ضربتها غواصة المانية بالطوربيد قرب شواطىء ايرلندة في ٧ مايو (مايس) ١٩١٥ مما ادى الى مقتل ١٣٨٠ شخصا منهم ١٢٤ امريكيا وكان هذا الحادث سببا في دخول الولايات المتحدة الحرب ضد المانيا . «المعرب»

بشكل مفجع .

ولو طبقت المانيا بعد معركة المارن في عام ١٩١٤ او بعد ذلك بقليل خطة دفاعية في الجبهة الغربية وهجومية على الجبهة الشرقية لامكن تغيير نتيجة الحرب . لانه كان في استطاعتها حينئذ تحقيق حلمها في السيطرة على اوروبا الوسطى ، دون التأثر بالحصار بشكل فعال ما دامت امريكا خارج الحرب . والسيطرة على اوروبا الوسطى تعني اخراج روسيا من المعركة . وعندئذ فان فرنسا وانكلترة وايطاليا لم تكن لتستطيع اكثر من دفع المانيا الى اخلاء بلجيكا وشمال فرنسا كبديل عن مكاسب المانيا في الشرق . ولاصبحت المانيا بعد هذه المكاسب كبيرة وقوية وقادرة على الاكتفاء بما حصلت عليه ، والتخلي عن النصر في الغرب على الحلفاء . وفي الحقيقة يمكن اعتبار التخلي عن الجهد غير المجدي عملا يميز الاستراتيجية العليا عن الحماقة الكبرى .

ولم تعد الفرصة ملائمة لذلك في عام ١٩١٨ لان قوة المانيا الاقتصادية غدت ضعيفة ، وكان ازدياد ضغط الحصار يؤدي الى خفض قوة مقاومتها بسرعة تفوق سرعة استفادتها من المنابع الاقتصادية التي استولت عليها في رومانيا واوكرانيا .

في هذه الظروف انطلق الهجوم الالماني النهائي للحصول على نصر عسكري ينقذ الوطن . وكانت الوحدات الالمانية العائدة من الجبهة الروسية قد اعطت المانيا تفوقا عدديا ، ولكنه اقل من التفوق العددي للحلفاء بالنسبة لالمانيا خلال هجماتهم السابقة . ففي مارس (آذار) ١٩١٧ كان لدى الحلفاء ١٧٨ فرقة مقابل ١٢٩ فرقة المانية ، بينما كانت قوات الالمان في مارس (آذار) ١٩١٨ تبلغ ١٩٢ فرقة مقابل ١٧٣ فرقة للحلفاء (بما في ذلك اربع فرق امريكية ونصف فرقة وصلت حديثا وتعادل كل واحدة منها عدديا فرقتين من الحلفاء) .

وكان الالمان قادرين على جلب قوات اخرى من الشرق لزيادة التفوق ، ولكن دخول امريكا الى جانب الحلفاء قلب بسرعة توازن القوى بسبب تدفق قواتها تحت ضغط الموقف الحرج . وكان لدى الالمان ٨٥ فرقة من «فرق الانقضاض» موضوعة في الاحتياط ، كما كان لدى الحلفاء في الاحتياط ٦٢ فرقة ولكنها لم تكن موضوعة تحت امرة قيادة واحدة . وفشلت فكرة تشكيل الاحتياط العام من ٣٠ فرقة ووضعه تحت قيادة المجلس التنفيذي العسكري في فرساي عندما صرح الجنرال هيج بعجزه عن تقديم الفرق السبع المطلوبة منه . وفشل اتفاق التعاون المتبادل بين الفرنسيين والانكليز عندما وضع موضع التنفيذ العملي . ولكن الكارثة عجلت باتخاذ اجراء كان من الواجب عمله قبل ذلك فقد كلف فوش بتأمين التعاون بين الجيوش الحليفة ثم كلف بعد ذلك بقيادتها .

كان مخطط الالمان يهدف الى القيام بمفاجأة تكتيكية افضل واوسع من جميع المخططات التي تم وضعها خلال العمليات الاولى في هذه الحرب . وادركت القيادة الالمانية ان الهجوم على خط الانتظار المتوقع يؤدي الى مساوىء عديدة لا يستطيع التفوق العددي تعديلها . كما ان تحقيق المفاجأة الفعالة في حاجة الى مجموعة

قوية من عوامل الخدعة . هذا فضلا عن ان اختراق جبهة متماسكة جيدا يتطلب كافة هذه العوامل مجتمعة .

كان العامل الرئيسي في الهجوم الالماني عبارة عن قصف قصير وكثيف للمدفعية مع استخدام قنابل الغاز . ولم يدرك لودندورف اهمية الدبابات بسرعة كافية لكي يزيد استخدامها . وكان التكتيك الجديد عند المشاة مبنيا على التسرب بحيث تبحث وحدات المقدمة عن نقاط الضعف في دفاع العدو وتتوغل فيها ثم تأتي قوات الاحتياط لاستغلال النصر . على ان تأخذ فرق الهجوم مكانها ليلا ، وتضع المدفعية مجموعاتها في اماكن مستورة قرب الجبهة وتفتح النار دون إحكام رمي مسبق . كما ان القيام بهجمات متتالية على نقاط اخرى يساعد في خداع ومشاغلة المدافعين ويسمح بتوسيع نطاق الهجوم .

واستنتج لودندورف من هجمات الحلفاء الفاشلة السابقة «ضرورة التفكير في التكتيك قبل الاهداف الاستراتيجية البحتة حتى لا تعطي محاولة تنفيذها اية فائدة اذا كان النجاح التكتيكي قبلها متعذرا» . وكان هذا التفكير صحيحا لعدم وجود امكانيات تسمح بالهجوم الاستراتيجي غير المباشر . ورافق التكتيك الالماني الجديد في المخطط استراتيجية جديدة لان هذين العاملين يؤثران على بعضهما تأثيرا متبادلا ، ويستندان على مبدأ القيام بالجهد على خط المقاومة الاضعف . ولكن ظروف عام ١٩١٨ في فرنسا كانت تعيق حرية استخدام خط المقاومة الاضعف ، ولم يحاول لودندورف القيام بهذا العمل اصلا . كما ان اجراء صدمة مفاجأة ضد عدو منتشر على خط قتال يحاذي خط الخنادق ، واستغلال هذا الاختراق بسرعة يؤديان حتما الى هدف لا يمكن الوصول اليه عادة الا باستخدام أقل الخطوط توقعا للهجوم عليها . وأدت الصدمة الى اختراق خطوط الحلفاء وتم استغلال هذا الاختراق بدون انتظار ، ومع هذا فشل المخطط فأين كان الخطأ ؟ تقول الانتقادات التي ظهرت بعد الحرب إن ميول لودندورف نحو التكتيك دفعته الى تبديل الاتجاه وبعثرة القوى وتوجيه الجهود لتأمين النجاح التكتيكي على حساب الهدف الاستراتيجي . ولكن دراسة الوثائق الالمانية التي ترجع الى ذلك العهد وأوامر وتعليمات لودندورف تلقي ضوءا مختلفا على الموضوع ، وتظهر ان الخطأ الحقيقي كان في عدم تطبيق لودندورف للمبدأ الذي تبناه نظريا ، وعدم ادراكه للمعنى العميق لهذه النظرية الاستراتيجية الجديدة . لقد ابدى لودندورف حقا تبذيرا شديدا في استخدام قواته الاحتياطية لاصلاح الفشل التكتيكي ، وكان يتردد كثيرا في اتخاذ القرار اللازم لاستغلال نجاحه التكتيكي .

وكان اختيار قطاع الهجوم اول خطأ وقعت فيه القيادة الالمانية ، فقد حددت جبهة عرضها ٦٠ ميلا بين آراس ولافير لتهجم بها الجيوش ١٧ و١٨ و٢ . ودرست فكرتين مختلفتين تقول اولاهما بضرورة الهجوم على منطقة فردان البارزة داخل الجبهة ، ثم اهملت هذه الفكرة نظرا لصعوبة الارض ووعورتها ، ولان اختراق هذه الجبهة لا يحقق نتيجة حاسمة ، هذا فضلا عن ان الجيش

الفرنسي كان قد استعاد قواه وتنظيمه خلال سنة خلت من المضايقات . وتنادي الفكرة الثانية بضرورة الهجوم بين إيبر ولانس . وايد فيتسيل المستشار الاستراتيجي للودندورف هذه الفكرة كما وافق عليها الامير روبريخ قائد الجبهة بين سان كانتان والبحر . ولكنها اهملت رغم ذلك لان مثل هذا يعني الاصطدام بالقوات الرئيسية للجيش البريطاني فضلا عن ان الاراضي الواطئة كانت مليئة بالمياه ولا ينتظر ان تجف قبل مضي وقت طويل . واخيرا وقع الاختيار على القطاع بين آراس ولافير ، لان الارض هناك صالحة ولضعف هذا القطاع من ناحية التحصينات وقلة وجود المدافعين والقوات الاحتياطية به ، فضلا عن انه كان نقطة الاتصال بين الجيوش الفرنسية والبريطانية . وكان لودندورف يبغي تحطيم هذا الاتصال وسحق البريطانيين الذين ضعفت قواتهم بعد ان طال صراعهم في إيبر . لقد كان هذا القطاع ضعيفا نسبيا في الواقع ، ولكن حكم الالمان كان سطحيا وتعوزه الدقة اذ كان ثلث الخط الشمالي صلبا ومتماسكا ، ويرابط فيه الجيش الثالث البريطاني المؤلف من ١٤ فرقة منها ٤ فرق في الاحتياط . كما كانت معظم القوات الاحتياطية البريطانية تعزز هذه المجنبة التي كان من السهل تدعيمها بسرعة بواسطة الجيوش البريطانية الاخرى الموجودة في الشمال (وهذا ما حدث اثناء القتال) . وكان ثلثا القطاع الآخران يرابط فيهما الجيش الخامس البريطاني المؤلف من خمس فرق تقف في مواجهة الجيش الالماني الثاني ، اما الطرف الجنوبي المقابل للجيش الالماني ١٨ فكانت ترابط فيه سبع فرق بريطانية منها فرقة في الاحتياط .

ولكن لودندورف اعطى للجيش ١٧ المتمركز قرب آراس ١٩ فرقة للهجوم الرئيسي الذي كلف به جناحه الايسر فقط على جبهة عرضها ١٤ ميلا . وتقرر عدم مهاجمة القطاع البريطاني الذي يبلغ طوله خمسة اميال في اتجاه كامبري بل الضغط عليه بشدة فقط . وكان في مواجهة هذا القطاع فرقتان المانيتان من الجيش الثاني الذي كان مؤلفا من ١٨ فرقة ومعدا لمهاجمة الجناح الايسر للجيش البريطاني الخامس (خمس فرق) على جبهة عرضها ١٤ ميلا . وفي اقصى الجنوب جاء الجيش ١٨ من طرفي سان كانتان ، ولم يعطه لودندورف سوى ٢٤ فرقة ليهاجم على جبهة عرضها ٢٧ ميلا . وخالف لودندورف أفكاره ووزع قواته حسب قوات خصمه بدلا من ان يجمعها على أضعف النقاط .

واكدت تعليماته هذا الاتجاه الذي اتخذه ، وكان محور الجهد الرئيسي للقوات الالمانية يتركز شمالي السوم . وبعد اختراق الجبهة المعادية طارد الجيشان الالمانيان ١٧ و٢ البريطانيين نحو الساحل ، وكان الجيش ١٨ والنهر يغطيان مجنبتهما . ثم اجرى تعديل المخطط اثناء التنفيذ تعديلا جذريا لانه نجح في الامكنة التي لم تكن تهم لودندورف رغم كونها على خط المقاومة الاضعف ولم ينجح في الاتجاه الذي كان يرغبه اشد الرغبة .

انطلق الهجوم في ٢١ مارس (آذار) وساعد ضباب الصباح على تحقيق المفاجأة وفتحت عملية اختراق جبهة الحلفاء جنوبي السوم بنجاح لنقص الوحدات

المدافعة . وفشل الهجوم قرب آراس ، واثر هذا الفشل على الهجوم شمالي النهر كما كان متوقعا وخالف لودندورف مبداه مرة ثانية وامضى الايام التالية وهو يحاول تجديد الهجوم على موقع آراس المنيع واعتبر هذا الاتجاه محور جهده الرئيسي . وفي هذا الوقت كان الجيش الالماني ١٨ يتقدم نحو الجنوب دون ان يقابل مقاومة جدية . وفي ٢٦ مارس (آذار) أرسل له امرا بعدم اجتياز نهر آفر، والسير بخطى تلائم سير القوات المجاورة المؤلفة من الجيش الثاني الذي كان مضطرا بدوره الى ابطاء حركته بسبب النجاح البسيط الذي صادف الجيش ١٧ قرب آراس . وهكذا نجد ان لودندورف كان يريد ضرب الجيش البريطاني بأي ثمن وذلك بتدمير افضل مواقعه الدفاعية بواسطة هجوم مباشر ، بدلا من ان يندفع على الخط الاقل مقاومة جنوبي السوم .

وفي ٢٦ مارس (آذار) ضعف الهجوم شمالي السوم ، وكان ثمن المكاسب غاليا . وفي جنوب النهر وصل الجناح الايسر للجيش الثاني الى هدفه ، ولكن تقدمه صادف صعوبات لانه كان يزحف في اراضي السوم التي سادها الدمار والتخريب ، اما الجيش ١٨ فكان يندفع الى الامام دون عراقيل .

وفي خلال هذا الموقف اتخذ لودندورف مخططا جديدا دون ان يهمل المخطط القديم نهائيا ، واعطى الامر في ٢٨ مارس (آذار) للجناح الايمن للجيش ١٧ للقيام بهجوم آخر مباشر على المرتفعات قرب آراس . واندفع هجوم الجيش السادس في الشمال بين فيمي ولاباسييه ، وبدأ الوضع جنوبي السوم ملائما فكلف الجيش الثاني بمهمة رئيسية هي الوصول الى اميان ، واصدر تعليماته للجيش الثامن عشر بعدم الاندفاع الى الامام والاستدارة حول مجنبة المقاومة في اميان ، الا اذا تلقى امرا جديدا . وحددت مدينة اميان كهدف رئيسي ثانية ، وكان احتلالها يقتضي القيام بهجوم مباشر على ارض غير ملائمة .

وفي ٢٨ مارس (آذار) انطلق هجوم اراس دون الاعتماد على المفاجأة او على ستارة الضباب ، وفشل امام مقاومة الجيش الثالث . وعندئذ تخلى لودندورف عن فكرته الاساسية ووجه نحو اميان معظم ثقله ودعمه ببعض القوات الاحتياطية الموجودة لديه . ولكنه أمر حينئذ الجيش الثامن عشر بالتوقف في مكانه مدة يومين ، وعندما تجدد الهجوم في ٣٠ مارس (آذار) كانت الوحدات المهاجمة غير كافية عدديا فلم تحقق سوى نجاح قليل امام مقاومة توفر لها الوقت الكافي لكي تستعد وتقوي تحصيناتها بالاسمنت الفرنسي الاحتياطي الذي استخدم في تلك المنطقة بكميات ضخمة لتقوية التحصينات . ووصلت المدفعية الالمانية في ذلك اليوم لاول مرة بعد المشاة وتدخلت في المعركة بعنف . وفي ٤ ابريل (نيسان) قامت ١٥ فرقة المانية (منها ٤ فرق جديدة) بهجوم آخر لم يؤد الى نجاح يفوق نجاح سابقه .

وترك لودندورف اميان بدلا من الاندفاع في قتال ينهك قوى جيوشه ، ولم يحاول مطلقا الاستفادة من قدرته الهجومية لتوسيع الثغرة بين الجيشين

الفرنسي والبريطاني . وقد ابلغ القائد الفرنسي بيتان القائد الانجليزي هيج انه اذا استمر التقدم الالماني على هذا الخط فينبغي اعادة القوات الاحتياطيةالفرنسية نحو الجنوب الغربي لتغطية باريس ، وكان اقل جهد اضافي حينئذ يكفي لتحويل هذه الثغرة الصغيرة الى فجوة هائلة .

ويقدم لنا هذا الوضع شاهدا جديدا على ان نقطة الاتصال بين جيشين هي افضل موقع يمكن توجيه الهجوم ضده بنجاح . ويكون هذا الهجوم اشد خطورة اذا كان هذان الجيشان ملتصقين ببعضهما اكثر مما لو كانا بعيدين عن بعضهما. ثم قرر لودندورف القيام بهجوم جديد في الشمال بمعظم قواته الاحتياطية التي تواجه آراس ، رغم عدم تأكده من نجاح هذا الهجوم . وفي ٢٥ مارس (آذار) امر بالقيام بعملية صغيرة بين لاباسيه وارمانتيير لتوسيع نطاق الاختراق . وكان قد وضع هذا المخطط بعد فشل الهجوم على آراس في ١٨ مارس (آذار) ، وكان من المفروض ان يأتي بعد الهجوم جنوب ارمانتيير هجوم جديد من شمالها بعد ٢٤ ساعة يضغط عليها بشكل اقرب . ولقد تقرر هذا الهجوم متأخرا ولم يكن جاهزا الا في ٩ ابريل (نيسان) واعتبر حتى ذلك التاريخ عملية مشاغلة . واستفاد الهجوم من ضباب الصباح وحصل على نجاح غير متوقع في بدايةالامر ضد قطاع ضعيف مما دفع لودندورف الى تحويله الى عملية واسعة النطاق . وفي ٩ ابريل (نيسان) هاجمت ٩ فرق المانية تسندها خمس فرق احتياطية جبهة عرضها ١١ميلا جنوبيارمانتيير حيثكانت تدافعفرقة برتغاليةوفرقتان بريطانيتان. وفي اليوم التالي هاجمت ٤ فرق المانية اخرى تحت ستار الضباب شمالي ارمانتيير على جبهة عرضها ٧ كيلومترات . وعندما اخذت المقاومة شكلا قويا زج الالمان بفرق اخرى على شكل وحدات صغيرة . وفي نهاية الاسبوع الاول من مايو بلغ تعداد القوات التي ذهبت الى خطوط النار ٤٠ فرقة . ووصل لودندورف في النهاية الى حرب الانهاك .

ووجد البريطانيون انفسهم مطرودين بلا امل نحو قواعدهم البحرية ولكن بعد ان اوقفت مقاومتهم اندفاع الالمان الذين تقدموا ١٠ أميال في اتجاه ملتقى السكك الحديدية الهام في مدينة كازبروك . وفي ١٧ ابريل (نيسان) قرر لودندورف القيام بهجوم على شكل كماشة من كلا طرفي مدينة ايبر . ولكن العدو لاحظ هذه الحركة واستطاع احباطها تقريبا بفضل حركة هيج غير المباشرة التي تضمنت تغييرا لخط العملية بثمان واربعين ساعة ، وعاد لودندورف بعد فشل هذه الخطة الى القيام بهجوم مباشر بحت جنوبي ايبر . حيث وصلت قوات احتياطية فرنسية جديدة لتحتل قطاعا من الجبهة . ووقع الهجوم في ٢٥ ابريل (نيسان) على نقطة اتصال الحلفاء فمزقها في مونت كيميل ، ولم يستثمر لودندورف هذا الاختراق خوفا من وقوع هجوم مضاد ، وكان يبدو منذ بعض الوقت انه مقتصد في استخدام قواته الاحتياطية ، ولكن هذا الاقتصاد كان غير كاف فضلا عن انه جاء متأخرا فلم يحقق له نجاحا حقيقيا . ولما فشل هجومه الاول اصبح امله في نجاح الهجوم الثاني ضعيفا . وبعد محاولة اخيرة اوقف الهجوم في ٢٩ ابريل (نيسان).

وكانت فكرته عدم ايقاف العمليات قبل التوصل الى جذب القوات الاحتياطية الفرنسية الى الجبهة بشكل يسمح له بضرب القوات البريطانية في الفلاندر ضربة قاضية .

وكان لودندورف قد بدأ قبل ذلك في اعداد هجوم في قطاع شومان دي دام بين مدينتي سواسون وراتس على ان يتم التنفيذ في ١٧ ابريل (نيسان) ولكن الاستعدادات استمرت حتى ٢٧ مايو . ويرجع هذا التأخير الى امتداد مدة الهجوم الالماني في الفلاندر ، وما ترتب على ذلك من انهاك قوات لودندورف الاحتياطية . واستطاعت شعبة المخابرات في القيادة العامة الامريكية معرفة مكان وتاريخ الهجوم تقريبا . ولم يؤخذ تحذيرها بعين الاعتبار الا عندما أكدها أسير حرب المالي في ٢٦ مايو بعد فوات الاوان . وكانت فرصة تعزيز الوحدات قد ضاعت فلم يعد امام قيادة الحلفاء سوى انذار الوحدات ، وان كانت قد تمكنت من تحريك القوات الاحتياطية رغم ذلك . وفي صبيحة اليوم التالي قامت ١٥ فرقة المانية تدعمها موجة ثانية من ٧ فرق بهجوم ساحق على جبهة عرضها ٢٤ ميلا تدافع عنها خمس فرق فرنسية وبريطانية واربع فرق احتياطية . وساعد الضباب والدخان هذا الهجوم فحطمه المدافعون عن شومان دي دام وعبر نهر إين بسرعة ووصل في ٣٠ مايو الى نهر المارن . وحصل لودندورف هنا ايضا على نصر جزئي لم يكن مستعدا له ، كما لم يكن راغبا فيه ، لقد اراد هذا القائد الاستراتيجي ان يفاجيء ففوجيء ، فقد جذبت هذه البداية الناجحة جزءا كبيرا من قواته الاحتياطية الى ذلك المكان ففقدت بذلك كل تأثير فعال ، لانها عجزت عن مجاراة القوات الاحتياطية للحلفاء في هذا السباق .

وهذا النجاح الاولي الذي حققه الالمان يستحق مع ذلك الملاحظة . اذ يبدو انه يرجع الى ان انتباه العدو ، كان متجها نحو مكان آخر ، والى ان الهجوم اختار خط المقاومة الاضعف ، فضلا عن افتقار القيادة الفرنسية الى الادراك السليم ، فقد أصرت على تكتيل المشاة على المواضع الامامية كأنما كانت تريد ان تجعلهم لقمة سائغة أمام مدافع الالمان . وكانت مدفعية الحلفاء والقوات الاحتياطية المحلية ومراكز قيادة الدفاع قريبة من الجبهة فلما اندفع الالمان أدى اندفاعهم الى انهيار الحلفاء انهيارا تاما . وحصل الهجوم بذلك على المفاجأة التكتيكية التي فقد بعضها عند انطلاقه ، ولما كان هدف كل مفاجأة هو تحطيم توازن الخصم ، فان النتيجة واحدة ، سواء سقط هذا الخصم في الفخ المنصوب له وهو مغمض العينين ، أم سمح للآخرين بأن يخدعوه وهو مفتوح العينين .

في هذه اللحظة فتح لودندورف في جبهة الحلفاء جيبين كبيرين وجيبا صغيرا. وحاول بعد ذلك تدمير نقطة الاتصال في منطقة كومبين الواقعة بين مدينة اميان ونهر المارن ، ولكن المفاجأة كانت معدومة ، وفي ٩ يونيو (حزيران) تم الهجوم على جانب هذه المنطقة الغربي ولكنه جاء متأخرا فلم يتوافق مع الهجوم القادم على جانبها الشرقي .

ثم تبع ذلك توقف لمدة شهر ، وكان لودندورف يبغي القيام بضربة حاسمة في بلجيكا ضد البريطانيين . وهي ضربة كان يفكر فيها منذ مدة طويلة . وكانت هذه الفكرة تراوده حتى ذلك الحين . ولكنه قدر ان قواتهم الاحتياطية لا تزال كبيرة فيها ، فقرر القيام بعملية مشاغلة جديدة . وكان يود القيام بهجوم عنيف في الجنوب لجذب القوات الاحتياطية البريطانية هناك ، ولكن فشله في تدمير نقطة الاتصال في كومبين دفعه الى تطبيق نفس الطريقة في الشرق بمهاجمة مدينة رانس من جهتين ، ولكنه وجد نفسه في حاجة الى استراحة ليسترد قوته ويستعد ، وجاءت هذه الفترة وبالا عليه لانها اعطت الفرنسيين والبريطانيين الوقت اللازم لتعويض خسائرهم ، كما اعطت الامريكيين الوقت الكافي لاعداد قواتهم .

قد تكون نجاحات لودندورف التكتيكية سببا من اسباب فشله النهائي . اي أن اندفاعه تحت تأثير الانتصارات جعله يستثمر كل انتصار الى مدى اكبر مما يجب ، مع فترات زمنية طويلة تفصل بين الضربة والاخرى . ولم يكن يسير حسب خط المقاومة الاضعف بل حسب خط تتزايد فيه المساومة بشكل يصبح معه كل هجوم منهجماته بعد انتهاء الاختراق الاساسي عبارة عن هجوم مباشر بحت . لقد غرز في قلب الدفاع ثلاثة اسافين دون ان يدخل اي واحد منها بعمق كاف لقطع شريان حيوي . وترتب على هذا الفشل الاستراتيجي ان اصبح الالمان على جبهة مسننة ذات تعاريج يستطيع الحلفاء فيها القيام بهجوم على المجنبات .

وفي ١٥ يوليو (تموز) أطلق لودندورف هجومه الجديد ولم يكن هذا الهجوم سرا لدى الحلفاء . وفشل الهجوم في شرقي رانس بفضل الدفاع المرن ، وادى توغل الالمان وراء نهر المارن في الغرب الى تعريضهم لهزيمة كاملة فيما بعد . ففي ١٨ يوليو (تموز) أطلق القائد الفرنسي فوش هجوما محضرا منذ مدة طويلة ضد المجنبة الثانية لجيب المارن واستخدم بيتان الذي كان يقود هذه المركة مجموعة من الدبابات الخفيفة التي حققت ميزة الهجوم المفاجيء . واستطاع الالمان رغم ذلك الاحتفاظ بمدخل المنطقة مفتوحا مدة كافية لسحب وحداتهم ووضعها في مأمن وتنظيم خطوطهم ، ولكن وحداتهم الاحتياطية كانت قد نفدت كلها وانتقل عنصر المبادأة الى الحلفاء .

ان رد الفعل الذي حققه الحلفاء في المارن يستحق دراسة عميقة . لقد طلب بيتان من فوش اعداد مجموعتين من القوات الاحتياطية بقصد القيام بهجوم مضاد على مجنبة الهجوم الالماني الجديد المحتمل ، واستطاعت المجموعة الاولى بقيادة مانجان تحطيم الهجوم المعادي في ٩ يونيو (حزيران) ، ثم توجهت بعد ذلك الى موضع جديد غرب بروز المارن ، نظرا لان فوش قرر استخدامه لاهداف هجومية على عقدة مواصلات السكة الحديدية في سواسون . وخلال اعداد هذا الهجوم علمت شعبة المخابرات من مصادر موثوقة ان هجوما المانيا يجهز قرب رانس فقرر فوش منع هذا الهجوم ، وليس مقاومته ، وذلك بالقيام بهجوم في ١٢ يوليو (تموز) . ولكن بيتان اقترح السماح للالمان بالتقدم والتوغل في زحفهم ثم

ضرب مؤخرة جناحهم . لم تكن القوات الفرنسية جاهزة للهجوم يوم ١٢ يوليو (تموز) لذا تمت المعركة حسب فكرة بيتان تقريبا ، وليس حسب فكرة فوش . ونقول «تقريبا» لا تماما لان فكرة بيتان الاساسية كانت تعتمد على اخلاء الموضع الخلفي السليم ثم القيام بهجمات مضادة محلية ترغم العدو على زج قواته الاحتياطية في الجيوب الجديدة على طرفي رانس . على ان ينطلق القائد الفرنسي مانجان بعد ذلك نحو الشرق للقيام بهجوم مضاد حقيقي على طول المجنبة الغربية لمنظمة المارن البارزة فيصبح بذلك قادرا على اغلاق فتحة الكيس الكبير وسجن القوات الالمانية جنوبي نهر اين .

وساهمت الحوادث ، وكذلك فوش ، في تعديل هذه الفكرة . لقد فشل الهجوم الالماني شرقي رانس بسبب الدفاع المرن ، وهو نوع من الهجوم غير المباشر التكتيكي . وكان قادة الجيوش غرب ريمس يصرون على استخدام الوسائل الدفاعية القديمة الجامدة فاخترق الالمان جبهتهم في عدة نقاط وعبروا المارن . ولمواجهة هذا الخطر دفع بيتان بمعظم قواته الاحتياطية المحضرة للمرحلة الثانية في العملية . وقرر سحب بعض وحدات مانجان لتشكيل قوات احتياطية جديدة فتأخر بذلك انطلاق الهجوم الذي اعده مانجان بناء على اوامر فوش في ١٨ يوليو (تموز) . ولما علم فوش بذلك اعطى امرا مضادا واصر على ان يقوم مانجان بهجومه، فأهملت بذلك المرحلة الثانية للعملية ، واستطاعت القوات الاحتياطية الالمانية الجاهزة ايقاف هجوم مانجان ، وبقيت فوهة الكيس مفتوحة وانقلب رد الفعل الى ضغط مباشر بحت على الكيس من كل الجهات وهو ضغط يدفع الالمان الى خارج الجيب .

وأصبحت فكرة فوش الرئيسية منذ ذلك الوقت هي المحافظة على المبادأة ومنع الخصم من التقاط انفاسه ، وتجميع قوات الحلفاء الاحتياطية من كل صوب . وكان عمله الاول تحرير خطوطه الحديدية الجانبية بسلسلة من الهجمات المحلية ونفذ هيج الهجوم الاول في ٨ ابريل (نيسان) قرب اميان ، واستطاع الجيش الرابع البريطاني مضاعفة عدد قواته خفية عن الالمان بفضل استخدام الحيطة والخدعة فقامت ٤٥٠ دبابة بهجوم يعتبر اكبر ضربة مفاجئة في هذه الحرب . ثم اضطرت للوقوف بعد ذلك لان مهمتها الاساسية كانت تأمين الضغط المباشر . ولكن تأثيرها المفاجيء أدى الى تحطيم معنويات القيادة العليا الالمانية ، وتأكد لودوندورف ان قواته قد انهارت معنويا فأعلن ان السلم لا يمكن تحقيقه الا بالمفاوضات وقال : «يجب ان يكون هدف استراتيجيتنا في غضون ذلك شل ارادة الحرب لدى العدو شيئا فشيئا بواسطة الدفاع الاستراتيجي» .

في هذا الوقت كان الحلفاء يتجهون نحو استخدام طريقة استراتيجية جديدة تعتمد على القيام بسلسلة سريعة من الضربات الشديدة الموجهة ضد مواضع مختلفة . وكل ضربة من الضربات تتوقف بمجرد ان يضعف اندفاع الهجوم ، وتكون كل واحدة منها وسيلة لفتح الطريق للضربة التالية ، على ان تكون جميعها

متقاربة في الزمان والمكان بحيث تؤثر الواحدة منها على الاخرى بشكل فعال . وهكذا تم وقف حركة لودندورف الذي لم يعد قادرا على تحريك قواته الاحتياطية بسرعة لتفادي الصدمات ، ووجدت هذه القوات نفسها ثابتة وعاجزة عن الحركة مما قدم للحلفاء مزايا كبيرة . ولا تشكل هذه الطريقة هجوماً* غير مباشر وحقيقي ولكنها تشبهه الى حد بعيد . انها لا تستخدم الخط غير المتوقع ولكنها تتحاشى مع ذلك خط الانتظار المتوقع . ولم تكن تستخدم خط المقاومة الاضعف ، ولكنها لا تصر على متابعة الجهد على خط تزداد قوته ، ويمكن اعتبارها شكلا سلبيا للهجوم غير المباشر .

وقد ترتب على الضعف المعنوي والعددي المستمر للقوات الالمانية ان اصبحت هذه الطريقة كافية خلال وقت معين لتأمين تقدم الحلفاء واضعاف المقاومة الالمانية . وامام وضوح هذا الضعف وتأكيدات هيج بامكان اختراق خط هندنبورغ الذي تتمركز عليه اقوى وحدات العدو قرر فوش ترك طريقته والقيام بهجوم عام في كل مكان في وقت واحد .

وتضمنت خطته القيام بضغط مباشر على شكل كماشة حول البروز الكبير الذي تشكله الجبهة الالمانية في فرنسا . وكانت تعتمد على قدرة جناحي الحلفاء المؤلفين من البريطانيين والامريكيين على القضاء خلال تقدمهما على القوات الالمانية المتمركزة داخل هذا البروز . وهكذا يمكن تفادي منطقة الاردين التي تشكل في نظر قيادة الحلفاء جدارا خلفيا لا يمكن اجتيازه وليس فيه سوى مخارج ضيقة على المجنبات . ولكن هذه الفكرة عن الاردين غير صحيحة ولا يقبلها الا الذين لا يعرفون طبيعة هذه المنطقة . فالواقع ان طرقها حسنة ومعظم مناطقها يمكن الوصول اليها بسهولة .

كان المخطط في البداية يحوي بعض الهجوم غير المباشر بناء على اقتراح بيرشينغ القائل بضرورة استخدام جيشه لاستثمار النصر المحلي بغية السيطرة على مواصلات الالمان في اللورين ، وتهديد خطوط انسحابهم نحو نهر الرين . ورفض هيج هذه الفكرة لانها تبعد الهجوم عن بقية الهجمات الحليفة بدلا من ان تتلاقى معها . عندها عدل فوش خطته ورفض اقتراح بيرشينغ . وكان على الجيش الامريكي ان يبذل جهوده في الغرب ويجهز في مدة تقل عن سبعة ايام هجوما في قطاع الموز ـ ارغون . وادى الضغط المستمر على خط المقاومة المتزايدة الى اضطرابات وخسائر فادحة دون ان يسهل تقدم هيج عبر خط هندنبورغ .

هنا اثبتت الوقائع ان هجوما مباشرا مدعوما بتفوق ساحق بالمدفعية ضد عدو ضعيف المعنويات يمكن ان يتوغل في مواقع العدو ولكنه غير قادر على تدميره . وفي ١١ نوفمبر (تشرين ثاني) ١٩١٨ وهو يوم الهدنة كانت القوات الالمانية باستثناء وحدات المؤخرة في مأمن خارج الجيب ومتمركزة على خط اكثر استقامة واقل طولا . وتوقف تقدم الحلفاء بسبب صعوبة التموين في منطقة مخربة تماما . ولقد ادى الهجوم المباشر في هذه الظروف الى انسحاب الالمان بسرعة

اكبر من سرعة مطاردة الحلفاء .

لم يكن للمرحلة الاخيرة لهجوم الحلفاء العسكري الا اهمية ثانوية . والواقع ان الصدمة المعنوية التي اصابت القيادة الالمانية من مفاجأة ٨ اغسطس (آب) قد استكملت تأثيرها بهجوم غير مباشر حدث في حقل عمليات بعيد ، وهو هجوم الحلفاء في سالونيك الذي اختار قطاعا من الارض كثير التضاريس ضعيف الحراسة وتقدم بفضل ذلك بسرعة . ولم يستطع العدو جلب قواته الاحتياطية بسرعة لايقاف تقدم الحلفاء نحو مجنبته على خط المقاومة الاضعف . ووجد البلغاريون المتعبون من الحرب جيوشهم مقسمة الى قسمين فطلبوا الصلح . وأدى ذلك الى خروج قوات اوروبا الوسطى من الحرب وفتح الطريق امام ضربة بارعة وجهت ضد مؤخرة النمسا .

وظهر الخطر بكل وضوح عندما انطلق هجوم ايطالي على الجبهة النمساوية المحطمة ماديا ومعنويا فاخترقها . وباستسلام النمسا استفاد الحلفاء من ارضها وشبكة خطوطها الحديدية واستخدموها كقاعدة لعملياتهم ضد مؤخرة المانيا . وكان الجنرال الالماني فون غالفيتس قد ابلغ مستشار المانيا في شهر سبتمبر ان استسلام النمسا سيقرر مصير الحرب .

ان الحصار البحري والتأثير المعنوي المتزايد الناجم عنه هو بمثابة هجوم غير مباشر في مجال الاستراتيجية العليا ضد شعب قاسى بسببه الجوع وفقد الامل، مما ادى في النهاية ، الى استسلام الحكومة الالمانية . لقد كان هذا الحصار عبارة عن مهماز يخز الحصان ليعدو بسرعة ، ثم جاء سقوط بلغاريا كضربة سوط دفعته للجري بسرعة اكبر وخاصة لمجيئها في لحظة وصول اول التقارير عن متابعة هجوم الحلفاء على الجبهة الغربية في فرنسا .

وفي ٢٩ سبتمبر (ايلول) قرر هندنبورغ ولودندورف فجأة طلب الصلح لان انهيار بلغاريا قلب الموقف كله . فقد كانت الضرورة تقضي بارسال وحدات معدة للجبهة الغربية نحو الجبهة الجديدة .

وكانت التدابير تتخذ كلها لمواجهة الهجوم العام للقائد الفرنسي فوش لان الهجوم الامريكي الذي بدأ في ٢٦ سبتمبر (ايلول) في قطاع الموز – ارغون لم يكن يشكل خطرا حقيقيا وان كان مزعجا . ولكن في صباح يوم ٢٩ سبتمبر قام هيج بهجوم على خط هندنبورغ وكانت الانباء الاولى تدعو الى القلق . وفي هذه الظروف الحرجة دعي الامير ماكس دوباد ليبدأ مفاوضات الصلح بكل سرعة لان خطورة الموقف العسكري لا تسمح بأي تأخير .

وهكذا طلب الالمان في ٣ اكتوبر (تشرين اول) ١٩١٨ الهدنة مباشرة من الرئيس الامريكي ويلسون ، وكان هذا الطلب ينطوي على اعتراف صريح بالهزيمة امام الرأي العام العالمي . ومن الغريب ان مثل هذه الفكرة كانت كافية قبل يومين لكي تثير اعتراضات شديدة في القيادة العامة الالمانية ، وخاصة عندما عرضت في احد الاجتماعات على رؤساء كل الاحزاب السياسية .

وفتح الرجال عيونهم على الحقيقة المرة بعد ان تجاهلوها طويلا ، فأعماهم

نورها المفاجيء واصابهم الذهول ، وبدات تظهر عوامل الخلاف الكامنة والرغبة الخفية في السلام .

وبعد بضعة ايام استعادت القيادة العامة الالمانية بعض هدوئها ، وشعرت بشيء من التفاؤل نظرا لان اختراق خط هندنبورغ لم يتبعه اختراق كامل لجبهتهم . ثم جاءتهم الشجاعة من التقارير التي تصف هجمات الحلفاء بالتخاذل في استثمار الفرص الملائمة . وكان لودندورف يرغب في الهدنة ليعطي قواته بعض الراحة ويؤمن انسحابها نحو خط دفاعي أقصر على حدود بلاده . وشعر في ١٧ اكتوبر (تشرين اول) بأنه قادر على الاستغناء عن هذه الراحة . بعد ان رأى الموقف قد تبدل . ولم يكن الوضع سيئا كما تصوره من قبل في ٢٩ سبتمبر (ايلول) ولكن انطباعه الاول انتشر في الاوساط السياسية وبين الجماهير الالمانية وانهارت الجبهة الداخلية قبل جبهة القتال .

وفي ٢٣ أوكتوبر (تشرين اول) رد الرئيس ويلسون على طلب الالمان ردا يحمل في طياته المطالبة بالاستسلام دون قيد او شرط . وكان لودندورف يريد متابعة القتال لاعتقاده بأن الاستمرار في الدفاع على الحدود الالمانية يؤدي الى الحد من طلبات الحلفاء . ولكن الموقف خرج من يده ، ولم تعد كلمة القيادة العامة مسموعة ، فقدم استقالته في ٢٦ اوكتوبر (تشرين اول) .

وفي ٣ نوفمبر (تشرين الثاني) قررت تركيا والنمسا الاستسلام مما جعل باب المانيا الخلفي مفتوحا . واشتعلت الثورة في المانيا وانتشرت في طول البلاد وعرضها ، واتسع نطاقها بسبب طول امد المفاوضات . واستلم السلطة الزعيم الاشتراكي ايبرت ووقع شروط الصلح في ١١ نوفمبر في الوقت الذي كانت به القوات الالمانية قادرة على متابعة القتال .

ويمكن اعتبار الحصار من اسباب نصر الحلفاء لانه خنق الاقتصاد الالماني وعجل بالثورة الشعبية ، كما ان المجهود الحربي الذي قام به الحلفاء يعتبر عاملا اساسيا في التعجيل باستسلام المانيا والحيلولة دون امتداد الحرب حتى عام ١٩١٩ . ولا يعني هذا ان القوات العسكرية الالمانية كانت عند توقيع الهدنة محطمة بصورة حاسمة ، ان دراسة الوثائق المتعلقة بآخر «مائة يوم» تؤكد ان هدف الحرب الحقيقي هو روح قادة الاعداء لا اجساد جنودهم ، وأن الهزيمة والنصر يتقرران تحت تأثير الضغط المعنوي وبصورة غير مباشرة تحت تأثير الضربات المادية . ولم يهتز لودندورف في الواقع امام خسارة الرجال او المدافع والارض قدر اهتزازه عند وقوع المفاجأة وشعوره بالعجز عن صد حركة استراتيجية محتملة .



القسم الثالث

الاستراتيجية خلال الحرب العالمية الثانية

الفصل الخامس عشر

استراتيجية هتلر

ان الحملات التي قام بها هتلر قبل وبعد نشوب الحـــرب عام ١٩٣٩ تبرز بوضوح اهمية الطريقة التي شرحت في الاجزاء السابقة من هذا الكتاب . فقد قدم هتلر في المرحلة الاولى ابعادا جديدة لاستراتيجية الهجوم غير المباشر مـــن الناحيتين النفسية والمادية وعلى الصعيدين المدني والعسكري . ولكنه اتاح بعد ذلك لاعدائه فرصا كثيرة ليستخدموا ضده مثل هذا النوع من الهجوم .

يقتضي المنطق والعقل خلال الحرب عدم الاقلال من شأن العدو ، ومعرفـــة طريقة عمله واسلوب تفكيره ، وهذا اساس كل عمل جدي يهدف الى التكهـــن بأعماله ومناوراته واعتراض سبيلها . وكم ضاعت فرص من الحلفـــاء بسبب تباطؤهم في توقع واكتشاف الضربة التالية التي يستعد هتلر للقيام بها ضدهم.

ان من مصلحة كل دولة ان يكون في اداراتها الحكومية «قسم للعدو» مهمته الاهتمام بكل قضايا الحرب ودراسة مشاكلها من وجهة النظر المعادية وتوقـــع نوايا العدو ومخططاته مقدما على اساس منطقي . ولا شك ان المؤرخين سيصابون في المستقبل بدهشة كبيرة عند دراسة اسباب عجز دول الحلفاء عن معرفـــة اهداف هتلر ، لان التاريخ لم يعرف رجلا طموحا مثله كشف بكل وضوح طريقته الخاصة وتسلسل تنفيذها للوصول الى هدفه . ويلقي كتابه «كفاحي» وخطبه

وظواهر اخرى غيرها نورا ساطعا حول اتجاهه العام وتسلسل اعماله المقبلة . لقد كشف بنفسه افكاره بكل جلاء مما يثبت ان نجاحه لم يكن وليــــد الصدفة او استغلال الظروف . ان نابليون نفسه لم يبد ابدا مثل هذه الاستهانة بخصومه او بالاخطار التي يمكن ان تترتب على كشف نواياه . ولكن اهمال هتلر الواضح في هذا الصدد يبين كيف تعمى ابصار بعض الناس عن رؤية الحقيقة الماثلة امام عيونهم ، ويؤكد ان الصراحة التامة قد تكون افضل طريقة للمحافظة على السر ، وان الهجوم المباشر يكون في بعض الحالات اقل توقعا من غيره . وان فن السرية يعتمد في كثير من الاحيان على التحدث بصراحة تامة في عدد كبير من الموضوعات بشكل يبعد الشك عن بعض الامور الاخرى الهامة فعلا .

لقد درس هتلر طرق الثورة البلشفية واستفاد منها ، ثم تعمق في هـــذه الدراسة واستخدمها على نطاق واسع ، واقتبس حكمــــة لينين القائلة ان «الاستراتيجية السليمة تقوم على تاخير العمليات حتى تنهار معنويات العــــدو بشكل يسمح بتوجيه ضربة قاضية له . وخرج منها بقوله : «تبدأ الحــــرب الحقيقية قبل بدء العمليات الحربية» . وتقرأ في كتاب «هتلر قال لي» حديث هتلر مع روشنينغ حول هذا الموضوع : «يهمني ان أعرف كيف يمكن تحقيــــق انهيار العدو قبل اعلان الحرب . ان كل شخص خاض غمار تجربة الحرب فــي جبهات القتال يأمل ان يقلل ما أمكن من الدم المسفوك» .

لقد ركز هتلر كل تفكيره في هذا الموضوع فابتعد بذلك عن النظرية الالمانيــة التقليدية العميقة الجذور ، التي سادت خلال قرن مليء بالمعارك ودفعت أكثر الشعوب للسير على الطريق الضيق لهذه النظرية العسكرية . لقد أدى اتبــــاع العسكريين في ذلك الوقت لتعاليم كلوزفيتس فيلسوف الحرب الى تقبل أفكار عسرة الهضم مثل «ان حل الازمة بالدماء . والجهود التي تبذل لتدمير القــوى العسكرية للعدو هي الولد البكر للحرب» . و«ان المعارك الكبيرة هي وحدها التي تؤدي الى نتائج كبيرة» و«الدم ثمن النصر» و«لا تحدثونا عن قادة ينتصرون دون سفك دماء» . وكان كلوزفيتس يستهجن الفكرة القائلة بأن «هناك طريقة بارعة لنزع سلاح العدو واخضاعه دون سفك كثير من الدماء، وهذا هو الاتجاه الاساسي لفن الحرب» . وقد رفض هذه الفكرة واعتبرها وليدة أفكار «الانسانيين» ولم يؤمن بانها خلاصة تقدير سليم وتحقق نهاية سعيدة لمجموع الشعب . ولقــــد تقبل تعاليم كلوزفيتس اناس متعصبون ذوو أفق ضيق فاعتبروا «المعركة» عاملا رئيسيا ، ولم يبحثوا عن عناصر اخرى افضل لخلق الظرف الملائم للحصول على نتائج كبيرة . لذا كان فن الحرب في فترة ١٩١٤ ـ ١٩١٨ قاصرا على المذابح في كلا المعسكرين . ولكن هتلر تجاوز هذه الآراء التقليدية . ويذكر روشنينغ قول هتلر : «ان الناس لم يلجأوا الى القتل الا عندما عجزوا عن الحصول على هدفهم بطريقة اخرى ... ان هناك استراتيجية اوسع تقودها أسلحة فكرية ... فهل أحطم معنويات العدو بوسائط عسكرية اذا كنت استطيع ذلك بوسائط اخـــرى

افضل وأقل نفقة ؟» وقوله : «ان استراتيجيتنا تقوم على اساس تدمير العدو من الداخل وقهره بتحطيم معنوياته» . اعطى هتلر لنظرية الحرب الالمانية اتجاهـــا جديدا . وساعده لودندورف في وضع مخطط ١٩٣٢ الذي فشل في الاستيلاء على السلطة .

ولكي نفهم افكار هتلر جيدا لا بد لنا من مقارنتها مع نظرية «الحرب الشاملة» التي وضعها لودندورف بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى بعشرين عاما امضاها في تحليل دروس هذه الحرب . فبدأ بهجوم شديد على نظريات كلوزفيتس التـــي كانت اساس النظرية الالمانية في الحرب العالمية الاولى . واخذ على كلوزفيتس عدم سيره في طريق العنف الى آخر مداه ، واعطاء اهمية كبرى للسياسة . كما انتقد فكرته القائلة «بأن الهدف السياسي يشكل الغاية ، والحرب هي وسيلـة تحقيقها ولا يمكن تصور الوسيلة ان لم تكن الغاية محددة بدقة» . واعتبرها فكرة قديمة بالية ، لان مبدأ الحكم المطلق يتطلب من الوطن ان يضع في زمن الحرب كل شيء لمصلحة الحرب كما يسخر كل شيء في زمن السلم للتحضير لحـــرب مقبلة ، على اعتبار ان الحرب فكرة سامية لتحقيق «ارادة الحياة» الوطنية ومـــا السياسة سوى تابع لها .

ويبدو من قراءة مؤلف لودندورف اختلافه الواضح مـع كلوزفيتس اذ ان لودندورف يعتبر الحرب وسيلة لغاية محددة ويرغب في جعل الشعب كله جيشا هو في حد ذاته غاية . وليس هذا الراي جديدا كما اعتقد لودندورف ، لقـــد جربته اسبارطة من قبل في حكمها ثم انهارت من الشلل الذي جرته على نفسها. وكان لودندورف يسعى جاهدا لتوثيق «أواصر وحدة الشعب النفسية» وخلـق عقيدة وطنية تؤمن فيها النساء بدورهن المقدس في انجاب ابناء قادرين على تحمل اعباء الحرب الشاملة ، كما يؤمن جميع رجالها بضرورة زيادة قدراتهم للمشاركة في تنفيذ هذا الهدف ، عقيدة تؤمن بضرورة التناسل من اجل تزويد «المذبح» بالضحايا ، اما فكرة لودندورف الثانية الخاصة بتحقيق الوحدة النفسية للشعب فانها تعني ببساطة اضطهاد وقمع اي شخص يعارض او يفكر في معارضـــــة القيادة العليا .

ويؤكد لودندورف ضرورة تحقيق شرط آخر هو ايجاد نظام اقتصادي وطني يعتمد على الاكتفاء الذاتي ويتلاءم مع متطلبات الحرب الشاملة . ومن هنا يبدو فهمه لفكرة اعتماد القوة العسكرية على الامكانيات الاقتصادية . الا ان تحليلـه واعترافه بالصعوبات الهائلة التي عانتها المانيا من حصار الحلفاء الاقتصادي في الحرب العالمية الاولى لم يؤد الى تعديل فكرته التي تعتبر مصير الحرب متعلقـــا فقط بمعارك القوات المسلحة . وهو يمتدح في هذا الصدد استاذ المانيا القديم قائلا : «لم يفكر كلوزفيتس الا في ابادة جيوش العدو في المعركة» . وتظل هذه الفكرة في نظرية لودندورف بديهية ، بينما يؤمن هتلر بأن الهدف الحقيقي للقائد العسكري هو ارغام جيوش العدو على الاستسلام دون الاشتباك في اية معركة .

ولم يكن وصف لودندورف لشكل الحرب المقبلة سوى تضخيم للهجمات التي

قام بها في عام ١٩١٨ ، وهي الهجمات التي كانت رائعة في بدايتها وعقيمة في نتائجها . وهو يرى في الهجوم مشاة تتقدم تحت دعم المدفعية والرشاشات ومدافع الهاون والدبابات حتى تسحق العدو في الالتحام المباشر . وتقود كافة المناورات حسب وجهة نظره الى «المعركة» . وما استخدام الآليات الا لـزج الوحدات في المعركة بسرعة اكبر .

ولم يكن لدى لودندورف اي اعتراض نفسي او عسكري على تطبيق هذا النوع من الحرب على نطاق واسع . فهو يذكر ان ضرورات الحرب الشاملة «لن تعترف بالرغبات النظرية التي ترمي الى الغاء حرب الغواصات بدون قيد أو شرط» . بل على العكس فقد قال ان «الطائرات يجب ان تتعاون مع الغواصات لاغراق جميع السفن المتجهة الى موانيء العدو حتى ما كان منها تحت علم محايد». ولقد قال عن الهجوم على المدنيين العزل في المدن : «سيأتي يوم نرى فيه اسرابا من الطائرات تهاجمهم بعنف دون شفقة» . ومع ذلك تبقى الاهداف العسكرية بالنسبة له اكثر اهمية لذا نراه يفضل استخدام الطيران قبل كل شيء للاشتراك في تحطيم جيش العدو ، على ان ينطلق بعد ذلك لتدمير بلاد هذا العدو .

واذا كانت وجهات نظر هتلر ولودندورف قد اتفقت حول فكرة الجنس والدولة ، وحق المانيا في السيطرة على العالم ، فانها قد اختلفت بصفة خاصة فيما يتعلق بأساليبهما وطرقهما في العمل . فقد طالب لودندورف بشيء يبدو غريبا ، وهو ان تقوم الاستراتيجية بالاشراف على السياسة ، اي ان تختار الاداة بنفسها نوع عملها ، وقد توصل هتلر الى حل المشكلة بادماج كلتا الوظيفتين في شخص واحد ، واستفاد من المزايا نفسها التي استمتع بها الاسكندر الاكبر ويوليوس قيصر في التاريخ القديم، وفردريك الكبير ونابليون في التاريخ الحديث، مما اعطاه امكانية تحضير وزيادة وسائطه للوصول الى هدفه ، دون ان يستطيع استراتيجي آخر ايقافه . لقد ادرك مبكرا ان العسكري المحترف لا يستطيع ان يعترف بسهولة ان السلاح العسكري ليس الا واسطة من الوسائط التي توضع في خدمة الحرب ، وسلاحا من ضمن الاسلحة التي توضع تحت تصرف الاستراتيجية الكبرى .

ان الدولة قد تدخل الحرب لاسباب مختلفة كثيرة ، ولكن هدف الحرب الاساسي هو تأمين استمرار سياسة الدولة ، رغم ارادة دولة معادية تطبق سياسة مضادة . فاذا رغبت دولة ما في الحصول على ما تريد عن طريق الحرب، فانه يجب عليها ان تضغط على ارادة الخصم لتجبره على تطبيق سياستها ، فاذا ما تم ذلك ، ادركنا خطأ المبدأ العسكري الذي يدعو الى «تدمير القوات المسلحة الرئيسية عن طريق المعركة» ، وهو المبدأ الذي رفعه تلاميذ كلوزفيتس الى المكان الاول ، واستطعنا اعادته الى المكان الذي يستحقه بين مختلف وسائل الاستراتيجية الكبيرة التي تشمل كل الاشكال المكملة للعمل العسكري ، كالضغط الاقتصادي والدعاية والعمل الدبلوماسي . ومن الافضل اشراك جميع العوامل

الفعالة القليلة التكاليف ، الملائمة للموقف ، بقصد تحطيم ارادة العدو بأقل ثمن ودون تعريض كل مشروعات الوطن في المستقبل للخطر ، بدلا من تركيز الاهتمام كاله على وسيلة واحدة قد تعاكسها الظروف فتفشل ، او يقدر لها النجـــــاح بتكاليف كبيرة تستنزف معظم قوات الوطن .

ان هدف هذه الاستراتيجيةهو اكتشاف واصابة «عقبأخيل» اياصابة النقطة الحساسة لقدرة العدو الحربية ، والبحث عن نقطة الضعف في درع العدو بقصد خرقه ، لان تركيز جهد المهاجم على اقوى نقاط العدو قد يضعفه ، ولكن بشكل لا يتلاءم مع النتائج المرجوة . والصدمة المثالية هي الصدمة التي تقع على نقطـة الضعف . ان نزع سلاح العدو اجدى من محاولة تدميره في المعركة واقل كلفة . وشل قدرته قبل المعركة توفر الجهود الكبيرة التي تبذل لتدمـــــيره كما تجنب المهاجم احتمال الفشل .

ان الاستراتيجي البارع يعمل على شل العدو وليس على قتله . ان قتـــل جندي من جنود العدو ، يعني انقاص عدد الاعداء واحدا ، اما تحطيم معنوياته فيعني بذر بذور الخوف والهلع بين زملائه . واذا طبقنا هذه الفكرة على مستوى اعلى ، وجدنا ان إضعاف روح القائد المعنوية يعطل فعالية وحداته بشكل ملحوظ . اما على المستوى الاستراتيجي ، فيكفي التاثير النفسي على حكومة بلد ما لتجميد كل وسائل الحرب في مصادرها .

ان تحليل الحرب يوضح ان القوة المادية لبلد ما تتوقف على عدد سكانــــه ومجموع امكانياته ومنابع قدرته ، وتعتمد دائما على حالة اعضائه الداخليـــة وجهازه العصبي ، واستقرار اجهزة قيادته ومراقبته وحالته المعنوية . ويؤدي الضغط المباشر الى زيادة مقاومة العدو، ولكن الهجوم غير المباشر في الاستراتيجية والسياسة هو افضل السبل واكثرها قدرة على قلب توازن العــــدو المادي والنفسي بشكل يسهل عملية تدميره .

ان هدف الاستراتيجية الحقيقي هو تفتيت امكانيات مقاومة العدو ، ومـن هنا جاء المبدأ القائل بضرورة تحديد اهداف تبادلية بغية الوصول الى الهـدف المعين ، بحيث لا يهدد الهجوم احد الاهداف الا اذا كان قادرا على التحول نحو هدف آخر . وهكذا يحقق الاستراتيجي فرصة اكبر بنجاحه في الحرب ويقلـل احتمالات فشله .

وقد عرف هتلر هذه الحقائق الاستراتيجية التـي تخفى علىّ كثير مــــن العسكريين ، وطبّق هذه الاستراتيجية النفسية خلال حملته التي مهدت لـــه السبيل لحكم المانيا ، فاستغل نقاط الضعف في سياسة جمهوريـــة فايمر (١) واستفاد من تضارب مصالح الراسماليين والاشتراكيين واخذ يقترب من هدفه باضطراد وعلى مراحل وبمجموعة من الاعمال غير المباشرة .

---

١ – جمهورية فايمر هي الجمهورية الالمانية قبل الحكم النازي والرايخ الثالث .

فما ان اصبح سيد المانيا في عام ١٩٣٣ حتى اعطى لهذه الطريقة أبعادا جديدة واسعة . فقد عقد في عام ١٩٣٤ معاهدة عدم اعتداء مع بولونيا لتغطية جناحه الشرقي ، واعقب ذلك بأن اعلن في عام ١٩٣٥ رفض القيود المفروضة على تسليح المانيا حسب معاهدة فرساي . وفي عام ١٩٣٦ اعاد تسليح منطقة الرين وبدأ «حربا خفية» في اسبانيا حيث اشترك مع ايطاليا في مساعدة فرانكو على قلب حكومة الجمهورية الاسبانية . وادى هذا الهجوم غير المباشر على مؤخرة فرنسا وبريطانيا الاستراتيجية الى اضطراب في التوازن على مستوى الاستراتيجية العليا ، لانه اضعف موقفهما في الغرب في الوقت الذي عزز فيه هتلر جناحه الغربي بتحصين منطقة الرين ، واصبح قادرا على الالتفات الى الشرق ليقوم بمناورات كانت نتائجها البعيدة بمثابة ضربات غير مباشرة لاستراتيجية الدول الغربية .

وفي مارس (آذار) ١٩٣٨ دخل النمسا فهدد بذلك تشيكوسلوفاكيا وحطم النطاق الذي احكمته فرنسا حول المانيا بعد الحرب العالمية الاولى . وفي سبتمبر (ايلول) ١٩٣٨ استرد اقليم السوديت وشل حركة تشيكوسلوفاكيا استراتيجيا. وفي مارس (آذار) ١٩٣٩ احتل تشيكوسلوفاكيا التي شل حركتها من قبل وهدد بذلك مجنبة بولونيا .

وهكذا حطم السيطرة الفرنسية في أوربا الوسطى وفك الحصار الاستراتيجي المضروب حول المانيا وقلب الوضع الى مصلحته ، وذلك بفضل سلسلة من المناورات السلمية دون سفك دماء ، تحت ستار من الدعاية البارعة التي تهدف الى اقناع الراي العام العالمي بشرعية اعماله . ويمكن اعتبار هذه الطريقة تطبيقا عصريا واسعا لفن المناورات للوصول الى وضع افضل قبل بدء المعركة . وبفضلها زادت قوة المانيا زيادة مباشرة بتقوية التسليح ، واخرى غير مباشرة باضعاف قوة الاعداء الرئيسيين بعد حرمانهم من حلفائهم وقطع جذورهم الاستراتيجية .

وفي ربيع ١٩٣٩ لم يعد هتلر يخشى الصراع المكشوف . وساعده في هذه الفترة الخطأ الذي ارتكبه البريطانيون عندما ضمنوا فجأة بولونيا ورومانيا المعزولتين استراتيجيا والمحرومتين من اي ضمان للامن من جانب روسيا ، فضلا عن تعذر مساعدتهما من جانب اية دولة. وقلب هذا الخطأ الجسيم سياسة التعايش والتفاهم المطبقة حتى ذلك الحين ، وبدأ الضمان البريطاني كعملية متعمدة للاثارة والتحدي . وكانت هذه الاثارة عاملا مغريا لهتلر نظرا لتعذر وصول القوات البريطانية والفرنسية الى هذين البلدين ، وهكذا نسفت الدول الغربية بيدها قواعد الاستراتيجية الملائمة لوسائطها الضعيفة بالنسبة لوسائطه ، وقدمت لهتلر جبهة ضعيفة ليخرقها ويحقق نصرا أوليا بدلا من ان تجبره على مهاجمة جبهة دفاعية قوية في الغرب .

كان هتلر يعتمد في سياسته على ضرب البلاد المنعزلة او الضعيفة بصورة مفاجئة وبشكل يلقي عبء الهجوم الاكبر على عاتق العدو نفسه . وكان يحترم

القوة الدفاعية الحديثة ويؤمن بها اكثر مما يؤمن بها الرجال العسكريون في دول الحلفاء . ولقد سنحت له الفرصة للعمل كما يرغب دون صعوبات كبيرة ، فدفعته استراتيجيته الى عقد حلف مع روسيا لضمان حيادها ، وما ان تم عقد الحلف حتى اصبح مستعدا تماما . فاذا أعلن الحلفاء الحرب ضده للوفاء بالتزاماتهم وتعهداتهم فسيجدون انهم فقدوا ميزات الدفاع واندفعوا مرغمين في استراتيجية هجومية في ظروف غير ملائمة وامكانيات غير كافية . واذا وقفوا امام خط سيجفريد عاجزين ظهر ضعفهم وضاعت هيبتهم ، وان تابعوا هجومهم زادت خسائرهم وضعف أملهم في مقاومة الهجوم الالماني الذي سيتجه نحو الغرب بعد تأمين الجبهة الشرقية .

ولم يكن امام الحلفاء للخلاص من هذا المأزق مع عرقلة حرية عمل هتلر سوى استخدام سياسة «العقاب» والحصار الاقتصادي والسياسي ، بالاضافة الى امداد الدول المعتدى عليها بالسلاح . وكانت هذه الطريقة حينئذ افضل من اعلان الحرب وتشكل حلا مفيدا لأزمة بولونيا مع تعريض مخططات الحلفاء وهيبتهم الى اقل ضرر ممكن .

ولقد اثبتت الوقائع ذلك ، اذ لم يؤثر هجوم الفرنسيين على خط سيجفريد، وادت الطريقة السيئة التي نفذ بها هذا الهجوم الى اضعاف هيبة الحلفاء . وترتب على هذا الهجوم الفاشل ، والانتصارات الالمانية السريعة في بولونيا ازدياد خوف الدول المحايدة من المانيا وإضعاف ثقتها بالحلفاء .

اصبح هتلر منذ ذلك الوقت قادرا على دعم مكاسبه العسكرية واستخدام تفوقه السياسي الناجم عن تغطية جناحه الغربي بتحصينات عجز الحلفاء القادمون لنجدة بولونيا عن اختراقها . وكان قادرا على مواصلة الدفاع الى ان يتذمر الشعبان الفرنسي والانكليزي من الحرب ، وقرر ساسة الحلفاء الهجوم قبل استكمال الوسائط اللازمة للتنفيذ فألقوا بأنفسهم في أوضاع تقيد حركتهم ، واعطوا هتلر بذلك امكانية المبادأة بتوسيع حقل العمل . ولما كان الفرنسيون والانكليز يفكرون في استخدام الدول الصغيرة المجاورة لهتلر كطريق يهاجمون به مجنبته استدار هتلر حول جناح الحلفاء واكتسح خمس دول واظهر بذلك عدم اكتراثه بالقواعد الدولية .

وافق هتلر خلال شهور الحرب الاولى على حياد النرويج التي تغطي جناحه وطريقه البحري المتجه الى السويد والذي يمر بالمرفأ النرويجي نارفيك . ولكن عندما اظهر الحلفاء بشكل سافر انهم عازمون على مراقبة المياه والموانىء النرويجية فكر هتلر في القيام بعملية وقائية باحتلال هذه البلاد . ولم تكن هذه الفكرة جديدة عنده . فقد شرح في عام ١٩٣٤ لروشنينغ وآخرين غيره كيف يمكن احتلال الموانىء الرئيسية للبلاد السكندنافية فجأة بسلسلة من العمليات في مواضع متعددة تعتمد على الهجمات البرمائية مع تغطية جوية كافية ، وبمساعدة الموالين لالمانيا في هذه البلاد . وقال ان هذه العملية يمكن تبريرها بحجة حماية هذه البلاد من احتلال تنوي البلاد الاخرى القيام به ضدها . وقال هتلر :

«سيكون هذا عملا جريئا وهاما وليس له مثيل في تاريخ العالم» .

تم تنفيذ هذه الفكرة في ٩ ابريل (نيسان) ١٩٤٠ ونجحت نجاحا منقطع النظير. لقد كان من المتوقع الفشل في بعض المواضع والنجاح في المواضع الاستراتيجية الهامة الاخرى ، ولكنه احتل كل النقاط دون ان تصاب خطته بأقل فشل رغم وجود اهداف بعيدة مثل نارفيك .

اوقف هذا النجاح الباهر السهل رغبة الحلفاء في اجتياح النرويج ، ودفع هتلر الى القيام بالضربة التي أعدها واعتبرها اكثر اهمية . لقد كان رأيه في حالة اندلاع حرب كبرى اتخاذ موقف الدفاع في الجبهة الغربية وانتظار الخطوات الهجومية الاولى للاعداء ، ثم الاندفاع نحو البلاد الاسكندنافية والبلاد الواطئة لتقوية موقفه الاستراتيجي واعطاء القوات الغربية فرصة لعقد الصلح «وليجربوا طردي اذا لم يرغبوا ذلك ، وسيتحملون عندئذ عبء الهجوم الاكبر» . لقد كان هذا تفكيره السابق ، اما الان فان الظروف كانت مختلفة ، لقد عرض الصلح على الحلفاء بعد احتلال بولونيا فرفضوه ، فقرر ارغام فرنسا على الركوع . وحرك جيوشه نحو الغرب للقيام بهجوم في الخريف . وتأجل هذا الهجوم لسوء الاحوال الجوية ولاعتقاد الجنرالات الالمان بأن قوتهم غير كافية لسحق الجيوش الانكلو — فرنسية . وزاد الانتظار من شوق هتلر ورغبته ، ودفعه النصر الذي حققه في النرويج الى التحرر من نصائح جنرالاته الذين كانوا يشيرون عليه بالتريث .

لقد قال من قبل عندما ناقش امكانيات القيام بمثل هذا الهجوم : «سأناور ضد فرنسا خارج خط ماجينو دون ان أفقد جنديا واحدا» وهذه مبالغة بدون شك ولكنه حققها في عام ١٩٤٠ بخسائر قليلة جدا بالنسبة لما حققه من مكاسب. كان محور الجهد الرئيسي الالماني حسب المخطط الاول ينطلق من ناحية الجناح الايمن حيث تعمل مجموعة جيوش فون بوك . ثم تغيرت الخطة تغيرا جذريا في مطلع عام ١٩٤٠ ، وانتقل محور الجهد بناء على حجج واسباب قدمها الجنرال فون مانشتاين رئيس اركان مجموعة جيوش فون بوك الذي طالب بالقيام بحركة اختراق عبر منطقة الآردين على أقل الاتجاهات توقعا مما يزيد فرص النجاح .

امتازت المعركة في الغرب بتجنب القيادة الالمانية كل انقضاض مباشر ، وباستخدام الهجوم غير المباشر باستمرار رغم تفوقها في الوسائط الهجومية الحديثة . ولم يحاول هتلر اختراق خط ماجينو ، ولكنه تظاهر بهجوم مشاغلة مخادع على هولندا وبلجيكا فنجح في اخراج الحلفاء من مواقعهم الدفاعية على الحدود البلجيكية ، وجذبهم للسير نحيته . ولم يتعرض سلاح الطيران الالماني لهذه الحركة وتركهم يتقدمون ، فما ان توغلوا في بلجيكا حتى هاجمهم من الخلف وضرب جناح الهجوم الفرنسي المكشوف .

لقد قام بهذا الهجوم المدمر جزء صغير من الجيش الالماني ولكنه مؤلف من فرق مدرعة . وفهمت القيادة الالمانية بسرعة ان الحصول على نصر سريع يعتمد

على استخدام القوات الميكانيكية اكثر من اعتماده على الكتل البشرية . وكان راس الرمح الالماني ضيقا لدرجة دفعت بعض الجنرالات الالمان الى الشك في امكـان النجاح . ولكن عناصر النجاح توفرت بسبب اندفاع القيادة الفرنسية بحماقة الى تطبيق الاتفاقيات العسكرية المعقودة دون تبصر ، فدفعت الجزء الاكبر من جناحها الايسر في تقدم واسع عبر بلجيكا بحثا عن المعركة ، وابقت فرقا من الدرجة الثانية للدفاع عن نقطة ارتكاز المناورة «منطقة الآردين» الكثيرة التضاريس والمغطاة بالغابات بصورة جعلت البعض يعتقدون انه من المتعذر تقدم الفرق الآلية فيها . هذا في الوقت الذي استخدم فيه الالمان عنصر المفاجأة واظهروا تفهمهم للمبدأ القائل بأن جهد الانسان وامكانياته اقدر على تأمين الدفاع القوي من الموانع الطبيعية .

وتقدم الالمان بعد سيدان بسرعة مستفيدين من تهديد اهداف مختلفة الامر الذي كان يضع الفرنسيين في حيرة لا يعرفون معها اتجاه الجهة الرئيسي للهجوم. وهكذا لم يعرفوا في باديء الامر اذا كان الالمان ينوون الزحف نحو باريس ام في اتجاه مؤخرة الجيوش الموجودة في بلجيكا . ولما استدارت الفرق المدرعة الالمانية نحو الغرب تساءلوا هل ستتجه نحو أميان ام نحو ليل . واتخذت هذه الفـرق الضباب ستارا لها وغيرت اتجاهها عدة مرات حتى وصلت اخيرا الى سواحل المانش .

وسارت جيوش الالمان بتكتيك يتلاءم مع استراتيجيتها ، فتجنبت الانقضاض المباشر ، وبحثت باستمرار عن النقاط الضعيفة لتتسرب منها وتستغل النجاح على خط المقاومة الاضعف . وعندما كان ساسة الحلفاء العاجزون عن فهم فن الحرب الحديث يطلبون من جيوشهم صد الغزو الالماني «بهجمات عنيفة متلاحقة» كانت المدرعات الالمانية تلتف حول وحدات المشاة المشلولة وتجتازهـا دون ان تهاجمها لتتابع تقدمها في العمق . ولو لم تلغِ جيوش الحلفاء نظام الدفاع على جبهة مستمرة لكان حظها في الدفاع اكبر . اما هجماتها المضادة فكانت عديمـة الجدوى . وبينما كان قادة الحلفاء يفكرون في التحضير للمعركة ، كان القـادة الشبان الالمان يتحاشونها ويعملون على شل عدوهم استراتيجيا باستخـدام القاذفات المنقضة والمظليين الذين زادوا الفوضى والاضطراب في مواصلات العدو. وكانت النتيجة مذهلة .

ولا يمكن تفسير الانتصارات الالمانية الرائعة بأنها ترجع فقط الى استخـدام الامكانيات الحديثة والتكتيك والاستراتيجية الجديدين . فقد كان من راي هتلر ان فن الحرب يتطلب استخدام الهجوم غير المباشر على مستوى واسع . لقد اخذ في هذا المجال درسا من الثورة البلشفية واستفاد من اساليب الحرب الآليـة التي وضع الانكليز اسسها . وكانت طريقته في الحرب صورة لما فعله المغـول بقيادة جنكيزخان .

كان هتلر يعتمد على الانصار الموالين له في البلاد المعادية ليمهدوا له الطريق ويساعدوه على بلوغ هدفه باضعاف مقاومة البلاد وتوزيع جهودها مع اعداد حكومة

جديدة ممالئة جاهزة لاستلام الحكم . ولم يكن يعتمد على المال في ايجـــــاد العملاء في الطبقة الحاكمة في الدول التي يحتلها قدر اعتماده على اثارة الطموح الشخصي وتنمية الرغبة في تولي السلطة . وكان يفتح الطريق في الوقت الملائم بعناصر تتسرب عبر الحدود قبل بدء الحرب تحت ستار التجارة او السياحة او متنكرة بلباس العدو العسكري اذا لزم الامر . وكان دور هذه العناصر تخريب المواصلات وبث الذعر بنشر الشائعات الكاذبة وخطف زعماء البلاد اذا امكن . ثم يبدل هذه العناصر الاستطلاعية بعد ذلك ويرسل وحدات محمولة جوا .

وهكذا كان يستخدم الهجوم الجبهي في الحرب لمجرد الخـــداع والتمويه ، ويعطي الدور الاساسي للهجوم على المؤخرات بكل اشكاله . ولم يكن يقـــــر الانقضاض ، بل يعتمد في فنه العسكري على تحطيم المعنويات وتفتيت التنظيم وكسب الحرب بتدمير العدو بالكلام اكثر من السلاح، والدعاية اكثر من القذائف. وكما كانت المدفعية تضرب العدو فيما مضى ، للتمهيد لالحاق الدمار به قبـــل هجوم المشاة ، فان القصف المعنوي لا بد من استخدامه لبلوغ نفس الهدف . وكان يرى ضرورة استخدام كل انواع الذخائر وخاصة الدعاية . وكان يسعـى دائما لشل ارادة الخصم بدلا من قتله ، لان عملية القتل والتدمـــــير اصعب واكثر نفقة .

هذه هي نظرية هتلر الحربية التي اثبتت قيمتها العملية الاكيدة ، وبـــدت عملية شل الجهاز العصبي العسكري المعادي أقل كلفة من تقطيـــــع أوصاله . وظهرت قيمة اعماله السياسية بنتائجها لا بمحتواها . ويتساءل الكثيرون : هل نجح هتلر في تحطيم معنويات ومقاومة الخصم بهذه الامور فقط ام استعـــــان بالتفوق الساحق لجيوشه الحديثة التي تستخدم اساليب هجومية جديدة ؟ وهل كان التفوق العسكري الالماني كافيا لدفع فرنسا الى الانهيار ، دون حاجة لتفكيك وحدتها الوطنية سياسيا ومعنويا ؟ والجواب على ذلك ، ان القوة تستطيع ان تسيطر على قوة اخرى اذا تفوقت عليها في مجال القيمة النوعيـــة او الجرأة . ولكنها تبقى عاجزة عن التغلب على الافكار ، لانها غير ملموسة ومتغلغلة بعمق في النفس البشرية بشكل يؤرق أجفان انصار القوة المجردة . وانصار القوة فـــي التاريخ كثيرون ، وقد كان هتلر اكثرهم اهتماما بالقوة الايديولوجية .

لقد أدخل هتلر اساليب جديدة في فن الهجوم الاستراتيجي حتى تفوق على جميع خصومه في المرحلة الاولى من الاستراتيجية العليا ، التي تتضمن تطوير وتنسيق جميع ألوان النشاط الحربي ، وجميع الوسائل التي يمكن استخدامها للتأثير على ارادة العدو . ولكنه اخطأ كنابوليون في فهـم المخطط الاعلــى للاستراتيجية العليا ، ذلك المخطط المتعلق بالادارة العامة للحرب والذي يهتـم ايضا بحالة السلم التي لا بد ان تعقب الحرب. والاستراتيجية تتعارض مع الاخلاق لانها تستخدم الخداع على نطاق واسع بينما تنسجم الاستراتيجية العليا مـــع الاخلاق لانها تتدخل كمبدأ توجيهي يحافظ به الاستراتيجي على الهدف الاصلي للجهود التي بذلها . لقد أدت محاولة الالمان لاثبات قوة هجماتهم الى إضعـــاف

مقاومتهم في مجالات اخرى ، استراتيجية واقتصادية ومعنويـــة ، اذ اشاعت جيوشهم المنتشرة في طول اوربا وعرضها ، البؤس دون ان تحقـــق السلام ، فبذرت بذلك بذور حقد انطلقت منها المقاومة ضد الايديولوجية التي يبشرون بها . وشعرت وحداتهم بآثار هذا الحقد باحتكاكها مع الشعوب المحتلة فتاثرت من جراء ذلك وضعفت عندها جذوة الحماس الحربي التي كان هتلر يذكيها باستمرار .

وهكذا اعطى هتلر ، بتوسيع رقعة هجومه ، الفرصة لاعدائه الباقين ليناضلوا ويتفوقوا في النهاية عليه ؛ ولكن جاء تفوقهم متأخرا ، وكان الحصول عليه يمكن ان يصبح اسهل واسرع ، لو انهم فهموا بشكل اوسع ، فكرة الاستراتيجيـــة العليا . وزاد بقاء بريطانيا غير محتلة من فرص النجاح ، لان هتلر كان عاجزا عن فرض ارادته بدون الحصول على نصر كامل يشمل احتلال بريطانيا . وكان توغله في البلاد المعادية يزيد حجم وصعوبة مشاكله الناجمة عن قهر الشعوب المحتلة، واصبحت كل خطوة يخطوها الى الامام تحمل في طواياها احتمالات الخطـــر والفشل . اما موقف بريطانيا فكان أبسط وأقسى في وقت واحد . لقد كـــان عليها ان تقاوم بعنف الى ان يرتكب هتلر ، كما ارتكب من قبله نابليون ، خطـــأ فاحشا لا يمكن اصلاحه . ولعب الحظ الى جانبها ، فجاء هذا الخطأ مبكـــرا وقبل ان تضعف الى درجة حرجة . وما ان وقع الخطأ حتى تعذر تداركه ، لان هتلر لم يفهم الاستراتيجية الدفاعية بالشكل الرائع الذي فهم به الاستراتيجيـــة الهجومية .

كما ان انتصاراته الساحقة الاولى دفعته الى الاعتقاد كما فعل نابليون بـــان الهجوم يحل كافة المشاكل .

الفصل السادس عشر

طريق النصر الذي سار فيه هتلر

يعتبر احتلال الالمان لبولونيا عام ١٩٣٩ واجتياحهم اوربا الغربية في عام ١٩٤٠ مثلا رائعا في التاريخ العسكري على قيمة نظرية الحرب السريعة الآلية . ان هذه النظرية وضعت في انكلترا ، ثم استخدمها الالمان بفضل جهود الجنرال جودريان مؤسس الجيش المدرع الالماني ، هذا السلاح الجديد الذي كان ثورة في فن الحرب وعاملا على تعديل مجرى التاريخ وتغيير خارطة اوربا واعادة توزيع القوى في العالم بعد هزيمة المانيا بين امريكا والاتحاد السوفييتي .

ان الحملات التي أدت الى هذه الثورة المزدوجة في فن الحرب وفي توازن القوى العالمي ، تشكل ايضا أمثلة ذات دلالة عظيمة بالنسبة لاستراتيجية الهجوم غير المباشر . كما يدل تحليل العمليات التي تمت في الغرب على ان الجيش الآلي الحديث كان عاجزا عن الانتصار بمثل هذه السهولة لو لم يستخدم هذه الاستراتيجية . وكانت التأثيرات في الواقع متبادلة لان مرونة الوحدات الآلية وقدرتها على الحركة اعطيتا الهجوم غير المباشر قدرة اكبر وامكانيات متزايدة .

كان الموقف في بولونيا يسمح بالقيام بالعملية بشكل كامل ، اذ كان طول حدودها مع المانيا ١٢٥٠ ميلا . ثم زادت حوالي ٥٠٠ ميل بعد ان احتل الالمان تشيكوسلوفاكيا . وهذا يعني تعرض مجنبة بولونيا الجنوبية لنفس خطر الغزو

الذي تتعرض له مجنبتها الشمالية الواقعة مقابل بروسيا الشرقية . ولم تكن بولونيا في الحقيقة سوى بروز كبير بين فكي الكماشة الالمانية .

وزاد شكل انتشار القوات البولونية خطورة الموقف ، اذ كان قلب جيوشها مدفوعا بعمق داخل البروز ، وذلك بسبب الرغبة الطبيعية في تغطية القطاعات الصناعية الهامة غربي نهر الفيستولا ، والكبرياء القومي ، وثقة العسكريين البولونيين المفرطة .

كان تعداد الجيش البولوني زمن السلم يعادل تعداد الجيش الفرنسي وأقل بقليل من الجيش الالماني . وكان يتألف من ٣٠ فرقة مشاة و١٢ لواء فرسان . ولكن الموارد الصناعية البولونية المحدودة عجزت عن تموين الموارد البشرية وتجهيز الوحدات العاملة بشكل ملائم . وعندما اعلنت بولونيا التعبئة العامة زادت عدد فرقها بمقدار الثلث فقط بينما استطاعت المانيا مضاعفة فرقها باستثناء الفرق المدرعة . ولم يؤد هذا الاستثناء الى اي تبديل في النتيجة لان الوحدات المدرعة البولونية كانت محدودة جدا .

واتاحت السهول البولونية ارضا ملائمة لغزو سريع وان تكن أقل ملاءمة من الارض الفرنسية نظرا لندرة الطرق الجيدة في بولونيا ، وكثرة البحيرات والغابات في بعض المناطق . ولكن الالمان اختاروا زمن الهجوم بشكل يقلل هذه المساوىء .

وقد بدأ الغزو من الشمال بمجموعة جيوش فون بوك ، وكانت عبارة عن الجيش الثالث بقيادة كوشلر والجيش الرابع بقيادة كلوغ . وكان الجيش الثالث يهاجم في اتجاه الجنوب منطلقا من بروسيا الشرقية ، بينما كان الجيش الرابع يندفع في اتجاه الشرق عبر الممر البولوني ليتصل مع كوشلر ويحيط بالجناح الايمن للعدو .

اما الدور الاساسي فكان لمجموعة جيوش روندشتيدت التي قامت بالغزو من الجنوب وكان عدد جنود المشاة فيها ضعف مشاة مجموعة فون بوك كما يزيد تعداد مدرعاتها عن ذلك . وكانت تشمل الجيش الثامن بقيادة بلاسكوفيتز والجيش العاشر بقيادة رابخناو والجيش الرابع عشر بقيادة كليست . وكانت مهمة جيش بلاسكوفيتز الواقع على الجناح الايسر الزحف نحو المركز الصناعي الكبير في لوتز والاشتراك في عزل الجيوش البولونية الموجودة في جيب بوزنان مغطيا في الوقت نفسه مجنبة جيش رابخناو . وكان على كليست الواقع على الجناح الايمن الاندفاع نحو كراكوفي والاستدارة حول المجنبة البولونية في جبال الكارابات مستخدما فيلقا مدرعا لاجتياز ممرات جبلية . على ان يقوم رابخناو المجهز بمعظم القوات المدرعة بالصدمة الحاسمة .

بدأ الغزو في اول سبتمبر (ايلول) ١٩٣٩ . وعندما دخلت انكلترا وفرنسا الحرب في ٧ سبتمبر تنفيذا لمعاهدتهما مع بولونيا كان كلوغ قد قطع الممر البولوني ووصل الى الحوض السفلي لنهر الفيستولا . بينما ازداد ضغط كوشلر القادم من بروسيا الشرقية نحو نهر ناريف . والاهم من ذلك كله وصول قوات

رابخناو المدرعة الى نهر فارتا وعبوره ثم تقدم جناحي كليست للاحاطة بكراكوفي على شكل كماشة . وفي ٤ سبتمبر عبر راس حربة رابخناو نهر بيليكا على بعد ٥٠ ميلا من الحدود .

واصدر براوخيتش القائد العام للجيوش الالمانية امرا بالتقدم مباشرة نحو الشرق وعبور نهر الفيستولا . ولكن روندشتيدت ورئيس أركان حربه مانشتاين اجريا بعض التعديل في المخطط الموضوع عندما قدرا ان الجيوش البولونية الرئيسية لا تزال موجودة غرب نهر الفيستولا ، ويمكن ايقاعها في الفخ هناك . وتقدم جناح رابخناو الايسر يسبقه فيلق مدرع وتوجه نحو الشمال على مؤخرات التجمعات البولونية الهامة المتكتلة حول لادز ، ثم تلقى الامر باحتلال موقع يغلق مخارج البزورا بين لودز وفارسوفيا . وكانت هذه الحركة غير منتظرة فلم تصادف مقاومة كبيرة ، ونتج عن ذلك عزل القوات البولونية المتجمعة ومنعها من الانسحاب وراء نهر الفيستولا .

وحصل الالمان على هذا التفوق بفضل توغلهم الاستراتيجي بعمق على الخط الاقل توقعا ومقاومة ، وازدادت قيمة ذلك التفوق باستخدام مزايا الدفاع التكتيكي . وكان على الالمان المحافظة على الارض المحتلة امام هجمات منعزلة يقوم بها جيش يقاتل بجبهة معكوسة ويعاني من انقطاعه عن قواعده وتناقص مؤنه باستمرار ومن ضغط الالمان المتزايد عليه من الشرق والامام والمؤخرات بفضل التقدم الذي كان يقوم به بلاسكوفيتز وكلوغ للتلاقي في نقطة واحدة . وقاتل الجيش البولوني بضراوة وشجاعة اعترف بهما الالمان ولكنه لم يستطع فك الحصار والانضمام الى موقع فارسوفيا الا بأعداد صغيرة .

وفي ١٠ سبتمبر (ايلول) اعطى القائد العام البولوني المارشال سميغلي ريدز الامر بالانسحاب العام لجميع القوات الباقية نحو جنوب بولونيا الشرقي . وكان يأمل تنظيم الدفاع على جبهة أصغر نسبيا لاطالة مدة المقاومة ، ثم ضاع هذا الامل لان عملية التطويق غربي الفيستولا تزايدت واستعد الالمان للتوغل بعمق شرقي النهر والقيام بمناورة كماشة اكثر اتساعا تلتف حول الخطوط الدفاعية المحتملة على نهري سان وبوغ .

ولقد تم الوصول الى خط بوغ في داخل البلاد والاستدارة حوله بهجوم غير مباشر على نطاق واسع وكان فيلق جودريان المدرع يقوم في بداية الغزو واثناء عبور ممر دانزيغ بدور راس الحربة للجيش الرابع ، فتقدم بسرعة واستطاع الوصول الى بروسيا الشرقية التي كانت منعزلة ، وزاد سرعته في اراضي هذه المقاطعة الالمانية ووصل الى اقصى اليسار على المجنبة الشرقية لجيش كوشلر ثم اتجه نحو الجنوب واجتاز نهر ناريف في ٩ سبتمبر (ايلول) وتابع تقدمه حتى وصل الى برست ــ ليتوفسك على نهر بوغ في ١٤ سبتمبر بعد تقدم يبلغ ١٠٠ ميل في اتجاه قاعدة البروز البولوني الكبير . ثم تقدمت طلائع رتله ٤٠ ميلا نحو فلودافا بغية تأمين الاتصال مع فك الكماشة الجنوبي المؤلف من فيلق ليست

المدرع . وهكذا اصبح تدمير القوات البولونية اكيدا .

ولم يكن للمعركة الالمانية التي كللت بالنصر في الغرب بعد تسعة اشهر صفة الهجوم غير المباشر المادي التي رايناها في بولونيا . ولكنها كانت عبارة عن هجوم غير مباشر سيكولوجي قام على فكرة تحطيم توازن الخصم باستخدام طرق مختلفة كالمفاجأة الناجمة عن اختيار اتجاه الصدمة ، او الهدف او طريقة العمل ، على ان تسبقها عملية مشاغلة ويتبعها استثمار سريع للنصر يتم على خط المقاومـــة الاضعف ويصل الى ابعد مدى . ويعود النجاح في مثل هذا العمل الى استخدام فخ وطعم . في بداية أكتوبر (تشرين اول) ١٩٣٩ وبعد انتهاء عملية بولونيا اعطى هتلر أوامره الاولية للهجوم على الغرب . ولما تأكد ان بريطانيا وفرنسا لا تنويان عقد الصلح أسرع في العمل «لان فترة انتظار طويلة تعني تقوية قدرة اعدائنـــا العسكرية الى درجة كبيرة» ، الامر الذي قد يدفع المحايدين الى جبهة الحلفاء. ولقد عرف ان الزمن ضده ، فاذا انتظر كما ينصحه مساعدوه حصل الحلفاء على التفوق . كما ان حربا طويلة قد تؤدي الى جفاف الموارد الالمانية المحـــدودة وتعرضها بعد ذلك لهجوم حاسم روسي على مؤخراتها ، خاصة وان المعاهدة مع ستالين لا تضمن حياد روسيا مدة طويلة الا اذا كان ذلك في صالح ستالين . ودفعت كل هذه المخاوف هتلر الى التفكير في ارغام فرنسا على عقد الصلـــح بتأثير هجوم ينطلق مبكرا ، لاعتقاده بأن هزيمة فرنسا سترغم انكلترا على الاعتقاد والانسحاب بهدوء .

لقد كان لدى هتلر في هذا الوقت من القوة والعتاد ما يسمح له بالتغلب على فرنسا ، وكانت المانيا متفوقة في مجال التسليح الحديث ، وقد « بلـــغ سلاحها المدرع وسلاحها الجوي درجة عالية من الكفاءة لم تبلغها اية دولة اخرى في المجالين الهجومي والدفاعي . وكانت امكانياتها الاستراتيجية في العمليـــات تقوم على تنظيم جيد وقيادة محنكة لم يعرفهما بلد آخر» . ورغم الاعتراف بتفوق فرنسا في التسليح التقليدي وخاصة المدفعية الثقيلة فلم يكن لاسلحتها اي تأثير حاسم في حرب الحركة . هذا علاوة على ان تفوق الاسلحة الالمانية الحديثة كان كافيا ليعوضها عن تفوق فرنسا العددي في حالة التعبئة العامة .

وشارك قادة الجيش الالماني هتلر مخاوفه فيما يتعلق بالنتائج البعيدة المدى ولكنهم لم يشاطروه آماله القريبة ، اذ كانوا يعتقدون ان قوتهم غير كافية للتغلب على دفاع الفرنسيين ، وكانوا يرون ان من الحكمة اتخاذ اما موقف الدفاع الى ان تتجه فرنسا وبريطانيا بالتدريج نحو السلم ، او القيام بهجوم يدفع الحلفاء الى القيام بتدابير يردون عليها بهجوم مضاد .

ورفض هتلر كل هذه الاعتراضات وحدد تاريخ الهجوم في الاسبوع الثاني من شهر نوفمبر (تشرين ثاني) ثم تأخر مرات متتالية حتى مايو (ايار) .

ولقد تلقى المخطط خلال هذه الفترة الطويلة تعديلات كبيرة . وكان المخطط الذي وضعته هيئة الاركان العامة برئاسة هالدر يعتمد على القيام بهجوم رئيسي عبر بلجيكا الوسطى كما حدث في عام ١٩١٤ ، على ان يتم ذلك بمجموعـــة

الجيوش(ب) بقيادة بوك. بينما تقوم مجموعة الجيوش (آ) بقيادة روندشتيدت بهجوم ثانوي الى اليسار عبر منطقة الآردين الصعبة المغطاة بالغابات دون انتظار اية نتيجة من هذا الاتجاه ، واعطيت الفرق المدرعة كلها للجنرال بوك لان منطقة الآردين وعرة جدا ولا تصلح لهجوم المدرعات .

ووجد الجنرال مانشتاين رئيس أركان حرب الجنرال روندشتيدت هذا المخطط محدودا ويكرر بشكل دقيق مخطط عام ١٩١٤ لانه يسلك محور الجهد الذي يتوقعه الحلفاء ، علاوة على ان محور الجهد فيه يصطدم مع الجيش البريطاني وهو أشد عنادا من الجيش الفرنسي ، كما ان هذه العملية ستدفع عند نجاحها الحلفاء بشكل جبهي نحو سواحل بلجيكا ولن تؤدي الى نتائج حاسمة كنتائج هجوم غير مباشر يقطع مواصلات وخطوط انسحاب الحلفاء في بلجيكا .

واقترح مانشتاين نقل مركز الثقل من اليمين الى المركز ، ووضع الجهد الرئيسي في الآردين وهو الخط الاقل توقعا ، وكان يعتقد انه يمكن استخدام الوحدات المدرعة هناك بنجاح رغم صعوبة الارض ، وايد وجهة نظره خبير المدرعات الجنرال جودريان .

وقد اثارت هذه الفكرة الجريئة اعجاب هتلر . ولكنه لم يتخذ قرار تغيير المخطط الاساسي الا بعد حادثة غريبة مؤداها ان ضابطا من هيئة أركان الحرب الالمانية كان ينقل في طائرته في ١٠ يناير (كانون ثاني) وثائق تتعلق بالمخطط ، وقد ضل هذا الضابط طريقه بسبب عاصفة ثلجية وهبط خطأ في الاراضي البلجيكية ، وخشيت القيادة العامة الالمانية من سقوط الوثائق بيد الحلفاء . ورغم هذه الظروف تردد القائد العام ورئيس هيئة الاركان العامة في تعديل الخطة تعديلا جذريا كما يرغب مانشتاين ، وعندئذ تجاوز مانشتاين رؤساءه وقابل هتلر شخصيا وحصل على تأييده الحاسم لخطته الجريئة .

وفي خلال ذلك الوقت قام الالمان بعمليات انذار وهمية بقصد المخادعة ، دفعت الحلفاء الى كشف خططهم بشأن اعتزامهم الهجوم على المانيا عن طريق بلجيكا مما عزز موقف هؤلاء الذين يؤيدون تعديل المخطط الالماني حسب فكرة مانشتاين .

وقد اثبتت الحوادث بعد ذلك ان المخطط الاساسي لم يكن يستطيع تحقيق نتيجة حاسمة مثل انهيار فرنسا ، لان التقدم الالماني المباشر كان سيصطدم بأقوى أجزاء الجبهة الانكلو ــ فرنسية واكثرها تجهيزا ، ويضطر الى شق طريقه في منطقة مملوءة بالحواجز كالانهار والقنوات والمدن الكبيرة . وقد تبدو منطقة الآردين اكثر صعوبة ، ولكن اذا استطاعت القوات الالمانية ان تجتاز بسرعة هذا النطاق المغطى بالغابات والتضاريس الذي يقع جنوبي بلجيكا دون ان تشعر القيادة الفرنسية بالخطر ، فان سهول فرنسا تصبح مفتوحة امام تقدم الجيوش الالمانية وتشكل ارضا مثالية لعمليات واسعة النطاق تقوم بها القوات المدرعة .

لقد توقع مانشتاين رغبة الحلفاء في الزحف عبر بلجيكا ، وكان يأمل الاستفادة

من مثل هذه الحركة . وكانت تقديراته كلها صحيحة لان دور الجنـــاح الايسر للحلفاء في مخطط القائد العام المسمى الخطة (د) كان التوغل في بلجيكا منذ بدء الغزو الالماني والاندفاع نحو الشرق حتى نهر ديل او ابعد من ذلك اذا أمكن . ولقد برهنت الوقائع بعد ذلك على ان الخطة (د) كانت قاتلة للفرنسيين . اذ انها جعلت من هجوم الالمان هجوما مضادا على المجنبة ، وجعلت الحلفاء يتوغلون في بلجيكا بشكل يساعد عمليات الالمان في الآردين على الوصول بسهولة الى مؤخرات الحلفاء وعزلهم عن جناحهم الايمن .

وغدت النتيجة حاسمة تماما عندما دفع غاملان بمعظم قواته المدرعة فـــي عملية بلجيكا ولم يترك لحراسة المركز الذي تدور حوله المناورة مقابل الآردين الا ستارة ضعيفة من وحدات قليلة . ولما قام الالمان باختراق هذه النقطة لم يفقد غاملان توازنه فحسب ، بل اصبح عاجزا عن تعديل الموقف نظرا لوجود قواتـــه القادرة على تحسين الوضع وسد الثغرة بعيدا داخل بلجيكا . وهكذا فقد غاملان مرونته الاستراتيجية نتيجة لدفعه قواته بسرعة اكثر مما ينبغي الى الامام .

غطى تهديد منطقة الآردين في بادىء الامر الضربات الاولية التي قام بهـــا الالمان في البلاد الواطئة والتي شغلت العدو ولفتت انظاره بشكل فعال . واصيب الجيش الهولندي ببلبلة شديدة من جراء اغارة قوات المانية أنزلت من الطائـــرات على مؤخراته في نفس الوقت الذي تعرض فيه لهجوم جبهي عنيف واضطر الى الاستسلام بعد خمسة ايام . كما تم اختراق مواقع الجيش البلجيكي الامامية في اليوم الثاني فانسحب على خط انفرس ـ نامور حيث انضمت اليه القـــوات الفرنسية والبريطانية .

وفي فجر يوم ١٠ مايو (ايار) ١٩٤٠ قامت الوحدات الالمانية المحمولة جـوا بإغارة مفاجئة في هولندا على العاصمة لاهاي وعلى مدينة روتردام مركز المواصلات الهام ، وذلك في نفس الوقت الذي قامت فيه القوات الالمانية بهجوم على الحدود على بعد ١٠٠ ميل نحو الشرق . فانتشرت الفوضى ودب الهلع في البلاد مـن جراء هذه الصدمة المضاعفة على الجبهة والمؤخرة . وزادت خطورة الموقف نتيجة لنشاط الطيران الالماني الذي اثبت وجوده في كل مكان . واستغلت فرقة المانيه هذه الفوضى فاندفعت في ثغرة مفتوحة على المجنبة الجنوبية وانضمت بعد ثلاثة ايام الى الوحدات المحمولة جوا في روتردام . ورغم ان الهولنديين كانوا يتخذون موقف الدفاع الاستراتيجي ، فقد وجدوا انفسهم مرغمين على التحول الى الهجوم التكتيكي ، من غير استعداد ، وفي اليوم الخامس استسلمت هولندا رغم ان جبهتها الرئيسية كانت لا تزال سليمة .

كان للغزو المباشر الذي قامت به القوات الالمانية ضد بلجيكا صفة هجوم غير مباشر من الناحية السيكولوجية ، وذلك بفضل الصدمة الاوليـــة التي فتحت الطريق امام المهاجمين . لقد كان الجيش الالماني السادس القوي الذي يقـــوم بالهجوم الرئيسي بقيادة رايخناو مضطرا لاجتياز حاجز مائي كبير قبل ان يستطيع الانتشار ، فأرسلت القيادة العامة ٥٠٠ رجل من الوحدات المحمولة جـــوا

لمساعدته في مهمته . وكلفت هذه القوة باحتلال جسرين على قناة البرت وحصن إيبن وهو احدث حصن في بلجيكا ويقع على مجنبة القناة على الحدود ، وكان لهذه الوحدات رغم صغرها دور حاسم في العملية كلها . وكان الهجوم على الحدود البلجيكية في هذا المكان مضطرا لعبور ارض هولندية على شكل بروز هي اقليم ماسترِيخت ، وكان امام الحراس البلجيكيين الوقت الكافي للانـــذار ونسف الجسور قبل ان يتمكن الالمان من اجتياز الحدود .

ولكن الوحدات المحمولة جوا نزلت بسكون في ظلام الليل واحتلت الجسور سليمة ، كما تم شل حصن ايبن بمفرزة مؤلفة من ٨٠ رجلا هبطوا على بروجـه واستطاعوا تجميد ١٢٠٠ رجل لمدة ٢٤ ساعة حتى وصلت قوات المانية اكبـــر واحتلت الحصن واندفعت في السهل وراء الجسور . واضطرت الجيـــوش البلجيكية امام هذا الخطر الى التراجع نحو نهر ديل حيث كان الفرنسيـــون والانكليز قد وصلوا منذ وقت قليل .

ان العمليات التي قامت بها في هولندا وبلجيكا القوات المحمولة جوا كانت من وحي هتلر نفســه . وقد نفذها الجنرال الجريء شتودنت بمهارة نادرة بينمـــا كانت الوحدات المدرعة في مجموعة جيوش روندشتيدت تجتاز اللوكسمبورغ ، واللوكسمبورغ البلجيكي ، مندفعة نحو الحدود الفرنسية . وكانت هذه الوحدات المؤلفة من خمس فرق دبابات و٤ فرق مصفحة تحت قيادة الجنرال فون كليست وكان رأس حربتها ، وهو فيلق الجنرال جودريان المؤلف من ٣ فرق مدرعة ، قد زحف سبعين ميلا في الآردين بعد سحق مقاومات ضعيفة ، وعبر الحـــدود الفرنسية ووصل الى ضفاف نهر الموز في صبيحة اليوم الرابع للهجوم .

لقد كان من المغامرة دفع كتلة كبيرة من المدرعات والعربات المصفحة فـــي منطقة وعرة يعتبرها الاستراتيجيون التقليديون منذ أمد طويل منطقة غير صالحة لتقدم هجوم مدرع كبير . ولكن هذا الاعتقاد زاد من تأثير المفاجأة كما ساعدت الغابات على اخفاء التقدم ومنعت الحلفاء من كشف حجم العملية الحقيقي .

ولكن بعد زوال تأثير المفاجأة كان على المدرعات اجتياز نهـــر الموز ، وكانت نتيجة العملية تتوقف على مدة العبور . وظن الفرنسيون ان الالمان بحاجة لخمسة او ستة ايام لجلب المدفعية قبل العبور .

وكان توقيت الفرنسيين لهجوم الالمان مشابها تماما لتوقيت القيادة العليـــا الالمانية . ولكن جودريان كان قد اقترح في فبراير (شباط) ان تقوم الوحدات المدرعة بمهاجمة الموز بأقصى سرعة ممكنة دون انتظار وصول المشاة والمدفعية . ولقد انتقد هالدر آنذاك هذا الاقتراح واعتبر ان فترة ٩ او ١٠ ايام هي اقصر فترة يمكن بعدها القيام بالهجوم المنشود . ولكن هتلر وافق على فكرة جودريان . فلما وصل فيلق جودريان الى نهر الموز قرب سيدان في ١٣ مايو اندفع فـــي الهجوم الى الضفة الاخرى بعد ظهر اليوم نفسه . وفي المساء تم عبور النهـــر واستطاعت مقدمة أرتال الفرقة السادسة المدرعة التي يقودها رومل عبور النهر

في ١٣ مايو عند مدينة دينان على بعد ٤٠ ميلا الى الشمال . فشتتت بذلك انتباه العدو وخلقت الفرصة الملائمة للقيام فيما بعد بعمليات تفتيت المواقع الفرنسية بعد اختراقها .

وفي يوم ١٤ مايو بعد الظهر عبرت فرق جودريان المدرعة الثلاث كلها نهر الموز ، وبعد ان صدت هجوما مضادا متأخرا قامت بتغيير مفاجىء في اتجاهها وزحفت نحو الغرب . وفي مساء اليوم التالي اخترقت آخر خط دفاعي خلف نهر الموز ، واصبحت طرق الغرب المؤدية الى شواطىء المانش الواقعة على بعد ١٦٠ ميلا مفتوحة امام دبابات البانزر .

وفي ليلة ١٥ مايو تلقى جودريان امرا من كليست الحذر بأن يتوقف ويقوي المواقع المحتلة الى ان تلحق به قوات المشاة لتحتل هذه المواقع . وبعد مناقشة حامية عدل الامر ونال جودريان الموافقة على ان يمد راس جسره بعمق محدود . ولكنه فهم هذه الموافقة كما يريد فاندفع نحو الغرب مسافة ٥٠ ميلا ووصل الى نهر الواز في اليوم التالي . ثم لحقت به بقية الوحدات المدرعة التي وسعت الثغرة حتى بلغت ٦٠ ميلا واندفعت كسيل على الطرق الواقعة على مؤخرات جيوش الحلفاء الموجودة في بلجيكا .

ولقد تم اندفاع هذا السيل بسرعة اكبر نظرا لعجز القيادة العليا الفرنسية عن تحديد اتجاه التقدم المقبل ، لان اختراق موقع سيدان حدث على محور مركزي يمكن استغلاله في اي اتجاه ويمكن ان يؤدي الى اهداف متعددة . ولم يستطيع الحلفاء التكهن بمعرفة الهدف النهائي اهو باريس ام شواطىء المانش . وزادت المرونة الاستراتيجية للخطة الالمانية بفضل قدرة الاداة المنفذة على الحركة، وادى اجتماع هاتين الميزتين الى جعل العدو عاجزا عن حل المشكلة .

وضاعت ردود الفعل الفرنسية كلها في الهواء لان تنفيذها كان بطيئا جدا ولا يتلاءم مع سرعة تطور الموقف ، ويعود ذلك الى ان مناورة الالمان كانت أسرع من مناورة خصومهم ، بالاضافة الى عجز الفرنسيين الذين دربوا حسب الطرق القديمة للحرب العالمية الاولى عن فهم اهمية سرعة العمليات او التلاؤم معها ، فانتهى الامر الى شل حركتهم . وكان ضعف الفرنسيين الاساسي كامنا في تفكيرهم وليس في كمية او نوع عتادهم ، لان تقدمهم الفكري بعد الحرب العالمية الاولى كان أقل من تقدم خصومهم .

اما القيادة العليا الالمانية فكانت تخشى حتى ذلك الوقت من خطر تنفيذ استراتيجية تتطلب مثل هذا التوغل العميق بواسطة مجموعة من الفرق المدرعة. وكان هتلر نفسه متوتر الاعصاب . ودفعه قلقه على مصير المجنبة الجنوبية الى ايقاف التقدم نحو الغرب مدة يومين الى ان يصل الجيش الثاني عشر الى نهر إين بحيث يشكل درعا يحمي المجنبة على طول النهر . ولقد اثر هذا التوقف على الخطة الالمانية وكاد ان يؤدي الى فشلها لو لم تكن حالة الشلل الفرنسية كاملة ، ثم تردد هتلر بعد اسبوع مرة اخرى بصورة كلفت القوات الالمانية الشيء الكثير. ولكن مكاسب الالمان السابقة وضعف العدو قلل من خطورة هذا التوقف على نهر

الواز ، ومع ذلك ظهر بين الالمان اختلاف في تقدير مفهوم الزمن ، وكان الاختلاف بين المدرستين الالمانيتين القديمة والحديثة أوضح من الاختلافات بين افكار الالمان والفرنسيين .

واحتج جودريان على توقف ١٧ مايو وطلب اعفاءه من منصبه ولكنه عاد بعد قليل الى قيادته وطلب منه القيام «باستطلاع قوي» وفهم من ذلك ان لديه صلاحيات تخوله دفع قواته الى الامام بالقوة التي يريدها . وعندما أعطي له الامر بالتقدم كان تقدمه أسرع . وفي ١٠ مايو احتل أميان ووصل الى البحر وراء آبفيل فقطع بذلك مواصلات جيوش الحلفاء الباقية في بلجيكا .

وفي ٢٢ مايو اضطر لقبول توقف جديد مدة ٢٤ ساعة بناء على أوامر قيادته ، ثم سار نحو الشمال في اتجاه موانىء بحر المانش على مؤخرات الجيش البريطاني الذي كان لا يزال يرابط في بلجيكا وليصد تقدم مشاة بوك الجبهي . ولما كان جودريان متجها نحو الشمال كان على يمينه فيلق رينهارد المدرع المأخوذ من مجموعة كليست . وفي يوم ٢٢ مايو تم عزل مدينة بولوني ، ثم عزلت كاليه في اليوم التالي . واستمر التقدم حتى غرافلين على بعد ١٠ أميال من دنكرك. ووصلت مدرعات رينهارد الى خط لير ــ سان أومير ــ غرافلين وشكلت بعد ذلك راس جسر . ثم توقف التقدم نحو دنكرك (باب انسحاب الانكليز الاخير) بناء على اوامر هتلر ، وهذا ما انقذ الجيش البريطاني بعد وقوعه في الفخ ، من المصير الذي لقيته الجيوش البلجيكية ومعظم الجيوش الفرنسية الثلاثة الموجودة على الجناح الايسر . ثم أعطي الامر بمتابعة الهجوم بعد يومين ، وكان الدفاع قد اشتد وانتظم ، فاستطاعت مفارز التغطية ايقاف الالمان وقتا كافيا لانسحاب ٢٢٤ الف جندي بريطاني و١١٤ الفا من جنود الحلفاء معظمهم من الفرنسيين عبر البحر . ولكن هذا لم يمنع الالمان من ان يأسروا مليون رجل دون ان يفقدوا اكثر من ٦٠ الف رجل ، ويعود هذا الى هجومهم الواسع غير المباشر .

ولا يمكن حتى الان معرفة الاسباب التي دفعت هتلر الى ايقاف قواته غربي دنكرك ، ولكننا اذا بحثنا عن الحقيقة ، وجدناه يعلن بنفسه عن مخاوفه من ان تغوص دباباته في اراضي الفلاندر المليئة بالمستنقعات ، وهي ذكرى ظلت عالقة في ذهنه منذ ان كان عريفا في الجيش في الحرب العالمية الاولى . وقد يكون السبب رغبته في الاحتفاظ بجيش مدرع سليم يقوم بالضربة الحاسمة في فرنسا . أو اقتناعه بالمعلومات التي أبلغها له غورنغ بأن الطيران الالماني قادر على منع انسحاب الجيوش الانكليزية الواقعة في الفخ عن طريق البحر .

بدات المرحلة التالية والاخيرة للمعارك في ٥ يونيو (حزيران) اي في اليوم التالي لدخول الالمان دنكرك . وانطلق الهجوم بصورة تثير الذهول ، اذ ان القوات الالمانية التي انهت عملياتها الهجومية في اتجاه الشمال الغربي ، استدارت نحو الجنوب لتقوم بالضربة الجديدة ، ويمكن اعتبار هذا التجمع السريع للزحف في اتجاه جديد دليلا آخر يؤكد التطور الثوري الذي أدخل على الاستراتيجية بواسطة سرعة حركة الوحدات الميكانيكية . وانطلق الهجوم الجديد على الجبهة

الجديدة المؤلفة من بقايا الجيش الفرنسي على نهري السوم وإين ، وكانت جبهته اطول من الجبهة السابقة ، وذات امكانيات اقل . وكان الفرنسيون قد فقدوا حتى ذلك الوقت ٣٠ فرقة بما في ذلك معظم القوات الحليفة ، باستثناء فرقتين بريطانيتين ؛ فجمع الجنرال الفرنسي ويغان ، الذي حل محل غاملان ، ٦٦ فرقة وضع منها ١٧ فرقة في خط ماجينو وانشا بما تبقى خطا دفاعيا على نهري السوم وإين .

قامت جيوش بوك بالهجوم في ٥ يونيو (حزيران) . وبعد اربعة ايام فقط قام روندشتيدت بهجومه . ولم ينجح الجهد الرئيسي في هجوم بوك بشكل جيد وبعمق كاف الا في اقصى اليمين ، عندما اخترقت فرقة البانزر بقيادة رومل في اليوم الثالث للهجوم خطوط الدفاع الفرنسية . وقد امكن اتمام هذا الاختراق السريع بفضل جراة رومل التي لم يستطع اعداؤه توقعها بسبب تفكيرهم التقليدي الضيق . وذلك عندما احتل جسرين سليمين على نهر السوم ، ودفع دباباته الى الضفة المقابلة دون تردد .

وفي مساء اليوم الاول كانت قواته قد تغلغلت مسافة ثمانية أميال داخل مواقع العدو ، وفي اليوم الثاني توغلت ٢٠ ميلا ، وفي اليوم الثالث ٣٠ ميلا ، منتشرة في مختلف الاراضي خارج الطرق ، وملتفة حول مفارق الطرق التي يراقبها العدو ويدافع عنها . وادى هذا الاختراق العميق الى تفتيت الجيش الفرنسي العاشر وتدميره ، وعندئذ اندفعت فرق المانية اخرى في الثغرة المفتوحة . وفي مساء يوم ٨ يونيو (حزيران) وهو اليوم الرابع للهجوم ، وصل رومل الى نهر السين شمالي مدينة روان ، بعد تقدم صاعق مسافة ٤٠ ميلا عبر خطوط العدو الدفاعية المضطربة التي نظمت على عجل قرب روان والسين . واستطاع رومل عبور النهر قبل ان يتمكن الفرنسيون من جمع الوسائط اللازمة للدفاع جيدا عن هذا الحاجز العريض الفعال . وفي اليوم العاشر قامت فرقته بحركة التفاف طولها ٥٠ ميلا ، وقطعت طريق الانسحاب امام الجناح الايسر للجيش العاشر المؤلف من خمس فرق منها الفرقة ٥١ الانكليزية . ولما احست هذه الفرق بانها اصبحت محاصرة استسلمت في ١٢ يونيو (حزيران) في سان فاليري .

وفي خلال ذلك اصطدم الهجوم الرئيسي الذي قام به الجناح الايمن للجيوش الالمانية على السوم بمقاومة اكبر . وكان هذا الهجوم على شكل كماشة يقوم به فيلقان مدرعان بقيادة كليست ابتداء من رؤوس الجسور المقامة على نهر السوم في بيرون واميان . واخترق طرف الكماشة الايمن المنطلق من أميان الدفاع الفرنسي في ٨ يونيو ، وتقدم نحو الجنوب في اتجاه حوض نهر الواز الاسفل، بينما لاقى الطرف الايسر مقاومة عنيدة شمالي كومبين .

في هذه الاثناء كانت مجموعة روندشتيدت تهاجم على طول نهر اين ، وفي ٩ يونيو (حزيران) اخترقت الدفاع الفرنسي بسرعة . وعندئذ قررت القيادة الالمانية العليا ان تسحب فيلقَي كليست المدرعين وترسلهما للزج بهما في الثغرة

العريضة المفتوحة على دفاع نهر اين بقصد استغلال هزيمة الفرنسيين في شمبانيا. وتقدم هذه المناورة السريعة التي تمت في جبهة عريضة وعرة مثالا جديدا على مرونة السلاح المدرع وقدرته على الحركة .

وقام جودريان مرة اخرى بالضربة الحاسمة ونفذ بشكل رائع استراتيجية الاختراق بعمق المتسمة بالهجوم غير المباشر . وذلك عندما عين قائدا للمجموعة المدرعة التي يراسها الجنرال روندشتيدت . وكان فيلقاه على نهر اين قرب مدينة ريتل بعد ان قاما بحركة طولها ٢٠٠ ميل ابتداء من الشواطىء الفرنسية لبحر المانش . فبعد ان احتلت مشاة الجيش الثاني عشر ثلاثة رؤوس جسور صغيرة وراء نهر إين ومدينة شاتوتييري دفع جودريان فرقة المقدمة المدرعة خلال الليل وعبر من رؤوس الجسور . وفي صبيحة اليوم التالي اكتسح بسرعة الاراضي المنبسطة امامه ملتفا حول القرى والغابات التي يدافع عنها الفرنسيون ، وتدخلت المدرعات الفرنسية في القتال ، وقامت سلسلة من معارك الدبابات . ومع ذلك استطاعت المدرعات الالمانية التوغل خلال يومين مسافة ٢٠ ميلا . وفي اليوم الثالث وصل جناح جودريان الايمن الى مدينة شالون سيرمارن ثم وصل في اليوم الرابع الى مدينة فيتري لوفرانسوا على بعد ٦٠ ميلا من قاعدة الانطلاق . وتقدم جناحه الايسر ليصبح في مستوى الجناح الايمن بعد ان صد هجمات مضادة جانبية . ثم اندفع جودريان بسرعة اكبر على هضبة لانغر وتوغل في مؤخرات خط ماجينو وتابع تقدمه نحو الحدود السويسرية . ووصل الى مدينة شومون في اليوم الخامس ١٤ يونيو (حزيران) بعد وثبة بلغ طولها ٥٠ ميلا . وفي صبيحة ١٧ يونيو احتلت فرقة المقدمة مدينة بونتارلييه على الحدود السويسرية وعلى بعد ٦٠ ميلا من نهر السون . وقطعت هذه الوثبة الاخيرة مواصلات الحصون الفرنسية الهامة التي تدافع عن خط ماجينو واستعدت فرق جودريان الاخرى لتتحرك شمال نهر موزيل لتقطع طريق انسحاب القوات الفرنسية . ولكن الحكومة الفرنسية كانت قد قررت الاستسلام قبل ذلك بعدة ساعات ، وطلبت الصلح نظرا لانهيار جيوشها .

ورغم ذلك فان هذا النصر الحاسم من الوجهة الاستراتيجية في القارة الاوربية لم يكن حاسما على مستوى الاستراتيجية العليا ، نظرا لفشل هتلر في احتلال الجزر البريطانية . وهنا دفع ثمن الخطأ الذي ارتكبه بوقف التقدم الالماني نحو دنكرك . فلو انه منع الجيوش البريطانية من الانسحاب لوجدت انكلترة نفسها ضعيفة وعاجزة عن الدفاع لدرجة تجعل احتلالها ممكنا بغزو يعد على عجل . ولكن افلات الجيش البريطاني من فخ دنكرك جعل السيطرة على بريطانيا غير ممكنة الا بعد اعداد حملة قوية لغزوها ، ولكن ذلك كان متعذرا آنذاك .

وقام هتلر بمحاولات للتمهيد لغزو بريطانيا ولكن هذه المحاولات جاءت متأخرة. وكانت عروض هتلر لعقد الصلح غير مشجعة ، ولما حاول تحقيق السيطرة الجوية فوق البحر باءت محاولاته بالفشل في «معركة بريطانيا» وأرجئت خطة غزو

بريطانيا الى ما بعد .

وقد استمر هتلر يسير في طريق النصر في السنة التالية في بلاد البلقان وروسيا حتى هزمته مساحة البلاد الروسية الشاسعة . لقد كان في حاجة الى وسائل كبيرة جداً للحصول على النتائج التي يريدها . ورغم انتصاراته الباهرة في عام ١٩٤١ فقد بدأ نجمه بالأفول منذ فشله في «معركة بريطانيا» وهو الفشل الذي يرجع قبل كل شيء الى تردده ووقوفه بلا عمل امام دنكرك في الوقت الذي كانت فيه هذه المدينة تحت رحمته .

الفصل السابع عشر

أفول نجم هتلر

في نهاية شهر يونيو (حزيران) ١٩٤٠ كانت المانيا تسيطر على كل اوربا الغربية والوسطى والجنوبية الشرقية باستثناء الجزر البريطانية في الطرف الغربي لأوربا . وبالاضافة الى هذه العقبة القائمة خلف البحر كانت روسيا السوفياتية تشكل ظلا قاتما على مجنبته الشمالية الشرقية . وكانت انتصارات هتلر الباهرة حينئذ تؤهله للسيطرة المطلقة على اوربا او على العالم اجمع .

لقد افل نجم هتلر على مستوى الاستراتيجية العليا لان اخطاءه القاتلة كانت على هذا المستوى ، ولو عرف كيف يهدىء المخاوف التي ترتبت على احتلاله للبلاد الاخرى ، وأمن الشعوب المجاورة باقناعها بأن «النظام الجديد» سيكون مفيدا لها ، لاستطاع النجاح حيث فشل نابليون وتمكن من تحقيق الوحدة الاوربية بقيادة المانيا بصورة لا يمكن معها تحطيمها من الخارج . ولكن افتقاره الى الوسائل اللازمة لتحقيق هذا الهدف منعه من الوصول الى الغاية المنشودة . لقد كان هجومه السياسي مباشرا اكثر مما يجب ، ورغم مهارته في خلق الاختلافات بين الدول التي كان يهددها ، فقد كان اقل مهارة في تخفيف مقاومة هذه الدول. ولقد استخدم كلمتي «الوطن والاشتراكية» بكثرة ، ولكن تطرفه في العصبية الوطنية ازال الآثار الحسنة التي تحملها كلمة الاشتراكية بين جماهير الشعب في

البلاد الاخرى . وكانت قبضته الحديدية مخبأة قليلا تحت قفاز من القطيفة يثير الشك . واصبح هتلر في النهاية عبدا لانتصاراته ، واصبحت محاولاته لعقد الصلح مع الآخرين قليلة غير مشجعة . وازدادت اخطاؤه بسبب كثرة ما ضحى به من رجال وعتاد طوال مدة الصراع ، وجاء فشله الاول عندما عجز عن السيطرة على بريطانيا ، ولم يستطع عقد صلح معها بعد انهيار بقية البلاد الغربية، وكان بقاء بريطانيا يعني عدم السيطرة التامة على الغرب ، ومنعه من قطف ثمار انتصاراته . واستطاعت مقاومة بريطانيا التأثير على الارادة الالمانية وارغامها على المساومة في مسألة الصلح وتقديم تساهلات متزايدة ولكنها غير كافية . وبدا ذلك واضحا عندما وجد هتلر نفسه في يونيو (حزيران) ١٩٤١ عاجزا عن تحقيق السيطرة الكاملة في الغرب ، فاستدار نحو الشرق ليهاجم روسيا السوفييتية .

ويعتبر هذا القرار الخطير الذي كان سبب دماره بداية تخليه عن الهجوم غير المباشر في حقل الاستراتيجية العليا . وقد دفعه قلقه وعدم صبره ورغبته الملحة في الحصول على النصر الى ترك الهجوم غير المباشر حتى على مستوى الاستراتيجية العادية . وهذا التبدل يثير الاهتمام لانه كان حتى ذلك الوقت حريصا على استخدام الهجوم غير المباشر في كل الظروف ، حتى عند هجومه ضد حواجز ضعيفة نسبيا كما هي الحالة مع اليونان التي اجتاحها في ابريل (نيسان) ١٩٤١ بعد ان أنزل البريطانيون في سالونيك جيشا صغيرا لمساعدة الجيش اليوناني .

الغزو الالماني لروسيا :

استخدم الالمان في بداية غزو روسيا عمليات هجوم غير مباشر ، فحصلوا بذلك على نتائج باهرة كان الفضل يرجع في بعضها الى الظروف الجغرافية الملائمة. وقد أتاح امتداد الجبهة بطول ١٨٠٠ ميل وندرة الحواجز الطبيعية ميزات كبيرة للمهاجم وسهلت له عملية التسرب والمناورة . وبالرغم من ضخامة الجيش الاحمر فقد كانت النسبة بين قواته وسعة حقل العمليات ضعيفة بحيث اعطت الوحدات الميكانيكية الالمانية فرصا ملائمة للقيام بعمليات مناورة غير مباشرة على مؤخرات الروس . كما ان المدن المتباعدة بشكل كبير والتي تشكل عقد الطرق والسكك الحديدية اعطت المهاجم الفرصة للعمل ضد اهداف متناوبة وساعدته على خدع العدو عن الاتجاه المهدد فعلا ووضعه في مشاكل متتالية .

ولكن بعد ان حصل الالمان في البداية على انتصارات كبيرة بداوا يفقدون الميزات التي كسبوها بسبب عجزهم عن اتخاذ القرار الملائم حول الاتجاه الذي ينبغي اتباعه لاستغلال انتصاراتهم الاولى .

كان هتلر يعتبر لينينغراد هدفا جوهريا يسمح اه بدعم مجنبته على بحر البلطيق وفنلندا ، ويعتبر موسكو هدفا أقل قيمة . ولكن احساسه المتزايد

بقيمة العوامل الاقتصادية دفعه الى التفكير في احتلال مراكز الثروة الزراعية في أوكرانيا والمنطقة الصناعية في حوض نهر الدينيبر الاسفل . وكان الهدفان متعارضين ويتطلب كل منهما خط عمليات مستقل تماما ، مما جعل القوات الالمانية تفتقر الى حرية المناورة على خط واحد لعمليات مركزية تسمح بتهديد أو مهاجمة اهداف اخرى بصورة متناوبة .

اما براوخيتش وهالدر فكانا يرغبان في تركيز امكانياتهما على محور الجهد المؤدي الى موسكو ، لاحتلال العاصمة الروسية ولتدمير اكبر قسم من الجيوش الروسية التي كانا يتوقعان الالتقاء بها على طريق موسكو . وكان هتلر يعارض هذه الفكرة لانها ستجبر الروس على القيام بانسحاب عام نحو الشرق يخلصهم من قبضة الالمان المطبقة عليهم .

واتفق براوخيتش وهالدر مع هتلر في فكرة عدم السماح للروس بالانسحاب، ووافق هتلر على ضرورة تدمير معظم القوات المعادية، الامر الذي بدأ مع عمليات «معركة التطويق» . وتم الاتفاق على التريث في اختيار الاهداف المقبلة الى ان تنتهي مرحلة الغزو الاول .

وتم الاتفاق في منتصف المرحلة الاولى على تركيز نقل القوات المشتبكة في القطاع الذي تعمل فيه مجموعة جيوش بوك ، شمالي مستنقعات بريبيت وعلى طريق مينسك موسكو . وهنا تم زج معظم القوات المدرعة في المعركة ، وقد ساهمت مجموعة جيوش الجنرال ليب في البداية على تغطية تقدم مجموعة جيوش الجنرال بوك الرئيسية وذلك بانطلاقها من قواعدها الاساسية في بروسيا الشرقية والتقدم عبر البلطيق . كما أدى تقدم مجموعة جيوش روندشتيدت على مجنبة بوك الاخرى جنوبي مستنقعات بريبيت الى وضع القيادة الروسية في حيرة وشك حول الخط الاساسي لعمليات المهاجمين .

وكان المخطط في قطاع بوك يهدف الى ايقاع معظم الجيوش المعادية في الفخ بفضل مناورة تطويق مضاعفة تقوم بها مجموعتان مدرعتان بقيادة جودريان وهوت بحيث تتقدمان من الجناحين لتطويق مينسك والالتقاء خلفها لمتابعة التقدم الى الامام ، بينما تقوم فيالق مشاة الجيش الرابع والتاسع بعمليات كماشة داخل الجيب الذي تخلفه المدرعات وذلك بغية تطويق بياليستوك .

بدأ الغزو الالماني لروسيا في يوم ٢٢ يونيو (حزيران) وقامت القوات المدرعة بقيادة الجنرال جودريان والجنرال هوت باختراق الخطوط الروسية اختراقا عميقا ثم التقيا في اليوم السادس للهجوم في مينسك على بعد ٢٠٠ ميل من الحدود ، وأطبقت كماشة المشاة على العدو من الخلف ولكن عملها جاء متأخرا فلم تستطع أسر معظم الجيش الروسي الذي بدأ ينسحب من جيب بياليستوك. ثم تمت محاولة تطويق جديدة قرب مينسك كللت بنجاح اكبر اذ سقط حوالي ٣٠٠ الف جندي روسي في الاسر رغم نجاة مفارز كبيرة من التطويق . ونشر هذا النصر روح التفاؤل بين الالمان .

ثم بدأ سير العمليات يتعثر . وتلقت الوحدات المدرعة امرا بالتوقف الى ان يكون التطويق كاملا ، بينما كان عليها حسب المخطط الاساسي ان تتابع تقدمها دون انتظار الى ما وراء مينسك تاركة بعض الوحدات لدعم قوات المشاة المكلفة باتمام التطويق .

ثم تم تدارك الوقت الضائعبالحركة الجريئة التي قام بها جودريان عندما عبر نهر الدنيبر قبل وصول مشاة الجيش الرابع وقبل ان يجمع الروس قواتهم . ولقد تم عبور النهر يوم ١٠ يوليو من ثلاث نقاط غير محروسة بعد ان جمع قواته الاساسية تحت ستار الظلام وخلف ستارة عريضة من القوات المنتشرة . ثم اندفع بعد العبور نحو سمولنسك فبلغها في ١٤ يوليو ، وهكذا قطع الهاجمون ٤٠٠ ميل داخل الاراضي الروسية ولم يكن يفصلهم عن موسكو سوى ٢٠٠ ميل. وهذا تقدم سريع فعلا .

ومع وصول قوات الجنرال هوت الى شمال سمولنسك بدأت عملية تطويق جديدة لعزل الجيوش الروسية الهامة الموجودة بين نهري الدنيبر ودسنا بعد ان تجاوزت الوحدات المدرعة الالمانية هذه الجيوش والتفت حولها . وكاد الفخ يغلق ولكن الاراضي والطرق الوعرة جعلت تقدم القوات الالمانية بطيئا . واستطاع معظم الروس النجاة من خطر التطويق . ولكن ذلك لم يمنع من اسر ١٨٠ الف جندي روسي في منطقة سمولنسك .

وأدرك جودريان اهمية ملاحقة الروس دون هوادة حتى لا يترك لهم الوقت الكافي لالتقاط أنفاسهم . وكان هوت وبوك يشاطرانه هذا الرأي . وهنا تدخل هتلر ، الذي كان يعتقد ان الفرصة اصبحت ملائمة لتطبيق فكرته الاساسية التي تعتبر لينينغراد وأوكرانيا هدفين رئيسيين نظرا لاهميتهما الاقتصادية والسياسية. ويبدو انه فكر في القيام بمناورة تهدف الى تهديد موسكو لجذب القوات الاحتياطية الروسية الى هذا القطاع مما يسمح للاجنحة الالمانية بالوصول بسهولة اكبر الى الهدفين الجانبيين في أوكرانيا ولينينغراد ، على ان تنطلق الجيوش الالمانية بعد ذلك من هذين الموقعين الجانبيين لتلتقي في موسكو التي يمكن ان تسقط حينئذ كثمرة يانعة . وكانت هذه الفكرة حكيمة طموحة ، ولكنها لم تأخذ عامل الزمن بعين الاعتبار .

وفي ١٩ يوليو (تموز) أرسل هتلر تعليماته المتعلقة بالمرحلة الثانية ، وامر بانهاء عمليات التطهير بين نهري دنيبر ودسنا فورا . وكان على بوك ان يرسل جزءا من قواته المدرعة نحو الجنوب لتساعد روندشتيدت في تدمير الجيوش الروسية التي تقاومه ، وأن يرسل جزءا آخر لمساعدة ليب في الشمال اثناء هجومه على لينينغراد ولقطع مواصلات هذه المدينة مع موسكو ، ويتابع بمشاته فقط التقدم الجبهي ما امكن نحو العاصمة الروسية .

وتساهل براوخيتش مرة اخرى بدلا من الاصرار على اتخاذ خطة جديدة ، ثم طالب ايقاف القوات المدرعة مؤقتا قبل البدء في العمليات بغية اعادة تنظيمها واستكمال استعدادها الفني . ووافق هتلر على هذا الطلب ، وعادت المناقشات

خلال التوقف حول سير العمليات في المستقبل واستمرت هذه المناقشات حتى شهر اغسطس (آب) . ورفض هتلر طلب براوخيتش وهالدر للقيام بهجوم نحو موسكو ، واعطى تعليمات جديدة تطابق تعليماته الصادرة في الشهر السابق مع تعديل بسيط يتضمن انقاص الوحدات المخصصة لجبهة لينغراد وتوجيه معظم الامكانيات لتطويق وإبادة الجيوش المعادية في منطقة كييف على جبهة روندشتيدت . ثم تابع بوك تقدمه نحو موسكو بينما زحف روندشتيدت نحو الجنوب ليعزل الروس عن بترول القوقاز .

وخلال هذا النقاش الطويل طرات تغييرات جديدة على الموقف ارغمت هتلر على تأكيد قراره خاصة عندما توقف الجيش السادس بقيادة رابخناو على جناح روندشتيدت الايسر امام كييف . وكانت القوات الروسية الكبيرة التي اندفعت من قبل الى اقصى الشرق في منطقة مستنقعات بريبيت تشكل تهديدا على مجنبة رابخناو اليسرى ومجنبة بوك اليمنى ، ومن جهة اخرى حصلت مجموعة كليست المدرعة على نجاح باهر في نهاية يوليو (تموز) عندما اخترقت الخطوط الروسية في بيلايا تسيركوف جنوبي كييف واتجهت نحو الجنوب في الممر بين نهري بوغ ودنيبر ، وفتحت هذه الضربة غير المباشرة الطريق الى اوكرانيا وهددت مؤخرات الجيوش الروسية التي تواجه القوات الرومانية قرب البحر الاسود . وفي حوالي منتصف أغسطس (آب) وصل الالمان الى ابواب نيقولاييف وخيرسون عند مصب النهرين الكبيرين سالفي الذكر ، وقد ادى هذا الاختراق العميق الى تفتيت كل المقاومة الروسية في الجنوب رغم تمكن معظم القوات الروسية المهددة من الانسحاب قبل ان يتم اغلاق الطرق حولها .

وهنا تبين انه في الامكان القيام بعمل جديد يتضمن تقدم كليست نحو الشمال في الوقت الذي تتحرك فيه قوات كبيرة من جبهة بوك نحو الجنوب للقيام بهجوم مضاعف من المجنبتين يدمر المقاومة الروسية حول كييف نهائيا ويدفعها الى داخل الشبكة دون التعرض لخطر هجوم مضاد يأتي من مناطق الدنيبر الجنوبية كما قد يحدث عند التقدم في اتجاه موسكو . ولقد اثرت هذه الفكرة على هتلر بشكل واضح وجعلته يصر على ضرورة انهاء عملية كييف قبل التقدم نحو موسكو.

وشارك روندشتيدت هتلر في وجهة نظره ، وتحمس لفكرة الدعم القادم من الشمال لمساعدته على حل المشاكل الصعبة في جبهته ، كما تقبل بكل ترحيب فكرة الحصول على النصر بتطويق واسع النطاق ، لان هذه هي فكرة كل رجل حرب .

يمكننا ان نتحدث طويلا عن الفكرة الاستراتيجية التي تحبذ تفضيل الجناح الجنوبي للجيوش الالمانية والوقوف في وجه كل هجوم مضاد محتمل على هذه المجنبة بعملية اولية تسبق الزحف نحو موسكو . وزاد بطء حركة القوات الروسية من ميزات الاستراتيجية الالمانية القائمة على نقل جهد القوات الميكانيكية من محور لآخر بقصد الحصول على نتائج حاسمة متعاقبة . ولكن الزمن المخصص

لمثل هذه العملية كان قصيرا جدا . ولم يكن الجيش الالماني مستعدا حينئذ لمعركة الشتاء الذي كان على الابواب .

لقد كان تطويق كييف في حد ذاته نصرا عظيما ؛ ويمكن اعتباره اكبر انتصار حصل عليه الالمان حتى ذلك الوقت . ولقد تمت العملية بأن هاجمت جيوش المشاة بقيادة رابخناو وفيكس الروس جبهيا بينما قام جودريان بالهجوم على مؤخرات الروس ، وقام كليست بالهجوم ابتداء من مصب نهر دنيبر والتقت المجموعتان المدرعتان الالمانيتان على بعد ١٥٠ ميلا شرقي كييف فأغلقت بذلك الطوق على مؤخرة الروس فلم ينسحب منهم الا القليل وبلغعدد الاسرى اكثر من ٦٠٠ الف رجل . ولكن المعركة لم تنته الا في شهر سبتمبر ، اذ تضافر الطقس السيىء مع الطرق الصعبة على عرقلة حركة التطويق .

وهكذا اصبح الانتصار في أوكرانيا هدف هتلر الاول واصبحت لينغراد هدفا ثانويا رغم استمراره في مهاجمتها بقوات كافية لتطويقها ولكنها غير كافية لتدمير الجيوش الروسية فيها بعد ان سحب هتلر من هذا القطاع بعض القوات ، دون ان يدعم بها محور موسكو حسب فكرة براوخيتش وبوك لانه قرر اعطاء موسكو الافضلية الاولى بمجرد الانتهاء من معركة تطويق كييف .

شجع هذا الانتصار الباهر هتلر وجنرالاته وتم الاتفاق في جو من التفاؤل على القيام بجهدين متباعدين . فقد قرر هتلر الاتجاه نحو موسكو من جديد في الخريف ثم اتخذ قرارا جديدا سبب متاعب فيما بعد واساء لمبدا تجميع القوى . لقد عجز عن مقاومة الرغبة في استغلال النصر في الجنوب وكان يفكر ايضا في احتلال موسكو ، فكلف روندشتيدت بمهمة جديدة تتسم بالجراة والطموح وتهدف الى تطهير شواطىء البحر الاسود من القوات الروسية واحتلال حوض نهر دونيتز الصناعي والوصول الى القوقاز .

انطلقت العملية المتأخرة نحو موسكو بقوات مؤلفة من ثلاثة جيوش مشاة وثلاث مجموعات ميكانيكية من بينها مجموعة جودريان المؤلفة من جيش مدرع كامل . وفي ٢١ اكتوبر (تشرين اول) انطلق الهجوم حسب مخطط عمليات على شكل كماشة . وتم التطويق بنجاح باهر وسقط ٦٠٠ الف روسي في الشبكة قرب فيازما ، وهنا جاء الشتاء وتأخر استغلال النصر على طريق موسكو بسبب الاحوال الجوية القاسية .

وكان معظم قادة الجيوش الالمانية المهاجمة يرغبون في التوقف وتنظيم خط قوي للصمود فيه خلال الشتاء . وكانوا يذكرون ما حل بجيش نابليون ، ولكنه كان لدى القادة على المستويات العليا (بعيدا عن منطقة القتال والوحل) وجهة نظر مغايرة تماما . وكانت موسكو في نظرهم هدفا له اغراء سحري لا يقاوم ، يدفعهم الى القيام بأية محاولة للوصول اليه . وكان بوك مسحورا بفكرة احتلال موسكو واصر على متابعة الهجوم وكان من رايه ان كلا الخصمين منهك بحيث تستطيع الارادة القوية وحدها تحديد نتيجة المعركة . وايد هالدر وبراوخيتش فكرة بوك لكونهما اول من نادى بضرورة بذل الجهد الرئيسي على هذا الهدف ، ولعجزهما

عن الظهور بمظهر التردد بعد ان دفعا هتلر الى توجيه اهتمامه نحو موسكو .

واقترح روندشتيدت وليب ايقاف الهجوم كما طالب روندشتيدت بالانسحاب الى المواقع الاساسية على الحدود البولونية ، ولم يؤخذ رايهما بعين الاعتبار لعدم اشتراكهما في الهجوم على موسكو .

وهكذا قام الالمان بجهد جديد في نوفمبر (تشرين ثاني) ولكن نجاح الروس في التكهن بالاهداف المهددة وفي صد الهجمات الالمانية سهلت لهم مهمتهم وسمحت لهم بتركيز قواتهم الاحتياطية في اماكن ملائمة لاحباط كل محاولة خطرة . وفي بداية ديسمبر (كانون اول) توقف الهجوم الالماني ثم أعقب ذلك انسحاب سريع تحت ضغط الهجمات المضادة ، فقرر هتلر عزل براوخيتش وتولى بنفسه قيادة الجيش الالماني فحقق بذلك هدفين شخصيين هما تملصه من مسؤولية الفشل السابق وإلقائهما على عاتق براوخيتش ثم ضمان الحصول لنفسه على سلطة اكبر في المستقبل .

وصلت موجة الغزو الالماني في الجنوب الى ذروتها في يوم ٢٣ نوفمبر (تشرين ثاني) عندما احتل الالمان مدينة روستوف باب القوقاز على نهر الدون الاسفل . ثم تعثرت الوحدات الالمانية المنهكة في الوحل واضطرت بعد اسبوع الى اخلاء المدينة والانسحاب تحت ضغط هجوم مضاد جانبي على طرق مواصلاتها.

يقول الكثيرون ان فشل الالمان في معارك عام ١٩٤١ يرجع الى اسباب مادية، فقد كانت امكانياتهم مبعثرة على محاور جهد متباعدة بسبب اختلاف اعضاء القيادة فكريا وبسبب الانتصارات التي تم الحصول عليها في بادىء الامر على مختلف الاتجاهات . ولم يحتفظ الالمان بخط عمليات واحد يسمح باحتلال اهداف متعاقبة بل اضطروا الى الاحتفاظ بخطوط عمل مختلفة يؤدي كل منها الى هدف واحد واضح يستطيع المدافعون الروس تغطيته بسهولة . وكان اتجاه الهجوم في كل مرة معروفا من قبل الروس ، فما ان تنطلق القوات الالمانية المهاجمة من عقالها حتى يحدد الروس وهم في اماكنهم خطوط مواصلاتها المقبلة .

معركة عام ١٩٤٢ في روسيا :

لم يعد لدى الالمان في عام ١٩٤٢ الامكانيات التي تتطلبها سعة عمليات الهجوم التي تقررت في العام السابق . ولكن هتلر رفض مشورة بعض قواده باتخاذ موقف الدفاع ورفض الاكتفاء بتقوية الاراضي المكتسبة . لقد نصحه روندشتيدت وليب مثلا بالانسحاب نحو بولونيا . ولكن هذا الاجراء السليم استراتيجيا كان ينطوي على اعتراف من الالمان بأن طموحهم اكبر من امكانياتهم . وكان هتلر يبحث عن حل هجومي مدفوعا بطموح لا يرتوي وخوف من ضياع الهيبة وشعور غريزي بأن الهجوم هو افضل الوسائل لمعالجة المشاكل ، ولكن وسائطه الهجومية

المحدودة لم تكن لتحقق له سوى نتائج محدودة .

ولما احس بنقص الوسائط اللازمة للقيام بهجوم جديد على طول الجبهة قرر تركيز جهده الرئيسي على القطاع الجنوبي بقصد احتلال مناطق البترول في القوقاز وحرمان الروس من هذا المصدر الحيوي الهام . وكانت محاولة تنفيذ هذه الفكرة تعني التخلي عن كل المحاولات الجديدة التي ترمي الى سحق قوات العدو الرئيسية .

لقد بدأ الهجوم بنجاح وزاد من نجاحه شلل تفكير القيادة الروسية بسبب العمليات التي قام بها الالمان على خط يستطيع تهديد اهداف عدة بشكل متناوب. ثم تأثر هذا المشروع عندما انقسم الى عمليتين تهددان في وقت واحد هدفين مختلفين . وكان هذا الازدواج خطأ قاتلا سببه اختلاف الافكار في القيادة الالمانية . لقد صمم رئيس الاركان العامة هالدر مخطط العمليات الاساسي وحدد هدفه بالوصول الى نهر الفولجا عند مدينة ستالينجراد على ان يشكل في ذلك المكان فور الوصول اليه حاجزا استراتيجيا يفصل الجيوش الروسية الرئيسية عن منابع البترول في القوقاز . ولكن هتلر اراد الاندفاع مباشرة نحو القوقاز بأقصى سرعة دون ان يحاول تفهم روح فكرة هالدر . وشجعه على ذلك عدة قواد لاعتقادهم ان هذا الهدف يشكل هدفا رئيسيا ، وترتب على ذلك نقصان الجهود المخصصة لاحتلال موقع ستالينغراد الاستراتيجي . ثم شعر هتلر في المرحلة التالية بعد ذلك بضرورة احتلال المدينة فبذل كل شيء لحشد جيوشه ضدها .

سهل الروس مهمة الالمان في عام ١٩٤٢ وساعدوا خصومهم عندما قامت القوات الروسية بهجوم الربيع ضد خاركوف . لقد كان هذا الهجوم مباشرا لدرجة أدت الى فشله ، وطويلا بشكل استهلك معه كل القوات والمهمات الاحتياطية الروسية . وقد أدى هذا الهجوم في النهاية الى إحداث بروز عميق في خطوط القتال اتاح للقيادة الالمانية الفرصة لمفاجأة القوات الروسية وهي في وضع غير ملائم . لذا كان للهجوم الالماني الذي أعقب ذلك في نهاية شهر يونيو (حزيران) شكل هجوم مضاد قوي ضد عدو ارتكب خطأ فاحشا وتهور في اندفاعه الى الامام دون تبصر وحيطة .

كان محور الجهد الرئيسي الالماني موازيا للبروز الرئيسي ومضادا له في الاتجاه بعد انطلاقه من قطاع كورسك شمالي خاركوف . وقام الالمان بعملية التفاف حول مجنبة الجيش الروسي واجتازوا مسافة ١٢٠ ميلا بكل سرعة حتى وصلوا الى حوض نهر الدون الاعلى قرب مدينة فورونيج وهي مفترق السكك الحديدية الرئيسية من موسكو الى القوقاز . ولما تم اغلاق الطرق قرب فورونيج كان الروس متجمعين وهذا ما سهل قيام الالمان بضربة قوية بكل امكانياتهم في اتجاه الجنوب الشرقي ، وسمح لهم هذا الهجوم باحتلال الممر القائم بين نهري الدون والدونيتز .

وانهارت المقاومة الروسية امام عملية الكماشة ودخلت القوات الميكانيكية الالمانية بسهولة في الممر بين نهري الدون والدونيتز وكانت مجنبتاها مستورتين

بهذين النهرين . ووصلت في اقل من شهر الى الطرف الثاني من الممر وعبرت الدون الاسفل شمالي مدينة روستوف، وفتح هذا الزحف طريق القوقاز وبترولها وادى بالمعركة الى نقطتها الحرجة . وبدا الروس مشلولين تماما بعد انقطاعهمعن منابع وقودهم ، كما اصبحت القوات الالمانية تتمتع بحرية الحركة منذ ذلـــك الوقت . وهكذا حصل الالمان على انتصارات باهرة بفضل الطريقة التي اتبعوها في المناورة .

ثم تقدم الالمان وراء نهر الدون ففقدوا المكاسب الاستراتيجية التي حصلـــوا عليها من قبل . لقد ناوروا في بادىء الامر بشكل حذر مع البقاء متجمعين على المستوى الاستراتيجي ، وقاموا بجهدهم على محور يسمح بالوصول بصـــــورة متناوبة الى اهداف مختلفة ، ووضعوا خصومهم امامشكلة معقدة مع الاحتفاظ بقدرتهم على توجيه كل قوتهم ضد اضعف نقطة في جبهة العدو . ولكنهـــم اضطروا عقب عبور نهر الدون الى توزيع قواتهم على محورين متباعدين اندفـــع الاول في اتجاه الجنوب نحو القوقاز بينما اتجهالثاني الى الشرق نحو ستالينغراد.

لقد كانت هزيمة الروس في ممر الدون ـ الدونيتز كاملة واصبح الوصول الى ستالينغراد والفولجا والسيطرة عليهما ممكنا وسهلا في يوليو (تموز) لو لـم يغير الجيش الرابع المدرع الالماني الذي يزحف في هذا الاتجاه محور سيره نحو الجنوب لمساعدة الجيش الاول المدرع الذي كان يجتاز نهر الدون الاسفل في طريقه نحو القوقاز ، ولما انحرف الجيش الرابع المدرع مرة اخرى نحو الشمال كانت الجيوش الروسية في ستالينغراد قد بدات في التجمع . وكان دعم هذا القطاع اسهل بالنسبة للروس من دعم قطاع القوقاز نظرا لقربه من الجبهة الوسطـــى وسهولة تحريك القوات الاحتياطية الروسية بالسكك الحديدية وعلى شبكةالطرق. واصيب الالمان بسلسلة من الفشل المتتابع حتى اخذت ستالينغراد اهمية معنوية تفوق اهميتها الاستراتيجية الحقيقية . وركز الالمان اهتمامهم وجهودهم لاحتلال المدينة على حساب الجهود المبذولة للوصول الى بترول القوقاز . وبدات عمليـــة سحب الجيش الاول من القوقاز لدعم القوات الالمانية التي تهاجم ستالينغـــراد دون أن تعوض الوحدات بعد سحبها بوحدات جديدة .

بعد ان فشل الهجوم الاول على ستالينغراد في آخر لحظة تعثر ميزان القوى، وبدات التعزيزات الروسية تفوق التعزيزات الالمانية تجاه هذا الهجوم المباشر ، واصبحت قوة الهجوم الالماني اقل نسبيا من قبل . وكان هذا هو الثمـــن الاستراتيجي الذي دفعه الالمان لتجاهلهم فرصة سنحت امامهم للقيام بعمليـــة مشاغلة ولفت انظار .

وادى نقصان طول الجبهة الى تسهيل عملية تحريك القوات الاحتياطية على المدافعين الروس الذين اصبحوا قادرين على نقل وحداتهم الى اية نقطة مـــن القوس الذي يدافعون عنه . وقد تمكن الالمان مـــن اختراق الدفاع حـــول ستالينغراد عدة مرات ولكن الروس تمكنوا من سد الثغرة في كل مرة . وهذا

يثبت صحة المبدأ القائل ان انقاص طول الجبهة مفيد دائما في الدفاع .

وازدادت خسائر المهاجمين بشكل اضعف امكانيات قيامهم بالمناورة وكانت كل خطوة الى الامام تكلفهم اكثر ، ولا تعود عليهم الا بكسب ضئيل . واوضحت عملية الانهاك الطويل هذه ان الالمان سيفقدون قوتهم المادية التي كانوا يتمتعون بها في عام ١٩٤١ ، وبدا الهبوط يظهر في باديء الامر على قوة مدرعاتهم . وبدا عدد دباباتهم يتناقص باستمرار ، ثم اخذت سيطرتهم الجوية تنقص وادى نقص هذين السلاحين الاساسيين الى تحميل كاهل المشاة الالمان بمهمات اثقل . واصبح كل انتصار جزئي يحصل عليه المشاة بهجوم كثيف يدفعون له ثمنا باهظا .

واقترح رئيس الاركان العامة هالدر العمل على تقليل الخسائر بالتوقف مؤقتا والدفاع عن خط متين خلال الشتاء فرفض هتلر هذا الاقتراح وعين بدلا منه زيتزلر الذي كان اصغر سنا من هالدر واكثر حماسة . وكان طعم ستالينغراد مغريا جدا بالنسبة لهتلر كما كانت موسكو في الخريف السابق ، ولكن نتائج هذه المغامرة كانت اخطر لان الجيوش التي تهاجم ستالينغراد توغلت بعمق كبير وعلى جبهة ضيقة جدا فأصبحت معرضة للتطويق .

وبدا الخطر واضحا في نوفمبر (تشرين ثاني) عندما انطلق الهجوم الروسي المضاد ، وكان الالمان في حالة تجعلهم معرضين للهزيمة سواء على الصعيد المعنوي او في المجال الاستراتيجي . وكان رد الروس غير مباشر ماديا وادى الى نتائج حاسمة . وقد استفاد الروس من الصدمة التي وجهوها ضد قطاعات تدافع عنها وحدات رومانية وايطالية استخدمها هتلر لتغطية اجنحته الطويلة ، وادى ذلك الى عزل وحدات كبيرة من الجيوش الالمانية وسقط في الاسر لاول مرة عدد كبير من قوات هتلر .

ولما وجد الروس الباب مفتوحا امامهم استثمروا هذا النصر وقاموا بسلسلة من الضربات نحو الجنوب لتهديد مؤخرات الجيوش الالمانية في القوقاز وطرق مواصلاتها . وقد تعرضت المواصلات الالمانية لخطر كبير نظرا لانها كانت تبعد عن روستوف في شهر يناير (كانون الثاني) ١٩٤٣ بمسافة ٤٠٠ ميل . واستطاع الالمان المحافظة على فكي الكماشة مفتوحين مدة كافية للانسحاب بالتدريج ، ولكنهم اضطروا تحت ضغط التطويق الى اخلاء القوقاز وحوض الدونيتز الصناعي .

وفي فبراير (شباط) ازدادت سرعة الانسحاب الالماني وطارد الروس القوات الالمانية حتى اجتازوا قاعدة الانطلاق التي انطلق منها هجوم اعدائهم في الصيف السابق ، واستعادوا خاركوف واقتربوا من نهر الدنيبر . ولكن الالمان ردوا في نهاية فبراير (شباط) على ذلك بهجوم مضاد استعادوا به خاركوف وحطموا مؤقتا التوازن الروسي . ووجد الروس انفسهم في وضع يشبه وضع الالمان خلال الصيف ، اذ كانوا منهكين من المطاردة التي اطالت طرق تموينهم وجعلتها اكثر صعوبة بينما استرد اعداؤهم قوتهم بانسحابهم الى قواعدهم ونحو موارد تعزيزاتهم .

كان هذا الهجوم المضاد في خاركوف احد الامثلة الباهرة للشكل الدفاعي ـ الهجومي ولاستراتيجية الهجوم غير المباشر التي تعتمد على طعم يخدع العـــدو ويجذبه الى فخ . وكان الفخ هنا كبيرا . وقد أعد هذا المخطط ونفذه مانشتاين. وكان مانشتاين استراتيجيا ممتازا ولكنه لم يكن يحظى برضاء هتلـــر . غير ان استسلام جيش باولوس في ستالينغراد أجبر هتلر على تسليمه قيادة مجموعة جيوش الدون ليتلافى الكارثة . واستطاع مانشتاين ايقاف الروس ومنعهم مـــن قطع ممر روستوف مدة طويلة بغية انقاذ جيوش القوقاز . وتظم لهذه الغايـــة موقعا دفاعيا على نهر ميوس بين بحر آزوف ونهر الدونيتز .

عند ذلك اخترق الروس الجبهة شمالي نهر الدونيتز في المناطق التي تحتلها الجيوش الايطالية والهنغارية ، واندفعوا كالموج نحو الغرب من خلال ثغرة عرضها ٢٠٠ ميل بين الدونيتز وفورونيج وتجاوزوا مجنبة مانشتاين . وعبروا نهـــر الدونيتز واستعادوا خاركوف ثم اندفعوا نحو الجنوب الغربي في اتجاه منعطف الدنيبر وهي المنطقة التي يعتمد عليها مانشتاين في تموينه . وفي فبرايـــر (شباط) وصلت مفرزة روسية متقدمة قرب زابوروج على منعطف النهر قبل ان يتمكن مانشتاين من نقل قيادته . واظهر القائد الالماني في هذه اللحظة الحرجة ثباتا وهدوءا منقطعي النظير . لقد رفض منذ مدة قريبـــة المخاطرة بقواتـــه الاحتياطية القليلة لاستعادة خاركوف بضربة مباشرة كما كان يريد هتلر ، وساعده هدوء أعصابه هنا على مقاومة الرغبة في استخدام هذه القوات للقيام بدفـــاع مباشر عن خط الدنيبر وقال ان تقدم الروس نحو الجنوب الغربي سيعطيه فرصة نادرة لضربهم ضربة مباشرة تكفي لتحطيمهم . وتركهم يتوغلون بعمق كبير فعـــلا رغم تعرض مؤخراته للخطر نتيجة لذلك .

وفي هذا الوقت جمع وسائطه واستدعى من ميوس فيالقه المدرعة الثلاثـــة المنهكة وتمركز على جبهة معكوسة في اتجاه الشمال الغربي . وفي ٢٦ فبرايـــر كان جاهزا للهجوم فانطلق بقوة نحو مجنبة ومؤخرات الروس ، واخذت هـــذه العملية شكل صدمة على نقطة دوران التشكيلة الهجومية المعادية . وفي اقل من أسبوع بدأت الجيوش الروسية المتقدمة نحو الجنوب الغربي في التراجع فـــي فوضى واضطراب واجتازت نهر الدونيتز من جديد بعد ان فقدت اكثر من ٦٠٠ دبابة وحوالي ١٠٠٠ مدفع وتابع مانشتاين تقدمه ثم انحرف نحو الشمال فـــي اتجاه مؤخرات الجناح الروسي السائر نحو الغرب والمنطلق من خاركوف وبيليغورد وأرغمه على التراجع واخلاء هاتين المدينتين . وكان نجاح هذين الهجومين غير المباشرين باهرا نظرا لان نسبة جيوش مانشتاين الى الجيوش الروسية كانت ١ الى ٨ . ولكن عدم تناسب القوى بشكل كبير جعل مناورة مانشتاين غير حاسمة. وظهر نقص القوات الاحتياطية الالمانية بالنسبة للقوات الاحتياطيـــة الروسية . ومال ميزان القوى لصالح الروس .

الحرب في المحيط الهادي :

منذ عام ١٩٣١ مد اليابانيون رؤوس جسورهم على القارة الآسيوية على حساب الصينيين الذين أضعفتهم اختلافاتهم الداخلية ، واجتاحوا منشوريا وضموها الى بلادهم . وفي عام ١٩٣٢ نزل اليابانيون في اراضي الصين ، واصطدمت جهودهم بحرب العصابات الصينية فحاولوا التغلب على هذه الصعوبة بمتابعة التوسع نحو الجنوب لعزل الصينيين عن موارد تموينهم الخارجية . ولما انهارت فرنسا امام قوات هتلر استغل اليابانيون عزلة الهند الصينية واجبروها على قبول «حماية» قوات الاحتلال اليابانية .

ورد الرئيس روزفلت على ذلك في ٢٤ يوليو (تموز) ١٩٤١ بأن طلب سحب القوات اليابانية من الهند الصينية ، ودعم هذا الطلب بتجميد الارصدة اليابانية في الولايات المتحدة الامريكية في ٢٦ يوليو كما أمر بمنع البترول عن اليابان . وتحرك تشرشل في نفس الوقت ، كما اتخذت الحكومة الهولندية المشكلة في لندن تدابير مشابهة بعد يومين ، وهذا يعني حسب قول تشرشل «عزل اليابانيين عن موارد تموينهم البترولية» ولم يبق أمام اليابانيين سوى الحرب .

واجلت اليابان هجومها اكثر من اربعة اشهر وحاولت التفاوض لرفع حظر البترول ولكن حكومة الولايات المتحدة الامريكية رفضت المفاوضة الا اذا سحبت اليابان قواتها من الهند الصينية والصين ايضا . ولم تكن حكومة اليابان لتستطيع قبول هذه الشروط واصبح نشوب الحرب منتظرا في كل لحظة . ثم اندلعت الشرارة في صبيحة يوم ٧ ديسمبر (كانون اول) ١٩٤١ عندما هاجمت وحدة بحرية يابانية مؤلفة من ست حاملات للطائرات ميناء بيرل هاربور الامريكي دون اعلان الحرب .

حتى بداية عام ١٩٤١ كانت خطة اليابان في حالة الحرب مع الولايات المتحدة الامريكية هي ارسال الاسطول الياباني الرئيسي الى المحيط الهادي الجنوبي ومهاجمة الفيلبين في نفس الوقت وذلك لارغام الامريكيين على القتال عند انطلاقهم لنجدة مواقعهم في الفيلبين عبر المحيط الهادي . وكان الامريكيون يتوقعون هذه المناورة وأكد ذلك احتلال اليابان للهند الصينية . ولكن الاميرال الياباني ياماموتو وضع خطة جديدة تتضمن القيام بهجوم مفاجىء على بيرل هاربور . وتقدمت قوة الانقضاض واستدارت في اتجاه جزر كوريل ثم جاءت من الشمال في اتجاه هاواي فلم يتم اكتشافها . وانطلق الهجوم قبل الفجر بـ ٣٦٠ طائرة تحلق من ٦ حاملات طائرات راسية على بعد ٣٠٠ ميل من بيرل هاربور . واغرق الهجوم اربع بوارج من البوارج الثماني التي يملكها الامريكيون ، وحقق اليابانيون لانفسهم في ساعة واحدة السيطرة على المحيط الهادي .

فتحت هذه العملية الطريق امام غزو ماليزيا بينما تحركت القوة الضاربة اليابانية الرئيسية نحو الشمال الغربي في اتجاه هاواي ورافقت وحدات بحرية اخرى القوافل التي تحمل القوات المخصصة للمحيط الهادي الجنوبي . وبدأ

انزال الجنود في ماليزيا والفيليبين في آن واحد تقريبا مع الهجوم الجوي على بيرل هاربور . وكانت القاعدة البحرية البريطانية الكبيرة في سنغافورة هي هدف الهجوم في ماليزيا . ولم يتم الهجوم من البحر لان المدافعين كانوا ينتظرون ذلك ، وانما قام اليابانيون بهجوم غير مباشر يتلخص في القيام بانزال قوات صغيرة في نقطتين على شاطيء ماليزيا الشرقي للمشاغلة واحتلال مهابط الطائرات وانزال القوات الرئيسية قرب حدود سيام على مسافة ٥٠٠ ميل شمالي سنغافورة . وتقدم اليابانيون من الشواطيء التي أنزلوا عليها جنودهم في أقصى الشمال الشرقي عبر شبه الجزيرة والتفوا حول كل الخطوط الدفاعية التي اقامها البريطانيون لوقف الهجوم وتسللوا عبر الطرق التي لا يتوقع العدو سيرهم فيها وقدمت لهم الغابات الكثيفة فرصا ثمينة في هذا المجال . وفي نهاية شهر يناير (كانون ثاني) وجد الانكليز انفسهم مضطرين بعد تراجع متواصل دام ستة اسابيع للانسحاب من القارة الى جزيرة سنغافورة ، وفي ليلة ٨ فبراير (شباط) قام اليابانيون بهجوم عبر مضيق عرضه ميل واحد ونزلوا في مواضع مختلفة وتسربوا على جبهة عريضة الى الداخل .

كان عدد المدافعين يعادل ضعف عدد المهاجمين ، ولكن الوحدات المهاجمة كانت مختارة ومدربة جيدا للعمل في الادغال والمناطق الصعبة ، بينما كانت القوات البريطانية متوسطة النوع والتدريب غير قادرة على الرد في الوقت الملائم. واظهر سير المعركة ضعف اجنحتها وزاد من هذا الضعف فقدان التغطية الجوية ، وازدياد نشاط الطيران الياباني . وهكذا تفكك المدافعون وفقدوا توازنهم ، ولم تنجح المحاولات التي قام بها البريطانيون ليستعيدوا تنظيمهم ، نظرا للفوضى المنتشرة في مؤخراتهم . وفي ١٥ فبراير (شباط) استسلم المدافعون .

اما في جزيرة الفيليبين الرئيسية لوسون فقد تم الانزال الرئيسي شمالي العاصمة مانيلا ثم تبعه انزال آخر خلف العاصمة . واخلت القوات الامريكية معظم الجزيرة تحت تأثير هاتين الصدمتين المتجهتين نحو نقطة واحدة ، وانسحبت الى شبه جزيرة باتان قبل نهاية شهر ديسمبر (كانون اول) . وهنا لم يكن امام اليابانيين سوى الهجوم الجبهي على قطاع صغير متين وقد استطاع الامريكيون الدفاع عنه حتى شهر ابريل (نيسان) حيث تم سحقهم نهائيا .

ولكن الغزو الياباني امتد عبر مجموعة جزر ماليزيا قبل هذه الحوادث بفترة طويلة . ففي ٢٤ يناير (كانون ثاني) نزل اليابانيون في بورنيو وسيليبيز وغينيا الجديدة. وبعد ذلكبستة اسابيعهاجموا جزيرة جاوة قلبجزر الهند الشرقية بعد ان عزلوا الجزيرة بعمليات تغطي مجنبات الهجوم . وبعد أقل من ثلاثة اسابيع سقطت الجزيرة كلها في أيديهم كثمرة يانعة ، ولكن لم يحدث الهجوم المتوقع ضد استراليا واتجه الجهد الياباني منذ ذلك الوقت الى الغرب بغية احتلال بورما . وكان الهجوم المباشر على جبهة عريضة ابتداء من سيام وحتى رانجون هجوما غير مباشر للاهداف الرئيسية في القارة الآسيوية التي كانت تتمثل في

تدمير المقاومة الصينية ، لان رانجون كانت الميناء الذي يصل منه التموين والامداد الانكلو ــ امريكي لدعم الصين عن طريق بورما . وكانت هذه المناورة تهدف في الوقت نفسه الى اتمام احتلال المنافذ الغربية على المحيط الهادي ، وانشاء حاجز قوي على الطرق الرئيسية التي لا بد لكل هجوم انجلو ــ امريكي كبير من المرور فيها .

وفي ٨ مارس (آذار) سقطت رانجون ، وبعد شهرين تم طرد القوات البريطانية من بورما ، وانسحبت الى الهند عبر الجبال . وهكذا استطاع اليابانيون الحصول على مواقع طبيعية قوية للتغطية ساعدتهم على صد كل المحاولات التي كانت ترمي الى اعادة احتلالها فيما بعد .

ومرت ايام كثيرة قبل ان يستطيع الحلفاء اعداد الوسائل الضرورية لاستعادة الاراضي التي استولى عليها اليابانيون . وقد بدات تحركاتهم من الجبهة ، واتخذوا استراليا كقاعدة كبيرة ضد المواقع اليابانية الامامية . ولكنهم اضاعوا من اغسطس (آب) ١٩٤٢ حتى سبتمبر (ايلول) ١٩٤٣ لاسترجاع بضع جزر .

وبدت عملية العودة الى الفيليبين والانطلاق منها الى اليابان مغامرة لا تنتهي. وفي خريف ١٩٤٣ تحسن الموقف باستخدام طريقة الالتفاف التي كانت نوعا من استراتيجية الهجوم غير المباشر ، واهمل الامريكيون في تقدمهم البرمائي سلسلة من الجزر من مجموعات الجزر البعيدة عن المركز وتركوا حامياتها اليابانية معزولة عن منابع تموينها وكأنها في سجن استراتيجي .

وفي شهر اكتوبر (تشرين اول) ١٩٤٤ قام الامريكيون بوثبة اكبر اوصلتهم الى الفيليبين . ولقد سبق هذه العملية هجوم جوي كبير على الموانيء والمطارات في بعض النقاط . وكان هذا الهجوم يهدف الى اقناع اليابانيين بأن الامريكيين يعتزمون انزال قواتهم في احدى هذه النقاط دون اظهار الجزيرة المختارة فعلا كهدف حقيقي . ثم ظهر أسطول الجنرال ماك آرثر امام جزيرة ليت في منتصف الطريق بين الجزيرتين الرئيسيتين لوسون ومينداناو ، ونزلت القوات الامريكية فيها ودقت بذلك اسفينا في قلب الفيليبين يمكن اعتباره اسفينا استراتيجيا بين اليابان ومعظم الاراضي التي استولت عليها في المحيط الهادي وفي جزر الهند الشرقية .

ثم جاءت المرحلة الثانية قبل ان يستعد الامريكيون لتوسيع نطاق هجومهم واستكمال احتلال الفيليبين . ومع ذلك تحقق النصر لهم بفضل طريقتهم التي تعتمد على عزل الهدف بشبكة بحرية وجوية اثناء القيام باحتلاله . واصبح لدى الامريكيين مواقع قريبة من اليابان نفسها بشكل يحقق السيطرة عليها بهجوم جوي قوي ومستمر . والتف الامريكيون حول جزيرة فورموزا ووصلت وثبتهم التالية الى أوكيناوا في ارخبيل ريو ــ كيو في منتصف الطريق بين فورموزا واليابان .

ومن المظاهر الغريبة فيهذه العملية الاخيرة طريقة الالتفاف التي كانت تحتفظ بحرية اختيار اهداف متعددة مما يخدع العدو ويحول بينه وبين معرفة الهدف الحقيقي . كما انها استغلت ضعف العدو الناجم عن امتداد قواته على مسافات

واسعة . وهكذا كان لكل مناورة في هذه العملية نتائج مضاعفة نظرا لانها كانت تنطوي على هجوم استراتيجي غير مباشر . وكان التوسع الياباني سببا من اسباب تبعثر اليابانيين على شكل مفارز منعزلة لا تستطيع الصمود امام المناورات البرمانية .

الحرب في البحر الابيض المتوسط :

دارت المعارك الاولى في البحر الابيض المتوسط حول المحاولة الايطالية الالمانية لاحتلال مصر وقناة السويس . ويدل سيرها على نتيجة التوسع الاستراتيجي . كما يدل على اهمية الهجوم غير المباشر .

بدا تقدم المارشال غرازياني من ليبيا الى مصر في سبتمبر (ايلول) ١٩٤٠ وكان نجاحه محتملا نظرا لتفوقه العددي الكبير على القوات البريطانية المعدة للدفاع عن مصر . ولكن جيش غرازياني كان بطيء الحركة اثناء تقدمه ، وادى ضعف قواته الميكانيكيه وقلتها الى اعاقة المناورة ونقصان عناصر المفاجأة ، ثم ازداد هذا الضعف بسبب صعوبات التموين والادارة ، وهذا ما أدى الى توقف الايطاليين بعد زحفهم ٧٠ ميلا عبر الصحراء الغربية ووصولهم الى سيدي براني وتمركزهم هناك عدة اشهر .

وقرر القائد العام البريطاني للشرق الاوسط الجنرال ويفل القيام بهجوم مفاجيء بقوات الصحراء الغربية «نواة الجيش الثامن فيما بعد» بقيادة الجنرال اوكونور ، على ان تتم العملية على شكل اغارة بقوات كبيرة لا على شكل هجوم تقليدي . ولم يكن يهدف الى اختراق مواقع العدو واستغلال هذا النصر بعد ذلك ، وانما كان كل هدفه هو القيام بإغارة واسعة المدى . وكان يملك فرقتين فقط هما الفرقة السابعة المدرعة والفرقة الهندية الرابعة ، ولقد اضطرت هذه الفرقة بعد العملية الى العوده الى مصر ثم الى السودان للمساعدة في صد الايطاليين في اريتريا والحبشة .

وادت «الاغارة» الى نصر حاسم بفضل الشلل والتفتت اللذين أصابا العدو نتيجة حركةاوكونور المفاجئة عبر الصحراء ضد المؤخرة، وهيحركة من نوع الهجوم غير المباشر ماديا ومعنويا . وقد تمت العملية في ٩ ديسمبر (كانون اول) وحوصر القسم الاكبر من جيش غرازياني واستسلم ٣٥ الف ايطالي ، بينما تراجع القسم الباقي نحو الحدود . واجتاحت الفرقة السابعة المدرعة هذه الحدود المحصنة خلال المطاردة ، وعزلت مؤقتا القوات الايطالية المنسحبة عن قواعدها بحركة تطويق جديدة .

وكان انهاء العملية مستطاعا حينئذ لولا اصرار القيادة العامة البريطانية على سحب الفرقة الهندية الرابعة حسب المخطط الاساسي . وحرمت الفرقة السابعة

المدرعة من دعمها فأصبحت عاجزة عن اختراق دفاع الايطاليين في البردية . ومرت عدة اسابيع قبل قدوم الفرقة الاسترالية السادسة من فلسطين لتشترك في المعركة . وفي ٣ يناير (كانون ثاني) تم احتلال البردية واسر فيها ٤٠ الف جندي . وفي ٢٢ يناير سقطت طبرق واسر فيها ٢٥ الف رجل .

وبدات بقية جيش غرازياني في الانسحاب الى ما وراء بنغازي نحو طرابلس، وعرقل هذا الانسحاب مطاردة على شكل هجوم غير مباشر يُعدّ من المناورات الباهرة الجريئة في هذه الحرب . فقد انطلقت الفرقة السابعة المدرعة في الصحراء ووصلت الى البحر جنوبي بنغازي في ٥ فبراير (شباط) وقطعت وحدات مقدمتها ١٧٠ ميلا في حوالي ٣٦ ساعة في منطقة صعبة وغير مطروقة . وقامت مفرزة بقيادة الكولونيل كومب بقطع طريق انسحاب العدو بينما طاردته مفرزة اخرى مؤلفة من اللواء الرابع المدرع حتى اجبرته على الاستسلام . وكان مجموع تعداد المفرزتين ٣ آلاف رجل فقط ، ولكن جراتهما التي دفعت بهما داخل خطوط عدو متفوق عدديا ادت الى اسر ٢١ الف رجل .

وانطلقت هذه القوات بعد ذلك باندفاع كبير نحو طرابلس . وكان استعداد الايطاليين فيها ضعيفا وامكانياتهم لصد الهجوم المدرع قليلة علاوة على تأثرهم المعنوي من هزيمة جيشهم الرئيسي . وكان اوكونور يريد استثمار النصر بسرعة لاعتقاده بامكان القيام بوثبة جديدة الى الامام بعد توقف قصير جدا لاستكمال أوجه النقص في قواته . ولكن الحكومة البريطانية امرت باجراء توقف كبير يسمح بتجميع الوسائط اللازمة للقيام بحملة اليونان الفاشلة . وتلقى ويفل امرا بالاحتفاظ بأقل عدد ممكن من القوات في برقة ، وعاد اوكونور الى مصر وسلمت نتائج انتصاراته الى أيد أقل مهارة . وفي هذه الفترة وصلت الوحدات الاولى من الفيلق الافريقي الالماني بقيادة رومل الى طرابلس وكان وصولها متاخرا بشكل يتعذر معه انقاذ الايطاليين من الكارثة . ومع هذا أدى قدومها الى اطالة الحرب في شمال افريقيا مدة سنتين ، وتهديد مواقع الانكليز في مصر بشكل خطير .

قام رومل بالرد في نهاية مارس (آذار) بقوة تعادل فرقة تقريبا ، واجرى مجموعة من الحركات السريعة الليلية على أجنحة البريطانيين ومؤخراتهم واجتاح مواقعهم الامامية وعرض معظم قواتهم للتطويق فاستسلمت في المخيلي . وهذه المفاجأة التامة اعطت هذا الهجوم في مختلف مراحله صفة غير مباشرة كبيرة الاثر . وتم طرد الانكليز في أقل من ١٥ يوما من كافة المناطق التي احتلوها في برقة باستثناء مفرزة منعزلة لجأت الى طبرق وبقيت شوكة في جنب رومل . ووصل رومل الى حدود مصر ولكنه اضطر الى التوقف نظرا لامتداد خطوط مواصلاته اكثر مما ينبغي .

وفي شهر يونيو (حزيران) قام البريطانيون من جديد بهجوم على حدود ليبيا بعد ان تلقوا امدادات جديدة ، وكان هجومهم واسع النطاق على جبهة عريضة واطلق عليه اسم قديم هو «بلطا الحرب» وصد رومل هذا الهجوم ثم قام بهجوم

مضاد مدرع مستديرا حول جناح الاعداء في التفاف كبير عبر الصحراء .

وفي نوفمبر (تشرين ثاني) قام الانكليز بهجوم اكبر بعد ان حل الجنرال اوكلنك محل ويفل كقائد عام للقوات البريطانية ، واندمجت القوات البريطانية المرابطة عند الحدود الليبية وتألف منها الجيش الثامن بقيادة الجنرال كنجهام . وانطلق الهجوم في ١٨ نوفمبر بزحف جانبي في الصحراء ، واقترب البريطانيون من مؤخرات الالمان ، ثم ضاعت ميزة هذا التقدم الاستراتيجي غير المباشر بسبب استخدام التكتيك المباشر عندما حاول الانكليز سحق المدرعات الالمانية في معارك جبهية في اي مكان وجدوها فيه وكان هذا لصالح رومل .

ووجد الالمان انفسهم امام وحدات بريطانية سريعة الحركة ومتفوقة عدديا فاستخدموا ببراعة الهجوم غير المباشر ، وبدأوا يجذبون المدرعات البريطانية الى كمائن يضعون فيها دباباتهم المجهزة بمدافع ٨٨ ملليمتر القوية . فأثبتوا فعالية الطريقة الدفاعية ـ الهجومية ، ونجاح الطريقة التي تتضمن وضع طعم لجذب العدو في الحرب الآلية الحديثة . وفقد البريطانيون من جراء ذلك مكاسبهم الاستراتيجية كما فقدوا تفوقهم العددي في الدبابات ، وتضعضع توازن الجيش الثامن المادي والمعنوي . وفي ٢٣ نوفمبر (تشرين ثاني) اضطر كنجهام الى وقف هجومه والانسحاب الى ما وراء الحدود بغية اعادة تنظيم جيشه .

وفي اليوم التالي وجد رومل الموقف ملائما للقيام بضربة جريئة فزج قواته الآلية في مناورة تطويق على مجنبة الجيش الثامن اليسرى المستندة الى الصحراء . وبعد اجتياز الحدود اتجه الى مواصلات العدو ووصل الى منطقة مؤخرات البريطانيين بشكل مفاجيء فنشر بينهم الفوضى والهلع . ولو استمر انسحاب البريطانيين كما اراد كنجهام لحلت بهم كارثة حاسمة ، ولكن اوكنلك جاء الى ارض المعركة بنفسه واوقف الانسحاب واصر على متابعة القتال ، ثم عاد الى القاهرة بعد يومين وعين ريتش بدلا من كنجهام . وهكذا ادى تدخل اوكنلك الى انتزاع النصر من براثن الهزيمة ، لانه تمسك ببقية الجيش الثامن على الموقع الامامي الذي تعرض لاغارة رومل .

وفشل تقدم رومل العميق في آخر لحظة ، وكان عليه ان يدفع فيما بعد ثمنا غاليا لهذا الفشل . وبينما كانت فرقه الثلاث (فرقتان المانيتان وفرقة ايطالية) تعمل وراء الحدود بعيدا عن مناطق دعمها وتموينها ، استعادت القوات البريطانية التي اهملت اثناء التقدم الالماني وتركت على المؤخرات ، هدوءها ، وعادت الى الهجوم واتصلت بحامية طبرق قبل ان يتمكن رومل من طلب وحداته غير الآلية. وهذا يدل على مدى الاخطار التي تتعرض لها عملية كعملية الاغارة الاستراتيجية المنفذة بجزء فقط من الجيش ، والمستندة على محور مناورة ضعيف بحيث لا يستطيع دعم هذه العملية . ورغم حصول رومل على السيطرة المؤقتة بعد عدة ايام من القتال المرير والمناورات الصغيرة المدى فقد كان نجاحه ضئيلا كما كانت خسائره اكبر من خسائر المرحلة الاولى ، وفقد من الدبابات عددا اضعف وسائطه المحدودة ، وازدادت خطورة هذا الضعف عندما تلقى البريطانيون نجدات جديدة

كبيرة . وفي ديسمبر (كانون اول) اضطر رومل الى وقف المعركة حـول طبرق والتراجع نحو غزالة ثم نحو حدود طرابلس .

وهنا عاد رومل الى طريقته الدفاعية ـ الهجومية فحصل بذلك على انتصارات باهرة . وعندما قام الانكليز بهجومهم في ٢٧ ديسمبر (كانون اول) احبط رومل تقدم وحداتهم المدرعة بالالتفاف حول مجنباتها واجبارها على القتال بجبهـة معكوسة وتطويقها في نهاية الامر . وتحطم توازن القوات المدرعة البريطانية وزاد من خطورة موقفها وصول قافلة كبيرة تحمل لرومل نجدات هامة لم يتلقها منذ اواسط نوفمبر (تشرين ثاني) . وأراد الالمان الاستفادة من امتداد تقدم الانكليز فقاموا بهجوم مضاد اخترق جبهة الانكليز في الوقت الذي كانوا يعتقدون فيـه ان الجيش الالماني منهك وغير قادر على الحركة . ثم تم استثمار الفوضى الناجمة عن هذا الاختراق بهجوم على المجنبة من ناحية الصحراء وبالتقدم نحو قواعـد العدو في بنغازي وبعدها نحو غزالة . واستعاد رومل بذلك اكثر من نصف الارض التي احتلها الانكليز .

ثم تجمدت الجبهة عند موقع غزالة مدة ٣ اشهر ، وكانت مراكـز الجيش الثامن ملائمة لتكون قاعدة انطلاق لهجوم مقبل ولكنها لم تكن صالحة لدفـاع متين . وفي مايو (مارس) تحرك رومل قبل اعدائه ، وقامت مدرعاته بمنـاورة كبيرة على المجنبة خلال ليلة ٢٦ مايو فاجتاحت دفـاع الجيش الثامن ، ولكنها توقفت قبل الوصول الى الشاطىء وانهاء تطويق القوات البريطانية المدافعة عـن خط غزالة . فاتخذت وضعا دفاعيا تستند مؤخرته على حقول الالغام الانكليزية واعتقد الانكليز ان قوات رومل وقعت في مأزق ، وانها حوصرت فقاموا بمناورة مباشرة جدا فسقطوا في الافخاخ الدفاعية التي نظمها رومل بسرعة فور توقفه. ووجد الجيش الثامن ان قواته الاحتياطية مبعثرة ، واحس بعجزه عن مقاومة التفاف رومل على مجنبته فانسحب قسم منه الى الحدود بينما التجأ القسـم الآخر الى طبرق . وتجاوزت مدرعات رومل مدينة طبرق بسرعة وكأنهـا تود اجتياز الحدود ثم استدارت فجأة وهاجمت طبرق من الخلف قبل ان تستعـد حاميتها ، وكان هذا هجوما غير مباشر من طراز رائع ماديا ومعنويا . واخترق الالمان الدفاع في احدى النقاط الضعيفة واجتاحوا الموقع واسروا حامية طبرق بأكملها واستولوا على اكداس هائلة من التموين وعربات النقل فأصبحوا قادرين على متابعة التقدم .

ثم طارد رومل ما تبقى من الجيش الثامن عبر الصحراء الغربية واقتـرب بشكل خطير من وادي النيل . ولو انه وصل اليه واحتل قناة السويس لضاعت كل مواقع البريطانيين في الشرق الاوسط . وفي هذه الازمة تدخّل اوكنلـك واخذ على عاتقه مهمة قيادة الجيش الثامن المنسحب ، فجمعه في العلمين للدفاع عن موقع يسد الممر الصحراوي المؤدي الى مصر . وتحطمت قوات رومل القليلة العدد المنهكة من طول المطاردة امام مقاومة عنيدة غير منتظرة ومجهزة على خـط

دفاعي جديد . وعندما حاول رومل اختراق خطوط المقاومة بالانقضاض على نقاط مختلفة رد عليه اوكنلك بشكل غير مباشر ، ومع انه فشل في طرد رومل فقد هز توازنه هزة عنيفة منعته من تحقيق اهدافه .

وجاءت النجدات بعد ذلك من انكلترا ، وعين الكسندر قائدا عاما للجيوش البريطانية في الشرق الاوسط وتولى مونتجمري قيادة الجيش الثامن . وفي هذه الاثناء بدا رومل هجومه الجديد في نهاية شهر اغسطس (آب) ولكن هذا الهجوم امكن صده بفضل التكتيك الدفاعي البريطاني الجديد . ودفعت الوحدات المدرعة الالمانية الى اجتياز حقول الالغام التي تغطي النصف الجنوبي للجبهة الانكليزية ، في قطاع لا تحميه سوى الالغام ، بينما كانت المشاة البريطانية تدافع عن المواقع القوية في النصف الشمالي ، وهكذا تم جذب رومل لمهاجمة الفيلق المدرع البريطاني الاساسي على ارض اختارها الاعداء من قبل ، ففقد عددا كبيرا من دباباته دون جدوى ، وتم تثبيته بين موضعه الجانبي وحقول الالغام ، وعندئذ قامت الفرقة المدرعة السابعة البريطانية بالالتفاف حول مجنبته الجنوبية ، وفقد رومل عامل المباداة ولكن الشبكة لم تطبق عليه بسرعة كافية لمنع انسحابه .

وتبدل الموقف نهائيا منذ ان تزايدت امكانيات مونتجمري . وبعد استراحة طويلة اعيد خلالها تنظيم القوات البريطانية ، قام الجيش الثامن بهجومه في الاسبوع الاخير من شهر اكتوبر (تشرين اول) وكان يملك تفوقا ساحقا في الطيران والمدفعية والدبابات، ومع ذلك استمرت المعركة عنيفة خلال اسبوع كامل. ولم تسمح الجبهة الضيقة بالقيام بمناورة واسعة . وكانت قوات رومل منهكة ، ووجدت نفسها مهددة بالشلل بسبب نشاط الغواصات التي اغرقت في البحر الابيض المتوسط ناقلات البترول التي تمونها ، فأثر ذلك على نتيجة المعركة ، وعندئذ لاحت بوادر الهزيمة واصبح الالمان عاجزين عن استعادة قواهم قبل الوصول الى قواعد تموينهم .

كان رومل في بداية المعركة مريضا واضطر الى الذهاب الى فيينا ، ولما عاد ودرس الوضع قرر سحب جيشه الى فوكه وهي موقع يبعد ٦٠ ميلا غربي العلمين لتعطيل الاستعدادات الحربية التي وضعها مونتجمري موضع التنفيذ . ولكن هتلر احبط رغبة رومل وقرر عدم التخلي عن شبر واحد من الارض ، ولم يؤد ذلك الا الى تأجيل الانسحاب حتى الهزيمة التالية ، ولكن رومل نفذه بمهارته وفطنته المشهورتين فترك اقل وحداته آلية وتدريبا بما في ذلك معظم القوات الايطالية ليسحب من هذا المأزق وحداته المختارة مستخدما جميع وسائط النقل الموجودة لديه .

وفشلت كل المحاولات التي قام بها البريطانيون لمهاجمته من الخلف لان المطاردة لم تكن غير مباشرة . ولم تقم القوات البريطانية بحركة تطويق واسعة النطاق ، فقد انحرفت ناحية البحر قبل الاوان بقصد أسر معظم القوات المنسحبة على الطريق الساحلي . ثم قامت بحركة واسعة قرب مرسي مطروح (١٢٠ ميلا غربي العلمين) ولكنها لم تستطع قطع طريق التراجع لنقص التموين بالوقود وتأخر

التقدم بسبب الامطار الغزيرة . ولو تم القيام بحركة اوسع واعمق عبر الصحراء لتم الابتعاد عن منطقة الامطار الغزيرة . ولكن انشغال معظم وسائط النقل بنقل الذخيرة على حساب التموين بالوقود ادى الى نقصان هذه المادة اللازمة لاستمرار المطاردة .

ولم يتوقف رومل بعد تخلصه من فكي كماشة المطاردين المدرعة حتى وصل الى العقيلة في طرف برقة الآخر على بعد ٧٠٠ ميل من العلمين . ولقد احبط خلال هذا الانسحاب الذي استمر ١٥ يوما جميع خطط مطارديه ، وفقد قليلا من الاسرى والعتاد . وكانت هجمات رومل المضادة لمطارديه قد تركت في اذهانهم اثرا لا يمحى . ولكن قوة عدوة الكبيرة الان منعته من التصرف بهذا الشكل وحرمته حتى من امل الصمود طويلا في موقع العقيلة .

واضطر الجيش الثامن الى التوقف مدة ثلاثة اسابيع ليجمع قواته ويقوم بمهاجمة العقيلة . وعندما بدأ الهجوم انسحب رومل ، واستطاعت مناورة جانبية عزله عن مفارز المؤخرة ولكنه استطاع شق طريقه قبل ان يتم عمل «السد الاستراتيجي» على طريق تراجعه . ثم توقف رومل من جديد عند بويرات التي تبعد ٢٠٠ ميل الى الخلف . واستطاع الدفاع عن هذا الموقع ثلاثة اسابيع . وعندما اقترب الجيش الثامن وقام بهجومه الجديد في منتصف يناير (كانون ثاني) انسحب رومل من جديد انسحابا مستمرا مسافة ٣٥٠ ميلا بعيدا عن طرابلس الى خط ماريت في الاراضي التونسية . وقد اضطر الى اتخاذ هذا القرار بسبب ضعف قواته وضياع ناقلات البترول التي تمونه علاوة على الموقف الجديد الذي نشأ بسبب نزول القوات الانكليزية والامريكية في شهر نوفمبر (تشرين ثاني) في مراكش والجزائر .

وقع هذا الحادث عقب هجوم العلمين مباشرة على بعد ٢٥٠٠ ميل تقريبا من خط القتال في الطرف الثاني من شمال افريقيا ، وكان ذلك هجوما غير مباشر بعيد المدى على مؤخرات رومل في ليبيا ويهدد مواقعه قرب مصر . والسبب في نجاح هذا الهجوم يرجع الى انه كان غير مباشر . لقد كانت الفكرة الاساسية هي القيام بانزال قوات الحلفاء على شاطىء مراكش على المحيط الاطلسي ، ولو حدث ذلك لكان هجوما مباشرا يعطي القوات الفرنسية الموالية للالمان فرصة الدفاع بشكل فعال . وكان انطلاق الحركة من منطقة تبعد ١٢٠٠ ميل عن بنزرت مفتاح مسرح العمليات في شمالي افريقيا يعني اعطاء الالمان الزمن والامكانيات اللازمة لدعم المقاومة الفرنسية ضد غزو الحلفاء . ثم اضيفت الى الخطة عمليات انزال اخرى على شواطىء البحر الابيض المتوسط قرب وهران والجزائر ، ومهدت الدبلوماسية الامريكية الطريق لهذه العمليات بعد ان حصلت على موافقة ومساعدة سلطات فرنسية مختلفة . واثرت عمليات نزول القوات بشكل حاسم على مؤخرة القوات الفرنسية التي تدافع عن الشاطىء الشرقي للجزائر ومراكش حيث كانت توجد المقاومة الرئيسية العنيدة .

واضعفت عمليات الانزال قرب الجزائر مقاومة مدينة بنزرت الواقعة على بعد ٤٠٠ ميل الى الشرق . وفي هذه اللحظة كانت الوحدات الآلية للحلفاء قادرة على الزحف في اتجاه بنزرت وتونس دون ان تلاقي اية عقبة سوى صعوبات الطرق الجبلية الوعرة . كما ان عمليات الانزال البحرية والجوية كانت ممكنة ، ولم يكن من المتوقع ان تصادف مقاومة . ولكن القيادة البحرية ترددت ولم تشأ القيـام بعمليات انزال صغيرة متباعدة بهذا الشكل دون تغطية جوية . وكان التقـدم البري بطيئا وحذرا . وعلى العكس كان رد فعل الالمان سريعا رغم مفاجأتهم بنزول قوات الحلفاء ، فوجهوا في اليوم الثالث لوقوع هذه العملية قوات نحو تونس واستخدموا لهذا الغرض جميع طائرات النقل والقوارب الصغيرة الموجودة تحت ايديهم . وكانت القوات صغيرة ولكنها استطاعت صد الوحدات التي انزلها الجيش الاول للحلفاء المتقدم نحو تونس بعد اسبوعين ونصف من نزول قوات هذا الجيش على الساحل .

ترتب على هذا الفشل الذي صادف الحلفاء توقف استمر خمسة اشهر على القوس الجبلي الذي يغطي مدينتي بنزرت وتونس . ومع ذلك كان هذا الفشـل لمصلحة الحلفاء في المستقبل ، لانه شجع الالمان على ارسال نجدات متزايدة عن طريق البحر الى تونس ، بينما كان الحلفاء يقطعون مواصلاتهم بتقوية الحصـار البحري ضدهم وحرمانهم بالتالي من طريق الانسحاب . واضطر هتلر في النهاية الى ارسال وحدات عديدة للثبات في تونس تفوق الوحدات التي كانت قـد خصصت لاحتلال مصر . وهكذا ارسل وحدات المانية وايطالية عبر البحر الابيض المتوسط فادخلها بذلك في الشبكة وسهل مهمة الحلفاء المقبلة اثناء غزو اوربا . ولعب شمال افريقيا بالنسبة لهتلر دور الطعم والفخ الاستراتيجيين ، وهذا هو نفس الدور الذي لعبته من قبل اسبانيا بالنسبة لنابليون . وهكذا اصبح هتلر مشدودا بين افريقيا وروسيا ، ولقد عجلت الجهود التي بذلت لتحقيق هذيـن الهدفين معا بانهيار هتلر كما عجلت في الماضي بانهيار نابليون .

بدأت المعارك في عام ١٩٤٣ في تونس بهجوم الماني مضاد هز الحلفاء بعنف وقد حدث هذا الهجوم عندما كان الجيش الاول للحلفاء القادم من الغرب يسعى مع الجيش الثامن القادم من الشرق لحصر قوات المحور بين فكـي الكماشة . وارادت قيادة المحور تلافي الخطر بتحطيم هذين الفكين وكانت الشروط الملائمة لتحقيق هذا المخطط متوفرة تماما . وكانت النجدات المرسلة الى تونس تؤلـف جيشا تحت قيادة فون آرنيم كما كانت بقايا جيش رومل تتلقى دعما جديـدا بالرجال والعتاد بتراجعها نحو الغرب واقترابها من الموانىء التي يأتي التمويـن منها . ونكر رومل في الاستفادة من ميزات القتال على «الخطوط الداخلية» . على ان يستخدم موضعه المركزي بين الجيشين الحليفين المتقدمين نحو نقطـة واحدة وذلك بمهاجمة الواحد بعد الآخر وطردهما وابعادهما عن بعضهما . فـاذا استطاع طرد الجيش الاول الانكلو ـ امريكي الذي يهدده من ظهره غدت يـداه

حرتين يضرب بهما الجيش الثامن البريطاني المتقدم نحو خطوط تموينه بشكل خطير . وهذه في الحقيقة خطة كبيرة تحمل في طياتها آمالا كثيرة ، ولكن تنفيذها تعرض للصعوبات .

كان الفيلق الثاني الامريكي الذي يضم فرقة فرنسية الهدف الاول للهجوم الالماني المضاد ، وكانت جبهته ممتدة على مسافة ٩٠ ميلا ومستندة الى ثلاثة طرق تتجه نحو البحر عبر الجبال . وكانت عناصر راسي الفيلق تحتل الممرات الجبلية الضيقة قرب مدن الفندق ــ فايد ــ قفصة بشكل متين .

وفي أواخر يناير (كانون ثاني) اندفعت فرقة البانزر الحادية والعشرون فجأة نحو ممر فايد واجتاحت الحامية الفرنسية قبل وصول النجدات الامريكية . واعتقدت قيادة الحلفاء بأن هجوما مضادا جديدا اكبر لا بد ان يقع على نقطة اخرى ، واعتبرت عملية فايد مجرد مشاغلة وحددت مكان الضربة التالية في مدينة الفندق . وانقلبت هذه الفكرة الى أيمان اكيد أدى الى نتائج قاضية تقريبا.

وفي ١٤ فبراير (شباط) بدأ الهجوم الحقيقي على شكل وثبة جديدة منطلقة من ممر فايد بقيادة زيجلر مساعد فون آرنيم . وقد وقع الهجوم في الوقت الذي تقدمت فيه المدرعات الامريكية لملاقاته . فثبتت فرقة البانزر الحادية والعشرون الامريكيين في الجبهة واستدارت على مجنبتهم اليسرى وناورت حول مجنبتهم اليمنى لتأخذهم من الخلف . وخسر الامريكيون ١٠٠ دبابة ، واعطى رومل الامر لزيجلر لمتابعة التقدم خلال الليل واستثمار النجاح حتى النهاية . وظل زيجلر ٤٨ ساعة ينتظر موافقة آرنيم ثم اندفع مرة اخرى مسافة ٢٥ ميلا حتى مدينة سبيتلة حيث تجمع الامريكيون بعد هزيمتهم . وكان يستطيع دفعهم الى الوراء بمعارك اصبحت اكثر ضراوة رغم وصول الامريكيين الى ممر القصرين . وفي هذا الوقت سحب رومل من خط ماريت مفرزة مدرعة وانطلق بعمق نحو الجنوب عبر ممر جفصة بحركة طولها ٥٠ ميلا كان من نتيجتها سقوط مطارات الامريكيين الواقعة جنوب غربي القصرين بين يديه في ١٧ فبراير .

ودخل في المعمعة الجنرال الكسندر الذي كان قد عُيِّن حديثا لقيادة الجيشين الحليفين ، فوجد الوضع حرجا وقوات الحلفاء في فوضى والتعاون معدوم . ولو تدخل رومل لما صادف تقدمه سوى بعض الحواجز الطبيعية . ولأدى ذلك الى اختراق الجبهة في تونس مما يضطر الحلفاء الى الانسحاب او الوقوع في كارثة .

وكان رومل يود استثمار الفوضى والهلع في صفوف الحلفاء بمناورة مشتركة تقوم بها جميع الوسائط الآلية الموجودة لديه عبر تيبسه والزحف نحو مواصلات الحلفاء الرئيسية التي تربطهم بقواعدهم في الجزائر . وكانت الاستطلاعات الجوية تدل على احتراق مستودعات الحلفاء في تيبسة . ولكن آرنيم رفض الاشتراك في هذه المغامرة ، مما اضطر رومل لاخذ موافقة موسوليني الذي وافق على الحركة شريطة الاتجاه الى طحلة لا الى تيبسة .

ويمكن اعتبار هذا التعديل حسب راي رومل دليلا على ضيق التفكير وقصر

النظر ، لان العمليات تمت على مقربة من الجبهة في اماكن تستطيع وحدات الحلفاء الاحتياطية القوية التدخل فيها .

واثبتت النتائج بشكل قاطع صحة راي رومل . ووقع الهجوم في المكان الذي كان يتوقعه الكسندر والذي استعد لاستقباله فيه ، فأعطى الامر لقيادة الجيش بتجميع المدرعات لتأمين الدفاع عن طحلة . وجلبت القوات الاحتياطية البريطانية في الشمال نحو هذا القطاع . ولو استطاع رومل ان يناور كما كان يريد لأوقع في صفوف الحلفاء من جديد اضطرابا كبيرا .

وتمركز الامريكيون ايضا بكل قوة في اتجاه طحلة ودافعوا بعناد عن ممر القصرين . ولم يستطع الالمان المرور قبل مساء يوم ٢٠ فبراير . وفي اليوم التالي دخلوا مدينة طحلة وهم منهكين ، ثم طردتهم القوات الانكليزية منها . وهكذا ادرك رومل في ٢٢ فبراير ان الحظ قد تخلى عنه ، فأوقف الهجوم وبدا في الانسحاب على مراحل ، وفي اليوم التالي تلقى امرا جديدا من روما بعد فوات الاوان يخوله قيادة كل جيوش المحور في شمال افريقيا .

ان تحليل هذا الهجوم المضاد يعطي درسا هاما حول العمل غير المباشر ، ويظهر بوضوح كيف يؤدي ضياع الوقت الى فقدان المكاسب ، كما يدل على ضرورة اجراء المناورة غير المباشرة ماديا على نطاق واسع لكي يستولي الشك على العدو في معرفة الهدف المهدد فعلا .

ولقد ادى تأخير اعطاء رومل القيادة العامة لقوات المحور في شمال افريقيا الى عجزه عن اصدار الاوامر في الوقت المناسب الى آرنيم لوقف الهجوم الذي يقوم به في الشمال ضد مواقع الحلفاء امام مدينة تونس . ولم يكن هذا الهجوم الا هجوما مباشرا فاشلا كثير التكاليف افقد الالمان فرقا عديدة ضرورية لقيام رومل بضربة جديدة ضد مونتجمري ، وقد قلب هذا التأخير خطط رومل كلها . ان مونتجمري لم يكن قد ارسل حتى ٢٦ فبراير (شباط) سوى فرقة واحدة في اتجاه خط ماريت ، وكانت هيئة اركان حربه تحاول تأمين توازن القوى قبل انطلاق الهجوم الالماني ، وعندما هاجم رومل في مارس (آذار) كانت قوات مونتجمري قد ازدادت اربع مرات ، وأصبح لديه ٤٠٠ دبابة و٥٠٠ مدفع مضاد للدبابات ، وترتب على ذلك ضياع التفوق الذي كان يتمتع به رومل حتى ذلك الوقت . ولم يستطع الهجوم متابعة التقدم ، وفقد الالمان بعد الظهر ٥٠ دبابة واثر ذلك عليهم بشكل جدي في المرحلة التالية للمعركة . وسقط رومل مريضا فاستدعي الى اوروبا .

وفي ١٧ مارس (آذار) رد الحلفاء بهجوم قام به الفيلق الثاني الامريكي بقيادة الجنرال باتون في اتجاه خط انسحاب الفيلق الافريقي الالماني نحو تونس . وكان من اهداف هذا الهجوم تخفيف الضغط عن جبهة تونس ، ولكن التقدم كان بطيئا وحذرا ثم توقف امام الممرات الجبلية التي تغطي الحدود . وشجع هذا التوقف الالمان على القيام بهجوم جديد فشل في اختراق الدفاع الامريكي . وفقد

الالمان ٤٠ دبابة فضعفت قوتهم الهجومية وازداد تفوق الحلفاء في الدبابات مما اضعف مقاومة الالمان الدفاعية امام تقدم مونتجمري .

واعتمد الحلفاء في انتزاع النصر على هجمات الالمان المستمرة اكثر من اعتمادهم على هجماتهم . واصبح من الممكن قلب الموقف عندما انهكت قوى الالمان كثيرا بسبب هجماتهم . وكان الالمان قادرين حتى ذلك الوقت على تغيير موقف القتال ولكنهم أسرفوا في استخدام الوسائل المتبقية لديهم في محاولات غير مجدية .

بدأ هجوم الجيش الثامن على خط ماريت في ليلة ٢٠ مارس (آذار) . وكان محور الجهد الرئيسي يهدف الى اختراق الدفاع الالماني قرب البحر بحيث تتغلغل الفرق المدرعة داخل الثغرة ، على ان يقوم الفيلق النيوزيلندي في نفس الوقت بحركة تطويق واسعة في اتجاه مدينة الحمة على مؤخرات العدو لتهديد قواته الاحتياطية المتمركزة في هذا القطاع . ولم ينجح الهجوم الجبهي في اختراق خطوط الالمان . وبعد قتال دام ثلاثة ايام غيَّر مونتجمري خطته ودفع الفرقة الاولى المدرعة مع النيوزيلنديين نحو مؤخرات العدو ، ولكن الدبابات قامت بهجومها في واد تدافع عنه قوات المانية لديها مدافع مضادة للدبابات ومتمركزة على السفوح ، وكادت العملية ان تنقلب الى كارثة لولا قيام عاصفة رملية انقذت الموقف . وهكذا صد الالمان الهجمات البريطانية في الحمة ثم اضطروا الى اخلاء خط ماريت بعد تهديد مواصلاتهم ولكنهم احتفظوا بالباب مفتوحا لينسحبوا منه دون خسائر جديدة .

ثم توقف الالمان على بعد عشرة أميال تقريبا وراء الحمة على وادي العكاريت الذي يشكل موضعا جبهيا ضيقا بين الهضاب ووادي قابس واندفع الامريكيون المهاجمون في اتجاه الجنوب وحاولوا مباشرة تدمير العدو على هذا الموضع والوصول الى ظهره ما دامت جبهته مثبتة مع الجيش الثامن ، ولكنهم صدوا ولم يستطيعوا اجتياز المنطقة الجبلية . وفي الساعات الاولى من يوم ٦ ابريل (نيسان) هاجم الجيش الثامن وادي العكاريت تحت ستار الظلام . وسمح له التكتيك الليلي الجديد باختراق دفاع العدو ؛ غير انه فشل في استثمار النصر عند طلوع النهار . واشتبكت فرقتان من الفرق الالمانية المدرعة الثلاث مع الامريكيين ، ولكن الالمان لم تكن لديهم القدرة على الاستمرار في المقاومة ، وفي الليل التالي توقف الالمان عن القتال وانسحبوا بسرعة على الطريق الساحلي نحو مدينة تونس .

وحاول الفيلق التاسع للحلفاء من جديد قطع طريق انسحابهم بخرق ممر الفندق في ٨ ابريل (نيسان) والوصول الى البحر على مؤخرات الالمان . وفشلت المشاة في شق الطريق امام المدرعات مما دعا الى استخدام الدبابات في اليوم التالي بهجوم جريء غالي الثمن عبر حقول الالغام . ولكن هذا الاختراق الذي جاء متأخرا لخطوط الالمان لم يؤد الى تطويقهم خلال انسحابهم على طول الشاطىء . وبعد عدة ايام اتصل الجيشان الالمانيان وأصبحا قادرين على القيام بمقاومة

موحدة على قوس الجبال التي تغطي مدينة تونس . وكانا قادرين فعلا على الاستمرار في المقاومة او استخدام المناورة والانسحاب بسرعة لاجلاء قواتهم الى صقلية .

يعتبر انسحاب جيش رومل في افريقيا من العلمين الى تونس مسافة الفي ميل تقريبا اعظم عمل من نوعه في التاريخ العسكري . ويذكرنا هذا الانسحاب بانسحاب مشابه حدث شتاءً وتعرض لاخطار مشابهة ، ولكنه كان أقل طولا واكثر صعوبة وهو انسحاب مجموعة جيوش كليست من قلب القوقاز حتى ممر روستوف اثناء تعرضها لتهديد دائم بهجوم جانبي تقوم به الجيوش الروسية المتقدمة من نهر الدون .

يدل هذان المثالان على الامكانيات الكبيرة للدفاع الحديث المطبق جيدا ، كما تدل عمليات الهجوم على المؤخرات على ان النجاح في الهجوم يتطلب اشياء كثيرة اخرى غير الهجوم الجغرافي غير المباشر . لقد نجح في كلا الحالتين جزء من قوات المهاجمين في ضرب مؤخرات الجيوش المتراجعة ولكنه لم يستطع اغلاق الشبكة تماما ، وكان خط الخطر دائما طبيعيا ومتوقعا لدرجة ساعدت المدافعين على استخدام وسائطهم لتحاشي هذا الخطر . ولتأمين النجاح التام يجب استخدام الهجوم المعنوي غير المباشر بالاشتراك مع الهجوم الجغرافي بقصد تحطيم توازن العدو وخلق الظروف الملائمة لتحقيق النصر الحاسم .

ان سرعة انسحاب رومل ابتداء من وادي العكاريت ونجاحه في احباط هجمات الحلفاء اعطت القيادة العامة الالمانية فرصة كافية لاجلاء جيوشها نحو صقلية لو انها حصلت على موافقة بذلك . وكان على الحلفاء ان يتوقفوا ١٥ يوما قبل البدء بهجوم جدي جديد ضد القوس الدفاعي للعدو من انفيدافيل جنوبي مدينة تونس الى راس سيرت غربي ميناء بنزرت . كما ان الضباب ساعد على اخفاء عمليات الاخلاء والنقل ، وكانت معظم الجيوش الالمانية في تونس قادرة على الانسحاب بطريق البحر او الجو .

وفضلت القيادة العامة الالمانية القيام بمحاولة لاطالة أمد الحرب في شمال افريقيا بدلا من سحب القوات الى قواعدها على سواحل اوربا الجنوبية . وقد انشأت في تونس جبهة اكبر من امكانيات وسائطها (طولها ١٠٠ ميل) رغبة في تغطية مدينتي تونس وبنزرت في وقت واحد ، فأتاحت بذلك للحلفاء فرصة ذهبية لاستثمار مزايا الاختيار بين هدفين متناوبين .

وبدأ الهجوم في ١٠ ابريل (نيسان) عندما هاجم الجيش الثامن جناح العدو الايسر ثم تعثر تقدمه في الممر الساحلي الضيق بعد مدينة أمفيدافيل حتى اضطر الى التوقف في ٢٣ ابريل . وفي ٢١ ابريل تقدم الفيلق الخامس منطلقا من المركز الايسر عبر الهضاب المؤدية الى تونس . وفي اليوم التالي زحف الفيلق التاسع منطلقا من المركز الايمن قرب جبيلات ليستثمر الاختراق الذي قامت به المدرعات ، ولكنه لم يتمكن من تدمير دفاع العدو بل اكتفى باضعاف قوة وحداته

المدرعة . ثم تم التوقف مدة ١٥ يوما في معظم اجزاء الجبهة بينما استمر الامريكيون مع الفياق الفرنسي في الشمال في التوغل في خطوط العدو حتى وصلوا الى بعد ٢٠ ميلا من بنزرت .

وفي هذا الوقت عدل الكسندر تنظيم قواته ، فترك ستارة من الوحدات في المركز الايمن قرب جبيلات ، ووجه معظم الفيلق التاسع نحو المركز الايسر وجمعه خلف الفيلق الخامس ودعمه بفرقتين مختارتين من الجيش الثامن ، وهما الفرقة السابعة المدرعة والفرقة الهندية الرابعة . وقام بخدعة لاخفاء تحركات قواته وايهام العدو بأن الهجوم الجديد متجه الى الجنوب الامر الذي دفع آرنيم الى الاحتفاظ بقوات كبيرة في الجنوب . ولم يكن امام آرنيم بعد بدء الهجوم فرصة لكشف الحيلة وتبديل تشكيلته نظرا لسيطرة الحلفاء الجوية القادرة على شل جميع حركات الوحدات وقوافل النقل على الطرق .

انطلق هجوم الفيلق التاسع بقيادة الجنرال هورروكس بشكل كثيف وعنيف في الساعات الاولى من يوم ٦ مايو (مايس) في ليلة مظلمة ، وسبق هذا الهجوم ورافقه تمهيد كثيف بنيران المدفعية ، واستخدم ٦٠٠ مدفع في ضرب جبهة لا يزيد عرضها عن ميلين في وادي مجيردة المؤدي الى مدينة تونس . ثم تابع الطيران نشاطه بعد الفجر والقى كمية هائلة من القنابل ، وشل بذلك قوة المدافعين الذين اجتاحتهم مشاة الفرقة الهندية الرابعة والفرقة البريطانية . وكانت المواقع الدفاعية طويلة وضعيفة وليس لها عمق كاف ، وانطلقت دبابات الفرقتين المدرعتين السادسة والسابعة من خلال الثغرة التي فتحتها ، ولكنها اضاعت بعض الوقت لتطهير الجيوب التي صمد فيها الالمان فلم تتقدم حتى المساء سوى بضعة اميال وراء الثغرة واصبحت على مسافة ١٥ ميلا من تونس .

وفي صبيحة اليوم التالي كان الجيش الالماني قد اصيب بالشلل بسبب المفاجأة الاستراتيجية وصدمة الطيران ، واصبح عاجزا عن الرد بأية حركة مضادة تكتيكية . وتسربت عناصر المقدمة للفرق المدرعة البريطانية بعد الظهر داخل مدينة تونس وتوجهت الفرقة السادسة نحو الجنوب بينما تقدمت الفرقة السابعة نحو الشمال لزيادة تأثير التفتيت في قوات العدو . وفي ذلك الوقت دخل الامريكيون والفرنسيون بنزرت وانهارت مقاومة العدو في الجزء الشمالي من الجبهة .

وكان العدو في الجنوب قادرا حتى ذلك الحين على الانسحاب الى شبه جزيرة راس بونة والمقاومة هناك طويلا . ثم ضاعت هذه الفرصة بسبب سرعة وصول الفرقة السادسة المدرعة الى مؤخرات العدو وعزل شبه الجزيرة . وهكذا تم الانهيار واستسلم حوالي ٢٥٠ الف رجل من قوات المحور .

كانت قيادة العدو قد فقدت توازنها وتعطل جهازها القتالي بسبب توافق العمليات الجوية مع هجمات المدرعات على المؤخرات ، وكان انهيار القيادة اول سبب من اسباب الكارثة ، وادى قطع المواصلات الى زيادة التأثيرات المعنوية الناجمة عن نقص الاحتياطات وفقدان التموين .

وتدخل عامل آخر وزاد من تاثير الصدمة وهو قرب القواعد الالمانية من الجبهة ، ووصول المهاجمين بسرعة اليها ، مما حطم المعنويات ، وشل عمل الجهاز الاداري ، وانتشر الهلع وزاد من حدته سيطرة الطيران والاسطول على مواصلات الالمان البحرية . ونلاحظ ان مخطط الكسندر اعتمد على تثبيت العدو ومهاجمته من الجبهة مع القيام بمناورة على احدى مجنباته . ولم تكن هذه المناورة حاسمة ولكنها هيأت الظروف الملائمة لضربة حاسمة اذ اجبرت العدو على توسيع نطاق جبهته لصد الخطر مما سبب ظهور نقطة اتصال ضعيفة في تشكيلته وكانت هذه النقطة هدف الضربة الحاسمة .

ورغم ان هجوم الكسندر صادف بعض العراقيل بسبب عدم وجود جناح مكشوف للعدو فقد امكن تحقيق النصر بتطوير المخطط وتأمين توافق المرونة مع المهارة . لقد جذب كما راينا وسائط العدو وانتباهه في بادىء الامر الى جناحهم الايسر ثم ضغطهم بقوة من الجناح الايمن والمركز الايمن ثم قام بجهده الرئيسي على المركز الايسر . ولما حاول الالمان صد هذا الهجوم استفاد من هذه المحاولة وتظاهر بتركيز جهوده كلها على جناحهم الايسر وقام بالضربة الحقيقية على المركز الايمن الذي كان الالمان يعتقدون ان مراكزهم فيه قوية ، وأتاح استخدام مختلف وسائل المشاغلة لالكسندر الفرصة لتجميع قواته في النهاية وتكتيلها على افضل وجه، كما انه استغل جميع الامكانيات التي اتيحت له من وجود الاهداف المتناوبة.

الفصل الثامن عشر

سقوط هتلر

فقد الالمان بعد كارثة ستالينغراد والانسحاب من القوقاز كل امل في احراز نصر حاسم على الروس . ودلت التجربة في عامي ١٩٤١ و١٩٤٢ على ان هناك حدودا لا يمكن تجاوزها عند تنفيذ استراتيجية هجومية في مساحات غير محدودة . وقد بدات قوى المانيا تتناقص ابتداء من عام ١٩٤٣ بينما كانت القوات الروسية في ازدياد مستمر . وبينما كان ميزان القوى يشير الى احتمال فشل اي هجوم الماني استراتيجي ، فقد كانت النسبة ايضا بين امكانياتهم والارض التي يحتلونها تجعل من المتعذر عليهم القيام بدفاع ثابت متين . وكان على الالمان اذا ارادوا الدفاع في مثل هذه الظروف التخلي عن قسم كبير من الاراضي المحتلة بقصد تنفيذ دفاع مرن يقوم على سلسلة من المناورات التراجعية التي تؤمن الانسحاب قبل مواجهة هجوم العدو . وكان التخلي عن الارض من مستلزمات الاستراتيجية الدفاعية ـ الهجومية التي تهدف الى خلق الظروف الملائمة لصد هجمات العدو بنجاح .

ومنذ عام ١٩٤٣ كانت هناك اسباب هامة تدعو الى استخدام الدفاع المتحرك امام هجمات الروس الراغبين بتحرير بلادهم .

وقد اجمع كافة الاستراتيجيين الالمان على ان استخدام مخطط دفاع مرن

امر ملائم لانهاك قوى روسيا وتحطيم ارادتها القتالية ، لما يتيحه من فرص ملائمة للقيام بهجمات معاكسة تستطيع تغيير الموقف .

ولكن تشبع هتلر بالروح الهجومية جعله يصم اذنيه عن سماع مثل هذه الآراء . لقد كان مؤمنا بأن الهجوم خير وسيلة للدفاع ، وان المقاومة الصلبة دون التفكير في التراجع احسن وسائل الدفاع بعد الهجوم . وهذا ما دفعه الى رفض فكرة مستشاريه الذين اقترحوا عليه الانسحاب نحو خط الدنيبر نظرا لقلة القوات الاحتياطية الالمانية وخطورة البقاء على الخط الذي تم الوصول اليه في معركة الشتاء . ولقد أصر يومئذ على ضرورة حل المشكلة بالعودة الى الهجوم في صيف عام ١٩٤٣ .

وفي مارس (آذار) قام مانشتاين بعملية غير مباشرة في خاركوف وعرض على هتلر تكرار هذا العمل بشكل مدروس بدقة مع استخدام طعم وفخ . وكانت الجبهة الالمانية في قطاع ميوس بين نهر الدونيتز وبحر آزوف تشكل بروزا متقدما جدا في الخطوط الروسية بشكل قد يدفع الروس الى مهاجمته في الربيع التالي. واقترح مانشتاين تقليل الوسائل المعدة للدفاع عن هذا البروز وسحبها امام التقدم الروسي وإعدادها للقيام بهجوم مضاد بجميع الوسائل المتوفرة ، على ان يتم هذا الهجوم المضاد في منطقة كييف على مجنبة العدو الشمالية بقصد الالتفاف حول الجبهة الروسية بأكملها وتطويق جيوشها .

ووجد هتلر في هذا المخطط جراة زائدة ، ولم يقبل ترك حوض الدونيتز وموارده الصناعية والمعدنية . واختار حلا جديدا يهدف الى جذب الروس وتحطيمهم قبل ان يقوموا بهجوم الربيع . وكانت الخطة تتضمن طردهم من الجيب الكبير الداخل في الجبهة الالمانية حول كورسك بين بيليجورد وأوريل ، وكان على الجيش الرابع المدرع من مجموعة جيوش الجنوب التي يقودها مانشتاين وهي التي كانت تسمى في الماضي مجموعة جيوش الدون ان يشكل فك الكماشة الايمن على ان يشكل الجيش التاسع من مجموعة جيوش «المركز» بقيادة كلوغ الفك الايسر . وقد أصر مانشتاين على الشروع في العمل اذا تم اقرار هذا المخطط في بداية شهر مايو (ايار) عندما يبدأ فصل الربيع بالجفاف ، وقبل ان يتمكن الروس من جمع قواتهم . ولكن الهجوم تأخر حتى ٥ يوليو (تموز) . وهذا مثال واضح على التناقض بين عاملي الزمن والامكانيات ، وتعتبر نتيجته درسا يدلنا على ان زيادة الوسائل قد تكون اقل فعالية في بعض الحالات من تقصير المدة وخاصة عندما تكون هناك ضرورة لعامل السرعة .

ومرت الايام ، وبدأ هتلر يشك في نجاح هذا المشروع ولكنه لم يكن ليقبل بدلا منه فكرة الانسحاب الاستراتيجي ، ووافق مضطرا على فكرة العودة الى الهجوم التي نادى بها زيتزلر الذي حل محل هالدر ، وكان متحمسا لفكرة البدء في الهجوم قبل بدء الهجوم الروسي .

وهنا أخرت القيادة الروسية هجومها حتى تسمح للهجوم الالماني بالانطلاق ، وطبق الروس على نطاق واسع طريقة الطعم التي ثبت انها مفيدة في المجال

التكتيكي . ولما علموا باستعدادات الالمان واستنتجوا مقاصدهم جهزوا البروز الكبير ووضعوا حوله الالغام بعمق كبير ، وسحبوا معظم قواتهم وراء هذه الدفاعات . وهكذا فشل الهجوم الالماني في جذب الروس الى الشبكة ووقع هو نفسه فيها . ولم يحرز فك الكماشة الالماني الايمن الا تقدما بسيطا ولكنه استطاع اختراق الموقعين الاماميين للعدو وسحق وحدة مدرعة روسية كبيرة في هذا القطاع . بينما صُد الفك الايسر منذ البداية . وقد اخرجت هذه الجهود الضائعة الالمان من مواقعهم الدفاعية ووضعتهم في مركز اكثر حرجا مما كانوا فيه ، وعرضتهم للصدمة الروسية المضادة القوية . وتحطمت الجبهة الالمانية شمال اوريل واصبح الموقف حرجا مؤقتا . وتلقى مانشتاين امرا بوقف هجومه وارسال بعض فرقه المدرعة لنجدة كلوغ مما اعطى الفرصة للروس لكي يخترقوا جبهته الضعيفة .

واستطاع الالمان رغم كل شيء التماسك في الوقت الملائم ووقف المطاردة الروسية . ولكن الروس تابعوا الضغط ، واصبح مخطط عملياتهم سلسلة من الهجمات المتناوبة على مواضع مختلفة على ان يوقف الجهد عندما تتزايد قوى الدفاع ويقل اندفاع الهجوم ، وبحيث يفتح كل جهد الطريق للجهد الذي يليه مع بقاء جميع الجهود متقاربة في الزمان والمكان لتدعم بعضها بعضا . ودفع هذا العمل القيادة الالمانية الى زج قواتها الاحتياطية الضعيفة في القطاعات المهاجمة دونما فاعلية .

وهذه في الحقيقة هي الطريقة المثلى التي يستطيع ان يطبقها جيش حين يملك التفوق العام في الامكانيات . وتعطي هذه الطريقة نتائج افضل عندما لا تكون المواصلات العرضانية حرة بشكل كان يسمح للمهاجم باستثمار اي نجاح محلي بنقل احتياطاته من مكان الى آخر بسرعة . ان تكاليف الاختراق بالطريقة «الواسعة» اكبر من تكاليف الاختراق بالطريقة «العميقة» ، ونتائج الطريقة الاولى اقل حسما وسرعة من الثانية ، ولكن الطريقة الاولى يمكن ان تحقق نتائج كبيرة الاثر اذا كانت امكانيات المهاجم تسمح له بمتابعة هجومه .

وفي شهر سبتمبر (ايلول) ١٩٤٣ وصل التقدم الروسي الى نهر الدنيبر في عدة نقاط ، وعلى جزء كبير من النهر يمتد من منعطفه الكبير حتى كييف . وسحب الالمان راس الجسر الذي حافظوا عليه في منطقة كوبان في الطرف الغربي من القوقاز ، وسحبوا وحداتهم عبر القرم ليدعموا ، بعد فوات الاوان ، القطاع الجنوبي من جبهتهم الرئيسية بين منعطف الدنيبر والبحر الاسود . ولكن الروس اخترقوا هذه الجبهة قبل وصول النجدات الالمانية ، ووصلوا الى المجرى السفلي لنهر الدنيبر وعزلوا بذلك منطقة القرم . وفي شهر أكتوبر (تشرين اول) نجح الروس في عبور نهر الدنيبر شمالي المنعطف واندفعوا بأعداد كبيرة في خطوط الالمان داخل البروز . ونجح الالمان مع ذلك في تلافي الكارثة ، ولكن موقفهم اهتز بشدة ، وهنا أصر هتلر على التمسك بالقطاع الجنوبي من بروز

الدنيبير وذلك للاحتفاظ بالمناطق الفنية بالمنغنيز واللازمة للصناعة الحربية . ودفع الالمان ثمنا غاليا للمحافظة على موارد المنغنيز ، حيث ان على المدافع الضعيف ان يستخدم الدفاع المتحرك القادر على مقاومة مناورات المهاجم الكبيرة .

وفي بداية شهر اكتوبر (تشرين اول) احتل الروس راسي جسرين جديدين على نهر الدنيبير ، الاول شمالي كييف والثاني جنوبها . واتسع راس الجسر الاول باستمرار حتى اصبح قاعدة انطلاق عريضة لهجوم بدأ بعد شهر وأدى الى احتلال كييف . واستغل الروس النصر بسرعة في اتجاه الغرب ، وفي حوالي اسبوع وصل الجنرال الروسي فاتوتين الى ٨٠ ميلا وراء الدنيبير .

وحاول مانشتاين اصلاح هذا الموقف الخطير رغم عدم توافر القوات الاحتياطية لديه . فقام بانسحاب سريع ، ثم قام بهجوم مضاد على مجنبة الروس . وقاد هذا الهجوم الجنرال مانتوفل وهو شاب جريء جم النشاط ، وكان تحت تصرفه كافة المدرعات المبعثرة المتوفرة . وكانت القوات المهاجمة ضعيفة نسبيا ولكن هجومها حقق نتائج طيبة لانه كان هجوما غير مباشر ، ولأن خطوط القوات الروسية كانت ممتدة بشكل كبير ، وحاول مانشتاين عندئذ استغلال الفرصة والقيام بهجوم مضاد كبير بواسطة النجدات القادمة من الغرب ؛ ولكن عامل الزمن أحبط خططه ، ووجد الجنرال الروسي فاتوتين في الفترة ما بين الهجومين وقتا كافيا لاستعادة توازنه . وهددت صدمة مانشتاين الروس من المجنبة واجبرتهم على الانسحاب وإخلاء جزء كبير من الارض التي استعادوها غربي الدنيبير ، ولكنها لم تكن خطرة كما بدت عند انطلاقها . وفي بداية ديسمبر (كانون اول) بدأت القوات الالمانية تتعثر في الوحل واصبح مانشتاين بعد أن استخدم كل القوات الاحتياطية التي جاءته من الغرب عاجزا عن صد المناورات الروسية التالية ، ورفض هتلر فكرة الانسحاب على مستوى كبير .

وفي ليلة عيد الميلاد قام الجنرال الروسي فاتوتين بهجوم من جيب كييف الكبير حيث كان محصورا ، وفي ٤ يناير (كانون ثاني) اجتاز الحدود البولونية وتقدم حتى وصل الى نهر بوغ وهدد بذلك السكة الحديدية الرئيسية الممتدة من فارسوفيا الى اوديسا . وهنا غامر مانشتاين بهجوم مضاد جديد ولكن فاتوتين صدّه ، واستفاد الروس من اصرار هتلر على التمسك بخط الدنيبير جنوبي كييف ، وقام فاتوتين بالتعاون مع كونييف الذي يعمل على الجناح الآخر بعملية كماشة على جيب كورسون ادت الى أسر ١٠ فرق المانية .

فتحت هذه الصدمة ثغرة في الجبهة الالمانية وسهلت عمليات التقدم الروسية التالية . واستخدمت الجيوش الروسية الاخرى في أوكرانيا طريقة الضربات المتناوبة . واضطر الالمان الى اخلاء لوك وروفنو كما تركوا جيب نيكوبول وموارد المنغنيز .

وفي ٤ مارس (آذار) قام الجيش الاحمر بمناورة مشتركة بقيادة الماريشال جوكوف الذي حل محل فاتوتين بعد مرضه ، فقام بهجوم من شيبيتوفكا وتقدم ٣٠ ميلا خلال اليوم الاول ووصل الى سكة حديد أوديسا – فارسوفيا بعد

يومين . وطوقت هذه الحركة خط بوغ الدفاعي . وتقدم مالينوفسكي ووصل الى نيكولايف وبين هذين الاسفينين قام كونييف بهجوم ووصل الى نهر بوغ في ١٢ مارس (آذار) كما وصل الى نهر الدنييستر في ١٨ مارس ثم عبره في اليوم التالي . ان السرعة التي تمت بها هذه العمليات تستحق الدراسة والملاحظة لانها ادخلت شكلا جديدا لعمليات الاختراق في تاريخ الحرب . ثم تابع جوكوف تقدمه من منطقة تيرنوبول نحو مخارج جبال الكارابات .

وحتى يتمكن الالمان من صد هذا الخطر مباشرة اسرعوا باحتلال المجر ، وكان هذا اجراء ضروريا للاحتفاظ بسلسلة جبال الكارابات . وكان عليهم الاحتفاظ بهذا الحاجز لصد الاجتياح الروسي عن سهول اوربا الوسطى ، فضلا عن انه يعتبر نقطة ارتكاز للدفاع عن البلقان .

كانت جبال الكارابات تشكل مع جبال ترانسلفانيا الممتدة الى الجنوب خطا دفاعيا طبيعيا كبير الاهمية ، وكان الدفاع عنها يتطلب قوات قليلة جدا نظرا لان الممرات فيها محدودة وهذا ما يحقق مبدأ الاقتصاد في القوى . هذا ويبلغ عرض المنطقة بين البحر الاسود والجبال الواقعة قرب فوكساني ١٢٠ ميلا يحتل نصفها الشرقي دلتا الدانوب وسلسلة من البحيرات اما النصف الغربي الذي يضم فجوة غالاتسي ، وعرضه ٦٠ ميلا ، فقد كان مكمن الخطر .

وفي بداية ابريل (نيسان) اظهر الالمان رغبة في الانسحاب الى هذا الخط الخلفي . وعبرت جيوش كونييف نهر بروت ودخلت رومانيا بينما طرد الالمان في الجنوب خارج اوديسا . واستعاد الروس شبه جزيرة القرم بمناورتين متلاقيتين وتم اجتياح الجيوش الالمانية التي كانت فيها . واستطاع الالمان مع ذلك صد هجمات الروس وراء نهر بروت ومنعها من التوغل بعمق رومانيا ، فقطعوا بذلك منابع البترول الرومانية عن الروس. ولكن هذا النجاح المؤقت كان سبب انهيارهم بعد شهور قليلة لانه دفع هتلر الى ابقاء جيوشه في وضع غير مأمون لانها كانت مهددة بشكل كبير شرقي الجبال وشرقي فجوة غالاتسي .

ونجح الالمان في الشمال في عرقلة تقدم جوكوف الذي كان يحاول اختراق ممرات الكارابات في الجنوب الغربي من تيرنوبول . ولكن جهودهم تضاءلت وتراخت بعد ذلك .

وقام الروس في اقصى الشمال قرب البلطيق بهجوم في منتصف يناير (كانون ثاني) فحرروا لينينغراد من حصار الالمان ثم استثمروا النصر نحو الغرب. واستطاع الالمان الانسحاب بانتظام الى خط اقصر يبدأ من نارفا وينتهي بعد بسكوف بطول لا يزيد عن ١٢٠ ميلا تحتل ٩٠ منه بحيرتان كبيرتان بين بسكوف ومستنقعات البريبيت . وكانت جبهة الالمان مستندة الى نقطتين رئيسيتين هما مدينتا فيتسبك وأورشا . واقترب الروس منهما في نهاية سبتمبر (ايلول) ولكن المواقع الدفاعية الالمانية اثبتت قدرتها على صد الهجمات المباشرة ومناورات التطويق وبقيت حاجزا منيعا امام الروس خلال ٩ شهور حتى يوليو (تموز)

عام ١٩٤٤ ١٠.
وفي نهاية ابريل (نيسان) كانت الجبهة الروسية مثبتة مؤقتا . وكان الجيش الاحمر قد استعاد مناطق واسعة من الارض وخاصة في الجنوب ولكن دون ان يتمكن من ايقاع الالمان في فخ كبير . واستطاع الالمان تلافي الخطر والتخلص من مناورات الكماشة التي دبرها الروس وتجنب الكارثة رغم اقترابهم منها . ولم يكن عدد اسرى الالمان كبيرا بالنسبة للتقدم الروسي . ولكن التناقص المستمر في تعداد الجيوش الالمانية كانت له نتائج اكثر خطورة . واظهر هتلر تهوره وعدم ادراكه لحقيقة الموقف عندما عزل مانشتاين من قيادته . واثبت بذلك تمسكه بالفكرة الخاطئة التي تقول ان الدفاع دون فكرة تراجع خير من المناورة الماهرة.
وازدادت أعباء الالمان بعد غزو القوات الانكلو ــ امريكية لجنوب اوربا ، حيث اعقب احتلال صقلية استسلام ايطاليا في بداية سبتمبر (ايلول) ١٩٤٣ . وخلق انهيار الحليف الايطالي فراغا في الجدار الجنوبي للحصن الاوربي ، ولم يكن هذا الفراغ هاما نظرا لان ايطاليا تشكل شبه جزيرة ، ولكنه أرغم المانيا مع ذلك على وضع جزء كبير من امكانياتها لسده ، كما اضطرها الى زيادة جهودها لتأمين التغطية في البلقان .
ومن النتائج الخطيرة التي اعقبت انهيار ايطاليا تعرض المانيا لهجمات جوية كبيرة تقوم بها القاذفات الحليفة على مستوى اكبر خاصة بعد زيادة امكانيات طيران الحلفاء بفضل امدادات الصناعة الامريكية المتفوقة .
كان هدف الهجوم الجوي للحلفاء تدمير القوة الصناعية الالمانية ، ويمكن اعتباره هجوما غير مباشر على مستوى الاستراتيجية العليا . لقد خرب هذا الهجوم في الواقع توازن انتاج وسائل الحرب بصورة عامة . ولو كانت استراتيجية القصف الجوي قد وضعت بدقة اكبر ، واستهدفت بلبلة وعرقلة نظام التموين بدلا من تدمير مناطق واسعة كثيفة السكان ، لأدت الى شل مقاومة الالمان بسرعة اكبر . ولكنها استطاعت مع ذلك ورغم سوء توجيهها تحقيق الشلل الجزئي لالمانيا . وكانت عرقلة المواصلات الالمانية على المستوى العسكري عاملا رئيسيا لانقاص امكانية الالمان الحركية بحيث اصبحوا عاجزين عن مقاومة تقدم الحلفاء .
ويعود الفضل في نجاح غزو الحلفاء لصقلية في شهر يوليو (تموز) الى ان شبكة الحلفاء في تونس امسكت بالالمان بشكل قوي . وترتب على انهيار الموقف في تونس ان فقدت الوحدات الايطالية في صقلية روحها المعنوية ، واهتز نظام موسوليني في ايطاليا من اساسه . وعندما توقع هتلر انهيار ايطاليا او استسلامها خشي ارسال قوات الى الجنوب قد تضيع دون جدوى ، فرفض دعم الايطاليين وتقوية دفاع صقلية .
وكان لدى الحلفاء آنذاك قدرة كبيرة على المشاغلة ولفت النظر نظرا لقوة امكانياتهم البرمائية التي يمكن ان تساعدهم في عمليات انزال الجنود ، ولوجود ميدان عمل استراتيجي واسع النطاق في مناطق الاحتلال الالمانية الواسعة في

جنوب اوربا من جبال البيرنيه الى مقدونيا . وكانوا يتمتعون بميزة استراتيجية هي امكان الاختيار بين اهداف مختلفة متناوبة ، وكان تجمعهم في افريقيا الشمالية يهدد جزيرتي صقلية وسردينيا . وكان محور جهودهم الرئيسي موجها الى شاطىء ايطاليا الغربي ولكنه يستطيع ايضا تهديد المناطق الصناعية في شمال ايطاليا او القواعد الالمانية في جنوب فرنسا . واذا اضطر هذا المحور العبور من البحر الادرياتيكي وجد امامه هدفين هما شمال ايطاليا وغرب البلقان ، واذا ما توجه نحو بحر ايجه هدد في وقت واحد القواعد الالمانية في اليونان ويوغوسلافيا وبلغاريا ورومانيا .

ولقد اثبتت الوقائع والمعلومات بعد ذلك ان تطبيق الحلفاء لهذه الاستراتيجية المحورية مع عمليات الخداع والمشاغلة بلبلت الافكار في القيادة الالمانية ودفعتها الى انتظار الغزو في سردينيا او صقلية او اليونان او ايطاليا او جنوب فرنسا . وجاءت الاستطلاعات الجوية لتقول بوجود سفن للحلفاء في عدة نقاط من البحر الابيض المتوسط مما زاد مخاوف الاعداء وشكوكهم .

وانزل الحلفاء قواتهم في صقلية في ١٠ يوليو (تموز) على شاطىء واسع طوله ٧٠ ميلا ، وكان هدف هذا الهجوم خدع العدو وإثارة شكوكه حول النقطة المهددة بصورة رئيسية ، وعرقلة المناورات المضادة في المرحلة الحرجة . وتقدم الجيش الثامن بسرعة على طول الشاطىء الشرقي ، مما أدى الى هزيمة العدو . وكانت المفاجأة كبيرة وزاد من اهميتها اعتقاد العدو بوقوع الغزو على طرف صقلية الغربي لانه اقرب الى قواعد الحلفاء في شمال افريقيا ولوجود موانىء متعددة في هذا القطاع من الجزيرة . ولكن القيام بالعملية في الزاوية الجنوبية الشرقية للجزيرة خلق الظروف الملائمة لهجوم استراتيجي غير مباشر . وفي أقل من اربعة ايام تقدم مونتجمري مسافة ٤٠ ميلا على طول الشاطىء الشرقي للجزيرة ووجد نفسه في منتصف الطريق المؤدي الى مضيق مسينا .

وحصل الجيش الامريكي السابع بقيادة الجنرال باتون على نتائج مشابهة عندما دعم رأس جسره على يسار قوات مونتجمري واندفع بكل ثقله فجأة نحو الغرب ثم استدار نحو الشمال في اتجاه باليرمو . وتم تفتيت المقاومة المعادية وانهيارها بفضل مناورات الحلفاء التي كانت تهدد باليرمو ومسينا في وقت واحد.

وقد ادى هذا الانهيار الى زيادة اعباء القوات الالمانية في صقلية والمؤلفة من ثلاثة فرق . لقد كان عليها ان تصد غزوا بسبع فرق ثم ازداد عددها حتى اصبح ١٢ فرقة . ومع ذلك استطاعت هذه القوات المدافعة دون دعم جوي تأخير احتلال الحلفاء لجزيرة صقلية اكثر من شهر . ثم اجتازت مضيق مسينا تحت حماية المدافع المضادة للطائرات واستطاعت العودة الى ايطاليا .

ويمكن تفسير هذه المقاومة بعناد المقاتلين الالمان وصعوبة الاراضي ولأن تقدم الحلفاء كان مباشرا بحتا .

وبعد سقوط باليرمو وتطهير غرب صقلية اتجه جيش الجنرال باتون نحو

الشرق ليلتقي مع هجوم مونتجمري على مسينا . واستطاع العدو استغلال الطرف الشمالي الشرقي للجزيرة الذي يشكل مثلثا جبليا بأن استخدم طبيعة الارض الصعبة التي تزيد من قوة المدافعين ، وانسحب نحو ذروة المثلث لينقص بذلك طول جبهته ، فازدادت بذلك كثافة وسائطه الدفاعية مع كل مرحلة من مراحل انسحابه . هذا بينما كانت الجيوش الحليفة تصادف كثيرا من الصعوبات عندما تحاول زج امكانياتها المتفوقة في المعركة .

غزو ايطاليا :

انشأ الحلفاء باحتلال صقلية رأس جسر في اوربا يسهّل انطلاقهم ويسمح لهم بالقيام بضربات قرب القارة الاوربية . لقد كان لديهم حرية اختيار مكان العمل اذ كان بمقدورهم تهديد الطرف الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة الايطالية مباشرة علاوة على قدرتهم على القفز في اتجاه سردينيا او ساحل ايطاليا الغربي او طرفها الجنوبي الشرقي . وكان الهدف الاخير خارج حدود امكانيات الطيران الذي كان ينبغي ان يدعم الهجوم . ولم يكن العدو يتوقع هذا الهجوم لان عمليات الحلفاء كانت حتى ذلك الوقت محدودة بحدود امكانيات الدعم الجوي . ومخالفة هذه القاعدة تعني مفاجأة العدو ، كما ان طريق التقدم من ذلك المكان بعد انزال القوات كان مفتوحا امام الوحدات الميكانيكية ويشكل تهديدا للبلقان وايطاليا الوسطى في وقت واحد ، الامر الذي يضع القيادة الالمانية العليا امام معضلة صعبة الحل . وهكذا يمكن اعتبار الطرف الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة الايطالية بمثابة «عقب أخيل» بالنسبة لالمانيا .

وقررت قيادة الحلفاء آنذاك القيام بالجهد الرئيسي ضمن حدود الدعم الجوي، ثم قررت في اللحظة الاخيرة القيام بإنزال ثانوي للجنود على الطرف الجنوبي الشرقي . وكان الجهد الرئيسي عبارة عن عملية انزال على الشاطىء الغربي يقوم بها الجيش الثامن ، بالاضافة الى انزال اهم في سالرنو جنوبي نابولي يقوم به الجيش الخامس الانكلو ــ امريكي المشكل حديثا لهذه الغاية بقيادة الجنرال مالك كلارك .

وقد فشلت هذه الخطط لانها كانت مباشرة من الناحية الاستراتيجية ، ولأن المسؤولين فيدول الحلفاء طالبوا باستسلام ايطاليا دون قيد او شرط ، الامر الذي اخاف القادة الايطاليين وجعلهم يترددون مدة من الزمن . فكسب الالمان بذلك شهرا استعدوا به .

عبر الحلفاء ممر مسينا في ٩ سبتمبر (ايلول) وسبق النزول على الشاطىء الغربي لساحل ايطاليا قصف هائل بالقنابل كان عديم الجدوى لان الفرقة الالمانية الوحيدة في تلك المنطقة تحركت نحو الشمال قبل القصف بعدة ايام . وعندما تقدمت الجيوش التي أنزلت من السفن لم تجد امامها سوى مقاومة ضعيفة ، ومع

ذلك كان تقدمها بطيئا بسبب الحذر الشديد وطبيعة الارض الوعرة ، ولم تقدم هذه العملية سوى مساعدة محدودة للعمليات الرئيسية الخاصة بانزال الجنود في سالرنو يوم ٩ سبتمبر (ايلول) . وكان اعلان استسلام ايطاليا مقررا بعد ظهر اليوم نفسه . ولم تؤثر هذه العملية على الوحدات الالمانية الموجودة هناك والتي قامت بهجمات مضادة جعلت موقف الحلفاء حرجا خلال ستة ايام . وكان الالمان قادرين على تحديد المواقع التي سيتم بها الانزال بناء على حدود التغطية الجوية الممكنة لذا رابطوا بين سالرنو ونابولي .

وقد اظهرت تكهنات الالمان في هذا المجال كيف انهم عملوا حسابا دقيقا لخطط الحلفاء المحتملة ، واظهرت الحوادث ان انتهاج طريق ليست فيه مفاجأة يؤدي الى نتائج محدودة . وهكذا تعرض الحلفاء بسيرهم في القطاع الذي ينتظره العدو الى خسائر فادحة في الرجال ، والى ضياع وقت ثمين حتى انهم كادوا الوقوع في كارثة لم ينجوا منها الا في آخر لحظة . واظهرت سالرنو مرة اخرى اهمية درس التاريخ الذي يقول ان من الخطر القيام بهجوم على نقطة يتوقع العدو منطقيا احتمال الهجوم عليها . وفي هذا الوقت لم يكن لدى القيادة الالمانية التي يرأسها الفيلدمارشال كسيلرينغ سوى ٧ فرق للدفاع عن جنوب ايطاليا وأواسطها وتجريد الجيوش الايطالية الحليفة من سلاحها بسبب استسلام ايطاليا. ولم يصادف انزال قوات الحلفاء الثانوي في الطرف الجنوبي الشرقي لايطاليا اية مقاومة بعكس عملية انزال القوات في سالرنو ؛ وهكذا أمكن بسهولة احتلال ميناءين هامين هما برانديزي وتارنتو . واصبح الطريق مفتوحا للتقدم نحو عقدة السكك الحديدية في فوجيا ، والمطارات المحيطة بها . وكانت القوات الالمانية التي تدافع حينئذ عن المنطقة بين تارنتو وفوجيا عبارة عن فرقة مظلات تعاني أوجه نقص كثيرة .

وكانت القوات التي أنزلت مؤلفة من الفرقة البريطانية الاولى المحمولة جوا التي استخدمت في هذه المهمة مثل المشاة ، وكانت عاجزة عن استثمار النصر لانها بدون دبابات او مدفعية او وسائط نقل آلية تقريبا .

وبعد ١٥ يوما نزل في باري لواء مدرع ، واندفع الى الشمال دون ان يلاقي اية مقاومة واحتل فوجيا . واضطرت الوحدات الالمانية التي تدافع امام الجيش الخامس في الجبال وتحرس طريق نابولي الى الانسحاب عندما اصبح هذا الهجوم غير المباشر يهدد مؤخرة جناحها . وفي اكتوبر (تشرين اول) وبعد الانزال بثلاثة اسابيع دخل الحلفاء نابولي . ولكن الالمان تصرفوا خلال ذلك الوقت بسرعة لم يتوقعها الحلفاء ، فعززوا مواقعهم في القسم الباقي من ايطاليا وشتتوا شمل الوحدات الايطالية وتخلصوا بذلك من معظم نتائج استسلام ايطاليا .

وتقدمت الجيوش الحليفة في ايطاليا كمكبس في اسطوانة غاز يتحرك امام ضغط متزايد باستمرار . وكانت غاية الالمان في بداية الامر عرقلة تقدم الحلفاء نحو روما وانتظارهم في الشمال بعد ذلك ، ولكنهم اضطروا فيما بعد الى ارسال

نجدات نحو الجنوب لمساعدة كسيلرينغ عندما وجدوا ان الحلفاء بداوا يتعثرون في زحفهم بسبب ضيق الجبهة وصعوبة الارض .

وتوقف تقدم الجيش الخامس مدة من الزمن على خط فولتورنو وراء نابولي بـ ٢٠ ميلا ، ثم توقف نهائيا على خط غاريغليانو امام كاسينو . ولم تستطع الهجمات المتعاقبة في نوفمبر وديسمبر (تشرين ثاني وكانون اول) اختراق هذا الحاجز . وفي ذلك الوقت اصطدم الجيش الثامن المتقدم بمحاذاة الشاطىء الشرقي بمقاومة عنيدة على نهر سانغرو ، ثم توقف بعد اجتياز هذا الخط . وهكذا لم يتقدم الحلفاء خلال اربعة شهور سوى ٧٠ ميلا وراء سالرنو ، ولقد تم احتلال معظم هذه الارض في شهر سبتمبر ثم اصبح معدل التقدم بطيئا جدا .

وتدل التجربة الطويلة على ان مثل هذا التكتيك قد ينجح احيانا ، ولكنه في اغلب الاحيان يفشل . وقد اثبت ان الهجوم المباشر على جبهة ضيقة لا يعطي نتيجة ، ولا يكفي تفوق الامكانيات الا اذا كان لدى المهاجم مجال للمناورة على جبهة عريضة نسبيا . ان عرض ايطاليا كله ١٠٠ ميل تقريبا وتحتل معظمه سلاسل جبلية ، لذا نجحت القيادة الالمانية العليا عندما قررت زيادة قواتها في الجنوب وتشكيل دفاع كثيف نسبيا ، وشلت تقدم الحلفاء استراتيجيا عبر الاراضي الايطالية .

وفي بداية عام ١٩٤٤ قام الحلفاء بمناورة برمائية جديدة على الشاطىء في مؤخرة العدو وفي ٢٢ يناير (كانون ثاني) نزلت مفرزة قرب آنزيو على مسافة ٢٥ ميلا جنوبي روما . وكان في هذه المنطقة كتيبتان المانيتان فحسب . وكان اي تقدم سريع داخل البلاد يمكن ان يؤدي الى احتلال المرتفعات التي تسيطر على طريق روما وتهديد روما نفسها ، ولكن هذا التقدم لم يحدث لان خطة الحلفاء كانت تقوم على اساس ان العدو سيرد مباشرة على عمليات انزال القوات ولهذا اهتموا بتقوية راس الجسر قبل كل شيء في الوقت الذي تستفيد فيه القوى الرئيسية في الجنوب من ضعف امكانيات العدو الذي يدافع عن المنطقة . ولكن العدو لم يتصرف بالشكل المتوقع .

وعندما تبين انعدام المقاومة قرب آنزيو اراد الكسندر متابعة التقدم بسرعة نحو الداخل ، ولكن القائد المحلي توقف وتردد بشكل عرقل التقدم مدة اسبوع فوجد الجنرال كسيلرينغ الوقت اللازم ليدفع قواته الاحتياطية نحو هذه المنطقة في الوقت الذي اوقف فيه تقدم قوات الحلفاء الرئيسية في قطاع كاسينو . وفي ٣ فبراير (شباط) اي بعد ان انزل الحلفاء قواتهم بـ ١٣ يوما قام الالمان بهجوم مضاد ضد راس جسر آنزيو . وفشل هذا الهجوم المضاد في طرد الحلفاء ولكنه ضغطهم في مكان ضيق بحيث جعلهم في شبه معسكر اعتقال كبير غير مريح .

ثم بدا هجوم الحلفاء في ايطاليا من جديد في مايو على نطاق واسع . وكان جزءا من مخطط كبير ويشكل عملية اولية «للمخطط الكبير» الذي يهدف الى القيام بهجوم حاسم على المانيا . وبعد شهر بدا غزو فرنسا عبر بحر المانش .

كانت المرحلة الاولى من مخطط الكسندر عبارة عن هجوم جديد من طرفي

كاسينو حيث توقفت الهجمات السابقة . ولتحسين نتائج العملية وسع الجيش الثامن نطاق جبهته ، وزحف بصورة موازية للجبهة بوحدات قطاع الادرياتيكي للقيام بهجوم على القطاع الغربي لخط غوستاف وذلك خلال هجوم الجيش الخامس . وبدأ الهجوم في ١١ مايو (ايار) مستهدفا منافذ الجبال حيث توجد خطوط الالمان الدفاعية الحصينة التي تحمي مداخل وادي ليري .

وحصل الهجوم على خط غوستاف وحقق بعض النجاح في عدة مواضع بين كاسينو والبحر . وتوغل الفيلق الفرنسي بقيادة الجنرال جوان بعمق لانه استخدم الخبراء في قتال الجبال ، كما استخدم طريقا صعبا فحصل بذلك على عنصر المفاجأة . وبعد ان اخترق الحلفاء خطوط العدو بعمق ٦ أميال خلال ثلاثة ايام اضطر العدو الى ترك الدفاع عن خط غوستاف ، مما سهل عمل الجيش الثامن الذي دخل وادي ليري والتف حول كاسينو التي سقطت في يوم ١٨ مايو (ايار) .

وفي ٢٣ مايو (ايار) قامت قوات الحلفاء في آنزيو بهجوم ، منطلقة من رأس الجسر في المكان الذي ضعفت فيه قوات الالمان بعد سحب جزء منها لدعم الجنوب ، وقد وضع الحلفاء خطة مناورة بارعة للاستفادة من هذا الضعف . وفي اليوم الثالث للهجوم تحطم الدفاع الالماني امام ضغط الحلفاء . ولما تم اختراق خطوط الالمان وجد هؤلاء انهم لا يملكون قوات احتياطية تستطيع منع تقدم الحلفاء في اتجاه جبال الآبنين ، وعلى مؤخرة جيوشهم الرئيسية في الجنوب .

وفي نفس الوقت قام الجيش الثامن بهجوم آخر على المواقع الالمانية في وادي ليري . وتمكن الفيلق الكندي من اختراقها في اليوم الاول . وفي اليوم التالي بدأ الالمان انسحابهم من كل مكان . وازدادت سرعة انسحابهم عندما واجهوا الخطر القادم من انزيو ، وقطعت خطوط انسحابهم المباشرة نحو روما عدة ايام فاضطروا الى تغيير اتجاههم نحو الشمال الغربي عبر طرق جبلية صعبة تتعرض القوات المنسحبة عليها لضربات شديدة من جانب طائرات الحلفاء .

وهكذا ضاعت آخر فرصة امام الالمان لتغطية روما رغم نجاح جزء كبير من جيوشهم المهددة في التخلص من حصار الحلفاء . ونقل الجنرال الكسندر معظم قواته الى الجناح الايسر مقابل الجيش الالماني الآخر ، واستطاع الاستيلاء على مونت ألبان ذات الاهمية الاستراتيجية . ودخلت الجيوش الحليفة بعد ذلك بسرعة ضواحي روما ، واحتلت المدينة صباح يوم ٥ يونيو (حزيران) ، بعد تسعة اشهر من استسلام الحكومة الايطالية .

غزو فرنسا :

وفي اليوم التالي لسقوط روما انزل الحلفاء قواتهم في نورماندي ، وكان هذا حدثا من اهم الاحداث في هذه الحرب . وكان القرار الخاص بعبور القنوات

الانكلو ـ امريكية المتمركزة في انكلترة قد تأجل تنفيذه عدة مرات لسوء الاحوال الجوية . ومع ذلك بدات العملية في ظروف جوية غير ملائمة وكانت الرياح شديدة لدرجة تعرض العملية للخطر وتدعو الى التأجيل ، ولكن الجنرال ايزنهاور واجه هذا الخطر ، وكان هذا احد عناصر المفاجاة في العملية .

تم نزول قوات الحلفاء في صبيحة يوم ٦ يونيو (حزيران) في خليج السين بين كان وشيربور . وسبقه انزال قوات كبيرة من الجو على الجناحين في الليل . وتم تحضير الغزو بهجوم جوي استمر بعد ذلك بكثافة لم يسبق لها مثيل ، وخاصة على مواصلات العدو لشل حركة قواته الاحتياطية نحو المناطق الهامة .

ولقد حددت عدة عوامل هذا القطاع ليتم الانزال فيه ، ومع ذلك فوجيء الالمان بالعملية وكانت معظم قواتهم الاحتياطية شرقي نهر السين . وتعود هذه المفاجأة ولا شك الى سوء توزيع قوات الالمان ، واصرار قيادتهم على الاعتقاد بأن الحلفاء سيستخدمون اقصر الطرق عند عبور بحر المانش ، وانهم سيحاولون الاستفادة الى اقصى درجة من التغطية الجوية ، كما فعلوا في غزو ايطاليا . ولكن الحلفاء فاجأوا الالمان بتبديل طريقتهم ، وكان هذا الخطأ في تكهنات الالمان خطأ قاتلا .

كان هتلر قد بحث الاستنتاجات التي استخلصت من احتشاد الجيوش الانكلو ـ امريكية في انكلترة قبل الغزو ، فتوقع في شهر مارس (آذار) ان الحلفاء سينزلون في اقليم نورماندي ، ولم يكن ضباط اركان حربه يشاطرونه رايه ، عدا رومل المسؤول عن الساحل الشمالي . ولكن روندشتيدت القائد العام للجبهة الغربية كان يتوقع نزول الحلفاء بين دييب وكاليه في أضيق مكان من بحر المانش . ولم تكن فكرته هذه مبنية على ميل الحلفاء المعروف لتأمين التغطية الجوية القصوى فحسب بل كانت تعتمد على ان هذا المحور افضل المحاور نظريا للهجوم ، لانه يوصل الى الهدف بأقرب السبل . وهذا حساب نموذجي في الاستراتيجية التقليدية .

وكان لمخطط المهاجمين اهداف اخرى في الواقع غير تحاشي خطوط الالمان الدفاعية القوية . وكان اختيار النورماندي يعني اخذ اتجاه يهدد بصورة متناوبة مينائي الهافر وشربور ، ويضع الالمان حتى آخر لحظة في حالة شك ويمنعهم من تحديد الهدف الحقيقي . ولما أدرك الالمان في النهاية ان شربور هي الهدف الحقيقي كان عليهم اجتياز نهر السين الذي يفصل بين وحداتهم ، ولكنهم لم يستطيعوا تحريك احتياطاتهم نحو النقاط المهددة الا بعد استدارة طويلة . وتدخل طيران الحلفاء باستمرار فجعل مناورتهم بطيئة جدا . ولما وصلت النجدات الالمانية الى ميدان المعركة توجهت الى القطاعات البعيدة عن شيربور وخاصة قطاع كان ، وكانت الوحدات البريطانية في هذا القطاع تشكل خطرا في حد ذاتها ، كما كانت درعا يحمي امتداد العمليات الامريكية في شبه جزيرة كوتانتان . وقد

كان لهذا التهديد المتناوب تأثير حاسم على الغزو باكمله .

وعبر الاسطول الكبير بحر المانش دون ان يتدخل العدو ، وتم احتلال السواحل التي نزلت بها قوات الحلفاء بأسهل مما كان متوقعا ، عدا مكان نزول الجناح الامريكي الايسر شرقي مصب نهر فير . ويعود هذا النجاح الى حسن تنظيم حملة الحلفاء وفاعلية ما تحمله من اسلحة . ومع ذلك بقي الحد الفاصل بين النجاح والفشل صغيرا جدا عندما جرت محاولة زيادة عمق راس الجسر . ولم يستطع المهاجمون احتلال شيربور . وزاد طول الجبهة من فرص نجاح الحلفاء وكان عاملا من عوامل النصر . وقد ادى تركيز الالمان لوسائلهم الدفاعية عند هاتين المدينتين الواقعتين على جناحي مواقعهم الى إضعاف الدفاع في المسافة الفاصلة بينهما . واستطاع الانكليز استثمار انزال قواتهم قرب ارومانش واندفعوا خلال هذه الثغرة الى بايو . وفي نهاية الاسبوع كان الحلفاء قد اقاموا راس جسر عرضه ٤٠ ميلا وعمقه بين ٥ و١٢ ميلا . كما اقاموا راس جسر اصغر على الشاطىء الشرقي لشبه جزيرة كوتانتان . وفي ١٢ يونيو (حزيران) احتل الامريكيون مدينة كارانتان مفتاح المنطقة كما احتلوا راس جسر بعرض ٦٠ ميلا .

واصبح الجنرال مونتجمري القائد العام لجيوش الغزو الذي يعمل تحت قيادة الجنرال ايزنهاور ، قادرا على اعطاء مناوراته الهجومية ابعادا اكبر نطاقا . وفي الاسبوع الثاني تم توسيع راس الجسر على الجناح الغربي ، وعندئذ قام الجيش الامريكي الاول بهجوم على قاعدة شبه جزيرة كوتانتان بينما استمر الجيش البريطاني الثاني في الضغط على كان لامتصاص معظم النجدات الالمانية وخاصة فرقهم المدرعة القادمة لملاقاة الجناح الشرقي للحلفاء . ويمكن اعتبار تهديد الانكليز من الناحية الاستراتيجية هجوما غير مباشر ، وقد ساعد هذا التهديد خطط مونتجمري التي تهدف الى اختراق الجبهة في الطرف الغربي لراس الجسر .

وفي خلال الاسبوع الثالث عزل الامريكيون شربور وزحفوا في شبه الجزيرة نحو الشمال ، ودخلوا الميناء من الخلف في ٢٧ يونيو (حزيران) . ولكن رصيف المرفأ كان مدمرا وغير صالح للاستعمال مؤقتا . وفي ذلك الوقت صدت كافة الهجمات التي قام بها الانكليز حول كان بفضل تكتيك دفاعي جيد يقوم به عدو ماهر جدا على ارض صالحة للدفاع المرن . ولكن خطر وجود الانكليز جذب انظار القيادة الالمانية ومنعها من التصرف بحرية في استخدام قواتها الاحتياطية . وسارع الحلفاء بإنزال كميات كبيرة من العتاد بفضل الموانىء الصناعية . وكان هذا العمل مفاجأة لاعدائهم .

الروس يجتاحون بولونيا :

بدأ الجيش الاحمر معركة الصيف في ٢٣ يونيو (حزيران) بعد هجوم أولي تم على الجبهة الفنلندية . وتقدم الهجوم في روسيا البيضاء شمالي مستنقعات

بريبيت ، وكان هذا القطاع أصعب القطاعات ، ورأى الالمان ضرورة تزويده بقوات اقل من القوات المدافعة عن القطاع المكشوف بين مستنقعات بريبيت وجبال الكارابات حيث يمكن ان يقوم الجيش الاحمر بعملياته الربيعية . واصيب الالمان مرة اخرى بخيبة امل نظرا لوقوع مفاجأة غير منتظرة . واصبح موقفهم اكثر حرجا عندما رفض هتلر الانسحاب ٩٠ ميلا وراء الجبهة ، ولو تم مثل هذا الانسحاب في الوقت الملائم لسقط الهجوم الروسي في الفراغ .

وعندما تم اختراق الجبهة الالمانية ازدادت سرعة تقدم الروس فجأة ، وسقطت فيتيبسك في اليوم الرابع نتيجة لهجومين متلاقيين قامت بهما مجموعتا جيوش باغراميان وتشرنياكوفسكي اللتان اخترقتا جبهة الجيش الالماني المدرع الثالث . وتم بذلك فتح طريق التقدم نحو الجنوب على طريق مينسك ــ موسكو وعلى مؤخرات الجيش الالماني الرابع ، الذي اوقف صدمة الهجوم الروسي على جبهته بان انسحب حتى خط الدنيبير . وفي ذلك الوقت قامت مجموعة جيوش روكوزوفسكي بضربة على المجنبة الثانية للجيب الالماني واخترقتها ، شمالي مستنقعات بريبيت ، وقامت بوثبة عمقها ٢٠ ميلا ، ثم قطعت مواصلات الالمان وراء مدينة مينسك وعزلت المدينة التي سقطت في ٤ يوليو (تموز) .

وادت الضربات غير المباشرة المتعددة الى انهيار الدفاع الالماني ، واخذ الروس عددا من الاسرى الالمان يفوق ما اسروه خلال هجماتهم الماضية . ثم تناقص عدد الاسرى بعد الاسبوع الاول رغم عدم تناقص معدل الزحف . ويدل هذا على مهارة الجنرالات الالمان في انقاذ وحداتهم عندما اضطر هتلر تحت ضغط الاحداث الى قبول فكرة القيام بانسحاب كبير لا مناص منه . وتدل سرعة ومسافة الانسحاب ، والعدد الكبير من المدن الهامة التي تركها الالمان دون مقاومة على مهارة الجنرالات الروس الذين عرفوا كيف يضعفون مقاومة العدو بمجموعة من عمليات الهجوم غير المباشر .

وتدل دراسة سير العمليات كيف كانت عمليات التقدم الروسية تهدد بصورة متناوبة هذه المدينة او تلك ، ثم تتركهما وتخترق الدفاع الضعيف في الثغرة الواقعة بينهما ، وتتوغل بعد ذلك بعمق على مؤخرتهما مما يؤدي الى اخلائهما . ومن الجدير بالذكر ان الزحفين الروسيين الرئيسيين أصيبا بأول فشل هام عندما حاولا التلاقي عند فارسوفيا ثم اينستيربورغ لأن هجومهما كان مباشرا .

وفي اقل من ١٥ يوما استطاع الجيش الاحمر طرد العدو من روسيا البيضاء واحتل حتى منتصف يوليو (تموز) اكثر من نصف بولونيا الشمالية الشرقية ، واقترب من بريست ليتوفسك وبياليستوك وحاصر فيلنا ، ثم اجتاز نهر نيمن واقترب من حدود بروسيا الشرقية . وتقدمت الموجة الزاحفة وتجاوزت اكثر من ٢٠٠ ميل مجنبة مجموعة جيوش ليندمان التي كانت تغطي حتى ذلك الحين دول البلطيق على جبهة تمتد بين نارفا وبسكوف ووضعتها في موقف غير ملائم .

وفي ١٤ يوليو (تموز) انطلق الهجوم الروسي جنوب مستنقعات بريبيت على

الجبهة الواقعة بين كوفيل وتيرنوبول حيث بدأ الالمان في الانسحاب . وفي خلال ١٠ ايام وصل الروس الى مدينتي لفوف ولوبلن على بعد ١٠٠ ميل الى الجنوب الشرقي من فارسوفيا ، وسقطت حصون برزيمينسل وبريست ليتوفسك وبياليستوك خلال الاسبوع نفسه . وتجاوز التقدم الروسي على المجنبة الشمالية مدينة دفينسك ثم اتجه نحو ساحل البلطيق وراء مدينة ريغا وهدد بعزل قوات ليندمان الذي كان بطيئا في قتاله التراجعي . وفي نهاية يوليو (تموز) وصل الروس الى خليج ريغا بينما كانت قواتهم في مركز الدائرة تدخل ضواحي فارسوفيا .

واظهرت الحوادث ان الالمان بداوا يفيقون من الصدمة ويعملون لاستعادة السيطرة على الموقف بعد ان جعلهم الانسحاب في مأمن من الخطر المباشر ، اي بعد ان وصلوا الى خط يتعذر على مطارديهم التقدم اليه دون الانقطاع عن موارد تموينهم . وبدأ القانون الطبيعي للامتداد الاستراتيجي الزائد في التدخل ، واصبح من الواضح ان الالمان قادرون على احباط التقدم الروسي وان على الروس قبل ان يستأنفوا هجومهم اضاعة وقت كبير لاعادة تجهيز مواصلاتهم في الاراضي الواسعة التي استولوا عليها .

وفي بداية شهر اغسطس (آب) فتحت الهجمات الالمانية في الشمال من جديد خط التراجع امام الروس الذين اضطروا الى اخلاء فارسوفيا . وبدا الالمان اقوياء لدرجة مكنتهم من اخماد الثورة البولونية التي كانت قد اندلعت عندما اقترب الروس من العاصمة . وفي جنوب فارسوفيا نجح الروس في اقامة راس جسر عبر نهر الفيستولا ثم اضطروا للتوقف طوال شهر اغسطس .

ثم قطعت هذه الاستراحة المؤقتة بمناورة روسية جديدة في الجنوب على الجبهة الرومانية ، ومع ابتداء هذه العملية اعلنت رومانيا في ٢٣ أغسطس (آب) انها مستعدة لعقد الصلح . وفتح ذلك الطريق امام تقدم روسي سريع وراء جاسي ادى الى تطويق القوات الالمانية التي اصبحت معرضة لتهديد شديد في البروز الساحلي شرقي بروت . ثم تابع الروس تقدمهم خلف الالمان واحتلوا غالاتس وفوكساني في ٢٧ اغسطس (آب) كما احتلوا حقول النفط في بلوئيستي في ٣٠ اغسطس ودخلوا بوخارست في اليوم التالي . وبهذا تقدمت الدبابات الروسية ٢٥٠ ميلا خلال ١٢ يوما .

ثم اتجهت الجيوش الروسية نحو الشمال والغرب والجنوب واجتازت الالب ووصلت الى المجر وحدود يوغوسلافيا بمناورة تهدف الى منع انسحاب الفرق الالمانية الموجودة في اليونان ، ثم اندفعت نحو الجنوب واخترقت بلغاريا التي اعلنت الحكومة السوفييتية عليها الحرب .

في ايطاليا :

لم يتبع سقوط روما انهيار القوات الالمانية بسرعة كما كان متوقعا واستطاع

كسيلرينغ انقاذ جيوشه من الوضع الرهيب الذي كانت فيه ، وقاد الانسحاب بيد ماهرة ، وحمّل الحلفاء المتقدمين نحو الشمال سلسلة من الهزائم . ومرت سبعة اسابيع قبل ان يتمكن الحلفاء من الوصول الى ضواحي بيزا وفلورانسة على بعد ١٦٠ ميلا شمالي روما . ثم مرت ٣ اسابيع قبل ان يخلي كسيلرينغ فلورانسة وينسحب الى موضعه الدفاعي الرئيسي في الجبال على الخط القوطي .

وقدر الجنرال الكسندر طبيعة هذا الحاجز الهام فقام بمناورة جديدة على الجناح ونقل مركز ثقل الجيش الثامن من جديد الى جناح الادرياتيكي ، ثم هاجم في نهاية اغسطس (آب) القطاع الساحلي في اقصى دفاع العدو قرب بيزارو واخترقه اثناء زحفه في اتجاه ريميني .

ولكن كسيلرينغ احبط الهجوم واغلق الباب . واضطر الكسندر الى العودة الى طريقة تهدف الى اعادة فتحه بهجمات متعاقبة . وفتحت له هجماته في النهاية طريقا نحو اقصى الشرق لوادي نهر بو ، ولكن المنطقة كانت مغطاة بكروم العنب ، والارض طينية تنقلب الى ميدان من الوحل اذا سقطت الامطار عليها بحيث لا تسمح بالقيام بعمليات سريعة لاستغلال الثغرة المفتوحة . وجاء مطر الخريف ليخفف الضغط عن الوحدات الالمانية المنهكة المعرضة للانهيار ، وبدات مرحلة هدوء جديدة استمرت حتى الربيع .

ثم سحب الكسندر جانبا من قواته للقيام بهجوم جنوبي فرنسا في شهر اغسطس (آب) . وكانت هذه عملية مشاغلة لمصلحة المعركة الرئيسية الدائرة في شمال فرنسا . ولكنها لم تقدم لها كبير مساعدة ، لان نتيجة المعركة الاساسية ظهرت قبل بدء العمليات في الجنوب ب ١٥ يوما . وعلاوة على ذلك فانها حرمت الكسندر من الامكانيات التي تؤمن له التفوق الضروري لانهاء معركة ايطاليا بشكل حاسم . ولكن هذه المساوىء انقلبت كلها الى فوائد عندما هاجم الكسندر في الخريف بامكانيات ضعيفة وقام بمعارك غير حاسمة لم تستطع ارغام الالمان على التفكير في الانسحاب نحو جبال الالب في ظروف جوية ملائمة للوقوف على مواضع اقوى . وفي بداية عام ١٩٤٥ سحبت من كيسلرينغ ٤ فرق لارسالها الى الجبهة الغربية . ومع ذلك أصر هتلر على منع اي انسحاب فوري نحو جبال الالب رغم تناقص امكانيات قواته باستمرار . وفي الخريف كان الالمان في حاجة الى طائرات ومدرعات ووسائل نقل ووقود وكل ما هو ضروري للانسحاب السريع نحو جبال الالب ، فلما قام الحلفاء بالهجوم في ابريل (نيسان) استطاعوا اختراق الجبهة الالمانية الضعيفة ، واندفعوا بسرعة نحو مؤخرات العدو ، وتمركزوا هناك لسد المنافذ عليه مما أدى الى تفتت القوات الالمانية وانتشار الفوضى فيها . ولو كانوا قد انسحبوا منذ البداية ولم يغرهم ضعف هجوم الكسندر على البقاء في اماكنهم لنجوا من الكارثة . وكان هذا النصر خاتمة الجهود المستمرة التي بذلها الحلفاء في ايطاليا .

اختراق جبهة نورماندي :

شهدت ربوع نورماندي في شهر يوليو (تموز) معارك ضارية قليلة النتائج ، كثيرة الخسائر . ولم يكن الالمان قادرين على تحمل الخسائر كالحلفاء الذين تتزايد قواتهم بنجدات مستمرة . وفي ٢٣ يوليو بدأ الجيش الامريكي الذي تجمع بعد احتلال شيربور في التقدم نحو الجنوب في اتجاه قاعدة شبه جزيرة كوتانتان، وكان تقدمه بطيئا بسبب ضيق مجال المناورة . وفي ٨ يوليو دخل الجيش البريطاني الثاني بقيادة الجنرال دميسي مدينة كان ثم توقف عندما حاول عبور نهر أورن بسبب سلسلة من الهجمات الجانبية . وفي ١٨ يوليو تمت عملية جريئة بقوات مؤلفة من ٣ فرق مدرعة تزحف كل منها وراء الاخرى . وانطلقت من قاعدة انطلاقها في الشمال الشرقي من كان ودخلت في الثغرة الضيقة التي فتحها قصف جوي رهيب على جبهة عرضها ثلاثة اميال ، واخترقت الخطوط الدفاعية وراء كان ، ووسعت الثغرة ولكن معدل التقدم كان بطيئا بسبب تردد القادة الصغار وعدم قيامهم بعمليات التفاف يتحاشون خلالها القرى التي يحتلها الالمان الذين اظهروا مهارة وسرعة في عمل ستارة من الدبابات والمدافع المضادة للدبابات في طريق المهاجمين . وبعد ضياع هذه الفرصة حققت بعض الهجمات الكندية والانكليزية نجاحا بسيطا ولكنها ساعدت على جذب انتباه العدو وتثبيت افضل وحداته في قطاع كان الى ان وصلت الى القطاع سبع فرق المانية مدرعة من اصل الفرق التسع التي يملكها الالمان .

وفي الطرف الغربي لراس الجسر في نورماندي قدمت قوات برادلي الامريكية جبهتها من ٥ اميال الى ٨ خلال الاسابيع الثلاثة الاولى من يوليو (تموز) . وفي هذا الوقت نقل الجيش الثالث الامريكي بقيادة الجنرال باتون من انكلترة الى نورماندي للقيام بعملية هامة بدات في ٢٥ يوليو بست فرق زحفت على جبهة عرضها اربعة اميال ، وسبقها قصف جوي اشد من القصف الذي سبق العملية السابقة . وقد امتلأت الارض من جراء هذا القصف بالحفر لدرجة ساعدت المدافعين المبعثرين على ايقاف التقدم الامريكي . وفي خلال يومين تقدمت هذه الفرق خمسة اميال فقط ، ثم وسعت الثغرة وزادت سرعة التقدم في اتجاه الجنوب الغربي لشبه الجزيرة . ولقد تم الاختراق الحاسم في ٣١ يوليو (تموز)، واستطاع عندئذ الجيش البريطاني الثاني الانتقال من شرق نهر اورن الى القطاع الاوسط جنوبي بايو بقصد الهجوم على كومون . وانشغل العدو بهذه العملية وبدأ يسحب ما يستطيع سحبه من القوات من كان لتقوية هذه المنطقة المهددة ، واستغل الامريكيون هذه الفرصة وفتحوا الباب في أفرانش قرب الشاطىء الغربي لشبه جزيرة شيربور .

واندفعت دبابات باتون في الثغرة متجهة نحو الجنوب ثم نحو الغرب واحتلت بسرعة القسم الاكبر من مقاطعة بروتانيا ، ثم دارت نحو الشرق وطهرت المنطقة شمالي نهر اللوار في اتجاه مدينتي لومان وشارتر . واصبح عرض الجبهة ٤٠٠

ميل بعد ان كان ۷۰ ميلا ، واصبح حقل العمليات كبيرا لدرجة عجز معها العدو عن مواجهة تقدم الحلفاء الذي اخذ يتجاوز مفترقات الطرق المحروسة جيـدا ويلتف حولها .

وكان هناك خطر يهدد هذا الزحف الجارف ، وهو قدرة العدو على القيـام بهجوم مضاد على نقطة الاختناق في أفرانش التي يمر منها تموين الحلفاء ، وهذا هو ما فعله الالمان بناء على اصرار هتلر . وانطلق الهجوم المضاد في ٦ اغسطس (آب) واشتركت فيه اربع فرق مدرعة تقدمت نحو الغرب . وجاء الهجوم مباشرا جدا كصدمة على درع الوقاية الذي وضعه الامريكيون . ولما تم صد الهجـوم الالماني المضاد تدخل الطيران بسرعة وساعد على ابادته نهائيا . وادى هذا الفشل الى نتائج وخيمة بالنسبة للالمان لانه جذب مركز ثقلهم الى الغرب في اللحظـة التي توغلت فيها المدرعات الامريكية نحو الشرق في اتجاه مؤخراتها . واستدار الجناح الايسر الامريكي نحو الشمال متوجها الى ارجانتان بقصد القيام بمناورة كماشة بالتعاون مع الجيش الكندي الاول الذي زحف من كان باتجاه فاليز . ولم يلتق فكا الكماشة في الوقت الملائم لحصر الجيشين الالمانيين المطوقين ، ومع ذلك استسلم ٥٠ الف الماني وقتل ١٠ آلاف ومنيت الفرق المنسحبة بخسائر كبيرة ، وأصبحت حالة معداتها الآلية اسوأ من وضع رجالها بسبب القصف الجـوي المستمر . وكان لخسائر الالمان في جيب فاليز تأثير كبير عليهم لانها حرمتهم من الامكانيات اللازمة للمناورة ، وجعلتهم عاجزين عن منع الحلفاء من متابعة التقدم نحو الشرق في اتجاه السين وما بعده .

وغدا موقف الالمان حرجا ، وتعرضت مجنباتهم للالتفاف ومؤخراتهم للتهديد عدة مرات بسبب حركة دبابات الجنرال باتون التي تعمل على جناح الحلفـاء الايمن ؛ والتي كانت تتجاهل المقاومة التي تصادفها وتتجاوزها وتلتف حولها مما زاد من سرعة تقدمها وسمح لها بالقيام بتطويق استراتيجي دائم لمجموعة الجيوش الالمانية .

وكانت السرعة واتساع المدى مفتاحا مزدوجا فتحت به الجيوش الحليفـة ابواب الغرب ، ونجحت المناورة في كل مكان فشل فيه الهجوم المباشر . وما أن تم الحصول على ميدان مناورة واسعة حتى اصبح الحلفاء قادرين على استغلال أمكانياتهم الهائلة . وتدل مناورة التطويق الكبيرة ونتائجها السريعة التي ادت الى انهيار موقف الالمان العام في فرنسا الى انه لم يكن هناك داع لنزول القـوات الفرنسية الامريكية بقيادة الجنرال باتش على سواحل فرنسا الجنوبيـة يوم ١٥ اغسطس . لان الالمان كانوا قد سحبوا من الريفيرا جميع قواتهم باستثناء اربع فرق ضعيفة . وكان التقدم داخل البلاد في وادي نهر الرون يلاقي صعوبـات تموينية اكثر من الصعوبات التكتيكية . وسقطت مرسيليا في ٢٣ أغسطس (آب) كما سقطت باريس في ٢٥ اغسطس . وفي هذا الوقت كان جيش الجنـرال باتون يندفع نحو المارن في الشمال الشرقي من باريس .

وقام الجيش الثاني البريطاني بعمل هام عندما استثمر النصر وعبر نهر السين شرقي روان واوقع في الفخ بقايا الجيش الالماني السابع الذي كان يقاوم حتى ذلك الحين غربي روان . واستطاع جانب كبير من قوات العدو الانسحاب في الوقت الملائم الى ما وراء النهر ليجد المدرعات الحليفة وقد قطعت عليه الطريق من الخلف . ووصلت رؤوس قوات الجنرال ديمبسي الى أميان في صبيحة يوم ٣١ اغسطس بعد أن زحفت ٧٠ ميلا في يومين وليلة ابتداء من نهر السين ، وعبرت نهر السوم وتجاوزت مدينتي آراس وليل بسرعة ووصلت الى الحدود البلجيكية عند مؤخرة الجيش الالماني الخامس عشر المتمركز على شواطىء بادوكاليه . كما وصل الجيش الامريكي الاول بقيادة هودج الى الحدود البلجيكية . وفي اقصى الشرق كان جيش باتون يتقدم بسرعة عبر مقاطعة شمبانيا وما وراء فردان حتى نهر موزيل بين ميتز وتيونفيل قرب الحدود الالمانية ، ثم بدات قوة اندفاعه بالتناقص نظرا لصعوبة التموين حتى اضطرت طلائع قواته الى التوقف لتقص البنزين وهي في ذروة امكانياتها الاستراتيجية ؛ ولم تكن تبعد حينئذ عن نهر الرين بأكثر من ٨٠ ميلا . ولما تلقت كمية كافية من الوقود لمتابعة التقدم وجدت مقاومة العدو قد ازدادت . لقد أدت عملية باتون الى نتيجة حاسمة في فرنسا ولكن نقص التموين منعها من القيام بمعركة المانيا بمثل هذا الشكل الواسع . وتأكدت صحة قانون الامتداد الاستراتيجي عندما فرض على المتقدمين فترة توقف معينة .

وفي بداية شهر سبتمبر (ايلول) ازدادت سرعة التقدم على الجناح الايسر للالمان وبدت الفرصة ملائمة لتحقيق نصر سريع ودخلت الوحدات المدرعة الانكليزية بروكسل في ٣ سبتمبر وانفرس في ٤ سبتمبر ثم دخلت هولندا . وعزل مونتجمري بهذه المناورة الواسعة الوحدات الالمانية المتبقية في نورماندي وفي بادوكاليه ، وهي الوحدات التي كانت تشكل القوة الاساسية للالمان في الغرب . واحتل الجيش الامريكي الاول نامور وعبر نهر الموز .

في هذه المرحلة الحرجة سلمت قيادة الجيوش الالمانية في الجبهة الغربية للجنرال موديل الذي اكتسب شهرته في روسيا على «توفير القوات الاحتياطية في كل زمان ومكان» . ونجح الالمان رغم ضعفهم وخسارة نصف مليون اسير في فرنسة من اطالة الحرب ٨ شهور .

وقد ساعدهم على التماسك واستعادة قواهم صعوبات التموين التي عاناها الحلفاء الذين اضطروا الى القيام بهجومهم في تشكيلات خفيفة ، يمكن تحطيمها بسهولة بواسطة دفاع غير منظم ، ولكنه قادر مع ذلك على عرقلة خطط الحلفاء. وترجع الصعوبات الادارية الى امتداد زحف الحلفاء من جهة والى استراتيجية الالمان الذين كانوا يتركون حاميات خلفهم تمنع استخدام الموانىء الفرنسية الهامة.

لم تكن قوافل الحلفاء قبل اختراق الخطوط الالمانية تسير اكثر من ٢٠ ميلا من قواعدها ، اما الان فكان عليها ان تقطع حوالي ٣٠٠ ميل ، وكان معظم العبء يقع على النقل بالسيارات نظرا لتدمير شبكة السكك الحديدية الفرنسية بقنابل

طائرات الحلفاء قبل شروعهم في الهجوم .

وفي منتصف شهر سبتمبر (ايلول) قام الحلفاء بمحاولة جريئة لتدمير الدفاع الالماني العنيد ، فأنزلوا ثلاث فرق محمولة جوا وراء مجنبة العدو اليمنى في هولندا بقصد فتح الطريق امام هجوم جديد يقوم به الجيش البريطاني الثاني في منطقة حوض الرين السفلي وما وراءها . وألقيت الوحدات المحمولة جوا في موجات متعاقبة فاحتلت راس جسر يشمل نقاط هامة للمواصلات تعترض الطريق . وامكن المحافظة على ثلاث نقاط بينما فشلت عمليات الاستيلاء على النقطة الرابعة بسبب تردد الحلفاء وسرعة تصرف الالمان .

وادى هذا الفشل الى التضحية بالفرقة الاولى المحمولة جوا في آرنيم . ولكن الالتفاف حول خطوط دفاع الرين كان هدفا استراتيجيا هاما كما أكد فائدة الجراة في القاء وحدات محمولة جوا بعيدا وراء الجبهة . وتمركزت الفرقة الاولى المحمولة جوا في مواقعها المنعزلة خلال ١٠ ايام بدلا من يومين كما كان مقررا كحد اقصى لمهمتها الدفاعية . ثم ضاعت فرصة النجاح لان الحلفاء اختاروا مناطق الانزال الاربعة متسلسلة في خط مستقيم يكشف بشكل واضح محور هجوم الجيش الثاني .

وسهل وضوح الهدف المعضلة امام العدو الذي استطاع تجميع كل قواته الاحتياطية وسحق الوحدات البريطانية المحمولة جوا قبل ان تستطيع عناصر المقدمة في الجيش الثاني الوصول اليها وتبديلها . وساعدت طبيعة الارض الهولندية وقنواتها الكثيرة الدفاع الالماني على صد الهجوم البريطاني ، وعرقلت مناورات الحلفاء وحركاتهم غير المباشرة .

معركة الرين :

بعد فشل مشروع غزو آرنيم ضاع الامل في امكان تحقيق نجاح حاسم سريع. واضطر الحلفاء الى اعادة تنظيم امكانياتهم على طول الجبهة الالمانية لاعداد هجوم كثيف . ثم تم التقدم الامريكي على اكس لاشابيل بشكل مباشر جدا ففشل فاضطر الى التوقف .

ولم تؤد محاولات جيوش الحلفاء في سبتمبر واكتوبر (ايلول ــ تشرين اول) على بقية الجبهة الغربية الا الى نتائج ضعيفة ، وجمع الالمان قواهم ونظموا صفوفهم على طول الحدود بسرعة تفوق سرعة تنظيم الحلفاء رغم تفوق الحلفاء الكبير بالعتاد . وفي منتصف نوفمبر (تشرين ثاني) قامت جيوش الحلفاء في الجبهة الغربية بهجوم عام كثير التكاليف دون فائدة ، واضعفت الجهود المتتالية وحدات الهجوم بشكل ملحوظ .

وبدت اختلافات في وجهات النظر بين الجنرالات الانكليز والامريكيين حول

المخطط الرئيسي لهذا الهجوم . وكان الانكليز يرغبون في القيام بعملية مركزة كثيفة ، بينما يريد الامريكيون جس نبض الدفاع الالماني على جبهة عريضة جدا. وبعد فشل الهجوم انتقد البريطانيون المخطط بسبب بعثرته للجهود ، ولكن التحليل الدقيق يبين ان فشل المخطط يرجع الى فقدان عناصر المفاجأة فيه . لقد كان الهجوم واسع النطاق نظرا لتوزيع المهام بين عدة جيوش ولكنه كان مركزا في قطاع كل جيش من هذه الجيوش . وكانت محاور الهجوم منطبقة مع المحاور التي يتوقعها العدو والتي تؤدي مباشرة الى قلب المانيا ، علاوة على انها نفذت على أرض مستوية يمكن اغراقها بكل سهولة في الشتاء .

وفي منتصف ديسمبر (كانون اول) وجه الالمان ضربة قوية لجيوش الحلفاء عندما قاموا بهجوم مضاد ، واستطاعوا وقف هجوم الحلفاء دون ان يزجوا في هذه العملية بقواتهم الآلية . وضاعت الفرصة امام الامريكيين لاختراق الجبهة ، وأصبح خطر العمليات الالمانية مؤكدا خاصة بعد ان جهزوا فرقهم ، المدرعة بدبابات جديدة .

ان افضل لحظة للقيام بهجوم مضاد هي عندما يكون العدو المهاجم قد زج كل امكانياته في المعركة دون ان يصل الى هدفه . ففي هذه اللحظة تتأثر وحداته من كل عمل يزيد مدة الجهد ، وتكون قيادته عاجزة عن صد اية مناورة مضادة خاصة اذا تمت في اتجاه غير متوقع .

اختارت القيادة الالمانية الارض الملائمة للهجوم المضاد بشكل يختلف عما فكر فيه الحلفاء ، فقد اختارت منطقة الآردين المتعرجة الوعرة الكثيرة الاشجار ، ولم يكن قادة الحلفاء التقليديون يعتبرون هذه المنطقة صالحة لعمليات على مستوى كبير . وكانت تسمح بإخفاء عمليات تجميع الامكانيات الكبيرة ، كما كانت الارض العالية الجافة تسمح للدبابات بالمناورة الامر الذي اعطى الالمان الامل في النجاح.

وكان الخطر الاكبر يتمثل في طيران الحلفاء القوي ، لذا انطلق هجوم الالمان عندما اعلنت الارصاد الجوية عن وجود غيوم منخفضة . ومنع الضباب والمطر في الايام الثلاثة الاولى طيران الحلفاء من التحليق ، وجاءت التطورات كلها لصالح الالمان حتى الاحوال الجوية نفسها . واستغل الالمان كل ما حصلوا عليه من ميزات وحاولوا القيام بعمل كبير بامكانيات محدودة . وكانوا يعرفون انهم يقومون بمحاولة يائسة ويقامرون بآخر ورقة في ايديهم ، فأعطوا للجيشين المدرعين المهاجمين الخامس والسادس معظم الدبابات المجمعة من هنا وهناك .

وكان الهجوم في الآردين صعبا ، لان الارض فيه تشقها وديان عميقة وتمر فيها الطرق عبر ممرات ضيقة يسهل قطعها ومنع تقدم المدرعات فيها . وكانت القيادة الالمانية قادرة على تلافي هذه المساوىء باستخدام وحدات من المظليين لاحتلال الممرات ، ولكنها تجاهلت هذا السلاح الخاص الذي لم تعد تعتمد عليه منذ عمليات كريت في مارس (آذار) ١٩٤١ ، ولم تستخدم في هذه العملية الا مفارز صغيرة من المظليين .

كان الهدف من الهجوم المضاد بعيد المدى ويرمي الى اختراق صفوف الحلفاء

حتى انفرس بهجوم غير مباشر ، وعزل الجيوش البريطانية عن تموينها وعن الامريكيين ، ثم سحق هذه المجموعة بعد تطويقها . وكان على الجيش الخامس المدرع بقيادة مانتوفل اختراق الجبهة الامريكية في الآردين والزحف نحو الغرب ثم الانحراف نحو الشمال بعد عبور نهر الموز والوصول الى انفرس . كما كان عليه انشاء حاجز دفاعي على المجنبة اثناء تقدمه لمنع تدخل اي جيش امريكي يأتي من الجنوب . وكان على الجيش السادس المدرع الذي يقوده احد كبار ضباط الصاعقة (س.س.) واسمه سيب ديتريك القيام بالهجوم في اتجاه الشمال الغربي على محور مائل والتقدم الى انفرس ، وانشاء سد استراتيجي على مؤخرات الجيوش الانكليزية والامريكية الموجودة في اقصى الشمال .

وقد استفاد الهجوم الالماني المضاد من عامل المفاجأة ، وقام بتقدم خطير خلال الايام الاولى ، ونشر الفوضى والرعب بين صفوف الحلفاء . وكان الخرق الذي قام به الجيش الخامس المدرع عميقا ، ثم بدات مواد الوقود في التناقص بسبب تدخل طيران الحلفاء . ولم يصل الالمان الى نهر الموز رغم اقترابهم منه في عدة نقاط . ويعود هذا الفشل الى عناد القوات الامريكية التي كانت تقاوم بعد تطويقها وعزلها في مناطق مختلفة في الآردين ، كما يعود الى سرعة مونتجمري في تحريك قواته الاحتياطية نحو الجنوب ليمنع العدو من عبور الموز بعد ان تولى القيادة في الجناح الشمالي .

وفي المرحلة التالية ، عندما جمع الحلفاء قواتهم وحاولوا قطع الجيب الكبير الذي فتحه الالمان في جبهتهم قام الالمان بانسحاب بارع سمح لهم بالتخلص من الفخ الذي نصب لهم . ويعتبر الالمان هجومهم المضاد هذا عملية حسنة رغم فشلها في الوصول الى اهدافها ، لانها احبطت استعدادات الحلفاء وكبدتهم خسائر فادحة بثمن قليل جدا خلال مختلف المراحل ، باستثناء المرحلة الاخيرة التي أوقف فيها هتلر عملية الانسحاب .

ومع ذلك كانت هذه العملية قاضية بالنسبة للالمان ، لانها اجبرتهم على استهلاك وسائط تفوق امكانياتهم في تلك الظروف القاسية . ولقد حرمهم هذا التبذير من القدرة على تمديد مدة المقاومة امام اي هجوم جديد للحلفاء . وادركت الوحدات الالمانية انها لم تعد قادرة منذ ذلك الوقت على قلب الموقف لصالحها .

المرحلة الاخيرة :

بقيت الجبهة الروسية الاساسية منذ اغسطس (آب) حتى نهاية العام ثابتة في وسط بولونيا .

بينما انطلقت جيوش الجناح الايسر الروسي في ذلك الوقت من رومانيا وبلغاريا في اتجاه المجر ويوغوسلافيا ، وقامت بمناورة جانبية واسعة على مستوى الاستراتيجية العليا (مع اهداف بعيدة) علاوة على كونها مناورة

استراتيجية . وأبطأ من سرعة هذه العملية متاعب الادارة المحلية وقلة المواصلات في هذه المنطقة . وادى توسع هذه الحركة الدائرية بشكل طبيعي الى حركة التقاء استراتيجية نحو الهدف المشترك . واضطر الالمان الى زيادة امتداد جيوشهم لصد هذا التقدم المتجه نحو باب بلادهم الجانبي ، الامر الذي منعهم من التحكم في الجبهتين الشرقية والغربية كما ينبغي .

وفي منتصف يناير (كانون ثاني) قامت جيوش كونييف بهجوم كبير على الجبهة الالمانية جنوبي بولونيا ابتداء من رأس جسر احتلته على نهر الفيستولا قرب سان دومير . وبعد اختراق دفاع العدو وتهديد القطاع الاوسط من الجانب تقدمت جيوش جوكوف إلى الامام منطلقة من رؤوس الجسور القريبة من فارسوفيا . واجتاح الهجوم خلال الاسبوع الاول كل شيء امامه ووصل رغم ظروف القتال الصعبة في الشتاء الى مدى يعادل المدى الذي وصل اليه هجوم الصيف السابق خلال نفس المدة . واصبح تقدم الروس في معظم المناطق وراء الجبهة في بولونيا الغربية سهلا ، كما اصبح الدفاع صعبا امام الالمان . وكانت طبيعة الارض ملائمة لتقدم هجوم الوحدات المدرعة الروسية وخاصة اذا استثمرت امكانيات المناورة السهلة الواسعة .

واحتفظ الزحف الروسي خلال الاسبوع الثاني بمعدل سرعته ، وازداد عدد الاسرى الالمان ، وهذا يعني ان طلائع القوات المهاجمة الروسية استطاعت التغلب على محاولات القيادة الالمانية للقيام بانسحاب عام ناجح .

واجتازت جيوش كونييف المسافات الشاسعة بين كراكوفي ولودز ، وعبرت الحدود الغربية البولونية ودخلت في سيليزيا . وسقطت كراكوفي ولودز في ١٩ يناير (كانون ثاني) وفي ٢٣ يناير وصل كونييف الى نهر الاودر على جبهة عرضها ٤٠ ميلا ، وعبرت قواته النهر في عدة نقاط . واحتل خلال هذا التقدم السريع المناطق الصناعية الهامة في سيليزيا العليا ، وقد اثر ذلك على الانتاج الحربي الالماني . ولكن الالمان تجمعوا بعد ذلك بقوات كبيرة وراء نهر الاودر واستطاعوا إبطاء عملية توسيع رأس الجسر وراء النهر .

وتقدمت جيوش روكوزوفسكي على الجناح الايمن ابتداء من نهر ناريف في الشمال الشرقي لفارسوفيا ، ووجهت ضربة قوية ضد بروسيا الشرقية ، واخترقت حدودها في طرفها الغربي ووصلت الى البلطيق في ٢٦ يناير غربي دانزيغ ، وتم عزل معظم القوات الالمانية في بروسيا الشرقية .

وفي ذلك الوقت اندفع جوكوف الذي كان في مركز الجيوش الروسية في اتجاه الشمال الغربي . وعبر الحدود في ٢٩ يناير (كانون ثاني) ، ثم تقدم في اتجاه نهر الاودر ، وكان هدفه الطبيعي برلين الواقعة على بعد ٥٠ ميلا من نهر الأودر ، وتزايدت المقاومة امامه ، ووصلت دباباته الى قرب نهر كوسترين في ٣١ يناير (كانون ثاني) ولكنه لم يعبره على جبهة عريضة الا بعد فترة من الوقت ، وبعد عدة محاولات للعبور .

عندما كان الروس يقاتلون على نهر الأودر قامت جيوش ايزنهاور بهجوم كبير

جديد بدأ في مطلع شهر فبراير (شباط) وحاول تطويق الجيوش الالمانية غربي الرين ، وتدميرها قبل ان تنسحب الى ما وراء النهر . ودفع في بادىء الامر بالجيش الاول الانكلو ـ كندي على الجناح الايسر ، فزحف مع الضفة الغربية للنهر ليأخذ من الجانب القوات الالمانية المدافعة امام الجيشين الامريكيين الاول والتاسع غربي كولونيا . ولكن الهجوم الالماني المضاد في الآردين أخر تقدم الحلفاء فلم يتابعوا تقدمهم الا بعد ذوبان الثلوج . وساعد هذا التأخير المقاومة الالمانية التي واجهت الموقف الحرج بأن فتحت سدود نهر الرور ، وأخرت الهجوم الامريكي الذي لم يستطع عبور هذا الحاجز المائي الا بعد حوالي ١٥ يوما ، وقد صادف خلال ذلك مقاومة قوية . ولم يدخل الامريكيون كولونيا الا في ٥ مارس (آذار) وكسب الالمان بذلك الوقت اللازم لسحب وحداتهم المنهكة الى ما وراء الرين.

وأتاح ضعف جناح الالمان الايسر الفرصة الملائمة للجيشين الامريكيين الاول والثالث فاخترقت ميمنة الجيش الاول خط الرين في بون ، واحتلت وحدة امريكية جسرا سليما في ريماغن . ولم يستغل ايزنهاور فورا هذه الثغرة غير المتوقعة التي كان يستطيع استخدامها في نقل قواته وتعديل مخططاته للمرحلة التالية الحاسمة . وادى تهديد ريماغن الى تثبيت القوات الاحتياطية الالمانية الصغيرة في اماكنها . اما الجيش الامريكي الثالث فقد حصل على نجاح اكبر عندما اخترق الخطوط الالمانية في ايفيل ، واندفعت الفرقة الرابعة المدرعة المشكلة لراس الحربة بكل سرعة نحو الرين في كوبلانس ، ثم وجه باتون قواته نحو الجنوب فدخلت منطقة بالاتينا ووراء حوض الموزيل السفلي ، واجتاحت ضفة نهر الرين الغربية على مؤخرات القوات الالمانية الصامدة امام الجيش السابع فعزلتها عن نهر الرين ، واخذت عددا كبيرا من الاسرى ، وأمنت لنفسها بدون مقاومة عبور الرين عندما استدارت نحو الشرق . وتم العبور في ليلة ٢٢ بين مايانس وورمس ، ثم اعقب هذا العبور استثمار النصر بالقيام بزحف عميق في بافاريا الشمالية . وطوقت هذه الحركة كافة الجبهة الالمانية ، وحرمت العدو من امكان القيام بانسحاب عام نحو الاماكن الحصينة التي يمكن ان يجدها في الجبال الجنوبية .

وفي ليلة ٢٣ زحف مونتجمري على الرين قرب الحدود الهولندية ، وتم عبور النهر الكبير في اربع نقاط خلال الليل . وفي الصباح أنزلت فرقتان محمولتان جوا وراء النهر بقصد تدمير القوات الالمانية التي كانت تقاوم لمحاولة منع توسيع راس الجسر . وبدات المقاومة الالمانية تتحطم في كل مكان ، ومهد ذلك الى حدوث الانهيار العام .

ولم تأت النهاية رغم هذه الظروف كلها الا بعد شهر . ويرجع هذا التأخير الى مشاكل التموين التي تعرض لها الحلفاء ، والتي كانت تزداد كلما تقدموا وراء نهر الرين . لاسيما وأن عمليات القصف التي قام بها طيرانهم ملأت الطرق بكتل كبيرة من الانقاض . يضاف الى هذا الظروف السياسية المعقدة التي كان يواجهها الحلفاء .

وتناقصت جبهة الالمان الكبيرة تحت تاثير الضغط الموجه من كـــل جانب ، والناجم عن مناورات تلتقي في المركز ، وكان على القوات الالمانية ان تتحمـــل خسائر كبيرة لتطبق الدفاع الصلب الذي كان هتلر يصر على القيام به متناقضا تناقضا كبيرا مع الطرق الهجومية المرنة البارعـة التي استخدمها قبل ان تسكره خمرة النصر . ودافع الالمان بنجاح رغم نقصان قوتهم ومواردهم . ويعود هـذا النجاح الى قدرتهم العجيبة على المقاومة ، كما يعود الى شروط الحلفاء غـــير المعقولة التي تتضمن المطالبة باستسلام مهين دون قيد او شرط . ويمكن اعتبار هذه الشروط هجوما مباشرا جدا على مستوى الاستراتيجية العليا . وتدل هذه المقاومة الطويلة على قدرة الدفاع الحديث الكبيرة . وعندما كان الالمان يدافعون عن جبهة تتناسب مع امكانياتهم بشكل معقول ، فانهم استطاعوا في كثير مـــن الاحيان صد هجمات القوات المتفوقة على قواتهم بمعدل ٦ الى ١ او ١٢ الى ١ احيانا . ولكن ضيق حقل العمليات هزمهم في النهاية . ونستنتج من كل هذا ضرورة استخدام قوة الدفاع حتى خلال الهجوم . ولقد دمرت المانيا نفسهـــــا عندما ذهبت الى مكان بعيد ، ولولا ابتعادها عن قواعدها لوجد اعداؤها صعوبة اكبر في التغلب عليها . ولقد اعطى هجومها المباشر لتحقيق النصر حلا غير مباشر للحلفاء لتحقيق هذا الهدف ذاته . واتاحت متاعبها وتوسعها الزائد الفرصـــــة للحلفاء لكي يختصروا مدة الحرب .

القسم الرابع

اسس الاستراتيجية
والاستراتيجية العليا

الفصل التاسع عشر

نظرية الاستراتيجية

يعرف كلوزفيتس الاستراتيجية في كتابه المشهور بأنها : «فن استخدام المعارك كوسيلة للوصول الى هدف الحرب . اي ان الاستراتيجية تضع مخطط الحرب ، وتحدد التطور المتوقع لمختلف المعارك التي تتألف منها الحرب ، كما تحدد الاشتباكات التي ستقع في كل معركة» .

ومن عيوب هذا التعريف انه يدخل هذه الفكرة في حقل السياسة او في أعلى مستوى لقيادة الحرب ، وهذه أمور تتعلق بمسؤولية الدولة لا بحدود عمل القادة العسكريين الذين تستخدمهم السلطة الحاكمة ليقوموا بادارة العمليات وتنفيذها .

والعيب الآخر في هذا التعريف هو تحديده لمعنى «الاستراتيجية» فيما يتعلق باستخدام المعارك فقط ، اي تكريس كل الاعتبارات والامكانيات في الحرب للبحث عن المعركة التي تحقق الحل الحاسم بقوة السلاح .

ولقد قدم مولتكه تعريفا اوضح وافضل للاستراتيجية اذ قال : «انها اجراء الملاءمة العملية للوسائل الموضوعة تحت تصرف القائد الى الهدف المطلوب» .

ويحدد هذا التعريف مسؤولية القائد العام امام الدولة التي يخدمها ، وتبقى هذه المسؤولية ضمن حدود استخدام القوات المسلحة الموضوعة تحت تصرفه في

حقل العمليات المحدد لتحقيق مصالح السياسة العليا للحرب على أفضل وجه ، فاذا وجد الوسائل التي تحت يديه غير كافية للمهمة المحددة له كان من حقه التنبيه لذلك ، فان لم يؤخذ رايه بعين الاعتبار كان من حقه رفض القيادة او الاستقالة ، دون ان يفرض على حكومته الوسائل التي يجب ان توضع تحت تصرفه لان في ذلك خروجا على حدود اختصاصاته .

ومن جهة اخرى فان الحكومة هي التي تضع سياسة الحرب ، وعليها ان تؤمن توافقها واتساقها خلال الحرب تجاه الظروف التي تظهر مخالفة لما كان متوقعا ، ويمكنها ان تتدخل في استراتيجية معركة كبرى لا باستبدال القائد العسكري الذي فقدت ثقتها به فحسب ، بل بتعديل الهدف المحدد ليتلاءم مع ضرورات سياستها الحربية .

وليس للحكومة الحق في عرقلة عمل القائد العسكري بالتدخل في استخدام جهازه الحربي ، ولكن من واجبها تحديد طبيعة مهمته بكل دقة ووضوح . وهكذا فليس هدف الاستراتيجية دائما مجرد القضاء على القوة العسكرية المعادية . وتستطيع الحكومة اذا وجدت ان عدوها يتمتع بتفوق عسكري عام او محلي في ميدان من ميادين العمليات ، ان تقرر تنفيذ استراتيجية ذات هدف محدود .

وتستطيع الحكومة ايضا ان تصر على التريث حتى تتعدل نسبة القوى لصالحها بتدخل حليف جديد ، او بنقل وسائط مأخوذة من حقل عمليات آخر ، ويمكنها تأخير الجهود العسكرية او ايقافها نهائيا في انتظار نتيجة حاسمة لعمل اقتصادي او بحري . كما يمكنها اعتبار تدمير القوة العسكرية عملا يفوق امكانياتها المادية او لا يستحق الجهد الذي يبذل لاجله . وان الوصول الى هدف سياستها الحربية ممكن باحتلال بعض الاراضي والاحتفاظ بها او المساومة عليها خلال مفاوضات الصلح . ولقد اثبتت الحقائق التاريخية صحة مثل هذه السياسة بعكس ما يعتقده العسكريون حتى الان . انها ليست سياسة ضعف كما يعتقد بعض دعاة الحرب .

ان السبب العادي الذي يدعو الى استخدام استراتيجية ذات هدف محدود هو انتظار الانقلاب في ميزان القوى . ويتم الحصول على هذا الامر بانهاك وسائط العدو ، علما بأن وخزات الابر المتعاقبة تضعف العدو اكثر من الصدمات الكبيرة ذات النتائج غير الحاسمة . على ان يكون انهاك العدو خلال هذه «الوخزات» اكبر من انهاك قواتنا . ويمكن الحصول على ذلك بتدمير تموين العدو باغارات او هجمات محلية تؤدي الى افناء بعض وسائطه او تكبيدها خسائر كبيرة ، مما يدفعه الى القيام بهجمات غير مجدية ، ويجبره على اتخاذ وضع ممتد اكثر مما تتحمل قواته مع انهاك قدرته المادية والمعنوية .

ويوضح هذا التعريف مشكلة حرية القائد الذي يحدد استراتيجيته بنفسه ضمن حقل عملياته . فاذا قررت الحكومة اتخاذ سياسة عليا على طريقة فابيوس، او ذات هدف محدود فان اعمال القائد العسكري التي تهدف الى تدمير قدرة

العدو الحربية في نطاق حدوده الاستراتيجية يمكن ان تؤدي الى الاضرار بسياسة حكومته دون كسب فوائد تذكر . وهكذا فسياسة الحرب ذات الهدف المحدود تفرض استراتيجية محدودة الهدف . ولا يجب البحث عن الهدف الحاسم الا بعد موافقة الحكومة التي تقرر وحدها ما اذا كان الامر يستحق المخاطرة .

ويمكننا الان اعطاء تعريف مختصر للاستراتيجية بقولنا : «هي فن توزيع واستخدام مختلف الوسائط العسكرية لتحقيق هدف السياسة» . اذ ان الاستراتيجية لا تعتمد على حركات الجيوش فحسب ولكنها تعتمد ايضا على نتائج هذه الحركات . وعندما يؤدي استخدام واسطة الحرب الى معركة حقيقية فان الاستعدادات التي تتخذ لاعداد مثل هذا العمل وتنفيذه تشكل ما يسمى «التكتيك» . ويمكن الفصل بين الاستراتيجية والتكتيك نظريا اثناء الحديث بينما يتعذر ذلك في الامثلة العملية نظرا لتشابكهما وتأثير كل واحد منهما على الآخر .

الاستراتيجية العليا :

اذا كان التكتيك هو تطبيق الاستراتيجية على مستوى ادنى ، فان الاستراتيجية نفسها هي تطبيق الاستراتيجية العليا على مستوى ادنى . وما الاستراتيجية العليا سوى السياسة التي تقود سير الحرب ، ويمكن التفرقة بينها وبين السياسة الاساسية التي تحدد هدف الحرب. ويستخدم تعبير الاستراتيجية العليا لشرح فكرة «السياسة خلال التنفيذ» وايضاح ان دورها الحقيقي هو توجيه وتنسيق كل امكانيات البلاد او اعضاء الحلف بغية الحصول على الهدف السياسي للحرب .

ان على الاستراتيجية العليا ان تقدر وتضاعف الامكانيات الاقتصادية والقدرة البشرية بقصد دعم الوحدات المقاتلة ، علاوة على دعم القوى المعنوية . لان اهمية تقوية ارادة الرجال وشخصيتهم تعادل اهمية الحصول على القدرة المادية . والاستراتيجية العليا تتولى ايضا تنظيم وتوزيع الادوار والقوى بين مختلف المرافق والصناعة . وعلينا ان ندرك علاوة على ذلك ان القدرة الحربية عامل واحد من عوامل الاستراتيجية العليا التي يدخل في حسابها قوة الضغط المالي او السياسي او الدبلوماسي او التجاري او المعنوي ، وكلها عوامل هامة لاضعاف ارادة الخصم .

ان مدى الاستراتيجية محدود بالحرب ولكن الاستراتيجية العليا تنظر الى ما وراء الحرب ونحو السلم الذي سيعقبها . وليس عليها ان تكتفي بتحقيق التوافق بين مختلف وسائط الحرب فحسب ، انما عليها ان تنظم استخدامها بغية تلافي ما يؤذي السلم المقبل الذي يجب ان يكون ثابتا ويحقق حياة افضل .

الاستراتيجية البحتة او العسكرية :

يمكننا الان بعد تحديد بعض المفاهيم رسم الخطوط العريضة لفكرة الاستراتيجية وعناصرها الحقيقية وقواعدها الخاصة .

يتوقف نجاح الاستراتيجية قبل كل شيء على التقدير السليم للوسيلة والغاية وتحقيق تناسقهما . يجب ان تكون الغاية متناسبة مع كافة الامكانيات . يجب ان تكون الامكانيات المستخدمة للوصول الى كل غاية وسيطة كطريق للوصول الى الغاية النهائية متلائمة مع متطلبات وطبيعة هذه الغاية الوسيطة ، سواء أكانت احتلال هدف او مشاركة في مخطط عام ، علما بأن كل زيادة ضارة كالنقص تماما.

ان المطابقة الدقيقة بين الهدف والوسيلة تحقق اقتصادا كبيرا في القوى . ولكن طبيعة وصفة الحرب غير الثابتين ، ونقص الدراسات العلمية تجعل اكبر العبقريات عاجزة عن تحقيق المطابقة المثلى . ويعتمد النجاح في النهاية على الاقتراب نسبيا من الحقيقة بالحساب والتوقع .

والحسابات في الاستراتيجية أبسط واصدق من حسابات التكتيك ، لان العامل الاساسي المجهول في الحرب هو ارادة الانسان ، وتظهر هذه الارادة على حقيقتها امام الحواجز والمقاومات ومعظمها على المستوى التكتيكي . وليس امام الاستراتيجية مقاومات تتغلب عليها سوى مقاومات الطبيعة ، ويهدف مخططها الى الاقلال من امكانيات المقاومة باستخدام عاملي الحركة والمفاجاة .

والحركة عمل يتعلق بحساب ظروف الزمن والمعطيات الطبوغرافية وقدرة وسائط النقل . وتدخل المفاجاة في الحقل المعنوي ، وتتطلب حسابات اصعب من حسابات الحقل المادي ، وتتعلق بشروط مختلفة تؤثر على ارادة الخصم وتختلف في كل حالة من الحالات .

وتستطيع الاستراتيجية استخدام الحركة بدل المفاجأة وبالعكس . ولكن كل عامل من هذين العاملين يؤثر على الآخر ، اذ تؤدي الحركة الى المفاجاة ، كما تعطي المفاجأة للحركة قوة دفع جديدة . وتؤدي زيادة سرعة الحركة او تغيير اتجاهها الى المفاجاة حتى لو لم تكن الحركة سرية . ومن جهة اخرى تسهل المفاجاة الطريق امام الحركة بعرقلة تدابير العدو المضادة .

اما العلاقة بين الاستراتيجية والتكتيك فهي عبارة عن تشابك يصعب معه ايجاد الحدود بينهما اثناء التنفيذ . ومن الصعوبة بمكان تقدير لحظة انتهاء الحركة الاستراتيجية وابتداء الحركة التكتيكية ، اذ لا يختلف احدهما عن الآخر الا في المستوى . ويشمل التكتيك مدى المعركة ، ولا تقف الاستراتيجية على حدود هذا الحقل فحسب ، ولكنها تسعى الى اقلال المعارك اذا امكن ذلك .

هدف الاستراتيجية :

قد يعارض كل ما ذكرناه سابقا اولئك الذين يعتقدون خطأ بأن تدمير القوات

المسلحة المعادية هو الهدف الوحيد المعقول للحرب ، وان المعركة هي هدف الاستراتيجية الاوحد ، وهم في الواقع متأثرون بحكمة كلوزفيتس القائلة «الدم ثمن النصر» . فحتى لو اعتبرنا معهم ان المعركة الحاسمة هي الهدف المنشود ، فان هدف الاستراتيجية هو اعداد الظروف الملائمة للقيام بهذه المعركة لتكون الخسائر أقل والنتائج افضل .

وهكذا يمكن الحصول على التفوق الاستراتيجي بالوصول الى نتيجة حاسمة دون القيام بمعارك ضارية . ولقد قدّم التاريخ كما رأينا امثلة ادت فيها الاستراتيجية المطبقة في ظروف ملائمة الى نتائج حسنة . ولقد ذكرنا من هذه الامثلة معركة ليردا ليوليوس قيصر ، ومعركة بريستون لكرومويل ومعركة هولم لنابوليون ، وتطويق جيش ماكماهون على يد مولتكه وتطويق اللنبي لجيش الاتراك في فلسطين ، واحدث الامثلة هي عزل الالمان لجناح الحلفاء الايسر في بلجيكا وتطويقه بعد ان قام جودريان باختراق خطوط الحلفاء فجأة في سيدان .

وهناك حالات تم فيها تدمير القوات المسلحة المعادية بطريقة اقتصادية ، وذلك بتجريدها من سلاحها بعد استسلامها ، مما يدل على ان التدمير الذي ينادي به انصار كلوزفيتس غير ضروري للحصول على نتائج حاسمة او لبلوغ هدف الحرب . واذا لم ترغب دولة ما في احتلال دولة اخرى ، وكانت غايتها هي فقط اتخاذ الاحتياطات اللازمة للمحافظة على سلامتها ، فانها تستطيع الوصول الى هذه الغاية بابعاد الخطر وارغام العدو على التخلي عن مخططاته .

ان هزيمة بيليزير في مدينة صور بعد ان أطلق العنان لقواته الراغبة في تحقيق نصر حاسم ، رغم ان الفرس كانوا قد تخلوا عن مشروعاتهم بشأن غزو سوريا تعتبر مثالا واضحا للجهود الضائعة والاخطار الاضافية التي ليس لها مبرر. كما تقدم طريقته التي صد بها غزوهم الاخير الخطير وطردهم من سورية مثالا رائعا لكيفية الحصول على النصر والوصول الى الهدف الوطني بالاستراتيجية وحدها . ولقد ظهر العمل النفسي في هذه الحالة فعالا لدرجة اجبرت العدو على التخلي عن مخططه دون ان تكون هناك حاجة لبذل اي جهد مادي في معركة.

ان الانتصارات المشابهة التي تتم دون اراقة دماء تعتبر شيئا نادرا في التاريخ ، ولكن ندرتها لا تقلل من قيمتها بل تزيدها . انها تسلط الاضواء على الامكانيات الكامنة في الاستراتيجية والاستراتيجية العليا ، وفي الحرب النفسية.

والحكومة مسؤولة بطبيعة الحال عن الاستراتيجية العليا خلال الحرب ، وعليها اختيار الاستراتيجية التي تريدها للوصول الى انتصار عسكري او من اي نوع آخر . وكما ان الوسائل العسكرية تعتبر شكلا واحدا من اشكال الوصول الى هدف الاستراتيجية العليا ، فان المعركة هي احدى الوسائل للوصول الى هدف الاستراتيجية . واذا كانت الظروف ملائمة اصبحت الوسائل العسكرية أسرع السبل للوصول الى النتيجة المرجوة ، ولكن من الحماقة استخدامها في الحالات الاخرى .

ولنفرض ان استراتيجياً عهد اليه بالعمل على تحقيق نصر عسكــري . أن مسؤوليته تنحصر في محاولة الوصول الى هذا النصر فـــي أحسن الظروف للحصول على افضل النتائج . ولن يكون هدفه الحقيقي البحث عن المعركة بــل العمل على خلق وضع استراتيجي ملائم ان لم يؤد بنفســه الى النصر خلق وضعا ملائما لمعركة تأتي بعده لتنتزع هذا النصر . ويمكننا ان نقول ان التفتيت هـــو هدف الاستراتيجية ، ويترتب على ذلك تحطيم العدو بشكل أسهل خلال المعركة، وقد يتطلب هذا التحطيم في بعض الحالات نشوب معارك واشتباكات ولكنها لا تكون ضارية ابدا .

العمل الاستراتيجي :

كيف يتم تحقيق التفتيت الستراتيجي ؟ يمكن الوصول الى هذه النتيجة في الحقل المادي او «الاداري» نتيجة حركة :

أ ـ تسبب اضطراب تشكيلة العدو وتجبره على اجراء تبديل مفاجيء فـــي جبهته ، وتحطم توزيع وتنظيم قواته .

ب ـ تقسم قوات العدو .

جـ ـ تهدد خطوط تموينه .

د ـ تهدد الطريق او الطرقات التي يستطيع منها القيام بتراجع نحو قاعدته او الى موطنه الاصلي .

ويمكن الحصول على التفتيت بأحد هذه المؤثرات ، ولكنه يحصل غالبا نتيجة عدة عوامل . والتمييز في الحقيقة صعب ، لان حركة موجهة الى مؤخرة العدو يمكن ان تجمع كل هذه المؤثرات ، ويختلف تأثير كل واحد منها كما حدث خلال التاريخ حسب اهمية الجيوش وتعقيد تنظيمها . فاذا كانت الجيوش تعتمد في حياتها على موارد البلاد نفسها وتأخذ تموينها مـــن المصادر المحلية بالنهب او المصادرة اصبحت طرق تموينها ذات اهمية قليلة . اما اذا كانت الجيوش ارقى تنظيما ، وتعتمد على قواعد تموينها فان صغر حجم الجيش يقلل من اعتماده على طرق مواصلاته . وكلما كبر الجيش اصبح تأثير الهجمات الموجهة الى خطـــوط مواصلاته اكبر واسرع .

عندما لم تكن الجيوش تعتمد على خطوط تموينها كان تأثير الاستراتيجيـــة محدودا وكان التكتيك يلعب الدور الاكبر ، ومع هذا حصل بعض الاستراتيجيين الماهرين على نتائج حاسمة قبل المعركة بتهديد طريق انسحاب العـــدو او توازن قواته او تموينه المحلي .

ويتم القيام بمثل هذا التهديد ، ليكون حاسما ، على نقطة قريبة من جيش العدو من حيث الزمان والمكان وليس على مواصلاته البعيدة . لذا كان مـــن الصعب في فن الحرب القديم التفريق بين المنـــاورة الاستراتيجية والمنـــاورة

التكتيكية .

وتم التفتيت في الحقل النفسي بالتأثير على أفكار القائد . ويزداد التأثير اذا ما لاحظ القائد فجاة انه في موقف غير ملائم وشعر بعجزه عن مقاومة حركة العدو . ويأتي التفتيت النفسي بصورة رئيسية عند الشعور بالسقوط في الفخ بعد قيام العدو بحركة مادية على المؤخرات . والجيش كالرجل لا يستطيع الدفاع بصورة فعالة ضد ضربة تأتيه من الخلف ، دون ان يستدير ليستخدم اسلحته ضد هذا المهاجم و«عملية الاستدارة» تجعل الجيش يفقد توازنه ، وتضعه في وضع قلق بعض الوقت . وهكذا فالمخ يكون اكثر تأثرا بكل خطر قادم من وراء الظهر .

وعلى العكس ، يؤدي السير بصورة مباشرة نحو العدو الى تقوية توازنه المادي والمعنوي ، وزيادة قدرته على المقاومة . وهو يدفع جيش الخصم نحو مؤخراته وقواته الاحتياطية ومراكز تموينه . وهذا العمل يضعف ولا شك الجبهة ولكنه يضيف قوات جديدة الى المؤخرات . ولهذا فانه من الافضل انهاك العدو بدلا من محاولة تحطيمه بصدمة مباشرة .

وتهدف حركة الالتفاف حول مجنبة العدو او نحو مؤخرته الى تحاشي كل مقاومة خلال تنفيذ الحركة وبعد انتهائها . وهذه الحركة تسلك «أقل السبل مقاومة» . ويعادلها في الحقل النفسي القيام بعمل غير متوقع او على « الخط الاقل توقعا » .

ولا يشكل السير مباشرة نحو مؤخرات العدو هجوما غير مباشر استراتيجي ، وليس فن الاستراتيجية بمثل هذه البساطة ، وقد يبدأ مثل هذا الهجوم بشكل غير مباشر بالنسبة لجبهة العدو ولكن متابعة التقدم على المؤخرات بعد ذلك بشكل مباشر قد يدفع العدو الى تعديل مواضعه ، وعندئذ يجد المهاجم ان حركته غير المباشرة قد انقلبت الى حركة مباشرة على جبهة جديدة معكوسة .

أن من الضروري لمنع العدو من تغيير اتجاهه القيام بحركة «مشاغلة» او اكثر قبل القيام بحركة التدمير الرئيسية ، وذلك بقصد تشتيت انتباه العدو وحرمانه من «حرية العمل» ، على ان تتم هذه المشاغلة في المجالين المادي والمعنوي . فهي في المجال المادي تؤدي الى توزيع امكانياته ، أو توجيهها نحو اهداف عقيمة غير مجدية بحيث يتعذر عليه التدخل بقوة والتأثير بشكل حاسم على نتيجة مناورة المهاجم ، نظرا لتوزعه بشكل كبير واشتباكه في اماكن اخرى. كما تؤدي في المجال المعنوي الى نتائج مشابهة للذعر الذي يسيطر على القيادة المعادية وشعورها بأنها خدعت . ويتم ذلك بخداع العدو ثم مفاجأته ، لان خداع العدو وايقاعه في الخطأ عبارة عن مشاغلة، اما المفاجأة فهي السبب الرئيسي للتفتيت . وتؤدي «مشاغلة» تفكير القائد بطبيعة الحال الى مشاغلة وسائطه . كما ان فقدان حرية العمل يأتي من فقدان حرية التفكير والتقدير .

ان التقدير الدقيق لكيفية تأثير المجال المعنوي وسيطرته على المجال المادي

يعتبر عملا غير مباشر في حد ذاته . ويذكرنا بسطحية وعدم فائـــدة المحاولات التي تهدف الى اجراء تحليلات وبناء نظريات استراتيجية بشكل حسابي بحت . ان اعتبار الاستراتيجية عملية حسابية تتوقف نتائجها بصورة اكيدة على حشــد الوسائط بصورة متفوقة على نقطة مختارة بدقة امر خاطىء كخطأ التفكير فــي الاستراتيجية على اساس هندسي ، اي باستخدام كلمات الالتفاف والخطــوط والزوايا .

وقد ابتعدت بعض الكتب التقليدية عن الحقيقة بشكل اكبر عندمـــا حاولت دراسة الحرب كما لو كانت في الاصل عملية تجميع قوات اكثر . ولقــد كتب المارشال فوش في تعريفه المشهور للاقتصاد في القوى ، بأنه فن استخدام كل الموارد في زمان ومكان محددين ، على ان يتم فيهما استخدام كل الوحـــدات وتنظيم المهام بينها لتعمل مترابطة مع بعضها ، بدلا من توزيعها واعطاء مهمـــة واحدة ثابتة لا تتبدل لكل وحدة منها . وعندما يتم الحصول على النتيجة يصبح هذا المبدأ عبارة عن توزيع الوحدات بشكل تستطيع معه التجمع والعمل من جديد على هدف موحد .

واذا اردنا الدقة والواقعية في التعبير قلنا ان على الجيش ان يكون متمفصلا بشكل تستطيع كل عناصره العمل والتعاون مع العناصر الاخرى لتحقيـــق اكبر تجميع ممكن في مكان ما ؛ ولا تترك للنقاط الاخرى سوى الحد الادنى الضروري من الامكانيات وذلك لتسهيل نجاح عمليات التجمع الرئيسي .

ان تجميع كافة الوسائط عمل مثالي من المتعذر تحقيقه ، كما أظهر التطبيق العملي ان «الحد الادنى الضروري» يشكل احيانا بالنسبة للمجموع جانبا يفـوق «اكبر تجمع ممكن» . ويمكننا ان نقول انه كلما كانت الوسائط المستخدمة لمشاغلة العدو معقولة وناجحة كلما كانت فرصة التجمع الرئيسي في النجاح كبيرة .

ولا يكفي القيام بضغط كبير على نقطة حساسة الا اذا كان العدو عاجزا عـن تقوية هذه النقطة المعرضة للهجوم في الوقت المناسب ، او كانت النقطة ضعيفة جدا ماديا ومعنويا . وقد ازدادت ضرورة «المشاغلة» في الآونة الاخيرة بعـــد ازدياد قدرة الردع التي تملكها الاسلحة الدفاعية الحديثة .

الاسس الاستراتيجية :

هناك حقيقة أعمق هي اننا في حاجة لان نضرب وان نحتمي من الضربات . وللقيام بضرب فعال يجب مفاجأة العدو قبل ان يأخذ حذره ، ولا يمكن تجميع القوى بشكل فعال الا اذا كانت قوات العدو مبعثرة . وللحصول على هذا التبعثر علينا توسيع جبهتنا بشكل كبير ، وفي هذا تناقض واضح لان التجميع الحقيقي هنا ثمرة للتوزيع . ومن الضروري ايجاد اهداف متناوبة عند محاولة احتـــلال هدف ما ، لانه اذا عرف العدو على وجه التحقيق النقطة التي اخترتها كهـــدف

تمكن من ان يأخذ حذره ويخلق الوسائل المناسبة للمقاومة . اما اذا وقع الاختيار على محور جهد يهدد اهدافا متناوبة ، فانه يمكن مشاغلة العدو وخداع افكاره ووسائطه ، وهذه افضل طريقة لمشاغلة العدو لانها تسمح بالمحافظة على اكثر القوات المهاجمة جاهزة للعمل على خط العمليات الحقيقي ، وتحقق اكبر تجمع ممكن في الوقت الذي تكون فيه قوات العدو مبعثرة .

ان عدم وجود اهداف متناوبة عمل يخالف طبيعة الحرب الحقيقية ، ويناقض الافكار اللامعة التي نشرها بورسيه في القرن الثامن عشر ، وكان مما قاله : «يجب ان يكون لكل مخطط معركة عدة فروع ، على ان يكون كل فرع منها قادرا على السير بالمعركة الى النجاح . وقد طبق نابليون بونابرت هذا الدرس من بعده وكان يبحث دائما كما يقول عن «انشاء مخطط ذي فرعين» . ثم استفاد شيرمان بعد ٧٠ سنة من هذه التجربة وخلق فكرته الجديدة التي تهدف الى «وضع العدو في حالة تستولي عليه فيها الحيرة» . وكان ينادي دائما بالتلاؤم مع الظروف بغية الوصول الى النجاح .

ولنكون في حديثنا عمليين نقول : ان كل مخطط ينبغي ان يأخذ بعين الاعتبار احتمالات احباطه بواسطة العدو . وافضل وسيلة للتغلب على هذه المشكلة هو عمل مخطط يتلاءم بسهولة مع الظروف . وللمحافظة على قدرة التلاؤم مع الاحتفاظ بعامل المباداة يجب استخدام خط يقود الى اهداف متناوبة لوضع العدو «على طرفي المعضلة» اي جعله في حيرة تامة ، وهذا العمل يحقق على الاقل كسب احد الاهداف (اقلها حراسة وحماية) ، كما يجعل من الممكن احتلال الهدف الثاني بعد سقوط الاول .

ان العدو يضع غالبا تنظيماته التكتيكية طبقا لطبيعة الارض ، واختيار الاهداف التكتيكية مع وضع العدو امام معضلة اصعب من العملية المشابهة لها في المجال الاستراتيجي حيث يكون العدو في هذا المجال قد اتخذ استعداداته بطبيعة الحال لحماية مراكز سككه الحديدية ومراكزه الصناعية . ويمكن الحصول على ميزة مماثلة اذا طابق المهاجم محور جهده مع شكل ومقدار المقاومة التي يصادفها مع استثمار كل ضعف يظهر من جانب العدو .

قطع خطوط المواصلات :

اذا وضع مخطط عمليات يهدف الى تهديد مواصلات العدو سواء اكان ذلك بمناورة التفاف على مجنبته او باستثمار اختراق سريع لجبهته ، برز سؤال يستحق الاهتمام وهو : ما هي افضل نقطة يمكن ان يوجه منها هذا التهديد لتحقيق افضل نتيجة ؟ وهل يجب ان تكون هذه النقطة على مؤخرات جيش العدو مباشرة ام الى الخلف قليلا ؟ والجواب على ذلك انه اذا تم قطع المواصلات على

مقربة من الجيش كان التأثير فوريا ، وان تم قرب القاعدة كان التأثير ضخما . ويزداد التأثير في الحالتين ضخامة وسرعة وعمقا اذا كانت العملية ضد عـدو متحرك بينما تنقص التأثيرات اذا كان العدو متمركزا في مواقعه . ويتوقـف اختيار اتجاه الهجوم على الوضع الاستراتيجي وظروف تموين الجيوش المعادية ، وهذا يعني عدد خطوط تموينه وامكان اتخاذ خطوط تموين تبادلية ، وكمية المواد التي يكدسها عادة في المستودعات القريبة من الجبهة . ويجب ان ندرس بعـد فحص جميع هذه العوامل امكانيات التقدم لمختلف الاهداف الممكنة ، وهذا يعني دراسة المسافة ، والحواجز الطبيعية ، والمقاومة المتوقعة .

وهكذا يمكن الحصول على نجاح اكبر ونتائج اهم بقطع مواصلات العدو عند مؤخرته على عمق كبير ما أمكن ، الا اذا كانت الحواجز الطبيعية صعبة جدا ، او كان العدو مستقلا تماما عن قواعده .

ومن الجدير بالذكر ان صدمة قريبة من مؤخرة جيش العدو تؤثر على افكار المقاتلين بينما تؤثر الصدمة البعيدة في العمق على تفكير القائد نفسه .

وعلينا ان نفهم ان قطع التموين لا يتم بتدمير الطرق فحسب بل ايضا بتهديد القطارات والقوافل او مهاجمتها . ولقد زادت امكانيات هذا النوع من العمل مع ظهور الوحدات الميكانيكية نظرا لمرونتها ومقدرتها على المناورة في مختلف الاراضي. واكدت الحرب العالمية الثانية هذه الحقيقة .

طريقة التقدم :

كان الزحف بتشكيلات متجمعة هو قاعدة التقدم حتى نهاية القرن الثامـن عشر سواء في المستوى الاستراتيجي (نحو ميدان المعركة) او في المستـوى التكتيكي (ضمن ميدان المعركة) . ثم استخدم نابليون بعد ذلك افكار بوسيـه وانشأ نظام الفرق الجديد وأدخل الحركة الاستراتيجية المتمفصلة . ولم يعـد الجيش يتحرك ككتلة واحدة بل بوحدات مستقلة . ومع ذلك بقي التقدم التكتيكي ينفذ حتى ذلك الوقت بتشكيلات متجمعة .

وفي نهاية القرن التاسع عشر تقدمت الاسلحة النارية واضطرت الجيوش الى اجراء الحركات التكتيكية بتشكيلات مبعثرة ، اي بعناصر صغيرة متباعدة بغيـة الاقلال من تأثير تعرضها لخطر هذه الاسلحة ، اما التقدم الاستراتيجي فعلـى العكس ، اصبح متجمعا ويعود ذلك الى ظهور السكك الحديدية وكبر تعداد الكتل البشرية المشتركة في القتال .

وأصبحت العودة الى طريقة التقدم الاستراتيجي بتشكيلات متمفصلة امـرا ضروريا لتجديد فن ونتائج الاستراتيجية ، ثم تدخلت عوامل اخرى (كالطيـران والمدرعات) في توجيه التطور المقبل للزحف الاستراتيجي بتشكيـلات مبعثرة . وجاءت اخطار الهجوم الجوي ، والرغبة في خداع العدو ، وضرورة الاستفادة

ما أمكن من حركة القوات الميكانيكية لترغم الجيوش على التفكير في تحريك الوحدات بشكل متمفصل جدا بحيث تتلاءم تشكيلات الزحف مع العملية العسكرية ، وبحيث لا تزيد البعثرة عن الحد المعقول الذي يسمح بالمحافظة على تماسك الوحدات . وازدادت ضرورة هذا الاجراء بعد ظهور السلاح الذري ، وجاء تقدم اللاسلكي ليحقق التوافق بين البعثرة وامكانية قيادة الوحدات .

وبدلا من الاكتفاء بالفكرة البسيطة السابقة المبنية على عملية مجمعة ينفذها جيش متجمع ، اصبح في الامكان الان اختيار حالة من الحالات التالية حسب الظروف :

١) تقدم بتشكيلات مبعثرة نحو هدف مشترك واحد .

٢) تقدم بتشكيلات مبعثرة نحو سلسلة من الاهداف المتعاقبة ، (وتتطلب هاتان الحالتان القيام بمناورات أولية بغية شغل انتباه وقوى العدو الا اذا كانت هناك اهداف متناوبة قادرة على تأمين هذه المشاغلة نتيجة لشك العدو وتردده).

٣) تقدم بتشكيلات مبعثرة نحو عدة اهداف في وقت واحد . ولقد اثبتت تجارب الحرب العالمية الثانية ان تراكم تأثير سلسلة من النجاحات الجزئية أو التهديدات الموجهة لعدد من النقاط خير من النجاح الكامل في نقطة واحدة .

الفصل العشرون

جوهر الاستراتيجية والتكتيك

يمكن ايجاز مبادىء الحرب في كلمة واحدة هي «التجمع» او بصورة ادق «تجمع القوة ضد الضعف» . وليكون لهذه الجملة قيمة ومعنى ، علينا ان نشرح ان تجمع القوة ضد الضعف يتعلق بتوزيع قوات العدو الناجم عن توزيع قواتنا الذي يعطي العدو فكرة عن تبعثرنا . ان تبعثرنا وتبعثره ثم تجمعنا عبارة عن سلسلة من العمليات التي تنجم الواحدة منها عن الاخرى . وما التجمع السليم سوى ثمرة توزيع مدروس بحكمة .

ونجد هنا مبدأ اساسيا يسمح تفهمه بتحاشي اعطاء العدو الزمن والحرية ليجتمع ضدنا ، ولفهم هذا المبدأ الاساسي واستخدامه عمليا يمكن شرحه بثمانية مبادىء عملية ، وتنطبق على التكتيك انطباقها على الاستراتيجية الا اذا كانت تعليمات مخالفة . وهذه المبادىء هي :

١) «طابقوا الهدف مع الامكانيات» . لان من الحماقة ان نرغب في اشياء لا نستطيع صنعها . وتبدأ الحكمة العسكرية عندما يستطيع المرء رؤية ما هو ممكن . تعلموا تقدير الاوضاع الحقيقية الماثلة امامكم دون ان تكتفوا بمجرد الاعتقاد . يجب ان تكون لديكم ثقة كبيرة منذ بداية العمل ، وهذا ما يجعلكم تنجحون في أمور تبدو لكم مستحيلة ، شريطة ان لا تستهلكوا هذه الثقة .

٢) «احتفظوا دائما بالهدف ماثلا امامكم» ، مع مطابقة مخططكم على الظروف ، واعرفوا ان هناك اكثر من طريق للوصول الى الهدف ، ولكن خذوا حذركم اثناء الطريق لان كل هدف وسيط يؤثر على الهدف الاصلي . وبعد تقدير الاهداف المحتملة زنوا الامكانيات المتوفرة لديكم للوصول اليها وقارنوا فائدتها بالنسبة للهدف العام اذا ما تم الوصول اليها . وتذكروا ان الفشل في فرصة استثنائية طارئة امر سيء ولكن متابعة الجهد غير المجدي امر اسوأ.

٣) «اختاروا الخط الاقل توقعا» وحاولوا ان تضعوا انفسكم دائما مكان العدو ، وفكروا كما لو كنتم في صفوفه لتقدروا الاشياء التي لا يتوقعها .

٤) «استثمروا خط المقاومة الاضعف» ما دام قادرا على ايصالكم الى هدف يؤدي احتلاله الى الوصول للهدف العام (ينطبق هذا المبدأ في التكتيك على استخدام قواتكم الاحتياطية ، كما ينطبق في الاستراتيجية على استثمار كل نجاح تكتيكي) .

٥) «خذوا خط عمليات يؤدي الى اهداف متناوبة» فتضعون عدوكم بذلك في حيرة تامة ، مما يؤمن لكم الوصول على الاقل الى الهدف الاقل حماية . ثم يمكنكم احتلال الهدف الثاني بعد سقوط الاول . وتهديد الاهداف المتناوبة يسمح باحتلال هدف واحد على الاقل بينما يؤدي تهديد هدف واحد الى احتمال الفشل في الاستيلاء عليه ، ذلك لان مفاجأة العدو لا تدوم طويلا .

٦) «راعوا المرونة سواء في المخطط او التشكيلة بحيث يتلاءمان مع الظروف» . ويجب ان يتوقع مخططكم المرحلة التالية ويستعد لها في حالات النجاح او الفشل او النجاح الجزئي الذي يقع غالبا في الحرب . كما يجب ان تكون مواضعكم وتشكيلاتكم قادرة على التلاؤم والتوافق ، مع استغلالها في اقصر مدة ممكنة .

٧) «لا تلقوا بكل ثقل امكانياتكم في عمل اذا كان عدوكم محترسا» . لانه يكون حينئذ مستعدا لصد هذه الصدمة او تحاشيها . وتعلمنا التجربة التاريخية انه لا يمكن ان تحقق اية ضربة نتيجة بشكل فعال اذا لم تشل مقاومة العدو او قدرته على تحاشي هذه الضربة ، وليس هناك قائد يقبل القيام بهجوم حقيقي على عدو متمركز قبل ان يتأكد من ابتداء هذا الشلل . وينجم هذا الشلل من فقدان النظام لدى العدو او من تحطيم معنوياته .

٨) «لا تجددوا الهجوم على نفس الخط او بنفس الشكل بعد ان فشل في المرة الاولى» . وتقوية الامكانيات المهاجمة لا تبرر تجديد مثل هذا الهجوم لان من المحتمل ان يكون العدو قد حصل على قوى جديدة خلال هذه الفترة ؟ كما ان من المتوقع ارتفاع روحه المعنوية بعد ان نجح في صدكم للمرة الاولى .

وتدل هذه المبادىء على انه ينبغي لتحقيق النصر حل مشكلتين هامتين هما تفتيت قوات العدو ، ثم استثمار هذا العمل . ومن المتعذر عليكم ضرب العدو بشكل فعال قبل ان تمهدوا لذلك بخلق ظروف ملائمة لتحقيق هذا العمل . ولا يمكن ان تصبح الضربة حاسمة الا اذا استطعتم استثمار الفرصة الجديدة قبل ان يسترد العدو وعيه .

الفصل الواحد والعشرون

الهدف الوطني والهدف العسكري

يجب علينا عند دراسة كلمة «هدف» في الحرب ازالة اي غموض قد يتعلق بمعناها . وينبغي الا ننسى الفرق بين الهدف السياسي والهدف العسكري المختلفين عن بعضهما رغم ارتباط احدهما بالآخر . وليس الهدف العسكري سوى وسيلة لخدمة غاية سياسية ، ولكن يجب ان تتطلب السياسة هدفا عسكريا يمكن الوصول اليه عمليا .

واستخدام كلمة «هدف» لا يحقق المعنى المطلوب تماما ، لانها تحوي في طياتها معنى مزدوجا ماديا وجغرافيا مما يؤدي الى بلبلة التفكير . ومن الافضل استعمال كلمة «غاية» عند التحدث عن الخطة السياسية الكبيرة وكلمة «هدف عسكري» عندما نتحدث عن الطريقة التي تستخدم بها القوات المسلحة لصالح السياسة .

ان غاية الحرب هي تحقيق السلم في ظروف افضل . لذا يجب قيادة الحرب مع التفكير في السلم الذي سيعقبها . وينطبق هذا الامر على الشعوب المعتدية الراغبة في التوسع انطباقه على الشعوب المسالمة التي تقاتل للدفاع عن نفسها ، رغم اختلاف مفهوم السلم الافضل .

والتاريخ يثبت ان الحصول على نصر عسكري لا يعني الوصول الى الغاية

السياسية ، ولكن تفكير العسكريين الدائم في الحرب يدفعهم الى نسيان الهدف الوطني الاساسي ورؤيته من خلال الهدف العسكري فقط . لذلك كانت السياسة في الحروب الماضية تسير على ضوء الهدف العسكري الذي اعتبره الكثيرون غاية في حد ذاته ، بدلا من ان يبقى مجرد وسيلة في سبيل خدمة الغاية الاصلية .

ثم اصبحت هذه التأثيرات اكثر خطورة ، لان نسيان العلاقة الحقيقية بين الغاية والهدف العسكري ، وبين السياسة والاستراتيجية ترتب عليه تبديل الهدف العسكري حتى غدا بسيطا جدا .

كانت القاعدة الاولى للنظرية العسكرية خلال اكثر من قرن ترى ان «تدمير الجيوش الرئيسية للعدو في ميدان المعركة» هو الهدف الحقيقي الوحيد للحرب. وكان هذا الامر بديهيا . ولو تجرأ احد رجال الدولة واعرب عن شكه في هذه القاعدة ، واعتبرها متناقضة مع الهدف الوطني لنظر اليه كما لو كان زنديقا .

ولو اطلع القادة الكبار والاساتذة العسكريون واصحاب النظريات الحربية قبل القرن التاسع عشر على هذه القاعدة المطلقة لأصيبوا بدهشة واستغراب ، ذلك لانهم كانوا يعرفون معنى ضرورة موافقة الاهداف بشكل معقول مع السياسة وحدود القوة .

تأثير كلوزفيتس :

رسخت هذه القاعدة رسوخا عميقا في الاذهان بتأثير كلوزفيتس بعد موته وتأثير كتابه الذي سيطر على افكار القادة البروسيين وخاصة مولتكه . وادت الانتصارات الالمانية الباهرة في عام ١٨٦٦ وعام ١٨٧٠ الى انتشار افكاره في كل الجيوش العالمية التي بدات تقلد النظام البروسي في كثير من النواحي .

واستنتج انصار كلوزفيتس من تعليماته بعد موته اشياء تتسم بالمبالغة التي لم يفكر معلمهم فيها مطلقا . ان عدم فهم الناس لافكار شخص ما مسألة طبيعية صادفت معظم المفكرين في مختلف المجالات . وكم اساء انصار مؤمنون غير اذكياء لفكرة اساسية اكثر مما اساء اليها خصومها . كانت نظرية كلوزفيتس الحربية غامضة ومعقدة بالنسبة لتفكير الرجل العسكري العادي الذي يبحث غالبا عن الاشياء الملموسة ، وقد فسر هؤلاء العسكريون معاني عباراته تفسيرا خاطئا ، ولم يفهموا منها سوى معناها السطحي .

ولقد ادخل كلوزفيتس بحثا جديدا على نظرية الحرب عندما اعطى العامل المعنوي اهمية كبرى ، وقاوم فكرة الاستراتيجية الهندسية المبنية على الحركات وهي الفكرة التي كانت شائعة حينئذ . وقد اوضح ان الفكر البشري اهم بكثير من زوايا العمليات وخطوطها . كما قدّم افكارا سليمة حول تأثير الخطر والتعب، واهمية الشجاعة والقرارات الواضحة التي تتخذ بهدوء وحزم . ومع ذلك اثرت اخطاؤه بشكل عميق على سير التاريخ فيما بعد .

كان تفكير كلوزفيتس يتجه الى الناحية البرية بدرجة كبيرة منعته من فهم القدرة البحرية . وكانت افكاره محدودة اذا ما قيست بالنسبة للعصر الآلـــي عندما قال : «ان التفوق العددي اصبح حاسما بشكل متزايد» . ولقد عززت هذه الفكرة الميول الرجعية للرجال الذين لا يؤمنون بامكانيات الآلة . كما أيدت فكرة التجنيد الالزامي لجمع اكبر عدد ممكن من الرجال .

ولم يات كلوزفيتس بشيء جديد او يدعو الى الملاحظة في الافكار التكتيكية او الاستراتيجية . ولم يؤثر على فن الحرب اي تأثير ثوري مشابه للتأثـــيرات الناجمة في القرن الثامن عشر عن تطبيق «نظام الفرق» وفي القرن العشرين من استخدام «الحركة المدرعة» .

نظرية كلوزفيتس عن الهدف العسكري :

يقول كلوزفيتس : «ان هدف العمل الحربي هو نزع سلاح العدو ، وسنثبت ان ذلك ضروري على الاقل من الناحية النظرية . واذا كانت غايتنا هي دفـــع العدو الى السير وفق ارادتنا ، فان علينا ان نضعه في موقف يزيد تأثيره عـــن التضحيات التي نطلبها منه . ولا يجب ان تكون مساوىء موقفه مرحلية ، على الاقل في مظهرها ، وإلا قاوم العدو بدل الخضوع آملا ان يتطور الموقف لصالحه. ويجب ان تؤدي تبديلاته التي ترمي الى متابعة الحرب الى موقف اسوأ» .

«ان اسوأ وضع يقع فيه المقاتل هو عندما يجد نفسه مجردا مـــن سلاحه . فاذا اردنا اجبار العدو على الاستسلام وجب علينا تجريده من سلاحه او وضعه في موقف يهدده باحتمال تجريده منه . وهكذا فيجب ان يكون نزع سلاح العدو او هزيمته هو ... هدف فن الحرب» .

ويبالغ كلوزفيتس في افكاره ، ويبدو هذا واضحا عندما يتحدث عن المعركة التي يعتبرها وسيلة لخدمة هدف الحرب . وهو يفتتح الحديث بهذا التأكيـــد المطلق «ليست هناك سوى وسيلة واحدة هي المعركة» . ويؤكد هذا بحجج كثيرة تدل على ان «فكرة المعركة هي الاساس» في جميع أشكال النشاط العسكري .

ويعلن كلوزفيتس علاوة على ذلك بأنه «يجب ان يكون حجم قواتنا العسكرية كبيرا ما دام هدفنا المنشود هو تدمير قوة العدو . وعلينا ان نعرف ان كل جهد نبذله لتدمير العدو ينعكس علينا ويؤدي الى اسوأ النتائج في حالة الفشل» .

وليس هناك قارىء من مائة قارىء استطاع فهم منطقه ، ولكن كافة قرائـــه استطاعوا حفظ جمل طنانة كهذه :

«ليس لدينا سوى وسيلة واحدة للحرب هي المعركة» .

«الحل الدموي للأزمة بعد الجهد المبذول لتدمير جيوش العـــدو هو ابـــن الحرب البكر» .

«لا يمكن الحصول على نتائج كبيرة الا بمعارك كبيرة شاملة» .
«لا تحدثونا عن قادة ينتصرون دون سفك دماء» .

ان ترديد مثل هذه الجمل حرم فلسفته من الامتداد ، وجعلها شبيهة بالاناشيد التي تجعل الدماء تغلي والافكار تتسمم ، حتى اصبحت فلسفته فيما بعد عقيدة صالحة لتعليم العرفاء (الاومباشية) وليس لتثقيف الجنرالات . لان اظهار المعركة «كنشاط حقيقي» وحيد في الحرب حجب الاضواء عن الاستراتيجية ، وجعل الحرب مجرد مذبحة في مجزر بشري ، ودفع القادة للبحث عن المعركة باعتبارها اول ما يشغل اذهانهم بدلا من بذل الجهود لخلق الظروف الملائمة للعمليات الحربية .

وقد ساهم كلوزفيتس في هبوط فن القيادة فيما بعد عندما كتب عبارته المشهورة : «يتصور الانسانيون بسهولة ان هناك طريقة بارعة لنزع سلاح العدو والسيطرة عليه دون اراقة دماء غزيرة ، وان فن الحرب يتجه في جوهره نحو هذه الطريقة ... وهذا خطأ ينبغي التخلص منه» . وهو يخالف بذلك كل اساتذة فن الحرب .

ولقد اخذ رجال الحرب الميالون لسفك الدماء يرددون عبارة كلوزفيتس لكي يلتمسوا لانفسهم العذر ، ولكي يبرروا ضياع الارواح البشرية التي تزهق خلال هجمات عقيمة غير مجدية .

وزاد من خطر أفكاره اصراره الدائم على الاهمية الحاسمة للتفوق العددي . وقد ذكر في بعض كتاباته بأن المفاجأة هي «اساس كافة الخطط اذ لا يمكن بدونها تحقيق التفوق في نقطة حاسمة» . ولكن تلامذته لم يتبينوا ذلك وتأثروا بترديده الدائم لكلمة «عدد» حتى دخل في روعهم ان الكتل البشرية الكبيرة هي افضل وسيلة لبلوغ النصر .

نظرية كلوزفيتس عن الغاية :

ومن اخطر ما جاء به كلوزفيتس دعوته الى الحرب الشاملة ، ومناداته بان الطريق الى النصر يسير مع استخدام القوة بلا حدود . وهكذا بدات نظريته بتعريف الحرب على انها استمرار السياسة بوسائل اخرى ، ثم انتهت الى هذا التناقض الذي يجعل من السياسة عبدا خاضعا للاستراتيجية غير الحكيمة .

ولقد زادت خطورة آرائه عندما قال ان «ادخال مبدأ الاعتدال في فلسفة الحرب ينطوي على حماقة ، لان الحرب عمل عنيف الى اقصى مدى العنف» .

وقد اخذ هذا القول كقاعدة لبناء الفكرة الحمقاء للحرب الشاملة الحديثة . وهذا المبدأ ينطوي على تجاهل فن السياسة الاستراتيجية الحكيمة التي تخدم الغاية السياسية .

واذا كانت الحرب استمرارا للسياسة كما يقول كلوزفيتس فمن الضروري

اجزاؤها دون تناسي الفائدة التي ستأتي بعدها . وان دولة تبذر قواتها في القتال الى درجة الانهاك تقع في افلاس سياسي محقق . ولقد توفي كلوزفيتس بالكوليرا عام ١٨٣١ دون ان يشرح افكاره . لذا بقيت الطريق مفتوحة امام «الافكار المغلوطة» التي لم يكن يتوقعها ، لان تقبل العالم لنظرية الحرب الشاملة بلا حدود ، دفع الدول الى محاولة تدمير الحضارة البشرية خلال حربين عالميتين هائلتين .

انتشار النظرية بعد الحرب العالمية الاولى :

ان سير الحرب العالمية الاولى ونتائجها يتيح من الدلائل ما يجعلنا نشك في صلاحية نظرية كلوزفيتس ، او على الاقل كما فهمها وطبقها انصاره الذين جاؤوا من بعده . وقد وقعت في اوربا معارك برية لا تحصى دون ان تؤدي الى النتيجة الحاسمة التي كانت تنتظر منها . وكان القادة المسؤولون يتسمون بالبطء في ملاءمة الهدف مع الظروف ، وفي خلق وسائل جديدة لبلوغ هذا الهدف . وبدلا من ان يدرسوا المشكلة ليجدوا الحل اللائم ، نراهم يدفعون قواتهم الى ما وراء حدود سلامتها ، ويسعون وراء تحقيق النصر الكامل عن طريق المعركة .

وعندما انهار احد الخصمين في النهاية كان انهياره ناجما عن فراغ معدته بسبب الضغط الاقتصادي الذي قامت به القوات البحرية ، علاوة على الدم الذي سفك بغزارة . ولقد ادت الهجمات الالمانية العقيمة في عام ١٩١٨ الى ضياع الارواح وفقدان المعنويات مما عجّل بانهيار المانيا ، ولقد اعطت هذه الحالة لشعوب الحلفاء نتيجة تشبه الانتصار من الوجهة الشكلية فقط ، لان الجهود التي بذلتها للحصول على هذه النتيجة كانت منهكة على الصعيدين المادي والمعنوي لدرجة جعلت هؤلاء «المنتصرين» ظاهريا عاجزين عن تقوية مواقعهم المكتسبة . وهذا ما يدل على ان هناك شيئا غير صحيح في النظرية ، او على الاقل في تطبيقها التكتيكي او الاستراتيجي او السياسي .

ويؤكد دور القوات البحرية الحاسم الذي ادى الى انهيار العدو تحت تأثير الضغط الاقتصادي دون وقوع اية معركة بحرية حاسمة .

ويدفعنا الى دراسة تقدم الطيران الذي اصبح قادرا على ضرب المراكز الاقتصادية والمعنوية المعادية دون ان يسبق ذلك بالضرورة عملية «تدمير قواته الرئيسية في ميدان المعركة» . ان القوات الجوية تستطيع تحقيق غاية مباشرة بوسائل غير مباشرة ، وذلك بالقضاء على كل مقاومة بدلا من الاكتفاء باقلالها .

وأدى التقدم في مجال المحركات التي تدور بالبنزين والجرارات التي تسير على جنزير الى فتح السبيل امام الوحدات البرية الآلية التي تتمتع بقدرة كبيرة على الحركة ، وكشف امكانيات جديدة أوسع لتحقيق انهيار «جيوش العدو الرئيسية»

دون القيام بمعارك كبيرة ضارية ضدها ، والاكتفاء بقطع طرق مواصلاتها ، وتحطيم جهاز قيادتها واتصالاتها ، وشل قواها بصدمة عصبية نتيجة التوغل العميق على مؤخراتها .

ان امكانيات الحركة في القوات الجوية تسمح بالقيام بضربات على شكل هجوم غير مباشر ارضي ، مع تحاشي الجيوش المعادية التي تعتبر في حد ذاتها بمثابة «حاجز» .

ولقد اثرت طريقة التقدم الجديدة في الجو وعلى الارض تأثيرا عميقا على مفهوم الهدف العسكري وعلى طريقة اختيار الاهداف في حرب مقبلة . كما زادت من امكانيات تأثير العمل العسكري وفرص استخدامه على الاهداف المدنية الاقتصادية والنفسية . كما ضاعف «مدى» العمل العسكري على الاهداف العسكرية ، لان من الاسهل السيطرة على قوة معادية (كجيش مثلا) بشل بعض اعضائه الحيوية بدلا من تدميره ماديا في مجموعة من المعارك الضارية . والتخلص من المقاومة بشل ارادة المقاومين اكثر اقتصادا من تدمير هذه المقاومة عمليا، ولقد فتحت القوات الجوية آفاقا جديدة امام الذين يرغبون في شل كل مقاومة مسلحة ، كما ضمنت ضرب الاهداف المدنية في قلب بلاد العدو ، والقضاء على مقاومته . وهكذا ادت هذه القدرة الحركية المزدوجة في البر والجو الى زيادة قيمة واهمية الاستراتيجية بالنسبة للتكتيك . واصبح القادة الكبار في المستويات العليا قادرين على الحصول الان بواسطة الحركة على نتائج تفوق نتائج المعركة بصورة اوسع نطاقا مما كان يحدث في الماضي .

التطبيق العملي خلال الحرب العالمية الثانية :

عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية قامت الوحدات البرية الآلية القليلة الحديثة التشكيل ، بكل ما طلب منها من أعمال وحصلت على نتائج حاسمة عندما استخدمت في توجيه ضربات بعيدة المدى ضد اهداف استراتيجية .

وقد كانت ست فرق المانية مدرعة كافية لتحقيق انهيار بولونيا خلال بضعة اسابيع ، كما قررت عشر فرق مدرعة مصير المعارك في فرنسا قبل ان تتدخل قوات المشاة الالمانية في العمل مما ادى الى انهيار كافة البلاد الغربية . وانتهى غزو الغرب في معركة لم تدم اكثر من شهر وتم الحصول على النصر بخسائر قليلة بشكل يدعو الى الاستغراب وكان «سفك الدماء» في المرحلة الاخيرة لا يكاد يذكر اذا ما نظرنا اليه بمقاييس كلوزفيتس .

وقد تم انتزاع النصر بعمليات موجهة ضد الاهداف العسكرية ، ومنفذة على شكل مناورة استراتيجية وليست تكتيكية .

ومن الصعب التفرقة بين النتائج التي تم الحصول عليها بقطع مواصلات الجيوش المعادية وتحطيم جهازها القيادي خلال التوغل العميق عن التأثير الذي

اصاب الروح المعنوية للشعب في الصميم وهز تفكيره الوطني . وهذا التأثير يثبت مدى فعالية العمليات التي توجه ضد الاهداف المدنية .

والسرعة التي تم بها احتلال بلاد البلقان في عام ١٩٤١ تسترعي النظر . فقد اثبتت قدرة الوسائط الحديثة واستخدامها الاستراتيجية على شل قوى العدو. وهكذا فقدت «المعركة» كل قيمها ، واصبحت كلمة «التدمير» تعبيرا غير دقيق لتحديد الشكل الذي يتم به انتزاع النصر من العدو .

عندما بدأ غزو روسيا جرب الالمان طريقة مختلفة قليلا ، وكان كثير من الجنرالات الالمان مستائين لان هتلر يحدد اهدافا اقتصادية اكثر منها عسكرية .

لقد كان لدى هتلر ميل للتفكير في ان الهدف الاقتصادي اثمن من الهدف العسكري . ولكنه خضع في ظروف معركة ١٩٤١ الحرجة لافكار أركان الحرب العامة وخاض معارك عدة لم يترتب عليها الوصول الى نصر نهائي رغم حصوله على انتصارات كبيرة تم خلالها ابادة جيوش روسية ضخمة . ولو انه تابع تركيز الجهود على الاهداف الاقتصادية لحقق نتائج اكثر حسما .

كان الطيران خلال سلسلة الانتصارات الالمانية السريعة يتعاون مع القوات الآلية البرية لشل جيش العدو والشعب الذي يقف وراءه وتحطيم معنوياتهما . وكانت نتائج اعماله رهيبة ، وكانت قيمتها معادلة لقيمة عمل المدرعات . ولا يمكننا ابدا تفريق السلاحين عن بعضهما عند تقدير العوامل التي خلقت الشكل الجديد «الحرب الصاعقة» .

ثم كان تأثير الطيران البريطاني والامريكي بعد ذلك في تحقيق انتصار جيوش الحلفاء البرية والبحرية واضحا جدا . وأصبح غزو القارة الاوروبية ممكنا بفضل الطيران ، لانه أمن سير قوات الغزو نحو النصر . واستطاع الطيران بفضل عمله ضد الاهداف العسكرية (وخاصة المواصلات) شل قدرة الجيوش الالمانية على احباط مناورات جيوش الحلفاء ، مع ان قيادة الطيران لم تظهر تحمسا لمهاجمة هذا النوع من الاهداف بعكس حماسها المتأجج للقيام بعمليات مستقلة ضد الاهداف «المدنية» ، والمراكز الاقتصادية في البلاد المعادية .

وقد أطلقت أركان حرب القوات الجوية على هذا العمل اسم « القصف الاستراتيجي» ولكن هذه التسمية غير دقيقة ، لان مثل هذا الهدف وهذه العملية تشكل جزءا من الاستراتيجية العليا . وكان من الافضل تسميته «القصف الصناعي» لان هذا تعبير يشمل العمل ضد المعنويات وضد الاقتصاد .

ويصعب تقدير مدى اشتراك هذا النوع من القصف في الحصول على النصر، رغم الدراسات المتعددة التي اجريت في هذا الصدد .

ولكن من المحقق تقريبا ان هذا القصف كان اقل تأثيرا من عمليات الطيران ضد الاهداف العسكرية الاستراتيجية ، ولم يبلغ غاياته خلال كافة مراحل الحرب ، ولم يحقق النتائج التي كانت متوقعة منه .

والشيء الواضح جدا هو النتائج السيئة التي ترتبت على هذا القصف وظهرت

بعد انتهاء الحرب . لان التدمير كان على نطاق واسع ، ويتعذر اصلاحه بسرعة وادى الى نتائج خطرة وغير متوقعة على الصعيدين المعنوي والاجتماعي حتى لقد هدد بشكل كبير اسس الحياة المتمدينة التي تعتمد على قواعد حساسة .

وهنا يمكننا ان نلمس الاختلافات الجوهرية بين الاستراتيجية، والاستراتيجية العليا . اذ ان الاستراتيجية تبحث المشاكل التي تعترض الوصول الى النصر العسكري بينما تبحث الاستراتيجية العليا الامور بنظرة أبعد لان غايتها كسب سلم أفضل .

والعمل الجوي ضد هدف مدني يدخل في نطاق الاستراتيجية العليا . ومثل هذا الهدف لا يعتبر ذا قيمة كبيرة ، وان اعتباره هدفا عسكريا امر غير معقول حتى ولو أمكن البرهنة بصفة قاطعة على انه يستطيع ان يقرر النصر في اية حرب.

تعديل جديد للنظرية :

عندما نحاول دراسة نظرية ما من جديد لتعديلها وتأمين توازنها بشكل افضل، فاننا نضطر الى الاستعانة بالدراسات التي تمت في هذا الصدد ، ولقد كتبت عن موضوع «الهدف» بعد الحرب العالمية الاولى مقالات متعددة ثم بدات ادرسه بشكل دقيق في كتاب «باريس أو الحرب المقبلة» الذي ظهر في عام ١٩٢٥ . وهذا الكتاب ينقد فكرة «الهدف» التقليدية التي ترمي الى «تدمير الجيوش الرئيسية المعادية في ميدان المعركة» ، وهو الهدف الذي كان القادة العسكريون يسعون للوصول اليه خلال الحرب العالمية الاولى . وقد اشرت في هذا الكتاب الى ان هذه الطريقة غير حاسمة ، رغم انها تنهك العدو ، ودافعت عن ميزات فكرة «الهدف المعنوي» وأوضحت كيف تستطيع القوات المدرعة القيام بضربة حاسمة على «عقب أخيل» في جيش العدو اي مواصلاته واجهزة قيادته التي تشكل جهازه العصبي . وكيف يستطيع الطيران بالتعاون مع عمل المدرعات الاستراتيجي ضرب الجهاز العصبي للشعب ومراكزه الاقتصادية المدنية الثابتة بغية الوصول الى نتائج حاسمة . ولقد اعتبرت أركان الحرب العامة آنذاك هذا الكتاب مرجعا يدرس .

وفي عام ١٩٢٥ دافعت شخصيا عن وجهة النظر التي تؤيد الهجمات الجوية على الاهداف المدنية ،ولكني اكدت على ضرورة ان يقتصر هذا الهجوم «على احداث اقل تدمير ممكن في أرض العدو ، لان عدو اليوم هو جار الغد وصديق بعد الغد» وكان رأيي حينئذ «ان هجوما جويا حاسما يسبب من الخسائر العامة والاضرار التي تعرقل تقدم البلاد المغلوبة اقل بكثير مما تسببه حرب طويلة الامد لحروب ذلك الوقت» .

ولقد توصلت في خلال دراساتي بعد ذلك الى ان الهجوم الجوي على المراكز الصناعية لا يستطيع تحقيق نتائج حاسمة فورا ، ولكنه يؤدي الى حرب انهاك

ذات شكل جديد يقع فيها عدد اقل من القتلى ، ولكن يحدث تدمير اكبر مما وقع في حرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨ . ولكن عندما بدأ الاهتمام يوجه نحو هذا الموضوع استمرت اركان حرب القوات الجوية في اعتقادها بضرورة تحقيق النصر السريع ، وعندما اجبرتها تجارب الحرب على التفكير في الامر من جديد اقتنعت بفائدة الانهاك الصناعي اقتناعا تاما يعادل اقتناع الاركان العامة خلال الحرب العالمية الاولى بفكرة انهاك القوى البشرية .

ولكن التردد في الاعتراف بمساوىء اختيار المصانع المدنية كهدف لا يعني ضرورة العودة الى فكرة «المعركة» بمعناها القديم . فمساوىء هذا التعبير الذي تبناه كلوزفيتس اصبحت اكيدة خلال الحرب العالمية الاولى . كما اثبتت الحرب العالمية الثانية مزايا وامكانيات العمليات غير المباشرة او الاستراتيجية ضد هدف عسكري . وقد استثمر بعض كبار القادة مثل هذه الاعمال في الماضي بشكل جيد وفعال رغم القيود التي كانت تفرضها عليهم وسائلهم المحدودة ، أما الآن فان استخدام وسائل الحرب الحديثة جعل هذا العمل اكثر فاعلية رغم زيادة قوة المقاومة التكتيكية عند العدو ، لان تبديل اتجاه الصدمة او التهديد يجعل القدرة الحركية الحديثة مرنة بصورة «تجرد العدو من مقاومته» .

وقد حان الوقت لصياغة نظرية الهدف والهدف الاستراتيجي والعسكري من جديد ، واني لأرجو ان تكون قد انبثقت خلال هذه الدراسة خطوط عريضة لنظرية معدلة تتلاءم مع الظروف الحالية ، ومع معلوماتنا . والفكرة الرئيسية هنا هي ادخال تعبير «عملية استراتيجية» بدلا من تعبير «معركة» لان هذا التعبير الاخير قديم وغير مجد ولا يلائم العصر الحاضر . وقد تقع المعارك دائما ولكن يجب عدم اعتبارها هدفا في حد ذاتها وهنا يمكننا ان نردد استنتاجا سبق أن ثبتت صحته خلال الحرب العالمية الثانية وهو : «ليس الهدف الحقيقي هو البحث عن المعركة ، بل البحث عن وضع استراتيجي ملائم ان لم يؤد بنفسه الى النصر خلق ظروفا ملائمة لمعركة تأتي بعده وتنتزع النصر حتما» .

الفهرست

٣٠٠٠/٧٩/٦٣٥

هذا الكتاب

يُعدّ هذا الكتاب التي يُطبع للمرة الثالثة باللغة العربية أهم الكتب التى ألفها الخبير والمحلل العسكري المشهور ليدل هارت ويتضمن الكتاب فى مجموعه تحليلاً للمعارك في التاريخ ، ابتداً من الحروب اليونانية وصولاً إلى الحرب العالمية الثانية ونتائجها ، وذلك على الصعيدين العسكرى والسياسى .

وهو لا يكتفي بسرد الوقائع وشرح المعارك بل يتعدى ذلك إلى استنتاج الدروس المستفادة من هذه المعارك في حقل الاستراتيجية والاستراتيجية العليا .

وكتاب ليدل هارت هذا مكمل للعديد من المؤلفات التي كتبها سابقاً واكّد فيها على أهمية الاستراتيجية غير المباشرة ، المسماة باستراتيجية الهجوم غير المباشر باعتبارها أفضل استراتيجية لانتزاع النصر الحاسم



MADBOULI BOOKSHOP

6 Talat Harb SQ. Tel. : 5756421 ٥٧٥٦٤٢١ ٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت :